

الصافي سعيد

KISS

رواية

الدكتشن
2011

سوتيميديا

ناشرون عرب

الديتش

2011

رواية / roman



الكاتب: الصافي سعيد

الطبعة الأولى: سبتمبر 2016
جميع الحقوق محفوظة للناشر
حقوق المؤلف محفوظة

الناشر والموزع: سوتيميديا للنشر والتوزيع
العنوان: 85 شارع بالفقي - تونس
صندوق بريد: 570 تونس - حشاد
تونس 1049

الهاتف: (+216) 31400756 الجوال: (+216) 97126757
الفاكس: (+216) 32400756
البريد الإلكتروني:
contact@sotumedias.tn

المعرف الدولي للكتاب

978-9938-918-06-9



الطباعة: المغاربية للطباعة وashhaar الكتاب - تونس

نُبيه: يمنع نقل أو إعادة نشر محتوى هذا الكتاب بأية كيفية كانت، إلا بإذن من صاحبه وناشره.

■ الصافي سعيد

الدكتش
2011 ■

رواية

الخلاف: لوحة بعنوان «ماندا رون»
للرسامة والنحاتة والفوتوغراف
الألمانية «غابي بلام» GABY BLAM

■ بريسيكريبيتوم ■

حالمًا انتهيت من كتابة النص، أحسست أنني خرجت من حياة ثم عدت إلى حياة أخرى. شعرت بفراغ يغمرني ويأخذني بقوة إلى ارتباك النهايات.. كنت مستمتعاً بعالم آخر قد صنعته بنفسي وبأشخاص آخرين قد أصبحوا أصدقائي.. عايشتهم برفق ولم أكن لأقسوا عليهم حتى عندما يداهمني الغضب أو النضوب.. أحبتهم جميعاً ولم أكره أحداً منهم. حتى دناءاتهم لم تكن ثقيلة. سكنت في داخلهم وسكنوا بداخلي.. كانوا يذهبون معي إلى كل مكان.. إلى غرفة النوم، إلى المقهى، إلى الحمام.. لا بل أصبحت أشرب معهم القهوة وأتجادل معهم وأفكر في مصيرهم إلى درجة بات من الصعب على طردهم أو تصفيتهم.. قلت ذات مرة لاحدي صديقاتي الواقعيات: «أنا عائد الآن إلى البيت، لأنّي التقى مع شاهي شهبار». سألتني من تكون؟ أجابتها: إحدى بطلات روايتي الجديدة.. لقد أحببتهما.. أنا الذي رسمتها على الورق. والآن أريد أن أتهمها كمن صنع تمثلاً من الحلوى ثم أكله.

هكذا يعيش الروائي. فهو يكتب حياة أخرى، متذبذبة، ذات إيقاعات متتصاعدة ومتواترة، مصنوعة من بؤس العزلة، فتصبح أكثر متعة من الحياة الواقعية، الرتيبة والكتيبة التي نعيشها، والتي لا تتدخل كثيراً في مجراها إلا وهما! وبذلك فهو يصنع من عزلته أقصى درجات متعته ..وها إنني أدعو القراء إلى مشاركتي في هذه المتعة فأقول: أن من حرم نفسه من متعة القراءة، عاش حياة واحدة باسئة.. ومن عاش عزلة الكتابة، عاش حياة مليئة بالملع..!

*** *** ***

أحذر القراء أن يبتعدوا عن الأفكار الجاهزة التي طبعت أغلب الروايات العربية! أحذرهم كذلك بعدم الاعتماد على ما جاء في النص من معلومات أو أرقام أو تحليلات أو نظريات أو تواريف أو أحداث أو أسماء!..

إنه سرد خلاسي بامتياز.. متذبذق، متساب، مربك، مفزع ومتوتر الإيقاعات والانفجارات، بعيد عن المنطق ويرتدى طابع الحكمة أحياناً، لكنه لا يتحلى لا بالكياسة ولا بالإيتickات.. فلا هو واقع ولا هو محض خيال.. إنه حقل لإرباك الخطوات والمواس والذكاء.. سيتدخل الواقع بالخيال مع شخصيات طائرة من بلد إلى بلد.. مندفعة من مغامرة إلى أخرى دون دراية.. مسترسلة في هذيانها حيناً، ومحاولة السيطرة على ضعفها في أحياناً أخرى..

هاهم شاهي شهبار، مصعب الصراف، والشيخ العطار ومراد عباس وكريم كروان بك ويحيى علوان وخوسيه بلانتير ومهى زعفراني وساندرا ومراد شمان وستيفاني نيكولاوس وباشكير آغا

ومرام حسن الخلبية وسمى عبد الصمد وعباس فرشخاي والياهو دانيال في رحلة من غرناطة إلى الموصل مرورا بطنجة وتونس واستانبول حيث تدار خيوط لعبة الشرق الأوسط في بيت «آل أوشاكي»، ذلك البيت الذي سكنته طليقة كمال آتاتورك لطيفة خانم.. ذلك البيت الذي انتقلت ملكيته من كريم إلى مصعب الصراف ثم إلى الشيخ رشدي العطار الذي دشن مرحلة جديدة بإزاحته لصعب الصراف وتصفيته لل الخليفة أبو عمر العدناني! مع أولئك جميما، عاش كذلك إيكو ونيتشه والتقوى لوركا بسلفادور دالي وتجادل طاغور مع اينشتاين، وتناقش ماركس مع نهر وتباري الحسن الثاني مع ميتيران وشرب الجميع نخب هذا العصر الكثيب أو هذا الربيع الكاذب دون أن ينتبه أحد إلى أن مرام الحرة، مرام الخلبية، مرام اليزيدية تلك البعثة البيضاء! قد خرجت من الرواية.

*** *** ***

وهاهي مرام قد خرجت من الرواية لتكميل حكايتها بنفسها وهي تدافع عن حقها الذي لم يقدرها لا الكاتب، ولا شخص الرواية.. ولا حتى القراء.

قالت مرام: قرأت الرواية.. ولا شك أنكم قرأتم ما قرأت.. ثمة أشياء لم يذكرها الكاتب لأنه لم يكن يعرف كل شيء.. وأظن أنه كان لا يعرف كيف يقترب مني.. الآخرون أيضا لا يعرفونعني إلا أشياء صغيرة .. ستيفاني اقتربت مني جيدا في استانبول والموصل لكنها لم تعرف كيف تقودني إلى قول الحقيقة. مراد شمان اكتفى بنصفي الآخر.. فؤاد عبدي لم يكن على اطلاع

البطة بالخطة (البجعة والوحش).. باشكير آغا، كان يعرف تفاصيل
كثيرة لكنه كان متمسكا بالواجب وكاتما للسر. وعلى أيه حال، فإن
الأبطال الحقيقيين دائماً مجاهلون ويحتاجون إلى رواية أخرى! وأنا
واحدة من أولئك الأبطال!. أقول لكم أيضاً: إذا طار البالون في
الهواء، فلا يعني أنه يتمتع بالحرية!.

● قال رجل لبيكاسو:

«يبدو أنك لا تحسن الرسم سوى هذه الخطوط والألوان المتداخلة» فتناول بيكاسو ريشة وراح يرسم حبة قمح على الأرضية.. وكانت حقيقة إلى درجة أن أحد الديكة تقدم محاولا التقاطها، عندها انبهر الرجل وقال لبيكاسو: «لماذا إذن تصر على هذه الرسوم الغريبة وأنت تحسن الرسم بهذه الطريقة الرائعة؟» فأجابه بيكاسو ساخرا وبهدوء: «في الحقيقة أنا لا أرسم للدجاج!!

*** *** ***

● الكيتش هو أن تكون نفاية دون أن ترى نفسك نفاية إلا حين يبدأ عمال التنظيفات في جمع النفايات!.

■ الفصل الأول ■

«نحن حيوانات بوضع عمودي»، يقول لنا، أمبرتو إيكو متهم كما بعيون ثاقبة. لذا يصعب علينا أن نعيش أو نرى رؤوسنا تتارجح في الأسفل. لهذا أيضاً أوصى أمل دنقل بأن يدفونه واقفاً. قال: احفروا قبري عميقاً واغرسوني في التراب كشجرة، ولا تدفنوني ممدداً تحت التراب...

إذن نحن حيوانات واقفة عمودياً.. نشبه المسلطات والصوماع والأبراج والنخيل، ولا نشبه القطارات أو السيارات التي تزحف زحفاً.. اكتسبنا أفكاراً عن الاتجاهات. هذا يمين.. وهذا يسار.. وهذا فوق وذلك تحت.. عرفنا المشي والنوم والقفز والزحف والسباحة والرقص ثم امتلكنا حواس التذكر والشم واللمس والرغبة والخوف والألم ثم عبرنا عنها بأصوات متعددة ولغات متعددة وأحاسيس متداخلة. كنا مهيئين منذ البدء للصدام والخلاف والاختلاف وحق للقتل والابتذال. كلما عرفنا أكثر، توغلنا أكثر في الصدام والانفصال والتمرد. قادتنا المعرفة إلى المحرقة في أكثر من بلد عبر أكثر من دين.. ولم يكن الله في عون أحد حين أراد كل واحد أن يستحوذ على الآخر.. وعبر حقب طويلة ومذاياخ فظيعة قمنا بجمع خلاصات للألام البشرية.. ومع ذلك فإن لا أبيقور الإغريقي ولا مهدي عبد الرزاق العراقي، استطاعاً أن يتخطيا الآلة أو الموت أو يتخلصاً من المعاناة والرذيلة أو يحققوا النصر والسعادة!.

بعدما توقف ذلك الشريط في ذهن مهدي عبد الرزاق، طرح على نفسه سؤالاً عويضاً وهو يتأهب لصلاة الجمعة. قال بصوت أبكم: قبل أكثر من ثلاثين عاماً، كنت أقبل عشرات الطالبات في جامعة الموصل. كن مسلمات ومسحيات ويزيديات وتركمانيات وكرديات. وكانوا رفافي يسمونني «دون جوان جامعة نينوى».. والآن لا أتجبراً حتى على ملامسة أيديهن.. حتى المصافحة باليد بين رجل وامرأة أصبحت ممنوعة.. ما الذي حصل؟ .. هل أنا الذي تغير وعاد إلى جحره الأول؟ هل العراقيون حزانى ومتخلفون إلى هذا الحد؟. هل الأمريكان هم الذين جعلونا هكذا؟.. رجال يلفهم الحزن والعنف والترصد. ونساء يلفهن السواد والخوف!!..

كنت أنتمي إلى كلية الهندسة. لم أكن بعثياً ولكنني كنت أتظاهر بأنني بعثي يحب الحزب القائد وكذلك القائد المهيـب.. جرس العراق كان يوقظ بداخلي أحاسيس تمتد من بابل المجيدة إلى بغداد العريقة.. أحياناً كان نبود نصر يتساوى عندي في عظمته وبطشه مع صدام حسين.. كنت أتجاهل عصر المغول والسلاجقة كمن لا يريد أن يتذكر العار الذي ألم بآمه أو بأبيه ذات مرة.. والآن ها نحن نريد أن نطمس كل علامة على عبقريتنا التاريخية.. أنا نفسي أصبحت على قناعة بأن نبدأ من جديد، ولكن في كل خطوة أقول: ما هو الجديد الذي يمكن أن نبدأ به.. فكل شيء قد حدث في العراق من العبرية إلى الضمور، ومن المجد إلى الانحطاط ومن القوة إلى الرذالة والنذالة.. لا شيء يبدو لي جديداً غير تهديم ما تبقى شاهداً على تاريخ عظمتنا.. والمفارقة: فلكي نبني عظمة جديدة علينا أنا نمحو كل عظمة أخرى!..

حين كنا نبحث عن تسمية لدولتنا، اقترح عليّ «باشكير آغا»، الملقب بأبي عبد الله الكبير، اسم «دولة ما بين النهرين الإسلامية». ذكرني اقتراحه بدولة ما بين النهرين القديمة. وبتلك التسمية الإغريقية «الميسوبوتاميا» Mesopotamia. رفضنا جميعاً تلك التسمية رغم جدارتها التاريخية لأننا سنبدو كما لو أننا قادمون من بعيد.. من الموت.. وقلت لأبي عبد الله: «ثمة شعلة تتقد في قلوب المسلمين قاطبة، هي شعلة إحياء الإسلام.. المسلمين يريدون دولتهم الشاسعة.. ونحن سنبني لهم حصناً للانطلاق والانتشار»..

كنت قد أحضرت تخطيطاً جغرافياً لأعرضه على المجتمعين. وقد احتوى على مثلث مقلوب يتوسط بلاد العراق والشام. ويمتد من حلب حتى صحراء الأنبار وهو يضم الموصل والرقة ودير الزور وتدمير.. ثم شرحت لهم قائلاً:

- انظروا، هذا سهل شاسع جداً.. مساحته تتجاوز بريطانياً العظمى. أرض خصبة ذات حرارة وطاقة ومياه وزراعة وفييرة وكذلك فيضانات مفاجئة. إذ حفرنا عدة أمتار نعثر على الماء إذا لم يغمرنا الغاز والنفط.. في هذا السهل أقيمت مدن عظيمة في الماضي صممت بشوارع طويلة ومستقيمة وبيوت مرتفعة وقصور ومعابد. ستكتشفون بقايا كثيرة من مدينة بابل التي كانت أبهى وأعظم المدن.. مدينة التجارة العالمية التي كانت ملتقى لبضائع الشرق والغرب.. وإذا وضعنا أنفسنا سادة على أرض بابل وكذلك أرض نينوى ثم أرض حلب وتدمير، فإننا سنضع أنفسنا في قلب التاريخ من جديد.. هاهي الرقة عاصمة هارون الرشيد الثانية

تستكين إليكم.. وعلى بعد عشرات الكيلومترات من الفالوجة، تسترق بغداد عاصمة الرشيد الأولى، السمع إليكم لكي تتحروا خطاكـم إليـها.. لن نطيل النقاش حول تسمية دولتنا وأدعوكـم بقبول ومبـايعة الدولة الإسلامية للعراق والشـام.. وأعدـكم بأن هذه الدولة ستـصبح أكثر شهرة من نيويورك في أقل من سـنة.. إن جميع المسلمين يـنتظرون قرارـكم لمباركتـكم ومبـايعـتكم..

أعدـت ذلك جـيدا وبـلغـة مـضـخـمة عند صـلاة الجمعة فأـحسـست بأنـ المـجـد قد هـزـ أـركـانـ المسـجـدـ الـذـي رـاحـ يـرـقـصـ طـربـا.. اـمـتـلـأـتـ رـدـهـاتـ المسـجـدـ بـالـدـعـاءـ وـالـتـكـبـيرـ وـاقـتـرـبـ منـ المـنـبـرـ مـصـلـوـنـ كـثـيـرـونـ يـرـيـدـونـ تـحـيـيـ وـمـلـامـسـةـ أـطـرافـ جـبـيـ للـتـبـرـكـ،ـ لـكـنـ الحـرسـ أـبـعـدـوـهـمـ،ـ وـصـرـخـتـ فـيـ الـحرـاسـ:

- اـبـتـعـدـوا..ـ اـتـرـكـوـهـمـ يـسـلـمـوـنـ عـلـيـ..ـ لـكـنـ الـحرـاسـ لـمـ يـفـعـلـوـاـ ماـ أـمـرـتـهـمـ بـهـ..ـ فـقـدـ فـهـمـوـاـ نـبـرـتـيـ وـتـصـرـفـوـاـ كـمـاـ لـمـ أـقـلـ شـيـئـا..ـ وـحـينـ هـدـأـتـ الـأـصـوـاتـ وـقـدـ هـدـهـاـ التـعـبـ مـنـ شـدـةـ الـصـرـاخـ،ـ هـمـسـتـ فـيـ أـذـنـ أـحـدـ حـرـاسـيـ الـقـرـيبـيـنـ جـداـ قـائـلاـ لـهـ:

- اـحـضـرـ لـيـ ذـلـكـ الرـجـلـ الـذـيـ يـقـفـ عـنـ الـطـرـفـ الـأـيـسـرـ فـيـ الصـفـ الـرـابـعـ وـالـذـيـ يـرـتـدـيـ عـبـاءـ صـفـرـاءـ مـقـلـمـةـ بـالـأـيـضـ..ـ

ـ حـينـ أـصـبـحـ الرـجـلـ أـمـامـيـ بـادـرـتـهـ سـائـلاـ:

ـ ماـ اـسـمـكـ أـخـيـ الـكـرـيمـ..ـ

ـ قـالـ بـسـرـعـةـ وـكـأـنـهـ يـنـتـظـرـ سـؤـالـيـ مـنـذـ بـرـهـةـ:

- عـبـدـ الرـزـاقـ..ـ عـبـدـ الرـزـاقـ يـحـيـ..ـ كـنـتـ زـمـيلـكـ فـيـ جـامـعـةـ

الموصل.. لست من أقاربك وإن كنا نتشابه في الأسماء.. ولكن
كنا زملاء دراسة..

وسأله بلهجة محببة:

- شاكو ماكو يا عبد الرزاق. هذا يوم عظيم أن نلتقي في هذه
الجمعة المباركة!

ثم قلت له بلهجة حازمة أو تقترب من الحزم:

- أنت الوحيد يا عبد الرزاق الذي لم أرك متৎمسا للخطبة..
كنت صامتا طوال الوقت.. هل لديك ما تفيديني به من اعترافات؟؟

حين استعد عبد الرزاق للإجابة ورأيته قد سحب شجاعته من
الدرج الذي يخبيء فيه عادة الرجال خوفهم ودناءاتهم وحقائقهم
وشجاعتهم، تذكرت نقاشات عبد الرزاق البيزنطية في الجامعة
التي كان يطلق عليها كلمة ديالكتيك لكي يبدو متحالفا مع العلم
وال تاريخ.. ثم تذكرت خلافي معه حول مقوله القائله الضرورة.
وهكذا بادرته بسؤال مهم:

- ألا ترى أن الضرورة تفرض علينا قوانينها الأكثر ثقلا، حين
نتمادي في الاستخفاف بها؟

لم يتلעם عبد الرزاق. كعادته كان محسوا بعبارات قوية وحجج
كثيرة، فتكلم كما لو أنه كان يقرأ من كتاب التاريخ..

- لا أريد أن أتحدث عن برج بابل.. نحن العراقيون مولعون
بال بدايات الكبرى.. نذرنا أنفسنا للحريق منذ البدء.. لا زلنا
ذاهبون إلى الأمل ونحن نرتدي بدلات متفجرة.. بني العراقيون

برج بابل لكي يصلوا إلى السماء فعاقبهم الرب لغورهم.. جعلهم يتكلمون لغات عدة فاختلفوا وضاع الحوار وكثير عدم الفهم وعم القتال ثم تناثر برجهم إلى كومات من الطابوق الأحمر.. أني أراهم لا زالوا يبنون الأبراج للتقرب إلى الله ولكن الله لا يريدهم أن يقتربوا من الشمس.. جاءهم إبراهيم من بلاد بعيدة لكي ينقذهم من الغرور. كان نبيا عظيما جاماً للكلام والصحف البشرية. عاش في زمن واحد مع حمورابي العظيم الذي أراد أن يصهرهم في قانون عادل وصارم، ولكنهما رحلا دون جدوى كبيرة.. ولا شك أن قصة نوح والطوفان قد كشفت لنا بأن لا جدوى من هذه الأرض!!..

تمادي عبد الرزاق في شؤمه حتى أصابني بالوهن فقاطعته قائلاً:
 - حذاري يا عبد الرزاق.. إنك تتكلم إلى خليفة الله، أمير المؤمنين..
 ثم وضع يدي على كتفه الأيمن وقلت دون أن يسمعني أحد:
 - ومع ذلك سوف لن تتركني لوحدي.. أعرف أنك لن تفعل شيئاً يليق بعمرك وثقافتك بدولي.. أنا واثق يا عبد الرزاق أنك بذرة عراقية تريد أن تنمو وسط هذه الصحراء..

قلت له أيضاً قبل أن أذهب:

- نحن أناس بسطاء، نريد أن نحيا.. لا نريد أن نكرر المأساة.
 لسنا يهودا لكي يعاقبنا الله بسبب خطايانا.. (كنت متأكداً أنه سيرد علي بأن العراقيين علموا اليهود العصيان والخطايا.. وهم ليسوا إلا نتاج ثقافة عراقية قديمة) ولكني وعدته بأن نلتقي مرة أخرى ونتحدث في مواضع كثيرة..

لست أدرى الآن المدة التي استغرقت حديثنا، غير أن الألسن تناقلت ما مقداره ساعة.. وهذا لم يحصل البة. فالمدة لم تتجاوز العشر دقائق.. وأظنها أقل.. أزعجتني تلك المبالغات والمغالطات لحين ثم رأيتها ضرورة لإشعاع صورة القائد الصبور والمتفتح والمحاور واللطيف!.. التي أشاعها الناس والفايسبوك..

*** *** ***

دخل هارون الرشيد إلى مقصورته المفضلة في قصر الرقة ذات مساء متعباً ومتخماً بأحاديث الأئمة والساسة والقادة العسكريين.. أحس بوعكة سببها أنه أكل بطيخاً كثيراً في أحد الحقول، حيث توجد إسطبلات الخيول ومقرات للاجتماع وكذلك ساحات فسيحة للتدريب. أمر بإحضار إحدى محضياته التي كانت تسمى «زينب الحرّة».. ثم انهمك في مسامراته عسى أن تخف وعكته.. ولكن القادة الكبار عادة ما يموتون بأتفه الأسباب.. تطورت تلك الوعكة حتى باتت حمى قرمزية.. ومات هارون الرشيد في القاعة التي يجلس فيها حالياً السيد مهدي عبد الرزاق.. هذا الذي سيصبح خليفة المسلمين في القرن الواحد والعشرين..

بعد نحو 13 قرناً جلست مرام حسن أو مرام الحلبي ربما في المكان نفسه الذي جلست فيه «زينب الحرّة». كان مهدي عبد الرزاق عائداً لتوه من جولة على معسكرات رجاله، ولكنه لم يكن، بل لم يصبح بعد في مقام وصولجان هارون الرشيد.. كان فقط يتقن فن الإصغاء لمن تداعب قلبه بأهازيج وأغاني بعد يوم شاق وطويل.

مثل هارون الرشيد. وإذا يميل الناس غالباً إلى تكوين فكرة عن القائد السياسي أو العسكري مفادها أنه متوجه وجدي وحذر في علاقاته بأصدقائه، فإن ذلك كله يعود إلى حب الناس لقائدهم للاحتماء به.. تلك العلاقة يمكن أن يوصفها أي شاعر بعلاقات الأبوة المجازية، ولكن بما أنها مجازية، فهي ليست دقيقة أو صحيحة أو حتى منطقية.. فالمنطق هو أحياناً ما لا نتوقعه يصدر عن رجل مثل مهدي عبد الرزاق. ذلك الرجل الذي يتهدأ لإشعال الشرق الأوسط من غليونه العثماني..

جلست مرام على ركبتيها لتأديي التحية إلى سيدها مهدي عبد الرزاق.. وإذا صدقنا حكايتها.. فقد فعلت ذلك تلطفاً لا أمراً.. ثم ساعدتها على الوقوف وأمرها بالجلوس على أريكة قرب أريكته.. كان ينفح في أرجيلته بشهية تمساح وكانت بقبiqات الماء يمكن سماعها على مدى كل الغرف المجاورة وكذلك في الساحة التي تفتح عليها مقصورته. أما الدخان فكان يملأ فضاء المقصورة ويزيد فيتكوم ثم يتسلط على الأرائك مستسلماً لجاذبية الصوف والحرير.. وكان يدهشني صمته إلى درجة أنني تمنيت لو يظل صامتاً.. ثم رأيته قد أخرج الصنبور من فمه متوقفاً عن السحب، وأشار به علىّ بأن أقترب منه أكثر ثم قال بتراخي دون أن يفقد الصواب. (وأظنه قد استفاد من تهجي عيوني لكي يبادرني بكل ما تمناه كل امرأة تكون في حضرة أمير أو رجل يعد نفسه بالإمارة..)

- كم مرة اختلينا في هذه المقصورة يا مرام؟..

قلت له بتغنج:

- لنقل أكثر من ثلاثة مرات..

تنهد ثم قال:

- لا شك أنهم ينسجون قصصاً عجيبة عن لقاءاتنا.. بإمكان المرء أن لا يفعل شيئاً يغضب الله إذا اختلى بأمرأة.. ولكن الناس يجعلونه يفعل ما يغضب الله، لأنهم يعتقدون أنه يفعل حتى لو لم يفعل.. إذا دخلت فكرة إلى أفئدتهم أو أدمغة الناس، فمن الصعب اقتلاعها..

هكذا أيضاً كان هارون الرشيد في ذهن العامة.. بل حتى في ذهن وزرائه.. شيوخ فكرة ما حتى لو كانت خاطئة عن شخص ما، هي الصورة الوحيدة التي تخزنها ذاكرة الناس ثم يحتفظ بها التاريخ.. فلو أن المؤرخين لم ينصتوا إلى العامة، وكانت عقول الناس أكثر خفة ونظارة وشفافية.. وبما أن المسألة حساسة جداً، فقد كان على كل من مهدي عبد الرزاق ومرام الحلبي أن يرسما سبيلاً ثالثاً يقع بين الدمامنة والخذر أو بين الإعجاب والتحفظ..

قال مهدي عبد الرزاق وهو يمسك بخيط الحديث الذي كاد يضيع منه:

- لقد استقر عزمي على أن تكوني على رأس كلية البناء التي نعتزم فتحها قريباً..

وأصرت مرام في الحين على التكلم بنفس العبارات وبنفس الإيقاع:

- أنا أيضاً استقر عزمي على أن أكون من جندك.. هذه بهجة لا

تضاهيها بهجة..

- سوف أطلق عليك لقب «مرام الحرة»، كما كان يفعل قادتنا
الخالدون في بغداد أو في الأندلس.

وسألت مرام ببراءة ساذجة:

- ما الذي كانوا يفعلونه؟..

بالتأكيد لم تكن مرام تعرف ما الذي يقصده مهدي عبد
الرzaق، على نحو الدقة، ولكنها كانت على قناعة أن النساء إذا
وجدن من يبعث في أوصاهم نبضات الحرية، فإنهن يصبحن
قائدات سياسيات من النوع الأشد حزما وباسا. وبما أن المرأة
الحرة في قاموس الحرير تعني المرأة التي تصبح زوجة شرعية وتخرج
من بيت الحرير إلى بيت الزوجية، فقد احتلط عليها الأمر إلى أن
سمعت مهدي عبد الرزاق يقول لها:

- هل تعرفين لماذا اخترت لك لقب مرام الحرة؟

- أريد أن أعرف لأن ما أعرفه لا يرقى إلى اليقين..

- لأنك تشبهين عائشة الحرة يا مرام..

- ومن تكون هذه السيدة؟

- عائشة الحرة هي أم عبد الله الصغير.. كانت من الشخصيات
النبيلة والساحرة في تاريخنا.. لم يذكرها المؤرخون العرب إلا كأم
لآخر ملوك غرناطة، بينما هي إحدى السيدات اللاتي أبلين في
دحر العدو الإسباني.. لقد عملت على نقل السلطة من زوجها
الشيخ المسن والمترهل إلى ابنها محمد أبو عبد الله الذي كان لا

يزال شاباً. وقد فعلت ذلك بخبرة ودهاء. وتمكنـت من تأخير سقوط غرناطة لبضعة سنوات. كان ابنها يعود إليها شاكـياً من ساحة القـتال، لكنـها لم تـيأسـ. قـالت له ذات مرـة: «إذا تـكسرـ سيفـكـ، تـقدمـ خطـوةـ نحوـ عـدوـكـ فـسوفـ يـطـولـ سـيفـكـ ذـراـعاـ».. في نهاية المطاف رأـتهـ يـبـكيـ فـصرـختـ فيهـ: «لاـ تـبـكـ كـالـنـسـاءـ عـلـىـ مـلـكـ لمـ تـعـرـفـ كـيـفـ تـحـفـظـهـ كـالـرـجـالـ»..

كان زوجـهاـ المسـنـ عـلـيـ أبيـ الحـسـنـ قدـ وـقـعـ فيـ غـرـامـ محـضـيةـ إـسـبـانـيـةـ تـدـعـيـ إـيـزـابـيلـاـ. تـرـكـتـهـ مـعـهـاـ فيـ قـصـرـ الـحـمـراءـ ثـمـ دـبـرـتـ انـقلـابـاـ دقـيقـاـ حـمـلـ اـبـنـهـ أـبـوـ عـبـدـ اللـهـ إـلـىـ الـحـكـمـ. فـيـ الـحـقـيقـةـ رـبـماـ كـانـتـ مـعـرـكـةـ بـيـنـ عـائـشـةـ الـعـرـبـيـةـ الـحـرـةـ وـإـيـزـابـيلـاـ إـسـبـانـيـةـ الـمـحـضـيـةـ.. وـبـمـاـ أـنـ المـعـرـكـةـ تـحـمـلـ فـيـ أـحـشـائـهـ مـخـاطـرـ عـلـىـ الـحـكـمـ وـالـسـلـطـةـ. فـقـدـ قـرـرـتـ عـائـشـةـ إـقـالـةـ زـوـجـهـاـ الـخـائـنـ وـإـعـطـاءـ الـحـكـمـ لـابـنـهـ لـطـمـانـةـ الـأـنـدـلـسـيـينـ الـذـيـنـ بـاتـواـ قـلـقـيـنـ عـلـىـ مـصـيـرـهـمـ.

لوـ أـنـ مـهـديـ عـبـدـ الرـزـاقـ لـمـ يـكـنـ صـادـقاـ فـيـمـاـ كـانـ يـقـولـهـ لـيـلـتـهـ لـمـرـامـ لـتـوقـفـ عـنـ الـكـلـامـ آـنـذـاكـ، أـيـ حـينـ طـرـقـ الـغـلامـ «ـجـهـشـانـ» بـابـ الـمـقـصـورـةـ.. أـوـمـأـ إـلـيـهـ بـالـاـنـصـرـافـ ثـمـ عـاـوـدـ يـتـكـلمـ:

- كانت عائشة تسكن الجناح الذي يضم ساحة السياح والملقبة بـبـهـوـ الصـباـ، ثـمـ اـخـتـفـتـ ذاتـ لـيـلـةـ لـتـظـهـرـ وـهـيـ تـقـودـ الـهـجـمـاتـ عـلـىـ الـقـصـرـ كـلـهـ حـتـىـ هـرـبـ أـبـيـ الـحـسـنـ تـارـكـاـ الـعـرـشـ لـابـنـهـ أـبـيـ عـبـدـ اللـهـ.. أـنـاـ آـنـ لـنـ أـكـمـلـ لـكـ الـقـصـةـ.. وـلـكـنـ أـرـيدـ فـقـطـ أـنـ أـقـولـ لـكـ يـاـ مـرـامـ:

- مـغـامـرـةـ عـائـشـةـ قـذـفـتـ بـنـسـاءـ أـخـريـاتـ إـلـىـ عـالـمـ الـقـيـادـةـ

والسياسة.. أنا لن أقذف بك. لكن يمكن أن تقذفي بنفسك..
ولفهم الموقف جيدا في تلك الليلة.. كان لا بد أن نعود إلى قصة حياة مرام حسن الخلبية التي أصبحت تعرف «بمراة الحرثة»..

*** *** ***

لو لم أدرس الموسيقى لمدة عامين بالمعهد الموسيقي بحلب، ما كنت لأتعلم الغناء على أصوله. ليس هنا تبجح أمام فنانات عربيات ملأن مطاعم وملاهي إسطنبول بالصراخ والرداة. ولا هو تلفيق من أجل الحصول على حظوة ما لدى الجمهور.. أو لدى لجنة خليجية لنيل الجوائز. كانت الموسيقى تحيط بي من كل جانب.. في العائلة حيث كانت أمي تعزف العود وتردد بعض أغاني إسمها.. وكان الحي الذي أسكن فيه، حي الراشدين توجد به أكثر من فرقة للقدود الخلبية.. أخي الأوسط سفيان كان راقص باليه. عاد من موسكو وهو يفكر في فتح مدرسة للباليه، لكن الحرب أرجعته إلى حيث كان. أخي الأكبر عدنان، كان ضابطا في الجيش في قسم المخابرات الجوية، قطع الاتصالات بنا تماما. بل لم نعد ندري ما إذا انشق عن الجيش أو لا يزال ضابطا أو توفي في إحدى الجبهات.. ولأن الوضع لم يعد يحتمل في مدينة راحت تتشقق تحت عيون أهاليها، فقد عزمت على السفر إلى إسطنبول. (عندما جئت إلى الحياة بعد ولدين ذكرى، كاد أبي أن يجن من الفرح.. أطلق علي اسم مرام تيمنا باسم فنانة قديمة كان يعشقها حسب رواية أبي المغرضة، لكنه كان يناديني دائما باسم «دلفين»).. كنت أشبه الدلفين حين كنت صبية، ثم استوى عودي واكتسب رشاقة نادرة

في عائلة أبي وأبي.. أحياناً كانت أمي تناديني بالبجعة، ثم أضافت عملي إليها نعنا فأصبحت أعرف بالبجعة الوردية)..

حين وصلت إلى إسطنبول عاد لقب «البجعة الوردية» ليسيطر على كياني.. حين أتجول قرب البوفسور أرى نفسي قد تحولت إلى بجعة حقيقة، حتى أنه كثيراً ما تراودني فكرة مجنونة كأن أنزع ثيابي لأصبح بجعة حقيقة. كان الماء يدفعني إلى ارتكاب تلك الحماقة.. وكنت أرى في ذلك عرياناً مباحاً بالنسبة لأمرأة مثلي ذات بياض ناصع شبيهة بالثلوج.. البجعات يتراقصن حول المياه باحثات عن الانبعاث أي عن الوجود الحر. هن شبّهات لنساء مستحمات داخل الحلم باحثات عن دفء (الشواطئ أو الأنهر لها وظيفة جنسية حسب باشلار، فهي استحضار للأنثى حول ضفاف الماء الناصع، البريء المختلط بالروائح والغبطة والرغبة). هذا الشعور لم تكن تدركه مراراً لكنها كانت تعرف كيف تعبّر عنه بحركاتها ومشيتها وغنجهما رغم ذهنها المشتت.

كان شمان مراد، وهو رجل أربعيني يعمل كنادل رئيسي في مقهى ومطعم «شاكاناو» قد بدأ ينصب شباكه لهذه البجعة الوردية.. لقد لمحها وهي تقترب من البجعات القريبات من مقهاه لمدة ثلاثة أيام متتالية.. وفي نفس التوقيت تقريراً.. قبل أن ينتصف النهار.. ثم رآها مرة أخرى قبل أن يأتي المساء بقليل.. وفي هذه المرة اقتربت من مربعه الخاص المسؤول عنه، فدعاهما للجلوس كما يفعل عادة مع جميع السياح.. تكلم معها بالتركية في البداية ثم أدرك بسرعة أنها لا تفهم لغته، ثم خاطبها بإإنكليزية متواضعة، فلم تدرك جيداً ما كان يقوله.. بعد ذلك أطلق حوالها وابلا من الترحيب

باللغة العربية ذات الل肯ة الكردية.. ولأن الماء يحررنا من الإرادة المكبلة ويدخلنا إلى عوالم الحس، فقد دخلت إلى المقهي وأنا أنشر عيوني بجميع الاتجاهات بحثاً عن مكان مناسب، مشمس ومحاذي للماء (لم يعد للشمس أكثر من ساعتين لكي تودعنا).. قادني شمان مراد (الذي سيقودني فيما بعد إلى أماكن أخرى وعوالم أخرى) إلى زاوية قريبة من الماء وبعد أن هيأ الطاولة وأبعدها عن طاولات أخرى لكي تصبح بين مظلتيين شمسيتين تحسباً لمطر قد يأتي فجأة، ناولني الكارت، ثم اقترح عليّ ما إذا كنت أرغب في نارجيلة.. غرست عيوني في الكارت فلم أفهم شيئاً تقريباً لأنها مكتوبة باللغة التركية.. وبعد حين اكتفيت بقنينة ماء وكابوتشنينو..

في إسطنبول، في بلاد المياه الساحرة.. كل شيء يتترجس. وكل شيء يصبح ساحراً ومحوراً.. رأيت عالمي الجديد والذي لا زال غامضاً وضبابياً في ذلك المساء بعيون ساحرة وجميلة. بعيون نرجس المستغرق في ذاته، المشبع بذاته، الذي يفكر دائماً في صورته العظيمة.. كائن مرتبط أشد الارتباط بالماء.. وهذا هو يسافر من مدينة إلى أخرى ومن جزيرة إلى أخرى بحثاً عن ينبوع يرى فيه صورته معكوسة في صورة الحب.. وأنذاك سيقول نرجس لنفسه: «أنا أحب نفسي كما يحبها من يحبني.. لا لم أعد أحب نفسي كما أنا»..

بدأ شمان يقترب مني من حين إلى آخر ليقدم خدماته وضحاكته. عرفت بحسي الأنثوي أنه نحل ذكر (يعسوب حاماً يقتنص فرصته، يختفي من الوجود)، تبادلنا بعض الكلمات الخفيفة والمدعمة بالإعجاب المتبادل.. كانت البحجعات تتحرken في جميع

الاتجاهات. راقبتهن بشغف فعرفت أنهن يرقصن على إيقاع ما تحدّثه أجنبتهن من دوائر وإيقاعات على سطح الماء.. سألت شمان دون أن أفكّر جيداً في السؤال فقلت له:

- أعتقد أنهن يرقصن فرحاً بالمساء..

قال شمان بسرعة إذ كان ينتظر أن أفتح عليه:

- إنّهن يودّعن النهار والشمس.. لسن حزينات، ولكنّهن يبحثن عن الدفء لأنّ الشمس أوشكت على الرحيل..

أعجبني جوابه اللطيف والمحمل بطيف من الرغبات المكبوتة. وضع يده على طرف طاولتي، فبدأ متكتئاً على عضلة ذراعه المفتولة (أعتقد أنه كان يريد أن يكشف عن مفاتنه) ثم أشار بيده الأخرى:

- أنظري.. إلى تلك البعثة التي تسبع على اليسار لوحدها.. تلك أكثر قلقاً.. لكنها أكثر نضجاً من جميع أفراد السرب.. إنّها القائد الذي يقف في المقدمة استشعراً بالخطر.. والآن حان الوقت لكي ترینها تنضم إلى السرب بعد أن يحل الظلام..

كنت أتابع حركاته بشغف وأستمع إلى تفسيره بالنجذاب (هذا أقل ما يجب أن أقوله الآن، وإنّي سأبدو فاسقة في نظر بعض صديقائي في حي الراشدين بحلب). بعد حين اقترب من البركة الملائقة إلى البحر، ورأيته يحرك الماء بيديه وكأنّه يدعو البعثات إلى عشاء باذخ!.. بدت لي اليد المداعبة للماء بتلك الخفة والنعومة، كما لو أنها يد خيالية رغم كونها حقيقة، تسري من تحت الماء نحو يد أخرى باحثة عن المداعبة.. تلك الصورة المنبعثة

من طاقة الاشتهاء جعلتني مرحة ومرهفة وجعلت أناي التعبة أكثر تعلقا بالرجاء. آنذاك عرفت أيضا أن العرافات المستغلات على سطح الماء بدل الرمل ربما أكثر شطاره لأنهن جنيات خرجن من البحر ولسن بدويات تائئهات فوق بحر من الرمال مثل عرافاتنا في بادية الشام !!

عاد شمان نحو طاولتي كاشفا عن ابتسامة عريضة. شكرته لأنه اهتم بي أكثر من اهتمامه ببقية الزبائن (الحقيقة لم يكن مجلس في مربعه إلا عجوزين، رجل وامرأة كانوا ينشطان من طاقة الحب لديهما فيما أعتقد).. وحين رأني أستعد للمغادرة، دس لي بطاقته الشخصية مع الفاتورة. عرفت فيما بعد أنه (شمان مراد، رياضي سابق. ونادل - درجة أولى. كما يثبت رقمه وطابع وزارة السياحة في تركيا).. لاحظت وأنا أدخل إلى الشقة التي أسكن فيها منذ نحو شهرين في حي أو «مدينة نيو سراييفو» بضواحي إسطنبول الأكثر جمالا وروعة، أن شمان لم يسألني لا عن اسمي ولا عن بلدي. ولم يخسر نفسه في تلك الأسئلة الصغيرة والمقلقة. فكما لو أنه مختص في الغرباء الذين غالبا ما يحتاجون إلى التخفي ويبعدون عن الإلزام، فقد جعلني مرحة بأشياء صغيرة، لكنها غاية في الغواية.. فكرت أن يكون شمان واثقا من نفسه. كما فكرت في كونه ربما رجل محترف يتقن فن الغواية بحيث يجعلك أكثر شغفا كلما بدا لك غامضا. (ولكن لماذا دس بطاقته الشخصية؟ وماذا لو أني تركتها داخل صندوق الفاتورة؟ في الحقيقة راودتني تلك الفكرة ولكنني لم أحب أن أظهر له كإمرأة لثيمة أو متعلالية).. توقفت عن التفكير في شمان حين هاتفتني شاهي شهبار التي

تسكن في العمارة المقابلة لعماري.. فكما لو أنها كانت تراقبني من بلكرنها، فحالما شاع الضوء في شقتي حتى رن الهاتف:

- هاي مرام.. أكيد وصلت الآن..

- هاي شاهي.. كان نهاراً جميلاً..

عيّات رئتي بنفس جديد.. ثم قلت لها:

- كان يجب أن ننتظر المساء حتى نعرف ما إذا كان النهار جميلاً..

انتظرت شاهي قليلاً، عسى أن أحكي لها ما حدث معي أثناء النهار.. وحيث جف صبرها قالت لي بدلع:

- لا تقولي لي أن الغرام قد غمرك فجأة.. ثم أضافت:

- صوتك مليء بخشجة المرح.. وهذه علامة أولى من علامات الحب..

- أنت تعرفي أكثر مني.. أنا وأنت كائنات لا يعرفن الحب..
يوم. يومان. ثم ننسى..

منذ مراهقتي وضعت الحب في المرتبة الثانية من أولويات حياتي. بدا لي الحب كأنه قطعة موسيقية صامتة لا يمكن عزفها أو خلقها إلا إذا كنا على دراية واسعة بالفن واللعب والخيال، وقدرة خارقة على القبض عليه والإحاطة به والاندماج فيه لتحقيق درجة عالية من الاكتمال. أحياناً أقول لنفسي أن هذا ما لا تفكّر فيه نساء اليوم. وأن مثل هذا التفكير يجعلني متخلفة عن الحياة والحب.. وإلى هذه اللحظة وأنا في السابعة والعشرين من عمري لم أستطع أن أحسم بين الحياة والحب.. صديقاتي يقلن

لي أن الحياة هي الحب والحب هو الحياة، غير أنني لا أزال أرفض تلك العبارة التي تبدو لي كتعزية لنساء فشلن في الحياة، فعوضن فشلهن بالاستغراق في الحب.. كنت دائماً على قناعة: ما لمن نعرف الحياة، لن نعرف الحب.. كل ذلك كان يدور بخاطري وأنا استمع إلى شاهي وهي تدعوني إلى سهرة مع بعض الأصدقاء في الليلة المقبلة.

قالت لي:

- مرام.. أنت الآن على جناح موسيقى داخلية!.. وغداً سأشرف باستقبالك على عشاء خفيف مع بعض الأصدقاء..

- أقبلك شاهي.. أنا محتاجة أن أضحك.. مضى زمن طويل دون ضحك.. كل شيء جميل في إسطنبول.. إلا الضحك قليل ونادر.. فكما لو أن الأتراك كائنات لا تضحك..

*** *** ***

فيما كان لويس الرابع عشر يحشد بلاطه في باريس وفرساي، مستعداً لأي غدر على العرش أو غزو خارجي، كانت ألمانيا لا تزال تقع تحت الخوف من الكارثة.. كارثة الغزو التركي. قبل ذلك بقرنين زحف الأتراك على القسطنطينية التي أصبحت تعرف بإسطنبول أو بالستانة أو بالباب العالي ليعلموا عن ميلاد إمبراطورية إسلامية متراصة الأطراف تحت قيادة رجل لقب بـ سليمان القانوني، منذ البداية أدرك الأتراك أن الشعوب على دين ملوكهم.. فإذا ما فاز وانتصر القائد فإن بروتستان وكاتوليكي وأرتدكسي أوروبا سيصبحون مسلمين. أما إذا خسر أو انهزم، فإن أجزاء من إمبراطورية قد ترتد نحو المسيحية. استمر الأتراك يهددون

أوروبا إلى أن ظهر رجل في روسيا اسمه بطرس. إلى ذلك الوقت وحق في عهد إيفان الرهيب لم ينتبه الروس الضائعين بين السهول والغابات والثلوج إلى ما يجري من حوالهم: لو سيطر الأتراك على أوروبا الوسطى فإنهم سينجحون في محاصرة روسيا من الغرب ومن الجنوب.. لم يكن بطرس الأكبر أقل وحشية من إيفان الرهيب الذي كان نيرون ربما أكثر لطفاً منهم.. كما لم يكن أقل ولعا باحتساء الخمر من بقية الفلاحين، لكنه كان يريد أن يصوغ بلاده على النمط الأوروبي. اختار طريق المال والتجارة والموانئ والمدن. بدأ بصناعة السفن لبلاده إذ كان في البداية تاجر سفن. ثم انطلق.. وفي النهاية حطم طموحات الأتراك فأعادهم على أعقابهم.

ذلك الشريط المتورم والمليء بالخوف أو بالفobia، أعاد لكريم كروان بك وجع ساقيه المتورمتين بسبب مرض عضال أصابه منذ أن كان جندياً يقف الليل كله حارساً لحدود بلاده الشمالية لمدة خمس سنوات دون كلل ولا تعب.. أحياناً كان يبيت تحت الثلوج المتهاطل عليه وهو لا يتحرك. كان الجنود الأتراك مشهورين بالانضباط حتى قيل: إذا أردت كسب معركة، فعليك أولاً بقائد من ألبانيا ثم فتش عن الجنود الأتراك.. قبل نحو قرنين وصل جده إلى أضنة على حصانه بعد رحلة سير دامت نحو أسبوع لم ينزل فيها عن ظهر حصانه حتى أنهم اضطروا إلى شق حذائه من فوق قدميه من شدة التورم ثم أخذوه لينام ثلاثة أيام متتالية.وها هو يصل إلى شقة «شاهي شهبار» كما لو أنه جاء على حصان جده. فما إن دخل إلى الصالون حتى أرتمى على الأريكة ونزع حذاءه ليرميه جانباً.. وصل كريم كروان بك متأخراً إلى حد ما. وهو رجل أعمال من

أزمير. يملك عمارات في إسطنبول وعدة مطاعم منتشرة في كل من أنقرة وأزمير وإسطنبول بالإضافة إلى بضعة بواخر تجارية.. ووصل معه فؤاد عبدي، وهو من أكراد سوريا الأقوياء، والمتنفذين في عالم المال والأعمال.. أما مصعب الصراف، رجل الأعمال القطري، فقد وصل شقة شاهي شهبار قبلهما بحوالي ساعة. وهو ما يعني أن مصعب بك كما كانت تناديه شاهي، كان أسرعهم في الوصول إلى الشقة. وهو على أية حال لا زال أصغرهم وأكثرهم شباباً وفتوة.. وصل مصعب مع باشكير آغا الذي ظل صامتاً إلى حين المغادرة إلى حد تمنت فيه كل من مرام حسن وسمية القرطيلاي وشاهي شهبار سماع صوته.. فقد بدا كما لو أنه أقسم بأن لا يفتح فمه في تلك الليلة. غير أن المفاجأة لا تقف عند صمت باشكير آغا (الذي قد يكون لا يتقن العربية إذ دار الحديث من أوله إلى آخره بعربية مهشمة ومفوهة بل肯ة شامية) وإنما تمتد إلى حضور مراد شمان.. فحتى ما قبل الوداع بقليل كانت شاهي تعتقد أن مرام هي التي استدعت مراد شمان فيما كانت مرام تعتقد أن شاهي هي التي استدعته.. وبذلك وقع خلط وبعثرة للكلام وغيره مستحدثة وشكوك. اختفت سحابة الشكوك بين مرام وشاهي حين استأذن مراد شمان بالانصراف موجهاً كلامه إلى كريم كروان:

- كريم بك.. ربما تأمرني بشيء..

- تمام شمان بك.. يمكنك الذهاب. غداً قد نلتقي كالعادة.. وقف الجميع لوداعه، وشкроه على صحون الأكل التي سبقته إلى الشقة.. ولكن مرام ظلت واقفة ثم سارت أمامه لتفتح له

الباب وهي تودعه قائلة:

- لم أكن أعلم أنني سأراك مرتين خلال أربع وعشرين ساعة (وأظن أنه بحث طويلاً عن الرد قبل أن ينطق به، أو هو يملك بداعه خارقة) إذ سمعته يقول قبل أن يتوجه إلى المصعد:

- قد نتأخر طويلاً.. ولكن حين نأتي، نحضر دفعة واحدة..

وبالرغم من أن مصعب القطري قد لاطفها كثيراً وأن كريم بك قد أغدق عليها الكثير من الأوصاف الخفيفة والحلوة المذاق لدى امرأة لم تخط بعد الشباب.. وأن باشكير آغا قد جعلها مرحة ومتيقظة الحواس وهو يبدو كأمير قوقازي أشقر يستطيع أن يروض ستة أحصنة دفعة واحدة. كذلك بالرغم من وسامه ودماثة فؤاد عبدي، وهو الوحيد الذي كان يتكلم عربية واضحة ذات مذاقات شامية موغلة في التغنج، رغم أصوله الكردية إلا أن مرام قد استفحلا بها التوتر حين غادر مراد شمان الشقة. بدت وكأنها تركت وحيدة. ثم لم تأخذ فرصتها في عرض مواهبه الفنية وولعها بالموسيقى. وبإحساس الأنثى أن الرجل الذي يسرع إلى المغادرة هو الأكثر ولعاً وقرباً إليها، فقد كادت أن تهاتفه لكي تطمئن عليه وتشكره على حضوره!..

هكذا حالما نعود إلى بيوتنا بعد حفل عشاء أو سهرية أو حتى جلسة في مقهى، نشرع بسرعة في تقييم الأشخاص الذين قابلناهم وتحدثنا معهم وتعرفنا عليهم.. وثمة أكثر من طريقة لمثل ذلك التقييم: الرجال يبدأون النساء والنساء يبدأن الرجال. أما إذا كان الجميع رجالاً، فإننا غالباً ما نبدأ بالأقل حضوراً وتوهجاً

لإسقاطه من القائمة تماماً. أما إذا كان الجميع من النساء فغالباً ما تبدأ المرأة بإسقاط الأكثر حضوراً وتوهجاً أيّ بالتي سببت لها إسهالاً في المعدة.. مرام أرادت أن تقوم بهذا الامتحان في التقييم فاختارت بمن تبدأ. تركت النساء جانبها. أو لنقل مرت على كل واحدة بسرعة، فكتبت على دفترها الصغير كما لو أنها لا زالت تتعلم كتابة النوتة: شاهي امرأة نزقة وملية بضموج العواطف ورنين المال. سمية القرطي ليست لديها أية فكرة واضحة عن أهل الشام وهي تبدو على حماس غامر بإسقاط بشار الأسد. طموحة لكنها غامضة. بعد ذلك كتبت اسم مراد شمان ووضعت تحته خطين ثم رأت أنه رجل أنيق في هندامه وكلامه، وسيم وطيع. يحاول أن يكون نفسه وهو ليس نفسه في الوقت نفسه. مصعب الصرف، شره في الأكل والنظارات. يقول أشياء كثيرة دون أن يكون مفهوماً. خال من أية مسحة شاعرية لكنه قوي ومتنفذ. باشكيير آغا: أمير غامض وساحر ومستغرق في ذاته كما لو أنه نرسيس، أكثر صدقاً من جميع الحاضرين حتى لو لم يتكلم. أما كريم بك كروان فهو رجل قوي.. يبدو كما لو أنه زعيم مافيا قديم ومحترف. ثم لاحظت التالي: كان يبتلع العرق كما لو أنه ماء.. وقد ردّ مراراً: ما أروع هذا النبيذ!.. فهل كان يشرب عرقاً أمنبيذا؟.. والأرجح أنه لم يفرق في تلك الليلة بيني وبين شاهي أو سمية!..

■ الفصل الثاني

كان نجيب سليمان مصرياً أصيلاً وقبطياً عريقاً. كان باحثاً في فن العمارة. أبحاثه أذهلت العديد من زملائه خاصة أولئك الذين كانوا يستكثرون عليه موهبته وجهده ومثابرته.. كان يردد دائماً على طلبه في جامعة القاهرة قوله تعلمتها في ألمانيا أيام دراسته قد نطق بها فريدريك الأكبر ذات يوم «لم يكن الناس كما قيل لهم، متساوين في القدر. فكما هي بعض سلالات الكلاب أفضل من غيرها في الصيد. هم كذلك ينتمون للسلالة الأفضل في الحكم».. قليل من طلبه من كان يدرك جوهر تلك القولة، ولكن حين زار الرئيس الأمريكي جامعة القاهرة في العام 2009، قال أحد الطلبة: ها هي سلالة أخرى تتأهب للحكم.. ذلك ما يقصده أستاذنا نجيب سليمان»..

في الحقيقة لم يكن نجيب سليمان يقصد على وجه الدقة ما ذهب إليه أحد طلبه، كما لا تؤهله شجاعته ولا دماتته ولا درجة العلمية ولا حتى دينه لكي يقول أن من يتهم للحكم الآن هم سلالة من كلاب الصيد.. فهناك دائماً من يذهب مباشرة للشتم والتحقير. كما يوجد دائماً من يوظف كلمات وتعابير الآخرين لخوض أسوأ المعارك. ومتى كان الوعي هابطاً، كانت اللغة كذلك هابطة. إن المرء وهو يعاني من الإحباط لا يعود قادرًا

على صناعة النبل حتى لنفسه. ويزيد التعصب من ذلك الهراء الذي يشبه الخراء لدى الناس حتى يصبح ثقافة عامة.. لا يخاطب التعصب والمحبط نفسه أو غيره بلغة نظيفة ونابضة، وإنما يمنع في إذلال اللغة حتى تصبح أداة هدم كل جسور التسامح والتعالي عن الصغار..

تساءل يوما راهبا بوزيا أمام أبناء وطنه: «لماذا نعتقد أن شخصا يتباهى بأنه الأذكي والأقوى والأشجع والأكثر موهبة، أنه شخص سخيف ومحرج لنفسه، بينما حين يتكلم رجل باسم شعبه فيقول: نحن الشعب الأفضل والأقوى والأذكي والأكثر موهبة على سطح الأرض يصفق له أبناء وطنه بحماس ويسمونه وطنيا ثم يتخذونه قائدا؟».. أجاب نجيب سليمان عن سؤال الراهب البوذى بحكمة القبطي الصبور الذي كان ذات يوم في مقدمة الدنيا، فأصبح عند مؤخرتها، دون أن يفقد صوابه أو حسه الفني الرفيع.

- لا يوجد شيء وطني في تلك الغوغائية.. يا إسماعيل داي.

ثم أضاف يقول بعد أن وضع نظارته جانبا وكان جالسا في صالون فندق «أليبر الأول» الذي يتوسط العاصمة الجزائرية مع شلة من زملائه المختصين في فن العمارة..

- يستطيع الإنسان أن يتعلق بوطنه من دون الحاجة إلى الإصرار على أن بقية الأوطان لا قيمة لها أو أن بقية سكان العالم من التفانيات..

كان إسماعيل داي الجزائري الأصيل الذي ينتمي إلى سلالة الدايات هو الوحيد الذي كان ينصرت جيدا لنجيب سليمان.. ورد

عليه بسخرية قائلاً:

- ولكن نحن المصريون والجزائريون سادة في هذا النوع من العجرفة.. الجزائريون يعتقدون أن لا وطنية بعدهم. والمصريون يعتقدون أن لا عراقة تضاهي عراقتهم.. حتى لكان كل ما هو أصيل في هذا العالم ينتمي إلى مصر وكل من هو شجاع في هذا العالم هو جزائري..

- ويسبب ذلك الإسفاف والإشبع، لم يعد هناك سلام في بلاد العرب..

قال البروفسور نجيب سليمان ثم أضاف متسائلاً:

- ألا ترى معي صديقي إسماعيل، أن الريع العربي كان نتاج ذلك الإشبع السخيف.. من المحاكاة الركيبة. نجح التونسيون في طرد رئيسهم.. أو هكذا اعتقدوا، فهب جميع العرب لكي يفعلوا نفس الشيء.. كانوا كما لو أنهم يقولون لأنفسهم: لماذا هم نجحوا وليس نحن؟! أنا نفسي سمعت من يقول ذلك في جامعة القاهرة وفي ميدان التحرير.. «التونسيون ليسوا أفضل من المصريين.. لا بد أن ننجح ونطرد أبو الهول من قصره».. كذلك فعل الليبيون.. ثم تحرك اليمن فبدأ وكأنه عائد إلى عصر سيد مأرب.. ثم هب السوريون بجميع طوائفهم لتمزيق جسد الأسد فإذا بهم يمزقون بلادهم ومدنهم وقرابهم.. وهكذا!!..

لأول مرة يعثر إسماعيل داي عن مصري مختلف. يشبهه كثيرا.. ولا شك أن نجيب سليمان قال لنفسه نفس الشيء: «الأول مرة أعثر على جزائري مختلف، لا يعتقد البتة أنه من «شعب مختار» نسي الله أن يذكره في إحدى كتبه!».. فرغم أن إسماعيل داي

ينتمي بالدماء إلى عائلات الديايات العربية التي حكمت الجزائر لعدة قرون، إلا أنه لم يكن يظهر أمام زملائه في الجامعة أو أصدقاءه في المقهي أو جيرانه في الحي إلا كرجل متواضع.. يتكلم بأناقة كما لو أنه يحصي عدد الكلمات التي ينطق بها.. لا يخلط بين العربية والفرنسية والأمازيغية كما يفعل الآخرون. يبتسم لإرسال طاقة إيجابية إلى كل العابسين والمتورطين والغاضبين.. ولا يتبعج أبداً بأنه حفيد أصيل لحسين داي.. درس في ألمانيا وتخرج كعماري منذ عدة سنوات واشتغل طويلاً على مشروع إنقاذ حي القصبة في الجزائر العاصمة.. واجه معارك عنيفة مع البيروقراطية والجزرالات وكذلك المنتقدين.. واكتشف أن أغلب المالكين يريدون الهدم ليirthوا أراضيهم ثم يبيعونها بأعلى الأسعار. لا أحد يريد التاريخ.. حتى الجزرالات الأكثر وطنية في التلفزيون والصحف يدفعون الناس إلى رفض صيانة حي القصبة من أجل أن يشترونها من أصحابها بأبخس الأثمان.. قال إسماعيل داي معلقاً على كل مل يجول في خاطره وخاطر نجيب سليمان:

- هل تعرف ماذا يسمى الألمان مثل تلك الإسفافات.. إنهم يطلقون كلمة واحدة لتلخيص كل ما هو هابط ودنيء وسفيف ومدعى وسخيف ومقرف ومزيف ورديء وغير أصيل ومبتدز ومنحط، كلمة واحدة هي كلمة «كيتش».. نحن كيتتش العالم يا صديقي نجيب!..

- وهل تعرف أنت يا صديقي إسماعيل ما أصل هذه الكلمة كيتتش؟

- لا تقل لي أنها عربية الأصل. وإنما سنكون جزء من هذا

الكيتش..

- نعم هو ذلك. وهل تعتقد أن نختلف إذ نقرر أن نختلف.. ثمة محرّكات جداً معقدة، أصيلة ومكتسبة في الدماغ.. استطاع العلم أن يغير لون الجلد ويستبدل الدم داخل أجسادنا ويفك شيفرات أجدادنا البعيدين جداً.. لكنه لم يعرف كيف يغير محرّكات الدماغ البشري.. هل يمكنك أن تعطيوني إنساناً واحداً في العالم لا يحب.. أو لا يصاب بالغيرة، أو لا يفكّر في الانتقام؟..

- وما أصلها بالعربية؟ قل لي.. أنا جيد فخور الآن.. ها أن الألمان يأخذون كلماتنا و يجعلوا منها مصطلحات يحتاج العرب إلى تفكيكها للحصول على قدر من الإشباع.. هل هذا ما يجب أن أدركه.. أو ثمة شيء آخر يا أستاذ؟!

- بالطبع ثمة شيء آخر.. هو أن نعرف أنفسنا حتى نقيم الآخرين بعناية ودقة..

كلمة كيتاش يا أستاذ، تعني النفاية أو الخرقـة. أي المسحة، وبما أن المسحة مصنوعة من القش أو من الحيش، وهو أرداً أنواع القماش فإن تحويراً بسيطاً قد طرأ على القش أو الحيش لكي تصبح كيتاش.. أظن أنني أقنعتك.. كما أقنعت من قبلك أحد الفنانين الألمان..

كان إسماعيل داي قارئاً جيداً ليلان كونديرا. قرأً أغلب رواياته: الخلود، حياة مرحة، خفة الكائن التي لا تحتمـل.. الحياة في مكان آخر.. وقد عرف من خلال قراءاته أن كونديرا كان مولعاً باستعمال تلك الكلمة لشدة احتقاره لشعب استبدل الكرامة باللامبالاة وعاش تحت الاستبداد مخموراً بالمجد المزيف.. عرف

أيضاً أن كونديرا ابتدع هذه الكلمة معنى آخر أكثر ثراء حين اكتشف أن الإنسان لا يزال سجيناً لفكرة أو لإيديولوجيا أو حتى لدين تحت سحر الاستبداد. ثم حين يكتشف نفسه خارج السياق يصبح ناقماً من نفسه باللامبالاة إلى أن يتحول إلى خرقه أو نفاية..

- هل تقصد أننا ننتقل من استبداد إلى استبداد!..

- وكذلك من قهر إلى قهر.. كنا نعيش في قهر بسيط اسمه الاستبداد. الآن ها نحن ننتقل إلى القهر المركب . وهذا اسمه الديمقراطية العربية المعجونة بالدم والإرهاب.. في كل بلاد الدنيا لا يبني الديمقراطية إلا الديمقراطيون. إلا في بلادنا.. ها نحن نرى بعيوننا أن من يبني لنا الديمقراطية.. إما إرهابيون عائدون من أفغانستان أو جرالات مهزومون أو الحلف الأطلسي.. وهذا أيضاً نوع آخر من الكيتش..

آنذاك كان لا بد أن تبدأ الجلسة المسائية من السيمينار الذي تقيمه جمعية المحافظة على التراث المعماري الجزائرية.. ولذلك فقد تهيأ إسماعيل داي للحاق بالقاعة، فنهض نجيب سليمان ثم سارا معاً وكل منهما مثقل ببقية حديث هو أقرب إلى الجلد الذاتي..

*** *** ***

ألقى نجيب سليمان محاضرته حول العمق والجوهر والسطح. وبدا راديكالياً في تحليله حتى نال إعجاب الحاضرين.. قال: أن العرب لا يعرفون ما هو العمق ويخلطون بينه وبين الجوهر. ورأى في ذلك اعتراضاً في المفاهيم والمسافات نتجت عنه ثقاقة

السطح.. وقال أيضاً: رغم أن الحضارات القديمة في هذه المنطقة كانت تصبو إلى السمو والعلو إلى درجة أغضبت الله بأبراجها ومسلاطها ثم تصاحت معه بصوامعها وكنائسها، إلا أن العالم العربي يبدو الآن كما لو أنه مساحات خالية من العمق.. وكائنات فاقدة للجوهر.. كل شيء أصبح متعرجاً، مسطحاً، رديئاً، خالياً من الحياة. تراكمياً.. كميًّا. أراجيف وأكاذيب وادعاءات ومهارات في التحيل وفدلكات وهرطقة وأونطة وبهلوانيات.. العمارة لا تعني وجود عمران.. والمدينة لا تعني وجود مواطنين.. والأحزاب لا تعني وجود ديمقراطية.. والتنمية لا تعني العمل.. وكذلك الحب ليس إلا قناع لإخفاء رغباتنا ونزواتنا..

كان إسماعيل داي يستمع إليه بانتباه. وكان خائفاً أن يقفز إلى موضوع «الكيتش» فيحطم محاضرته قبل أن يلقيها، وقد اختار لها عنوان: «الكيتش أو فكرة الخلاص الجماعي».. وحين ترك نجيب سليمان مقعده على المنصة، تنفس إسماعيل الصعداء قائلاً لنفسه: لم يترك شيئاً لم يفعله.. ولكن الحمد لله أنه لم يذكر كلمة الكيتش.

بدأ إسماعيل داي محاضرته بإحضار الفيلسوف أفلاطون الذي قال ذات مرة: «إننا نذهب أو نفرق في الحب لأننا نريد أن نصبح مكتملين.. ومعنى ذلك أن الحب هو رحلة بحث عن الاكتمال.. أو عن الهيئة الأولى».. قال إسماعيل داي وهو يستشهد بما جاء في كتاب - المحاورات - لأفلاطون الذي أورد حكاية عن حفل عشاء، قام خلاله الكاتب المسرحي الساخر أرسطو فانيس بتسلية ضيوفه حين روى لهم التالي: كان البشر فيما مضى مخلوقات ذات أربع أذرع وأربعة أرجل ووجهين. وذات يوم أغضبوا الآلهة، فشطر

الرب زيوس كل واحد منهم إلى اثنين. ومنذ ذلك الزمن فقد كل فرد (رجلًا أو امرأة) نصفه الثاني.. ومنذ ذلك الزمن دخل كل فرد في رحلة معاناة بحثاً عن نصفه المفقود حتى يشعر بالاكتمال..

ما قاله رجل ساخر وشمل في ذلك العشاء، هو ما نعتقده حتى الآن. إننا ناقصون ونتوق إلى الاكتمال. ولكن الرحلة طالت وأصبح من الصعب الحصول على الاكتمال، فذهبنا إلى الادعاء.. أو الزيف أو الكذب أو التمثيل لنعرض ما ضاع منا خلال تلك الرحلة..

أضاف إسماعيل داي: هنا حين يعجز الفرد عن بلوغ الاكتمال، تنبت فكرة أخرى هي ليست دائمًا نبيلة أو عظيمة كما قد ينظر إليها.. إنها فكرة الخلاص الجماعي.. هذه الفكرة غالباً ما يعتنقها الحالون بعالم أكثر عدلاً وسعادة، لكنها في النهاية غالباً ما يجعل منهم مغفلين أو نفائيات أو سلع كاسدة.. يبدأ الشعور بكونك نهاية، من التعارض بين أنفسنا وبين العالم. آنذاك يسيطر عليك الإحساس بأنك خارج السياق وخارج المعنى. وهذا ما يدفع بك إلى الاستعانة بأشياء مزيفة وتأفة وأحياناً براقة للتخفيف من ثقل ذلك الشعور.. ولكن وأنت تبحث عن معنى لذلك تكتشف أن كل ما يحيط بك لا يعود أن يكون لعبة خداع. هذا ما يحدث للمناضلين.. سرعان ما يندمجون في فكرة السمو والخلاص والتضحية، وحين تنقشع السحب، يكتشفون أنهم بعيدون عن الجماهير.. أو هم غرباء عنهم.. يصابون بالإحباط والفشل ثم يزعمون أن الجماهير غبية، وأن فكرة الشعب هي ذاتها فكرة مزيفة. وأن الشعب لا يريد الخلاص وإنما تبني أفكارهم وسار

معهم لأنهم هم الخلاص الممحض..

خفض الدكتور إسماعيل داي من صوته قليلاً وتناول جرعتين
من الماء ثم عاد ليقول:

- سأضرب لكم مثلاً عن ذلك بنفسي: حين كنت شاباً كنت أنتمي إلى اليسار. كانوا يصفوننا باليسار المتطرف.. اندمجنا في مقوله الثورة مستمرة لتروتسكي.. واعتقدنا أن الجماهير يجب أن لا تتوقف ولا ترتهن للأحزاب.. كنا نقرأ بينهم ونتجادل بعنفوان ونحلم بعالم جديد متحرر، حفيظ و مليء بالوعود والسعادة.. شيئاً فشيئاً بدأت أكتشف أننا نقوم بعمليتي خداع في نفس الوقت.. خداع الذات وخداع الناس.. فإن تكون أنت ولست أنت في نفس الوقت، أمر لا يطاق.. يجعلنا نتعذب دائماً أو نتشبه على نحو مستمر.. في لحظة ما بدأت أشعر كما لو أنني بهلوان، فكان علي أن أقود نضالاً ضد نفسي قبل أي نضال آخر ضد البورجوازية.. وحين تعاقبت أحداث عنيفة في بلادنا، بدا لنا أننا أصبحنا خارج السياق. ولأننا أصبحنا خارج السياق، أصبحنا ضد السياق. وهذا هو ما يسمى بالربيع العربي يأتي ثم يمضي دون أن يكون في إمكان من نذروا أنفسهم للثورة أن يجعلوا منه ثورة أو ربيعاً.. وما حدث لكثير من المناضلين الآن، عشته أنا منذ حوالي عشرين عاماً.. كان سقوط جدار برلين بالنسبة لي الصدمة التي دفعتني إلى سياق الحياة من جديد.. لم أنتبه إلى أننا خارج الاهتمام والسياق والمعنى إلا حين تحول جدار برلين إلى نفاية في قلب أوروبا.. إن هذا ما أسماه الألمان بـ«الكيتش». وحين أراد إسماعيل داي أن ينهي محاضرته بعد أن تلقى إنذاراً بتجاوز الوقت المخصص له..

قال ملخصا:

- الكيتش هو أن نرفع عمارات وأبراجا عالية من الزجاج في قلب الصحراء تحت بؤرة الشمس.. الكيتش أيضا هو أن تكون نهاية دون أن ترى نفسك نهاية، إلا حين يبدأون بجمع النفايات..

*** *** ***

بعد العشاء عاد كل من نجيب سليمان وإسماعيل داي إلى نفس المكان الذي جلسا فيه عند الظهرة.. في فندق «البير الأول». وهو الفندق الذي سكن فيها ماركس لمدة ثلاثة أشهر بنصيحة من أطبائه عندما أصيب بالربو.. جاء إلى الجزائر ليستريح من برد أوروبا، فكتب عن أراضي وفلاحي الجزائر مستفيدا من أرشيف الإدارة الإستعمارية.. تعرف كذلك على المسلمين فعدل نظرته إلى الدين حتى بدا بالنسبة لفيورباخ كما لو أنه مرتد عن أفكاره.. كان اسم الفندق وكذلك بناؤه الكولونيالي يوحى بأنه يحتوي على عظمة إضافية، لأن جزء من تاريخ الجزائر الحديث قد صنع بداخله.

فكر نجيب سليمان إنه يشبه فندق «شبيرد» بالقاهرة الذي أصبح قطعة تاريخية نادرة شاهدة على عصور طويلة من الفن والأبهة وحتى السينما. بناء رجل يوناني في الأربعينيات من القرن التاسع عشر.. وهذا يعني أنه بني في نفس الوقت مع «البير الأول»..

انضمت إلى جلستهما السيدة الدكتورة زينب مرتضى، وهي من جامعة الموصل. وتنكتب في الحضارات كما تنشر كتابها الإنكليزية. وقد درست ببركلي لعدة سنوات وكانت من مؤسسي منظمة «فريدم هاوس» الشهيرة. وحين انهار نظام صدام حسين، عادت لتدرس تاريخ الحضارات في جامعة الموصل..

ولكن حين أصبحت الموصل تحت الهوس الديني، انتقلت إلى بيروت لتحاضر في الجامعة الأمريكية..

ما إن استوت الجلسة وسجل النادل طلباتهم من مياهمعدنية وشاي منعنع حتى قذف الدكتور سليمان بإشكالية، قال إنها ما انفك تتحيره.. وبعد أن أشعل غيلونه، صاغ تلك الإشكالية على النحو التالي:

- كيف يمكن لثورة أن تتحول إلى كرنفال من الخداع المزركش.. وثورة أخرى تتحول إلى كرنفال من الدم والرعب؟.. وأيهمما التي تستحق أن تكون ثورة؟.. ومن الذي يقول لنا أن هذه ثورة وأن هذه ليست ثورة، وهل ثمة ضرورة لمثل هذه الثورات أصلاً؟ وهل التاريخ لا يتقدم إلا بهذه الطريقة؟..

بمثل هذه الصramaة التي طرح بها الدكتور سليمان أسئلته، كان على الحاضرين (لقد انضم أثناء ذلك إلى الجلسة المستشرق الإسباني المختص في تاريخ عمارة الأندلس خوسيه دي بلانتيرو. وقد استمع جيدا لما طرحة الدكتور سليمان) أن يجمعوا أفكارهم وصراحتهم وموضوعيتهم حتى لا يتحول مثل ذلك الموضوع إلى هرج أو تهويات رعنانية..

سأل إسماعيل داي في البداية:

- لا شك أنك تقصد ثورات الربيع العربي..

فرد نجيب سليمان:

- لا ليس بالضرورة.. وإن كان لدينا المثال الأول والثاني في هذا الربيع.

وتكلمت الدكتورة زينب مرتضى من زاوية أخرى فرأى أن

مفهوم الثورة قد بات متخلقاً. العصر لم يعد يحتاج إلى مثل تلك الثورات. الثورات اليوم توجد في المخابر والأفران والتكنولوجيات وكذلك في الأفكار ومراكم التفكير.. إنها ليست من اختصاص الشوارع كما لا زلنا نعتقد نحن العرب.. إذا تركنا الشوارع تصنع ما تريد في عصر الديناميت والأحزمة الناسفة، فإنه لن يبقى لنا ما نفعله!..

لم يكن بلاستيرو ربما متحمساً للكلام، ولكن لا بد أنه شعر بالاستفزاز وهو يستمع إلى كل ما قيل لمدة نصف ساعة.. وكما لو أنه شعر بالحنق رغم دماثته، فقد ذهب مباشرةً إلى لبّ الموضوع. وبعد أن أخبرهم بأنه قام بزيارات عديدة خلال السنوات الأربع الماضية لكل من تونس ومصر ولibia واليمن وسوريا والعراق، قال بصوت أخش:

- إن ما يجعل ثورة حمراء، عنيفة، دموية، وأخرى ناعمة، هو كمية الشر الذي تحمله بداخلها.. ذلك الشر المبتذل المعجون بالإهمال واللامبالاة. أقول لكم أن أبطال الثورات الحالية ليسوا هم أبطال الثورات الذينقرأنا عنهم.. الاختلاف قائم هنا.. كان ثوار الماضي يتحركون عبر وعيهم واستعدادهم. أما ثوار اليوم، فهم ماكينات غير واعية يجري تحريكها من خارج الإرادة..

أضاف مستسلاً:

- وحين يحل الاستخفاف والاستهزاء يكثر الابتذال. وحين يعم الابتذال تصبح الإرادات زركشة شعارات.. كل ثورات العرب رفعت شعار الإرادة - إرادة الحياة، ولكن كم من الناس كانوا يفهمون معنى الإرادة.. أصبحت قمصاناً يرسمون فوقها شعارات

وصوراً تمتد من المطرقة إلى الشفاه الحمراء.. ثم أعلاماً مختلفة ومتضاربة وترمز إلى عصور شتى.. بينما العدو يتفرج ويضحك هازئاً لأن عامة الناس، وخاصة العمال والمثقفين يفضلون تصديق العدو وجديته وصرامته للحفاظ على هيئاتهم ورواتبهم بينما الجنود يشهرون بنادقهم في مواجهة الناس بدعوى حمايتهم.. ولكن.. العكس هو صحيح.. من أجل حماية الذين يدبرون مكيدة قاتلة لتلك الثورة من عامة الناس..(عادت ساندرا مساء إلى بيت أهلها بعد نهار طويل من الصياح وسط المسيرات.. كانت طنجة قد بدأت تتحرك بعد أن امتلأت شوارع الرباط بالمتظاهرين المطالبين بالحرية والديمقراطية استجابة لما حدث في كل من تونس ومصر ولibia.. عادت خائبة ومنكسرة الخاطر.. لم تلمس الحماس الذي كان يحرك الآخرين في بقية العواصم العربية.. وبما أنها عاشت عاماً كاملاً في أثينا.. فهي أيضاً لم تلمس ذلك الوعي الذي كان يحرك المتظاهرين في أثينا.. وحين سألتها أمها عن سبب انكسارها، قالت لها:

- الناس لا يفهموننا..

ورد أبوها الذي كان مندجاً مع أخبار محطة ميدي 1:

- أنت لم تفهموا الناس.. هذا أكثر صواباً يا ساندرا.

احتدم النقاش بين ساندرا ووالدها في ذلك المساء إلى حد جعل الأم تتدخل لتنهي ما كان يمكن أن يسبب في شرخ عاطفي بين ابنتها وزوجها.. ثم أدركت ساندرا بسرعة أن المسألة لا توجد فقط في الشوارع، بل هي موجودة في كل بيت.. بدءاً من بيت أهلها). ما رواه الأستاذ بلانتيرو حدث مع طالبته ساندرا سلطاني.

وكان يريد أن يقول لزملائه آنذاك أن الناس العاديين أصحاب المصلحة الكبرى في الثورة كانوا لا يفهمون شيئاً عن تلك الثورة، بل كانوا كمن يخدسون بمخيالهم الثقافي وجهازهم العصبي أن ما يحدث ليس ثورة..

ولكن طنجة لا تختلف هنا عن «بوييرتا ديل سول» الإسبانية. طلاب قسم العلوم السياسية والذين هم عادة طلاب متسيسون للغاية وقد قرأوا ماركس ولينين وتروتسكي، عادوا هم أيضاً من الشوارع بعد ثلاثة أيام من المسيرات خائبين. وقد علقوا: بأن الناس ما كانوا يفهمونهم، بل رفضوا شعاراتهم وقالوا لهم: أنتم لستم منا..

وبحسب الأستاذ بلانتيرو، رغم أن خيبة طلاب طنجة وطلاب «بوييرتا ديل سول» واحدة ومتتشابهة إلا أن الحياة الاجتماعية لما يسمى بالناس العاديين في كل من المغرب وإسبانيا ليست متتشابهة.. هنا نلاحظ أن هناك تشققات في هوية المتظاهرين.. هم يريدون ربما نفس الهدف، ولكن المواجهة مع العدو تتطلب أولاً مواجهة التناقضات الداخلية.. نخلص إلى القول: أن القيادة مفقودة في الجانبين والهدف ضبابي.. والحساسيات عالية.. وقوة التأثير الإعلامي بلا شفقة.

كان إسماعيل داي يستمع جيداً لما كان يقوله البروفسور بلانتيرو من خلال شهادات لطلابه في المغرب وإسبانيا. وقد تذكر في تلك اللحظة ما دار بينه وبين ابنه مروان حين انطلقت مظاهرات الجزائر العاصمة في منتصف العام 2011. قال، أن ابنه مروان هو الابن الأكبر. وهو مهندس حديث التخرج.. وقد خرج

إلى الشارع أكثر من مرة للمشاركة في المظاهرات فلم يكن ليفهم شيئاً مما يحدث. لا أحد في الشارع كان ليستمع إلى الآخر.. كما أن كل واحد كان يعيش ثورة بمفرده.. وحين عاد إلى مصنع الكابلات الذي يعمل به، وجد أن العمال يريدون الذهاب إلى أعمالهم.. مجموعة صغيرة كانت تصرخ: خونة.. خونة. ولكن غالبية العمال، رغم أن مركزية النقابة قد أعلنت عن إضراب مفتوح، أصرروا على مباشرة أعمالهم.. وقد كان واضحاً أن الذين يريدون الإضراب أقلية إلى درجة أن مروان ابني قال لي:

- أعتقد أن النقابة قد وقع شراؤها من جهة ما ليعلنوا الإضراب.. والأكثر وضوحاً أن العمال لم يعودوا يثقون في نقابتهم.. وسألته عما يقصده بأن النقابة قد وقع شراؤها، فأجابني:

- ثمة نقابات فرعية ومحلية تعمل لحسابها. تتصل بأصحاب المعامل وتهددتهم بالإضراب. ثم يدخلون في مفاوضات. وأنثناء ذلك تحدث الصفقة.. يحصلون على أموال وهدايا ثم يذهبون إلى مصنع آخر أو معمل آخر لتعطيل العمل فيه لصالح معمل آخر..

لم يكن لدى الكثير مما أقوله لابني. وكنت أخاف عليه أن يفقد حماسه لأي عمل اجتماعي أو سياسي، بينما هو ما كان ليصدق أن النقابات قد تفعل مثل تلك الأشياء المشينة.. وقد حاولت أن أفهمه أن النقابات رجعية بطبعها لأنها تتعيش من مأساة العمال وأموال الأغنياء. فهم محتالون وكسالي بطبعهم. يصدعون على ظهور العمال لكي يصلوا إلى جيوب الرأسماليين.. ولكن هذا ما كان ليرضيني قوله.. وهنا تصدى نجيب سليمان للمسألة:

- المهم في كل هذا العرض الدموي الذي عرفه العرب.. وهو

عرض لا يزال متواصلاً بأشكال أخرى أكثر عنفاً، أن السياسة ليست شيئاً على مزاجنا، كما هي ليست دائماً من صنع الذين نراهم يخرجون إلى الشوارع ويعرضون صدورهم للرصاص.. إنها لعبة فظيعة.. لقد أصبحت شيئاً آخر في عالم اليوم. لم تعد مجرد مصطلحات نعرفها نحن المثقفون ونتفنن في شرحها. الذين يخرجون إلى الشوارع لا يحبون هذه المصطلحات وبالتالي لا يحبون الذين يستخدمونها.. ومن ناحيتي أعتقد أن ذلك ما يحمل ثورة إلى الفشل.. ها نحن مهزومون للمرة الثانية.. وكذلك جزء كبير من أبنائنا.. الهزيمة هنا تعني شيئاً واحداً: ما يعتقد الناس أو ما يرونـه - شيئاً منطقياً - مختلف عما نراه نحن.. الشوريون هم الذين بإمكانهم تحويلـ - الفهم العام - باتجاه التغيير.. وبما أن الشوريين العرب لم ينجحوا في ذلك، فقد تركوا المهمة بيد الذين لا يريدون التغيير..

ثم تابع يقول:

أنا أيضاً التقيت ذات مرة في شارع ماسبيرو بمجموعة من الطلاب وكان من بينهم الشابة نادية وهاب التي قال عنها الإعلام، أنها أطاحت بحسني مبارك. وقد لمست أن جميعهم ضد الفساد ضد الرأسماليين والباشوات الجدد وحتى ضد الملتحين والإخوان المسلمين، ولكن ما كان ينقصهم هو وحدة الهدف ووحدة الخطاب والقدرة على تحويل الناس إلى وجهتهم.. كانوا يتكلمون كثيراً.. عن الحركات النسوية وتحرر المرأة والدولة العلمانية والمثلية.. وقد قالوا لي جميعهم أن التيار المحافظ قوي جداً.. وأننا نبدو صغيري الحجم.. بل هم يتلاعبون بنا يومياً.. وسألتهم:

- من هم هؤلاء الذين يتلاعبون بكم؟..

أجابني نادية وهاب بنفسها:

- الرموز التقليدية للنظام القديم. إنهم مسرورون جدا لأنهم كسبوا الجيش إلى جانبهم.. هؤلاء من كل صنف.. وجوههم كثيرة.. يظهرون في كل مكان.. يحملون نقاشاتنا إلى أماكن أخرى مجهولة.. إذا كنا راديكاليين كانوا أكثر راديكالية.. وإذا تحدثنا عن تسليح الشعب لحماية نفسه أعلنا عن موافقتهم.. ولم ندرك أن هؤلاء هم خصومنا إلا حين أصبحنا مجموعة صغيرة جدا.. وتقاد تكون منعزلة ومنبوذة!.

علق خوسيه بلانتيرو:

- لأنهم لم يدركون ما يمكن أن يجمع أغلبية الناس.. فقد دخلوا في م tahات الهوية والعلمانية والدين.. وكل ما يمكن أن يغرق الناس.. لم يخرجوا بالقنابل أو البنادق إلى الشوارع، ولكن شعارات الهوية والمناداة بالشريعة والمطالبة بحقوق المثليين كانت هي أصابع الديناميت..

كان البروفسور خوسيه بلانتيرو يرى في ذلك كله ما يجعل ثورة حمراء وفاشلة.. وقد ضرب مثالا آخر عن رجل أصلع وصغير الحجم عرف كيف يسير وراءه الروس. كان قائد مجموعة صغيرة، لكن مجموعته الصغيرة ظلت تكبر. وهو عكس ما حصل في القاهرة أو في غيرها. (قال أيضا - أن التونسيين حين رفعوا شعار - خبز وماء وبن علي لا - استطاعوا أن يطردوا دكتاتورا كان يقبض على أجساد وأرواح الناس. ولكن حين دخلوا في م tahات الهوية

والدين فقدوا كل ما يمكن أن يجعل من ثورتهم تغييراً متظراً..
تابع بلانتير و سياقه قائلاً:

- ما فهمه لينين ذلك الأصلع العبرى في بداية القرن العشرين، لم يفهمه ثوار العرب في بداية القرن الواحد والعشرين رغم أن كثيراً منهم قدقرأوا ما كتبه لينين.. بعد سقوط نظام القياصرة في روسيا نطق بمقولة بسيطة جداً للروس.. جميع الروس: «الخبز والسلام». هذان الشيئان كانا يلخصان طلب الجميع. أي انتهاء الحرب ثم الحق في الطعام.. كان الروس قد غرقوا في حروب طويلة وخاسرة فقدوا خلاها حرثتهم وخبزهم وكرامتهم، ولأنهم كانوا قد ملوا من الحرب ومن الجوع، فقد قالوا لا بد أن ما يقوله هذا الأصلع صحيح.. كانوا يساريين ويمينيين ولم يختلفوا في تصديق هذا الرجل الصغير الحجم والعائد من المنفى.. لم يتحدثم عن الجدلية المادية ولا عن صراع الطبقات ولا عن العنف الثوري المسلح، ولا عن الديمقراطية المركزية، ولا حتى عن أهمية العمال أو أهمية الشغيلة أو دكتاتورية البروليتاريا.. كل ذلك أسقطه لينين من أجل مواجهة الحقيقة الثورية.. ومن أجل تجميع الناس حول هدف واحد.. وهذا ما يسمى بتحويل المنطق العام إلى قضية عامة!.. إنه واحد من أهم الدروس..

كانت السيدة زينب مرتضى قد بدأت تشعر بالألم لأنها لم تشارك في هذه المناقشة. وكانت رغبتها في الحديث عارمة، ولكن الرجال، حتى عندما يكونوا أساتذة كبار، لا يفسحون المجال للمرأة لكي تتكلم إلا إذا ارتدت بدلة واقية من الحياة. قالت السيدة زينب:

- ما حدث في العراق جعل كل الناس يكفرون بالتغيير.. لم يعد هناك في العراق شخص يتكلم مع شخص آخر.. تبدو الأمور كما لو أن برج بابل سقط مرة أخرى وبعدها تفرق الناس في اتجاهات عديدة وهم يتكلمون بلغات جديدة.. مشكلتي هي أنني لم أفهم لماذا كان الناس يريدون التغيير ثم أصبحوا يكرهون التغيير.. ثم لماذا لم يتعلم العرب مما حدث في العراق.. حين أقت زينب مرتضى بسؤالها لم يعد أحد يرغب في الكلام، لاعتقادهم أن ما من أحد يتعلم من الآخر في هذا العالم العربي لأن العناد يسيطر على الجميع.. والعناد هو أصل العمى.. وعلق إسماعيل داي قائلاً:

- لو أن البقر يتعلم من البقر الآخر، لما انتهى جميع البقر إلى المسلح..

ضحك الجميع على نحو يليق بمركزهم كأساتذة ومفكرين.. ولكن زينب مرتضى أرادت أن تقول ذلك على نحو أكاديمي:

- إن محاولة تغيير المجتمع من خلال محاكاة التاريخ أو تقلييد الرموز، أو استحضار الدين أو استعادة الماضي أمر سخيف.. لا يمكن تكرار ما حدث في الماضي.. والعرب الذين لا زالوا يحنون إلى الماضي هم أكثر بكثير من العرب الذين يقطعون مع الماضي.. وكما لو أنها أرادت أن تسفيه مثال لينين وقصة الخبز والسلام قالت أيضاً:

- إن لم يكن ما يحدث متصل مع ما يشعر ويفكر به الناس، يصبح الأمر مجرد تكرار على شكل مهزلة لانتصار تراجيدي قادم من الماضي.

*** *** ***

ما لا يعرفه كل من إسماعيل داي ونحيب سليمان وزينب مرتضى، أن خوسيه دي بلانتيرو رسام كبير في إسبانيا. وهو شهير برسومات البورتريهات الملطخة.. وبخبرته التي اكتسبها كجوال في المدن الإسبانية وكذلك في طنجة. أصبح يدرك أن الناس يكرهون الكاميرا وباتوا يميلون إلى تخليد صورهم عن طريق الرسم الحي. كما هو اكتسب خبرة أخرى في فهم تفاصيل الوجوه.. وتصنيفها.. فكان يميل إلى الوجوه البريئة ويتحااشى الوجوه الجامدة أو الشريرة. ولمدة سنوات طويلة قضاها على الأرصفة، تعلم أيضاً أن يقدم نفسه كفنان حقيقي لا كرسام متسلول. ففي اعتقاده تفوق على النزعة التسولية التي يتميز بها زملاؤه على أرصفة المدن الأوروبية.. لقد تفوق أيضاً على الكاميرا لأنه يعرف كيف يملأ لوحته بالانفعالات والأحساس والبهجة.. ولكنه حين أصبح أستاداً محاضراً قرر أن لا يعود إلى الأرصفة ويلتزم بالرسم في منزله.. في فصل الصيف عادة ما يأتي إلى طنجة. فهو يملك بيته عتيقاً يقع على ربوة باتجاه البحر والرياح الأربع.. فطنجة بالنسبة له نقطة تقاطع بين الشرق والغرب وبين أوروبا وإفريقيا.. استطاع أن يصبح أستاداً زائراً في جامعتها خلال فصلي الشتاء والربيع. أما في الصيف، فإنه يتحول إلى متسلك من متسلكيها.. لكنه كان دائماً يحظى بلقب «المتسكع الأنثيق».

في تلك الليلة تذكر طالبته ساندرا سلطاني مرتzin. في الأولى حين أورد اسمها في المناقشة حول سيرورات الثورة في إحدى زوايا صالون فندق ألبير الأول.. وفي الثانية حين صعد إلى

غرفته ورأى بورتريه «ماريا لوبوكينا» للرسام الروسي فلادimir بورو فيكوفسكي.. تأمل فيها كثيراً وراهن نفسه على أنها نسخة، وإن إله سيسرقها مهما كلفه الشمن، لأن ثمنها يزيد عن عشرين مليون دولار. أعجبه ذلك الحزام الأزرق المقلم بالذهب والذى ربطة على خصرها نحو الأعلى ليبرز صدرها أكثر.. انتهى الحزام من الجهة اليمنى بتقريرطة نافرة ومثيرة فيما كان رداءها الحريري ينسحب إلى الخلف ليتداعى على ذراعها. أما ذراعها الأيسر فقد كان يستند إلى كتاب وضع فوق المصطبة.. والأكثر مداعاة للتأمل بشراهة، تلك النظارات الحالمـة لماريا لوبوكينا.. إنها نظرات ساندرا سلطانية.. ها أنا عرفت الآن لماذا رسمت ساندرا مرتين بنفس الوضعية. لم يكن بإمكانـي أن أفعل غير ذلك حتى أحافظ بأحد أجمل رسومـاتي.. إن ما يعذب رسام البورتريه أنه يرسم وجوهـه تحت الطلب. وهذا يعني ما إن يفرغـ من رسمـه حتى يفقدـه.. حتى أن الإنجاز الوحـيد لرسام البورتريه هو فقدان روحـه رويداً رويدـاً مع اللوحـات التي يفرغـ من رسمـها.. في هذه الحال يشبهـ الموسـ، تمارس الجنس تحتـ الطلب. إذا أعجبـها رجلـ فإنـها لن تلتقيـ به مرةـ أخرىـ حتى لا تفقدـ سلطتها.. أما إذا حبتـ فإنـها ترمـي بابـنـها في دارـ الأيتامـ ولا تعودـ تراهـ!.. أو حتى تـتذـكرـ أينـ وضعـتهـ..

مع ساندرا، أصرـ آنذاكـ بلانتـيرـ وأنـ يحتـفظـ بالبورـتـريـهـ الأولـ ويعـطيـهاـ الثـانيـ.. وساـومـهاـ جـيدـاـ بـأنـ الرـسـمـ الأولـ سيـكونـ لهـ. ثم قالـ لهاـ:

لا أـريدـكـ انـ تـخـبـريـ أيـ أحدـ منـ زـمـلـائـكـ، لأنـنيـ لاـ أـقـومـ الـبـتـةـ
برـسـمـ طـلـابـيـ..

بعد برهة من الصمت أرادت خلا لها ساندرا أن تنطق ببعض الكلمات لكي تسجل بعض الاعتراضات حتى لا تبدو مستسلمة أو غبية أو سهلة الانقياد، أضاف دي بلانتيرو يقول:

- إنسى لحظة بأنني رسام فقط.. أنا أولاً إنسان. قد أعدم موهبتي أحياناً ولكنني لن أعدم إنسانيتي.. واقرب منها كما لو أنه يريد أن يشيمها قبل أن يبدأ في رسماها. ثم قال بصوت خفيف:

- أعرف أن المهوس بصورتنا قد يشكل فجاجة بالنسبة للبعض.. من الصعب أن نفلت من تلك النظارات المحرقة لنا.. ولكن الإنسان لا يستطيع أن يفلت من الاهتمام بنفسه والاهتمام بذاته على رأي فوكو حتى وهو في الشيخوخة. هذه الشيخوخة، تلك اللحظة الفارغة من الداخل.. القلقـة والمدركة إنها ذاهبة ب أصحابها نحو الحتف.. لم يرد فوكو على أرسطو وتركه يهدي أمام طلابه، لكنه فاجأه بالقول ذات مرة:

- المعلم أرسطو.. لقد كنت تهدي قبـل حين وأنت تتحدث عن الشيخوخة.. هل عرفت رسامي أثينا الذين يقومون بتخليد العشاق.. الم تقرأ عن الفراعنة كيف كانوا يحتفلون بالشيخوخة استعداداً للموت؟..

- ولكن يا سيد فوكو، أنت تعرف أن الشيخوخة ليست الموت العفيف.. إنها التدرج نحو الموت..

- نعم أعرف، أعرف أن شيشرون قد ألف كتاباً في معنى الشيخوخة. وصاغ كتابه في شكل محاورات. وقد رأى فيه معاصره قدرة عجيبة على فن التفلسف. الشيخوخة هي فعلاً ما تبقى من

العمر لكي نصل إلى الموت، هي ما تبقى من الوجود.. جميعدنا نتمنى بلوغ الشيخوخة ولكن ما إن نبلغها حتى نتذمر منها.. تصبح عنوان إهمال الوجود. يصبح العالم كله لا يعيك ذلك الاهتمام.. في الشيخوخة نفتقد مصادر الوجود.. ولكن إذا عرضت نفسك على رسام ذات مرة، فإنك ستشعر وأنت في الشيخوخة أنك لا زلت موجودا.. إن بورترية ماريا لوبوكينا لا زال يجعلنا على قدر كبير من الفتنة، وهي قد رحلت عن الحياة منذ أكثر من قرن. هاهي تبدو كشابة قوقازية بالنسبة لسائح قادم من تركيا أو من بلاد آسيا الوسطى.. وهي كذلك تبدو كسيدة أمازيغية بالنسبة لمواطن من المغرب العربي.. بل هي تبدو كما لو أنها من طنجة، لو رأتها ساندرا..

قلت لساندرا بعد أن عقدنا الصفقة:

- سأرسمك لا لكي أجعلك حاضرة في غرفتي، ولكن لأجعلك شابة في كل العصور..

ردت علي بابتسامة ثم قالت:

- سيد دي بلانتير: وأنا لن أدعك للشيخوخة..

■ الفصل الثالث

أمضت مهـى أكثر من ربع ساعة وهي تربط وتشـد من خيوط نعلها البـني.. ذلك النـعل الجـلـدي المـسـطـح الـذـي اشتـرـته من لـشـبـونـة والـذـي مـا إـن تـضـعـه في قـدـمـيهـا حـقـى تـصـبـحـ كـبـدوـيـةـ.. أو كـراـعـيـةـ إـغـرـيقـيـةـ تـجـوـبـ وـدـيـانـ وـجـبـالـ أـثـيـنـاـ الـقـدـيمـةـ، وـقـدـ تـحـولـتـ إـلـىـ أـرـصـفـةـ وـمـدـنـ وـمـوـانـئـ وـهـيـ تـعـجـ بـالـمـقـاهـيـ وـالـمـطـاعـمـ وـالـبـارـاتـ.. فـيـمـاـ مـضـىـ اـهـتـمـ الـأـثـيـنـيـوـنـ بـالـفـلـسـفـةـ وـلـمـ يـهـتـمـوـاـ بـالـعـلـمـ.. وـالـآنـ هـاـ هـمـ يـهـتـمـوـنـ بـالـرـقـصـ وـالـمـوـسـيـقـىـ وـالـأـكـلـ وـالـمـظـاهـرـاتـ وـلـاـ يـهـتـمـوـنـ كـعـادـتـهـمـ بـالـعـلـمـ.. إـنـهـمـ شـعـبـ شـرـقـيـ وـضـعـوـهـ غـصـبـاـ عـنـهـ دـاخـلـ الرـحـىـ الغـرـبـيـةـ، فـطـحـنـتـهـ طـحـنـاـ.

استـعـجـلـهـاـ بـرـنـارـ.. ثـمـ عـلـقـ قـائـلاـ وـهـيـ يـنـظـرـ إـلـىـ قـدـمـيهـاـ:

- عـبـقـرـيـةـ الرـأـسـالـيـةـ أـنـهـاـ تـعـيـدـ لـنـاـ العـصـورـ الـقـدـيمـةـ فيـ أـشـكـالـ مـزـرـكـشـةـ.. يـاـ إـلـهـيـ، أـحـذـيـةـ الرـعـاءـ أـصـبـحـتـ مـوـضـةـ فيـ عـصـرـ غـوـغلـ.. حـقـاـ أـنـ غـوـغلـ جـعـلـ مـنـاـ جـمـيـعـاـ أـمـاـ مـنـ الـبـدـوـ الـجـدـدـ..

وـفـيـ الـلحـظـةـ الـتـيـ رـفـعـتـ فـيـهـاـ رـأـسـهـاـ وـقـدـ أـكـمـلـتـ مـنـ شـدـ خـيـوطـ نـعلـهاـ الـذـيـ صـنـعـ مـنـ جـلـدـ الإـبـلـ، تـلـقـتـ إـشـارـةـ مـنـ «ـأـيـفـونـهاـ»ـ بـوـصـولـ رسـالـةـ.. فـتـحـتـ الشـاشـةـ بـسـرـعةـ فـرـأـتـ أـنـ النـصـ طـوـيلـ هـذـهـ المـرـةـ.. وـهـيـ رسـالـةـ مـرـادـ عـبـاسـ الـذـيـ تـرـكـتـهـ فـيـ تـونـسـ هـائـمـاـ بـهـاـ بـعـدـ لـقـاءـ

لعبت فيه الصدفة، لم يستغرق أكثر من نصف ساعة.. كتب مراد عباس في ذلك الصباح كما لو كان يجده أن مهني تتهيأ لجولة في أثينا التي وصلتها البارحة من البرتغال.. (صباحات الليلك مهني .. منذ يومين .. منذ أن حكى لي عن سفرك إلى اليونان وحبك للموسيقى اليونانية، وأنا لا أستمع إلا إلى الموسيقى اليونانية.. أصبحت مدمنا. وجدت فيها الملاذ والصبر والقوة والأصالة. تأكيدت مرة أخرى أن أثينا عاصمة الشرق. وروما عاصمة الغرب.. في الموسيقى اليونانية تستمع إلى النغمات والإيقاعات القادمة من الهند وتركيا وأرمينيا وإيران وبلاد العرب. ليست مجرد نقل أو تقليد وإنما هي تقاطعات أحلام وألام وملامح الشعوب، قال الإسكندر المقدوني: ذات مرة ذهبت إلى الشرق لأعلمهم الديمقراطية فعلموني الانضباط والموسيقى. الفلسفة والموسيقى يا مهني هي خلاصة العقل والتجريد.. لذلك سيبقى اليونانيون دائمًا معلقين بين الشرق والغرب) ..

بسريعة نقرت مهني بعض الكلمات إلى مراد عباس فكتبت:
- وجدت غبطة نادرة في رسالتك. أقبلك على أشد من مهل
وسوف أعود إليك. نهارك جميل..

لم يسألها برنار إلى من تكتب. فهو لا يريد أن يزعج نفسه، ولا
أن يبدو كرجل غيور. ولربما تساءلت عن عدم اهتمامه خاصة
 وأنها كانت تعجب على شفتيها وهي تقرأ رسالة مراد عباس. ثم رأى
أصابعها ترتعش وهي ترد على رسالته. وقد يكون أحس بأن هناك
شيئاً ما قد حرك الدوّلاب الداخلي لها. وعوض أن يتكلم بفجاجة،
جذبها من ذراعها بقوّة ودعاهما إلى الخروج..

جاءت مهى من البرتغال مباشرة وبالتحديد من لشبونة. قضت ليلة في لشبونة وليلتين في مدينة كومبيرا في فندق فخم وعريق اسمه «كنتاداس لا غريماس».. سكن في هذا الفندق رجال عظماء منذ القرن التاسع عشر. سياسيون وفنانون وكتاب.. أما أشهر حادثة وقعت بهذا الفندق فهي زيارة الجنرال سالازار لهذا الفندق في أربعينيات القرن الماضي.. ففي اليوم الذي نزل فيه سالازار وقعت جريمة قتل. أحد جنرالات الأمن الذين سبقوا سالازار بيومنين إلى الفندق قام بقتل عشيقته وتركها ممدة على الفراش في جناح قريب من جناح سالازار.. أخبروا سالازار بذلك لكنه لم يغير جناحه. أصرّ على أن يبيت ليلته في الجناح نفسه كما أصرّ أن تبقى جثة تلك السيدة القتيلة في مكانها.. في الصباح ألقى عليها التحية وأوصى لها بالرحمة من رب.. ثم غادر..

- تخيله شبيها بالفندق الذي نزلت فيه مؤخرا بطنجة.. قال برنار الذي وصل قبل يومين من المغرب.. ثم أضاف:

- هذا الفندق قديم جداً وعريق جداً.. نزل به فرانكلو وروزفلت وترشل وهمجنواي. ثم جاء إليه بابلو كوييلهو ولاكوسن وبورخيس.. أحسست أنه حين يكون المرء مع الذين لا يعرفهم إلا عبر الكتب يزداد فطنة وغبطة ووضوحا، فيما تصبح الأرض أكثر طراوة تحت قدميه..

قال لها مراد عباس حين كانت في لشبونة: «عانقي الكاندريات العملاقة وتذكرني أن لك صديقا ينتظرك في بلاد لم تنهض بعد من صدمتها».. وهو برنار يسألها عن ميعاد السفر إلى باريس.

فقالت: بعد يومين.. وهناك سنفترق.. أنت ستعود إلى كندا.. وأنا سأذهب إلى تونس.. أبي مريضة.. لا بد أن أكون إلى جانبها.. خيم الحزن على مهى بضعة ثوانٍ حين تذكرت أمها ثم قالت لبرنار:

- أريد أن أحضر حفلا راقصا الليلة في أثينا.. حفلا في الهواء الطلق.. وسأرقص كما يرقص اليونانيون. أريدك فقط أن تلتقط لي كثيرا من الصور حين أدخل إلى الحلبة.. لا بل سأفاجئك بأغنية يونانية..

كان برنار يحب موسيقى الروك الصاخبة. فقد تربى عليها منذ كان صغيرا. ولكنه كان أيضا يحب الموسيقى الرومنسية التي تثير بداخله القلق والشغف.. أما الموسيقى اليونانية التي تثير مشاعر صديقته مهى، فهي لا تصلح للتأمل مثل كلاسيكيات بتهوفن وسترافنزي وباخ ولا الغضب مثل الروك ولا الحماس والشعور بالمجد مثل مايكوفسكي ولا بالانشراح والانسياب مثل التانغو والفالس. إنها موسيقى جبلية يعزفها جوالون دائمون حتى لتبدو له كموسيقى جبلية، أصوات وإيقاعات قادمة من قمم الجبال.. وأنذاك فهم لماذا اختارت مهى أن تضع في قدميها نعلين مسطحين من الجلد، في ذلك اليوم.. ورغم التعارض في ذوق مهى وبرنار، فقد اعترف كل منهما للآخر أنه استمتع كما لو يستمتع أي مساء بالموسيقى..

قال برنار، وهو يدفع مهى إلى المصعد نحو جناحهما:

- الليلة فقط أدركت أنني على حافة الانهيار.. إنك فعلا مغنية وراقصة جيدة. لم أصدق أبدا مدى ولعك باليونان إلا في هذه

الليلة.. لم يتركها تردد. فقد عانقها ودس رأسها تحت إبطه لكي تشم روائح الجسد المحترق.. إنه ابنوس أملس ومعطر ومحلوط بعود القرنفل.. فبرنار ليس إلا مزيجاً لقصة حب بين رجل من بلاد الغال وأمرأة من غابات الأمازون!..

أما مهي، عصارة جزيرة جربة التونسية بكل أطيافها، فقد كتبت في الصباح إلى مراد عباس تقول:

- هل تعرف يا مراد.. البارحة رقصت وغنت كعريدة. ذهبت إلى مطعم على حافة البحر.. كان مليئاً بالرواد. يحتوي على ساحة كبيرة للرقص وتحيط بها الطاولات.. لا زال اليونانيون يحبون الرقص في الساحات. عدت إلى مراهقتى حين شاهدت فيلم زوربا.. سافر اليونانيون إلى كل بقاع الدنيا لا ليجلبوا البهارات والأفواية وإنما ليجلبوا الإيقاعات والموسيقى. إن الرقص هو دراما الإغريق في أعنف وأبهى تجلياتها.. ويتجلى ذلك من خلال المسرح حتى أن الأوبرا الأوروبية الحديثة ليست إلا استرجاعاً للدراما الإغريقية.. يقال أن أثينا القديمة اشترطت على مواطنها لكي يدخلوا إلى الجندي أو يتمتعوا بفضائل الديمقراطية، أن يتعلموا الموسيقى والرقص. فالفن والجمال والفضيلة هي أعمدة الديمقراطية الناجحة (أتمنى أن يتعلم ديمقراطيو تونس الجدد ذلك) أو أليست أثينا هي المعلمة الأولى لجميع الشعوب!..

جاء رد مراد عباس سريعاً، فكما لو أنه لم ينم أبداً البارحة أو أنه كان ينتظر مهـي خلف الباب..

- شكرًا عزيزتي.. لقد أيقظت بداخلي أثينا القديمة.. شهوة التعليم لا زالت عارمة لدى..

- هل تعرف يا مراد، أي هي التي علمتني الموسيقى.. ومعك لن أكون متغيرة.. سأسلك معك مسلك المتعة حتى تكون مطواعاً. توقف مراد عن الكتابة. فأحساسه لم تعد تتناسب مع حركة أصابعه. ثم أن الكلمات الصامتة تزيد من عذابه وشغفه.. طلب منها أن يتحدث إليها بالهاتف حتى يشعر بنغمات صوتها ولكنها أرجأت ذلك إلى وقت آخر..

- مراد، سوف أطلبك أنا على الفايبر.. لا تقلق.

كان برنار لا يزال تحت الفراش في ذلك الصباح. لم يكن هناك ما يشغله لأنه يوم عطلة. ولم أشاً أن أوقظه. فلعله كان مستغرقاً في حلم.. من عادتي ألا أزعج من ينام إلى جانبي، ولكني كنت أنتظر منه أن يستيقظ ويدخل إلى الحمام لأجد فرصة التحدث مع مراد. لقد عزّ علي انتظاره.. بين برنار ومراد مساحة كبيرة.. وأعتقد أن البعد أكثر شغفاً من القرب.. كان مراد هو أيضاً قد دخل وخرج من الحمام بسرعة حتى يتمكن من الرد على الهاتف بسرعة.. ولكن برنار تأخر إلى حدٍ قررت فيه مهـى أن تذهب إليه وتوقظه.. طبعت قبلة ساخنة على فمه ثم قالت:

- لا أظن أنك لازلت تتفرج على مهـى وهي ترقص.. قم انتهي الرقص..

ثم سألته وهي تدفع به خارج الفراش:

- قل لي ما رأيك في اليونانيين وفي حبهم للموسيقى؟

- يقال أن الأفارقة يملكون الإيقاع تحت جلودهم. يمكن أن يكون ذلك صحيحاً انتروبولوجياً، لكن اليونان جعل من تلك الفطرة ثقافة..

حين قفز برنار إلى الحمام، فتحت أيفونها ثم كتبت:

- هاي مراد. هل يمكنني أن أكلمك..

فجأة ظهر مراد على الشاشة:

- هاي مهـى.. ماذا تفعلين؟ لازالت أثينا تأسرك؟ متى سأراك في تونس؟

- بودي أن أكون هناك. لا زال أمامي حوالي أربعة أيام. سأكلمك بعد غد من باريس. وسوف أتحرر تماماً من كل عمل. لا بد أن أراك.

- أنت تقومين بقتلي بالتقسيط.. من كومبيرا إلى لشبونة ومن أثينا إلى باريس. تحاضرين، تتجولين، ترقصين وتتبخترين.. هذا ما يدهشكـي فيكـ. هل هذه مواهب أم حظوظ؟ لقد أيقظت بداخلي أشياء جميلة..

- كل شيء يبدأ في بطن الأم. أمي هي التي علمتني حب اللغات وحب الموسيقى.. في السيارة، كانت تطيل الرحلة من المدرسة إلى المنزل حتى تنتهي الأغنية التي تستمع إليها. كانت تفعل ذلك كما لو أنها كانت تصلي.. لا يجوز أبداً أن نقطع عنها لذة الاستمتاع.. فيما بعد عرفت أن الطفل يبدأون بتعليمه الأغاني والموسيقى قبل الدروس الأخرى. ربما كان ذلك أفضل درس للدفاع عن الهوية.. هذا ما يجعل اليونان لم تندمج مع الاتحاد الأوروبي كما يجب.. اليوناني عنيد وحبور ومتميز ومعتز بنفسه.. عندما أزور بعض الساحات العامة في المساء، أجـد الأطفال يرقصون مع الكبار.. هذا لا يجوز حسب مقاييس أوروبا وكندا.. بينما هو تعبير متميز عن الاختلاط بين الأجيال.. كل شيء يدور هنا حول الموسيقى.. فالموسيقى هي التي صنعت جـزاً من الهوية والدولة لدى الإغريق..

- إني أحسدك على هذه السياحة في المدن.. وأعشق قدراتك على الاختراق..

- ليس كما تعتقد يا مراد. ها أنا أعود لأنكلم معك «عربية كنت أفتقدها من زمان.. لم أكن متأكدة أنها ستجعلني قادرة على الاختراق كما تقول».. (استبدلت كلمة تعبير بكلمة اختراق)

أنهيت مكالمتي مع مراد بضحكه فيها كمية كبيرة من الدلع والخجل ثم ذهبت إلى بيت الحمام لأنأتأكد ما إذا كان برنار يسمعني أم لا.. بعد ذلك.. وكان برنار يرتدي ملابسه كتبت إلى مراد التالي: «فعلا أصبحت أكثر سعادة منذ أن عدت إلى الكتابة بالعربية.. ربما لا تستطيع أن تحب وتحزن وتبكي كما يجب إلا بلغتنا الأم.. (تساءلت بينها وبين نفسها ما إذا كانت تمثل وهي مع برنار).. هل أتعرف لك يا مراد.. لم أتوقف عن الكلام الصامت وأنا أتدوّق كلمة «اختراق». كان لها وقع خاص علي.. ستظل في أذني كجرس طوال هذا اليوم. سأجوب شوارع أثينا وأنا أردد كلمة «اختراق». أعطتني طاقة إضافية لتدوّق هذا النهار.

*** *** ***

كما ثمة مفاهيم كثيرة قد شوهت والتسبّت بالكذب، ثمة كذلك ألفاظ لم تعد حاملة لمعانيها النابضة والمكتنزة مثل: «كيف حالك؟». أو «صباح الخير». أو «إن شاء الله». هذه عبارات أصبحت روبافيكا اللغة اليومية.. كل الناس ينطقون بها ويرمونها يميناً وشمالاً ولا يعنون بها شيئاً إلا التعويض عن حالة رثة، حالة من الحزن والهشاشة يعيشها الناس في الشوارع.. يحدث

ذلك يومياً فلا نعود نتثبت من الخطأ والحمامة والكذب والتزلق والتملق والكيسة.. ونظن مع الوقت أن تلك العبارات جزء من الحوار أو الانفتاح على الآخر بينما هي في حقيقة الأمر، استغلاق داخل الآخر الماشر. فهي عبارات لا تباع لأنها بلا قيمة.. ولو كان لها قيمة لما كانت منتشرة في كل شوارع الدنيا. وفي باريس أشعر بالإختناق لكثرة هذه العبارات الملائمة بالنفاق.. أو هكذا أتخيل..

أنهيت عملي مبكراً اليوم. كان اجتماع مكثف وقصير قد نظمته جامعة كندا الملكية بالتعاون مع إحدى الجمعيات الدولية لحقوق الأقليةات.. اتفقنا على عدة ندوات سنقوم بها في أكثر من بلد مثل تركيا والبرازيل والمغرب وجنوب إفريقيا.. اخترت أن تكون مشاركتي في صميم اختصاصي: فن التواصل. لذلك اقترحت أن أقدم محاضرة في المغرب بعنوان: «خطاب التواصل المتعدد بين الأقليةات»..وها أنا أنزل من الفندق لشراء تذكرة الدخول إلى المسرح.. انتابتي هفة خلتها زالت للمسرح. انقطعت عن زيارة باريس لمدة سنتين. وحين عدت لها وجدت نفسي متلهفة للمسرح.. كنت أتوقف أثناء رحلاتي فيأغلب الأحيان بمطار شارل ديغول ولكن ما كنت أجد الرغبة في اقتحام باريس.. هذه المرة أشعر بسعادة لعودتي إلى باريس وكذلك لرغبي في حضور إحدى المسرحيات. اشتريت الباريسكوب ثم جلست بمقهي في «بلاص مادلين» لأحتمي من المطر وأتصفج الباريسكوب. كان هناك الكثير من السياح قد هجموا على المقهى حين داهمهم المطر. ورغم كوني سائحة، فأنا أكره السياح.. أفضل دائماً أن أكون السائحة الوحيدة أو مع البعض من أحب.. البعض الذي يدرك

جمال الأمكنة والأشياء. أعرف أنها أنانية مفرطة ولكن السياح فضيلة مزعجة ومملة.. الكل يتشاربه.. أغلبهم لا يتكلم إلا لغة بلده.. يلبسون نفس الثياب ونفس القبعات والأحذية ويزورون نفس الأماكن كالقطعان ويلتقطون نفس الصور في نفس الأمكنة.. لا أريد أن أجهر بهذا الكلام ولكنها خواطر لا أستطيع الإفلات منها..وها أني أظنني قد عثرت على ما سوف أشاهده على مسرح شاتليه. في العادة لا يذهب الناس إلى المسرح فرادى (ولكن بما أن برنار قد ذهب لزيارة أمه في ستراسبوغ، فقد اتصلت بصديقه لي لتصاحبني إلى المسرح غير أني لم أعثر عليها.. في كل مرة يقول لي الديسك: اترك رسالة). إنها مسرحية «العشاء» (le souper) وهي تروي ما تم بين تاليران وفوشيه بعد هزيمة واترلو.. كنت قد حضرتها في شكلها السينمائي - يوم خاص جدا - الذي أخرجه إيتور سكولا (سيقول لي مراد عباس أنه شاهد نسخة أخرى من فيلم «يوم خاص جدا» بإخراج ادوارد مولينارو. وقد قام فيه ميشال بيكونيه بدور تاليران، كما سيعبر لي عن عشقه لتاليران رجل كل العصور وفنان الدبلوماسية الفذ وكذلك عن عشقه لنابليون بونابرت رغم هزائمه)..

كتب لي مراد عباس في تلك الليلة أيضا:

«لا تنسى أن تتباخtri قليلا بين سان جرمان وسان ميشال.. وتوقفي قليلا عند مقهى «لودي ماغو» (les deux magots) لتترشفي قهوة على نخب من كان يجلس هناك وهو يحاكي خيالات سارتر بغيلونه الإفريقي والبير كامو بسيقارته الجيتان وكونديرا بقمعته المقلمة.. ثم انحنى قليلا باتجاه مونبارناس.. فهناك رمي

بأحل سنوات عمري على مقاهي أرصفتها، وأنا أناجي أطروحتات دولوز وغيتاري وغني ديبور حول الفلسفة الجديدة لمجتمعات الاستهلاك.. قبل قليل عدت لأتصفح ألبومك. رأيتك فاتنة ومشرقة تشبهين مدام بوفاري وهي تطل من شباك شقتها في انتظار عشيقها.. أو لأقل تشبهين مدام كلينتون حين كانت شابة وهي تخرج من الطائرة الرئاسية بصحبة زوجها الرئيس. أرفعي كاسي على نخب باريس التي لم أكن لأنام قبل أن تنام».

- لن أنسى.. أعدك بذلك.. ابتسمت كثيرا لأنك لم تطلع على ألبومي إلا الليلة.. أنا لا أتذكر جيدا ما يحتويه من صور.. لا بد أنأشكر أصدقائي إن كنت مشرقة كما تقول.. وسأرفع كأسي وكأسك غدا على نخب باريس.. سنتحدث عن تاليان ونابليون حين آت إلى تونس..

قرأ مراد عباس ما كتبته مهـى بسرعة ولهفة ثم أعاد القراءة، فلعله نسي بعض الكلمات.. راودته فكرة التواصل أكثر، لكنه خشي أن يبدو سخيفا وفجا.. فاكتفى بالقول:

- أهلا بك في بلدك.. قلوب كثيرة تهفو للقائك.. وأوها قلبي.. أنا في انتظار صوتك العذب.. ألف قبلة. أنها على عجل وآخرها على مهل..

*** *** ***

حسب مراد عباس، فإن تونس تعيش حاليا أكثر سنواتها رداءة وابتذالا.. فباسم الثورة والتحرر فتحت كل المجارير الأسنة والأفواه النتنة ودكاين الروبافيكا. نبتت أعشاب ثم تبisterت بعدما مضى عليها أكثر من صيف فوق أسطح الإدارات وفي شقوق الجدران..

لم ينتبه التونسيون أن بلادهم الذين أرادوا أن ينظفوها من الفساد قد أصبحت مزبلة.. يسافرون إلى بلدان كثيرة ويتمتعون بالحدائق والخدمات وحين يعودون إلى بلادهم يغمضون عيونهم عن كل شيء. من المطار إلى بيته يفتح التونسي العائد من باريس أو جنيف أو إسطنبول، شباك التاكسي ويرمي كل ما لم يستطع أن يتخلص منه في بلدان أخرى: علبة دخان فارغة، علبة بيرة، أوراق وبلاستيك لم يعد في حاجة إليها.. إنه يفعل ذلك بانتشاء في بلد الحرية!. يشعل سيجارة ثم يطلب من السائق السماح له بالتدخين.. لا يمانع السائق في ذلك ثم بمد يده إلى الخلف ليناوله سيجارة.. لا يتقيأ المرء عادة ولا يتبول إلا في التواليت.. وبما أن تونس أصبحت تواليت، فإن حق السياح الأكثراً انضباطاً والتزاماً حتى ولو كانوا يابانيين فإنهم يفعلون ما يفعله التونسيون..

وكما في الشوارع، كذلك في بلاطوهات التلفزيون.. يتتسابق الناس في المساء نحو بيوتهم لحضور نقاشات غاية في الإسفاف والسطحية عن الميراث والمثلية وحقوق الأقليات وزيادة الرواتب وأسعار الطماطم والفلفل والتهريب والفساد والمصالحة الوطنية ونکاح الجهاد.. وبعد ذلك يرتمون في أحضان مسلسلات حريم السلطان وأولاد مفيدة وقلوب الرمان، في انتظار يوم آخر لربما يكون أكثر رداءة.. «أقل عملاً.. أكثر كسلاً»..

لكن هذا كله لا يعرفه العالم الآخر.. حتى التونسيين القادمين من العالم الآخر لا يدركونه إلا مع الوقت.. فقد غطت الجوانز الدولية التي نادها التونسيون خلال هذه السنوات على عجزهم المستفحلي في ابتكار نمط حياة جديد يلتزم بكل شروط المواطن

الكريم.. كما غطى المديح العالمي لثورتهم على حقائقها المزيفة.. حتى كان العناق نوعاً من الحنacula.. فقد كان التونسيون مهياًين جيداً للدخول إلى عصر الثورة من باب الرداءة.. لم يكن يوجد من هو ثوري فعلاً، حين هرب الدكتاتور.. وظللت الثورة مكداة في الشوارع تحت حراسة جنرال آخر ولم يتقدم أحد لالتقاطها، حتى جاء حفارو القبور والمقاولون ورجال العصر القديم وتجار الروبافيكا واللحم الفاسد ليجعلوا منها سلطاناً وصوبجاناً.. أصبحت الشريعة أهم من القرآن. وصلة الجماعة أهم العبادات. ومراسيم الدفن أهم من الميت وعقود الزواج أهم من الحب.. والمحاجب أهم من الجسد، والجوائز أكثر أهم من الإنجازات والمال، أكثر من الكرامة والتهريب أكثر من الزراعة. والإضراب أكثر من العمل.. كل ذلك كان يحدث ولا يزال كما لو أنهم في لعبة لا تنتهي إلا بالموت.. دون أن يدرؤا أنه بعد نهاية تلك اللعبة، سيوضع الملك والمحسان والجندي في صندوق واحد.

في البداية خرج الناس بعفوية، مؤيدين للثورة وصارخين برحيل الدكتاتور. رفعوا علمهم الأحمر بعنفوان وبسالة وتصدوا للرصاص. في معظم المدن التونسية.. لم تكن هناك لا أحزاب ولا معارضات.. كانوا لا يزالون في الخارج.. ومن كان في الداخل شارك بعضهم باحتشام في مظاهرات الرحيل الأخيرة ويعضمهم الآخر راح يتفاوض من أجل منصب بسيط. شعر التونسيون بالقوة والكرامة وهم يتبعون رحلة رئيسهم نحو المجهول. وحين حط بأرض المحاجز، لم يكن هناك من يأسف على رحيله إذا صدقنا الوجوه والعيون. سيطر التسامح والانفتاح على التونسيين لمدة

أسبوع وبدوا كما لو أنهم شعب آخر، ثم بدأ الخلاف.. لم يكن هناك من يطالب بمنصب المشانق أو المقاصل، ولا حتى بإقامة محاكم ثورية.. ومن يوم إلى آخر، راح الإحباط يتسلل لهم.. لم يخرج لينين آخر.. ولا دانتون آخر، ولا روسيسيو آخر ولا شافيز آخر.. وإنما ظهر رجال آخرون منعدمو الضمير ومعباؤن بالإثم لكي يتصدوا لكل ما هو ثوري.. فتحت المساجد على مصراعيها وارتدىت أغلب النساء الحجاب وبعضهن النقاب. وانبرت خطب حماسية هنا وهناك تدعى إلى الفضيلة.. ثم تدفقت الأموال والوفود والحقائب من كل صوب.. استخدم مقاولو الثورات الخوف القادم من طرابلس أحسن استخدام. وتغافل الناس كما يحدث في الكواليس، حتى تم ترتيب كل شيء بأفكار قديمة ورجال خردة.. وفيما ظهر روسيمير قبل قرنين ونيف يطالب بالموت للأستقراطيين، خدم الملك وسبب قهر الفرنسيين، ظهر في تونس رجل مسن كان رمز النظام السابق يخطب ود الشورة ويمجد أعمالها.. قبل أربعة وعشرين ساعة فقط، كان هو رئيس مجلس النواب ونائب الرئيس المهارب دستوريا.. ألقى عدة خطب تحدث فيها عن الشورة المجيدة وكذلك عن كرامة الشعب وطيبة قلوب الناس حتى قال ذات مرة: «سأحافظ على هذه الثورة ما دمت موجوداً في هذا الموقع». كانت الخطب تكتب له ويطلب منه أن يقرأها دون زيادة أو نقصان.. وليس من حقه أن يتتسائل عن هذا الوزير أو ذلك الوزير ومن أتى به أو دفع به.. وعليه أن يختار بين أن يفعل ذلك بلا ضجيج أو يذهب إلى السجن حتى تهدأ النفوس.. اختار ذلك العجوز الذي تربع على كل الوزارات لمدة خمسين عاماً

حتى وصل إلى كرسي الرئاسة كأول رئيس بعد الثورة.. أن يفعل ما يأمرون به.. طلب فقط أن يظل في مبنى رئاسة الحكومة ولا ينتقل إلى القصر الرئاسي لأن من يدخله لا يخرج إلا بائسا ومطرودا.. هكذا كان يعتقد وقد دلل على منطقه لأحد أصدقائه بمصير آخر البaiات وبورقيبة وبين علي، لكن صديقه شجعه على الانتقال إلى القصر قائلا له:

- إذا أنت قبلت أن تكون رئيسا بلا شروط.. فعليك أن تستجيب لكل الشروط..

بعد أربعة أيام ذهب إلى القصر الرئاسي متकاسلا ومتدددا وخائفا.. وخرج إلى الشعب بخطاب مجد للثورة والشهداء والفضيلة والديمقراطية.. ثم دخل إلى النسيان ما إن ظهر رجل آخر لا يقل عنه عمر، كان أحد زملائه لأكثر من ثلاثة أربع قرن.. فقد دخلا معا للوزارة في الستينات. وها هما يدخلان مغامرة أخرى، مغامرة ما بعد الثورة معا.. حتى روسيبيير أصبح يتحدث عن الرب بسخاء بعد أن هاجم الكنيسة والمسيحية الشقيقة. كان يحمل على رأسه قبعة مزركرة بالريش وباقات من الورود ويتقدم إلى العروس الواقفة مع عريسها على باب الكنيسة ليبارك زواجهما. ولا بد أن هناك من كان يراه سخيفاً ومتملقاً بعد أن ساق المئات والآلاف إلى المقصلة. دانتون هو الآخر تقاعد عن الوجبة اليومية لقطع الرؤوس وأصبح داعياً إلى الرحمة والمحبة.. واصطاده روسيبيير فقال: «فقط المجرمون يطلبون الرحمة للمجرمين» قطع رأسه.. تحقق لروسيبيير انتصاره الكبير ولكنه كان انتصاراً أخيراً. وبعد خطبة قال فيها: أن الإعدامات بالكاد

قد بدأت وأن الرذيلة لازالت منتصرة في البلاد وأن أعداء الحرية يتکاثرون.. كان غاضبا جدا.. لكن في ذلك اليوم لم يصفع له أحد. أو كان التصفيق متواضعا. رأى في ذلك أن الجموع قد سيطر عليها اليأس. وبعد أيام قطعت رأس روبيبيير. كان روبيبيير لا يتردد أبداً في إعدام أعداء الثورة حتى سموه بقاهر الأرستقراطية. حتى الملك لويس السادس عشر تم إعدامه في عهده وكذلك الملكة ماري انطوانيت بتهمة أنه استقوى بالأجانب على شعبه. غضبت كل أوروبا، لكن الفرنسيين وقفوا للدفاع عن ثورتهم.. أعطى ذلك الدفق من التأكيد طاقة للثوريين فيما كان عهد «الإرهاب الشوري» يشتدد.. أثناء ذلك حكم النبلاء وقتل أعداء الثورة وتحققت المساواة أمام القانون وتوزعت أملاك الكنيسة والطبقة الحاكمة على الفلاحين الذين تحرروا من العبودية الإقطاعية.. بعد فترة تم إلغاء محكمة الثورة ونظفت شوارع باريس من الزبالات والدماء ثم انتقلت السلطة إلى مجلس خماسي. وتبنت كل من بلجيكا وسويسرا بعض مبادئ وإصلاحات تلك الثورة.. ولكن ما من أحد كان يعلم أن هناك جنديا بسيطا قادما من أحدى الجزر البعيدة التي خضعت فيما مضى لحكم الإيطاليين والعرب، سيظهر ذات يوم أنه أقوى وأمضى من كل الثورة الفرنسية!.

*** *** ***

قال مراد عباس لنفسه قبل أن يرحل الدكتاتور وهو ينظم إلى مظاهرات الرحيل: أن من يصدق الجموع، لا بد أن يكون مصيره مصير روبيبيير. وبعد عدة أيام رأى نفس الجموع في ساحة القصبة وهي تطالب برحيل رجال الدكتاتور.. خرج لهم جنرال في

بدلته العسكرية. رأى الناس يقتربون منه ويحيونه برفق.. وعدهم بالأمل وقال لهم: «كل شيء س يتم حسب القواعد.. لا تخافوا على ثورتكم». صفق كل الحاضرين، إلا مراد عباس أخذه غضب شديد وهو يقول لزميله: بالتأكيد هذا ليس تروتسكي قائد الجيش الأحمر ولا هو نابليون.. إنه بينوشيه آخر طبعة أمريكية».

يستطيع مراد عباس أن يخفى غضبه. ويستطيع أن يقول أشياء عادية كما يفعل رفاقه. بل كان يستطيع الذهاب إلى الجنرال ويصافحه، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه بلغ من العمر ما يجعله صادقا مع نفسه.. ما يجعله ليس في حاجة إلى الكذب.. كان يقول دائماً لرفاقه: حين نبلغ الأربعين لا نعود في حاجة إلى الكذب.. إلا إذا كانت النذالة من طبعنا.. رأى الشعارات التي تروج لنجاح الثورة خادعة وهي التي ستقضى على الثورة. ومنذ أن استسلم الرفاق إلى النوم تحت الخيام في حراسة الشرطة والجيش، أدرك أن الثورة قد وقع بيعها كما تباع الأغذية.. بدأت الماكل والبطاطين والأموال وحتى علب البيرة تأتي من كل صوب.. ثم بدأت علاقات الحب تنبثق هنا وهناك تحت الخيام والأغطية. ثم طالت الاعتصامات كل الفضاءات.. أصبحت نمطاً جديداً. تتبناه الجمعيات والأحزاب والنقابات ويموله المقاولون وتحرسه الشرطة والمصفحات.. هناك من اخترع مصطلح ثورة الشعب والجيش، آخرون سموها بثورة الياسمين الهدائة.. صحفيون مبتدئون أطلقوا عليها الثورة الذكية لشعب ذكي.. ففي زمن الاستهلاك، تصبح حتى الثورة نمط حياة جديد لكل الكسالى والبوليس والعملاء ومسألة ترفيهية مثل لعبة البلاي ستايشن للحصول على متعة أكثر سخاء.

وأكثر امتداداً وسعادة مما نفعل عادة.. ففي زمن الاستهلاك أيضاً يقول الرفيق لرفيقه: لا التزام مع خط الجماهير، لأن الجماهير لا تدرك الثورة إلا بما تقدمه لها من أموال ومساعدات وإنجازات.. ويقول الحبيب لحبيبه: لا التزام نحوك ما دامت هناك زواجات مدبرة تقوم بها شركات معروفة. وتقول الشركات لزبائنها: أين هي بوليصة التأمين.. كذلك في الجنس، توجد اللذة فقط للمتصل. أما مع الحب فيصبح الاتصال هو اللذة أو الاستمتاع باللذة.. الحب في زمن الثورة يصبح إعادة ابتكار للحياة.. أما في زمن الاستبداد فهو تأييد للاستبداد عن طريق الاستغراق في إعادة تكرار الغباء.. أصبحنا نذهب إلى الحب كما نذهب للاعب كرة القدم أو حفلات البيرة.. ليس ثمة ما يثير البهجة إلا استفراغ الكميات الإضافية من الإحباط. وهكذا مع الأيام أصبحنا نذهب إلى الاعتصامات كما لو أننا ذاهبون إلى التواليت للتخلص من كميات الجمعة التي أثقلت مثانتنا. كان مراد عباس قد أدرك أن الناس بدأوا يخلطون بين الثورة والسياسة.. فالذي لا يريد الثورة يقال له متعرف لا يفقه في السياسة، والذي يريد أن يصبح سياسياً يجد نفسه مرتهنا لدى رأس المال الجوال.. لقد هجم رجال الأعمال على الشورين لا ليركبوا الثورة كما كان يقال أو للاحتماء من الثورة، ولكن ليقتربوا بهم عالماً يريدون إعادة السيطرة عليه وهندسته حسب شهواتهم ومصالحهم.. وبالنسبة لمراد عباس، فإن ما تبقى من عمره وهو يقترب من الستين لا بد أن يضعه بدقة في ميزان الزمن.. فالشيخوخة هي جوهر سياسة الزمن. علينا أن نحسب جيداً لأن المستقبل أصبح يتطلب بداخلنا. أما الماضي فهو ما انفك

يتمدد.. والحاضر ليس إلا برهة ذاهبة نحو النهاية.. ما يتقلص فيينا في زمن الشيخوخة ليس الجيد فقط، بل الوظائف وال العلاقات حتى الطموح وروح المجازفة.. وهنا تبرز نقطة الخلود لدى أولئك الذين يملكون بداخلهم حساسية الزمن.. يصبح الهاجس إذن هو البحث عن معركة تصبو إلى الخلود حتى وإن كانت خاسرة.. معركة تحتفظ ببعد المستقبل قدر الإمكان.. تؤجل نعيم الحياة. تعيد للقلب نبضه القوي.. تستفيد من امتحانات الماضي، تلتزم مع آلام الناس، تصنع وجودا آخر ما بعد الوجود.. هذا ما أدركه مثلاً الباقي قايد السبسي.. ولكن بحسه الانتهازي لا بحسه الشوري. لقد ودع حياته المرئية قبل الثورة بعدة سنوات.. كتب مذكراته ورفع منديل الوداع. قرر أن يترك العالم قبل أن يتركه، ولكن ما إن انفتحت باب السماء على تونس وأنعمت عليها ثورة هادئة وناعمة ومحروسة من الشياطين حتى استيقظ الباقي من غفوته وطرد الشيخوخة من ذهنه وقام يترجل باحثاً عن بقية من عمره. كانت قدماه تصطكان أحياناً وتمتنع عن المشي، ولكن الطموح الذي لم يتم بداخله وحاجته إلى الخلود دفعه واقفاً.. قال لنفسه: من المستحيل أن أذهب إلى الأذى إذا لم أذهب إلى الحياة مرة أخرى.. لم يمانع طويلاً حين اقترحوا عليه ذلك المنصب الفاخر، رئيساً لحكومة الثورة.. قال فقط: سأحكم حسب الباقي لا حسب الآخرين.. وبدفعه واحدة ظهر واقفاً يخطب.. وبدفعه واحدة منح كل السلطات التي لم يتمتع بها حتى الرئيس الهاجري.. فمن يحكم بالمراسيم لا يقف أمامه حتى الجنرالات!.. آنذاك كان مراد عباس يحتسي قهوة بفندق الكونكورد الذي تحول إلى غرفة

عمليات متعددة الاختصاصات.. يديرها صحفيون وجوايس ومستشارون دوليون ومستثمرون في الثورات ولاعبو بورصة ودبلوماسيون سابقون وتجار ومهربون وجنرالات متقاعدون وممثلون عن المجتمع المدني والأحزاب ولبيبيون قذافيون وأخرون أطلسيون.. تسأعل مرة بينه وبين نفسه: ماذا لو دخلت مجموعة ثورية مسلحة وألقيت القبض على كل هؤلاء؟ هل يمكن تغيير مسار الثورة؟ هل يمكن بهذا عملياً، استرجاع الثورة؟ تلك الفكرة سرعان ما أسقطها من ذهنه لأنها لا تساوي شيئاً في عالم اليوم.. ثم لنفترض أنها حصلت. فهي لن تفعل أي شيء مفيد.. ربما وقعت مذبحة ولكن لن تكون هناك أية فائدة. فهذه الثورة لو لم تكن في الأصل مركبة في الخارج قطعة قطعة، فإن لا أحد كان سيقدر على تفكيرها بهذه السهولة. فالذين قاموا بها هم الذين يقودونها إلى حيث يشاءون.. إلى حتفها.

*** *** ***

لا يمكنني أن أحاسكم نفسي على أنني إنسان عاطفي. كما لا يمكنني أن أخجل من كوني إنسان عاطفي.. فالآخر أن نجد الشخص العاطفي حتى لو كان لديه فائض من العواطف الجياشة. فهي في الأصل قيم مخزنة لدى الجميع في أعماق الإحساس البشري. ولا شك أن قيمة بهذه يمكن للإنسان أن يفخر بها.. سار العرب على هذا النحو منذ أن تغنى شعراً وهم بقيم الفروسيّة والوفاء والحب.. أصبح الحب لدى عامة الناس وحتى لدى النساء شيئاً يمكن أن يفتخّر به المرء دون أن يخجل، لا بل حتى نساء العرب ما كن ليخجلن إذا وقعن في الحب.. ليس ثمة من احتل

ذاكرة العرب مثل قيس وعنترة وأمير حلب أبو فراس الحمداني وهارون الرشيد.. وليس ثمة من استقرت في أفئدة نساء العرب أكثر من ليلى وعلبة وبثينة.. على هذه الخلفية العاطفية تم تأسيس القانون في أوروبا. وقبل القانون قامت الثورات. ولو لم يعشق نابليون بونابرت جوزفين ما كان لينتصر في معارك كثيرة.. لذلك أجدني حائراً ومتسائلاً عن الحب المفقود في الثورات العربية. لا توجد أية قصة حب حتى لو كانت جافة أو فظة.. ما من زعيم يتكلم عن الحب، كما لو أنه فاجعة.. وكيف لثورة أن تنجح دون قصص الحب؟ ولو كان زعماؤها يعرفون الحب، لتمكنوا من قيادة الثورة.. سيطر رجال مدججون بالكراهية ونساء مدججات بالسوداد، وهم يتبعجون باستقامتهم وتقواهم كما لو أنهم ذاهبون إلى جنازة.. ولو كانوا يعلمون أن الثورات تحب الحب لزنعوا جلابيبهم وخلافهم وأحجبتهم وحلقوا لحيهم وخففوا ما يجب تخفيه لكي يسترجع الجسد فضاءه وانتعاقه!..

كنت دائماً أعتقد ولازلت: إذا كانت روح المرء منعمة بالحب، فإنه يكون قادراً على فعل الشيء الطيب. فأنا أفكر مثل القديس أغسطين الذي لا يختلف عن الرسول في نظرتهما إلى المحبة.. فالمحب أو المحبوب لا يكون إلا طيباً وخيراً.. وهو يكون على حق حتى حين يخطأ أو ينحرف قليلاً.. ولكن ما كان يزعجني فعلاً أنني لم أكن أجد أناساً طيبين في القصبة أو في شارع بورقيبة.. فقد رفعت تلك الطيبة منذ الأسبوع الثاني للثورة.. ولم يكن ثمة شيء من ذلك الحب الذي عرفه ميدان التحرير منذ أن ذهبـتـ الشـوـرـةـ إـلـىـ الـاـنـتـخـابـاتـ مـتـبـعـةـ خطـ سـيرـ المـجزـالـاتـ.. وليس

مهما الآن أن تعرف من الذي بدأ بإطلاق النار في ليبيا أو سوريا، ولكن ما نعرفه أن لا أحد من أولئك الشوار قد أهملهم الحب حكمة أو شعلة توقدها أيادي كثيرة لإضاءة الطريق!!.. إن غوغل لا يعلم الحب إنما هو يعلم الديجل، لذلك خرج من تحت الأرض وكذلك نزلوا من السماء دجالون كبار يسعون إلى الإيقاع بكل ما كان يتفاخر به ويتماسك به المرء الذكي.. أطاحوا بالذكاء والحكمة والحب كما أطاحوا بالأنظمة بداعي الكراهية من أجل الاستحواذ والسطو.. كنت أراقبهم وأتناقش معهم وكانوا يبدون حرضاً شديداً على مسار الثورة ثم أجدهم فيما بعد ييررون الأخفاء والحمّاقات.. كانوا يقولون: لا تقلق، سوف نضرب هذا.. وسوف نؤدب ذلك.. أياً ذلك فهو ساقط بطبيعة.. وهذا قد تاب وأصبح من صفات الثورة.. وكان يعجبني أن أسمع ذلك لأنَّه لم تكن لدى حيلة أخرى سوى أنْ أصدق ما يقال لي.. ومع الأيام، أصبحت أصدق، بل أردد للأخرين ما سمعته وأضيف عليه شيئاً من البهارات لكي أبدو أكثر إقناعاً وأكثر صدقية.. ولكن في قرارة نفسي.. في تلك القاع الخالية من الاقتناع، كنت حزيناً لأنَّ مستوى العاطفة قد راح ينخفض إلى أنْ بات حوضه جافاً كأي بحيرة يصلها الجفاف.. تماماً مثل بحر الأورال..

أجل، كان رأي كونديرا الروائي متطابقاً مع رأي المؤرخ هويسباوم: لقد كانت دائماً كل من روسيا وفرنسا ملهمتان للثورة والعواطف المتدفقـة، وكذلك للمسيحية الروحانية. وبتلك الخلفية ربما أعطت كل من فرنسا وروسيا ثورتين عظيمتين.. كانت فرنسا الكاثوليكية قد تعـبت من سجون ملوكها واحتقارـهم

للشعب فانتفضت ونجحت في فرض جاذبيتها التاريخية.. كذلك فعلت روسيا الأرتدوكسية فأعطت ثورة متميزة.. ولكن لا تنسوا مقدار الحب في هاتين الثورتين.. انسوا الدم الذي سال في الشوارع وتذكروا ما أضافت هذه الثورات إلى البشرية. حين احتل الألمان كل من فرنسا وروسيا، قالت النساء للجنود الغزاة «قد تكونوا قد أشبعتم رغباتكم الجنسية، ولكن روحكم لن تشبع».. تماما.. هذا ما يجب أن يقوله رجل سوداني أو عراقي أو ليبي لابنة الزعيم الجديد. اجلسني حيث تشاءين.. إذا لم تجدي مكانا، فاجلسني بين فردي حذائي.. فهنا كان يجلس الجنرال جعفر النميري والجنرال بن علي.

هكذا لم نتعلم من أوروبا شيئا.. لا العقل ولا العاطفة.. وحين جاءت الثورة إلى العرب التي انتظروها طويلا تحولت إلى وباء ودماء.. حوالي نصف ذيئنة من الثورات لم تنفع واحدة منها.. فلو لعبت في الكازينو على ستة أرقام، فإني سأراهن أنني سأجني أرباحا كثيرة.. ولكن.. وها هي الدموع تلمع في عيني، أقول معترفا: لأننا لم نتعلم الحب، فإننا لن نصنع أبدا ثورات!..
أنا مراد عباس العاطفي جدا..

■ الفصل الرابع

لو اتخد مراد عباس قبل أسبوعين عدة إجراءات صغيرة لتحسين صورته لدى زوجته لأنقد زواجه قبل أن ينهاه.. كان يمكن أن يثير بهجتها بمجرد أن يعترف لزوجته بمعامراته الأخيرة مع إحدى زميلاتها. كانت ستيفاني نيكولاوس التي تخلت عن لقبها وحتى عن دينها المسيحي منذ عشر سنوات وأصبحت تسمى بستيفاني عباس مستعدة لنسيان ما حدث. ولكن مراد أصر على أن ينهاه ذلك الزواج.. فرغم غيابها الطويل عن البيت بسبب عملها كمراسلة صحافية لإحدى الوكالات الأجنبية، إلا أن مراد لم يكن ليشكو من أي نقص.. هناك خادمة ناشطة ومتفهمة.. وهناك سائق يوصل ابنه طارق إلى المدرسة يوميا.. ثم أنه لم يكن يشعر بأي ضغط من ناحية حريته الشخصية. وأكثر ما كان يفتخر به أمام نفسه، أن ستيفاني امرأة وفية ومحبة وعلى غاية من الجمال.. وطيبة مع أهله وأصدقائه. الرباط الذي كان يوحدهما كان شفافاً جداً.. تحدث عنه بوذا وسماه بالسعادة القصوى أو النيرفانا..

اشتكت ستيفاني لإحدى زميلاتها أثناء تغطيتها لذكرى انتحار محمد البوعزيزي الثانية.. من ألمها وهي ترى زواجهما ينها دون أن يكون بإمكانها أن تفعل شيئاً.. قالت:

- كان يمكن إنقاذه ولكن لا أحد تقدم إلى تلك المهمة. لا أحد من عائلته أو من أصدقائه. اليوم هذه الذكرى تبدولي وكأنها إنذار بأن الحريق سيطال بيتي. ورمت بعيون دامعة: منذ مدة وأنا أراقب زوجي وهو يتتحول إلى إنسان آخر.. لا أعرف ما إذا كان ذلك بسبب تأثيرات الشورة.. انفعالاته أصبحت لا طاق. إنه يبتعد عني كل يوم بمسافة.. لقد تغير.. لم يعد هو مراد الذي أعرفه. وحين أعود من عملي أراه غير مهتم وغارق في صمت مريض.. وحين أحدثه إما انه يرد بصوت خافت غاية في اللؤم.. أو أنه يضحك كما لو أنه يريد أن يطرد الكلمات من فمه.. وبما أن مزاج كل واحد منا يعتمد على الآخر، فقد أصبحت أقل استجابة وحبورا.. لقد أصابني بالضمور. هذا أمر لم أعرفه من قبل.. إنه الإهمال.. الذي هو أفع ضع من الفراق..

كانت ستيفاني تتحدث بشيء من المراارة مع زميلتها سلمى قرب عربة بقال متجلول، حين قالت لها:

- هذا يشبه البوعزيزي. ما رأيك لو أجريت معه حواراً قصيراً.. ثم اقتربت منه.. رشقها بنظرات حادة كادت أن توقف الدم في دماغها ثم استفاقت وطلبت منه أن يزن لها كيلو من الموز.. أثناء ذلك سألته قائلة:

- هل تعرف البوعزيزي قبل أن يحترق؟!
قال لها دون أن يرف له جفن:

- هذه عربته.. لقد ورثتها.. بالأحرى لقد اشتريتها..
- من اشتريتها؟

- من البلدية..
- كيف؟
- صادرتها منه البلدية قبل أن ينتحر.. وحين توفي عرضتها للبيع في مزاد علني..
- أضاف هذا البائع يقول (وظنته إما أنه كان يمزح أو كان يتفاخر):
 - لقد فزت بشرائها أنا مع أنني لم أدفع إلا نصف ثمنها نقدا..
 - ومن دفع النصف الثاني؟
- استظهرت للبلدية بورقة مضادة بيدي وبين محمد البوعزيزي تفيد أنني أقرضته مبلغا من المال قبل نحو عام.. تدارك قليلا ثم قال:
 - لا.. لا.. أعطيته سلعة في ذلك الوقت. وقد اتفقنا على أنها تساوي قدرًا معينا من المال.
 - هل هو قريبك؟
- كنا أقرباء في هذه القرية الكبيرة التي قلبت العالم العربي رأسا على عقب..
- هل تعرف أن اليوم يصادف ذكرى احتراقه الثانية..
- وما الجدوى من ذلك؟ قال باع الخضار المتجول ثم رفع من صوته ليحتاج على هذه الأعمال التي وصفها بالفلكلور.. قلب الميزان على قفاه، ففهمت أنه أوقف عملية البيع حتى يكمل كلامه. وسمعته يقول:

- أنتم الصحفيون، تأتون هنا لتسألوا عن البوعزيري وتفاصيل البوعزيري. وما إذا كان شخصاً حقيقياً أو شخصاً افتراضياً صنعته الميديا.. ثم تذهبون لتصوير بيته وأهله..وها أنتماليوم عثرتم على عربته وعرفتم من اشتراها ومن يعمل عليها.. وهذا كلّه لا يصنع لا لقريته ولا لأهله أي شيء مفيد.. غير الضجة.. هداً قليلاً ثم أضاف:

- أنت الآن تصنعين مني حدثاً لتبيعيّنه بالأموال إلى المتلهفين مثل هذه الصور.وها أني قد أمضيت معك ربع ساعة دون أن أبيع رطلاً من البرتقال أو الموز.. فهل بإمكانى أن أطلب منك استحقاقاتي..

آنذاك شعرت أني دخلت إلى منطقة حرجة.. منطقة شائكة لم أتعود عليها ولم أتعلم الخلاص منها ولكن الحشود التي بدأت تلتف حولنا أنقذت الموقف. وتدخل أحد المارة ببعض الكلمات:

- عيب.. عيب ما تقول.

تلتف البقال كلمة عيب ثم أعاد رميها إلى ذلك الرجل:

- العيب في بيتك.. يا صاحب العيب..

ولولا تدخل بعض الجنود الواقفين بالقرب منا مع مصفحتهم، لربما حدثت عملية انتشار أخرى لبقال آخر هو وريث عربة البوعزيري.. تركته يشتم ويسكب الترويّكا ويصفها بأقدر الأوصاف ثم سمعته يقول: أتركونا في حالنا لو كان خير في هذه الشورة لما التحقت أم البوعزيري إلى حيث يقيم قاتل البوعزيري.

كتبت تلك «الستوري» بأسلوب ساخر حتى لا أثير غضب أحد من الأهالي.. وقد أعجب بها رئيس التحرير فعمل على بثها بشكل

جيد. حتى بلغت أرجاء العالم.. وكان الأمر مثيراً من خلال التعليق التي قرأتها على صفحتي الخاصة في الفيسبوك. أحد المعلقين كتب يقول: «البوعزيزي يظهر حيا».. وعلقت سيدة أخرى فقالت: «عربة البوعزيزي تعود إلى الأسواق دون البوعزيزي»..

حين كانت ستيفاني تتصفح مثل هذه التعليقات داهمتها نوبة ضحك، فسألها زوجها مراد وكان على الأريكة بالقرب منها:

- لا بد أن أهالي سيدي بوزيد قد شبعوا فيك وفي زوجك سبباً وشتماً.. ثم أضاف:

- هذا ما أتوقعه.. أليس الأمر هكذا.. ألم أصبح عندهم غبياً وذا قرنين وسفهياً. وأنت ألم تقرأى بأنك عاهرة، جاسوسة وعميلة..

- نعم كل ذلك. ولكن هؤلاء الذين يشتمون أقلية. الأغلبية تمتدحني وتصفني بالمبذعة والشجاعة..

- ألم يقولوا عنك ساذجة؟

هزتني كلمة ساذجة.. فعلاً لقد رأيت نفسي ساذجة. أحياناً نشعر بالخفة ونتساءل ما معنى أن يكون المرء ساذجاً. أليست طريقة للحياة.. أليس من يصفوننا بالسذاجة هم السذج.. وما عكس السذاجة؟ هل هو الذكاء؟ هل هو الإدراك؟ هل هو الوعي؟ وما ينفع كل ذلك في سوق خضار أو في الأسواق الشعبية أو أمام جزار أو حتى في مطعم شيك؟ إنك لن تفعل بذكائك إلا التعب. سوف تشتري لحما فاسداً دون أن تدرك ذلك. وستأكل أكلًا باهتاً وقع تسخينه على الميكروويف دون أن يكون بإمكانك أن تختبر.. وسوف تدفع ما يطلب منك دون أية مناقشة.. وإذا أردت أن

تكون ذكيا، فسوف يجعلون منك ساذجا أمام الجميع.. ولذلك فالآخرى أن تكون ساذجا متعاشا مع سذاجتك.. متفاعلا معها.. ومتيقنا دائما من حضورها.

*** *** ***

حين حلت الذكرى الثالثة لانتهار البوعزيزى. كان قد مضى على طلاق ستيفاني ومراد حوالي نصف سنة.. لم تمتلك بعد ستيفاني امرأة الأربعين، الشجاعة لاتخاذ صديق أو عشيق.. وجه جميل شهوانى، حين تنزع الكاسكت. وساقان منحوتان تحتا بياتقان، وصدر ناهد ومتيقظ ومؤخرة في غاية الاكتناز.. وبهذا الجسد لا بد أنها مشتهاة ويتمنى كل رجل في هذه البلاد أن يصحبها إلى مطعم أو مقهى ليعرض قدراته على إغواء النساء الفاتنات.. عروض الصداقة والزواج كثيرة.. رجال كبار وأقوياء يعرضون خدماتهم عليها، لكن جسدها منذ أن قرر مراد الطلاق لم يعد مطينا لها.. لم يعد ملك عقلها أو أحاسيسها.. في السابق كان ملك مراد.. والآن لا يزال كما لو أنه من ملكية مراد الخاصة.. هكذا تخضع المرأة جسدها لرجل ما.. وحين يغادرها ذلك الرجل، ينتقض الجسد ولا يعود مطواعا فيقال، امرأة خانها جسدها كما يخونها زوجها.. فعلا يحدث ذلك حين تتعرض المرأة للخيانة.. تصبح شغوفة أكثر بأشياء أخرى. تذهب إلى التمارين الرياضية، تكثر من أكل السلطات، تستغرق في الموسيقى.. كل ذلك من أجل أن تسترجع جسدها أو تسترجع سلطتها على جسدها.. إنها لا تريد العودة إلى مراد. فهو رجل قد بالغ في إهانتها قبل الطلاق.. وبداء متغطرسا ومتوترا كما لو أنه مشدود بخيط كهربائي، ولكنها تريد

التخلص منه حتى تحرر جسدها كاملا.. فكانت أن تكون فكرة التحرر الجسدي التي تراودها خاطئة ولا تعود أن تكون وهمًا، لأن المسألة قد تكون مترتبة بما يسمى بالروح، أي أن روحها لازالت ملتصقة بروحه، غير أنها وجدت في ذلك التفكير نوعاً من العودة إلى الأفكار المسيحية.. ادخرت ذكائتها لأشياء أخرى وأقنعت نفسها أن الحب الذي لا تزال تكتنفه لم يراد ما هو إلا رغبة للاندماج مع شخص آخر لتحرير جسدها من مراد.. وهذا ما سوف يملأ حياتها من جديد بالمعنى..

تخلت في البداية عن لقب زوجها عباس.. وعادت إلى لقب عائلتها نيكولاوس.. وارتأت أن ذلك قد يكون خطوة نحو استرداد جسدها وروحها من هيمنة مراد.. ولكن الهيمنة تستمر حتى عندما نغير من أسمائنا وأشكالنا لأنها مغروسة فينا.. وفي أحيان كثيرة تزييدنا تقلبات الشريك العاطفية تعلقاً بالذى قد مضى بأكثر من الذي قد يأتي.. فقد يكون من المحزن في الحب أن الأفضل لنا يصبح هو الأسوأ.. قال شكسبير ذات مرة: الحب جحيم لا يطاق.. أما الحياة بلا حب فهي نعيم لا يطاق.. وختم: لذلك هو أعمى وسيظل أعمى..

أصبح مراد في مكان آخر لا أعرفه.. لا أراه إلا نادراً حين يأتي ليزور ابنه.. لم يعد يهمني ما إذا كان قد دخل في علاقة أخرى.. لا أعرف كذلك ما إذا كان سعيداً أو بائساً كأغلب المطلقين.. لقد ظل على وفائه وحبه لابنه، ولكنه لا يبذل مجهوداً خاصاً للعناية به.. أصبحت المسؤولة كلها على عاتقى.. ولذلك خفضت من تنقلاتي وسفراتي.. وحين كان مراد يريد أن يزور ابنه كان يهاتفني

ويسأل ما إذا كان الولد يحتاج إلى شيء ما.. لم أكن متأكدة من أن مراد يفعل ذلك لسعادتي أو لخاتلتي أو فقط وكما كان يجب أن افهم: أنه حريص على إسعاد طفله لا أكثر ولا أقل! كنت أسعى إلى ملاحظته في بعض الزيارات حين يكون مزاجي رائقا.. غير أنه لم يكن يبادرني أية كلمات واضحة.. وفي إحدى الزيارات قررت أن أكون كما أنا: لا لطيفة ولا متعجرفة.. ألتزم الصمت وأرد على أسئلته إذا ما سأله بمعيار دقيق. ثم قلت لنفسي: «إذا أردت أن تغييري الأسلوب الذي يعاملك به الآخرون، عليك أولاً تغيير الأسلوب الذي تعاملين به نفسك. فما لم تتعلمي كيف تحبين نفسك حباً شاملاً، فليس ثمة وسيلة يمكن أن يحبك بها الآخرون. حتى ولو كان زوجك أو عشيقك».. كانت هذه من وصايا أحد الصوفيين. وهي قاعدة لدى المسيحيين الأوائل كما هي لدى الصوفيين المسلمين.. وأردت أن أجرب ذلك، ولكنني وقفت عاجزة عن تطبيق هذه الوصية.. فما إن يحضر مراد حتى اشعر أن قدرتي على التحكم في نفسي قد بدأت تفلت مني.. صحيح أن مراد يجعلني أتذكر بعض الرجال الذين عاشرتهم وأنا عزباء (وهذا لم يحدث معي إلا بعد طلاقنا).. ولكن ولا مرة فكرت في اغتصابه أو إغوائه وهو يزور طفله..

*** *** ***

كنت أبتعد يومياً عن ستيفاني. وحق حينما كنت أحضر لزيارة أبني طارق كنت أقاوم بأن لا أعود إليها أو تعود إلى. كنت كمن كان متزوجاً من عاهرة. ما إن تتخلص منها حتى تهرب بعيداً.. تنقض

ثيابك وتلمس قلبك ثم تنطلق من جديد كأنك رجل جديد!.. هذا كلام غير جدير. بل هو منحط ولا ينطق به إلا منحط. فالمرأة التي غيرت دينها من أجل أن تندمج في عائلتك ومحيطك ليست منحطة مثلك يا مراد. قلت ذلك لنفسي التي رأيتها تنهار وهي لا تعرف أين تستقر.. وكنت قد أصبحت تقريراً رجلاً سوداوياً، حتى «مهى زعفراني» لم أعد أرغب في رؤيتها. افتعلت أن لا أراها حين جاءت لتونس.. هي نفسها لم تمض أكثر من أربع وعشرين ساعة. فسرعان ما عادت إلى باريس لتأتي بالدواء إلى أمها.. قلت لها: أني اضطررت إلى السفر فجأة إلى الجزائر. أبدت لي بعض الأسف وكانت منشغلة بمرض أمها أكثر من اشغالها بي.. خفت أن تكون تحاishi اللقاءات المباشرة مثلـي. فحين نكون قد استغرقنا وقتاً طويلاً على صفحات الماسنجر، نصبح خائفين من اللقاءات المباشرة. إن الافتراضي غالباً ما يطرد المادي، يجعله بلا روح ولا رغبة. فهو طاقة انجدابية لا تتطلب أي استعداد مادي. يمكنك أن تكون جيداً.. وأن لا تكون أنت، وتتكلم لغة راقية.. وصاحب خيال شاسع ورقة رومنسية.. ولكن الواقع أحياناً يخذلك. وللهروب من ذلك الخذلان تفتعل كل الأعذار لكي لا تخرج من الافتراضي..

وإذن ها أنا لا أفعل إلا أن أهرب.. هربت من ستيفاني بدون أي سبب مادي أو أخلاقي أو جمالي.. ثم ها أنا أهرب من «مهى» ولا أقوى على لقائهما.. بدا لي اللقاء الأول كافياً.. وزعمت أن قصة الحب التي تشغل كاهلي لو تماديت معها من الأفضل أن أعيشها معها في الافتراضي.. وحين عادت مهـى إلى السفر وبالتحديد إلى

اليونان لاستكمال أبحاثها تنفس الصعداء. ظهرت إلى الوجود واعتذر لها حتى صدقني.. ثم اندمجت معي لتسألني عن سبب زيارتي إلى الجزائر فجأة..

- ذهبت إلى الجزائر لحضور ندوة الإرهاب في منطقة المغرب العربي ودول الساحل والصحراء.. (لم أكن أكذب). فقد حضرت تلك الندوة في وقت سابق وألقيت مداخلة عن الإرهاب والترهيب والتهريب.. وقد التقى بمثقفين من الجزائر والمغرب ومالي وبوركينا فاسو والنيجر.. وتأكدت مرة أخرى أن النخب الإفريقية أكثر عمقاً وجدية من النخب العربية.. البروفسور المالي أحمد موديبو كيتا، كان نجم تلك الندوة.. وقد أهداني كتابه الأخير تحت عنوان: «دول الإرهاب الافتراضية».. والذي عالج فيه ظاهرة الدولة داخل الدولة.. وقد حذر من إنه يمكن أن تتغلب الدولة الافتراضية على الدولة الفيزيائية. وضرب مثالين عن ذلك، داعش في الشرق العربي ودامس في بلاد الساحل والصحراء). كل هذا لم أذكره ولم أتحدث عنه لهي، لأنها لا تحب المواضيع السياسية وتتجدها ثقيلة وصعبة الهضم وملينة بالمؤامرات والسيناريوهات الغربية. لذلك أحلتها مباشرة إلى عالم آخر أكثر خفة. تحدثنا عن جمالية المعمار الكولونيالي في الجزائر. وعن جمال الطبيعة الجزائرية.. وطمأنتها بأن الربيع العربي قد تبيّس على عتبات الجزائر. وأن الجزائريين يحبون رئيسهم حتى وإن كان مقعداً. لكنهم خائفون من اليوم الذي قد يختفي فيه.. كذلك عن رواية كويليهو الأخيرة عن بوتفليقة التي تحولت إلى «بست سللر» لدى الجزائريين. ثم ختمت قائلاً:

- حذار أن يذهب في بالك أنني سافرت إلى الجزائر من أجل امرأة أخرى..
- ههههه.. ولكن لم تخبرني أن قصتك مع بائعة المجوهرات قد انتهت..
- تلك قصة أخرى، أصبحت قديمة.. لقد تزوجت وأصبحت تسكن في قسطنطينية. سنتحدث في الليل أكثر يا مهـي.. أن يجد المرء نفسه في الجزائر ولا ينظر إلى عيون الجزائريات فتلك حماقة. ولكن صدقيني ما كنت لأنجحـأ أن أفعل أكثر من ذلك..

في الحقيقة أبقيـت بداخلي مـهـي بـسـؤـاـهـا عن بائـعـةـ الـمـجوـهـرـاتـ إـحـسـاسـاـ دـفـيـنـاـ بـأـنـيـ رـجـلـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـوـقـعـ الـكـثـيرـ مـنـ السـيـدـاتـ،ـ لـكـنـهـ لـاـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـتـابـعـ قـصـصـهـ مـعـهـنـ..ـ وـفـيـ هـذـهـ الـلحـظـةـ..ـ أـيـ فيـ تـلـكـ الـلحـظـةـ الـتـيـ ذـكـرـتـنـيـ مـهـيـ بـتـلـكـ الـمـرـأـةـ،ـ تـذـكـرـتـ أـيـضـاـ سـتـيفـانـيـ،ـ زـوـجـيـ الـتـيـ لـمـ تـدـعـ زـوـجـيـ وـالـتـيـ خـرـجـتـ مـنـ حـيـاتـيـ ثـمـ لـمـ يـتـوقـفـ تـفـكـيـرـيـ فـيـهـاـ مـنـذـ نـحـوـ ثـلـاثـةـ أـيـامـ.ـ لـقـدـ عـادـ لـيـ طـيفـهـاـ..ـ أـصـبـحـتـ عـلـىـ نـحـوـ مـاـ مـتـوـتـرـاـ حـيـنـ أـفـكـرـ فـيـ جـمـاهـاـ وـسـذـاجـتـهـاـ وـطـيـبـتـهـاـ..ـ أـحـيـاناـ أـجـدـ نـفـسـيـ أـحـمـقـ لـأـنـيـ لـنـ أـجـدـ لـأـفـضـلـ وـلـأـجـمـلـ مـنـ سـتـيفـانـيـ..ـ كـنـتـ أـعـشـقـ كـلـ شـيـءـ فـيـ سـتـيفـانـيـ وـلـمـ يـكـنـ هـنـاكـ مـاـ يـشـوـشـ حـيـاتـيـ..ـ شـيـءـ وـحـيدـ كـانـ يـقـلـقـنـيـ هـوـأـنـ جـمـاعـنـاـ طـوـيلـ جـداـ.ـ وـهـوـ أـمـرـ أـصـبـحـ يـرـهـقـنـيـ لـأـنـهـ يـكـادـ لـاـ يـنـتـهـيـ..ـ كـانـ ذـلـكـ يـبـهـجـنـيـ فـيـ السـنـوـاتـ الـأـوـلـىـ،ـ ثـمـ تـحـولـ إـلـىـ كـابـوـسـ.ـ فـأـنـاـ لـاـ أـسـتـطـيـعـ أـنـ أـتـرـكـهـاـ دـوـنـ أـنـ تـرـتـويـ وـتـبـلـغـ نـشـوـتـهـاـ..ـ فـيـ المـدـاعـبـاتـ الـأـوـلـىـ تـبـدوـ مـتـلـهـفـةـ وـنـشـوـانـةـ أـكـثـرـ مـنـيـ،ـ وـلـكـنـهاـ لـاـ تـبـلـغـ ذـرـوـتـهـاـ إـلـاـ بـعـدـ جـهـدـ كـبـيرـ،ـ حـتـىـ فـيـ

ليالي الشتاء، كان العرق ينصلب من جسدينا كما لو أننا سنقط أنفاسنا الأخيرة.. وقبل أن تنهار قواي، كنت أحاول أن أدفعها إلى الذروة بكلمات بذئنة أو بقصص قصيرة ومفعولة مع غانيات أو سيدات آخريات، غير أن ذلك لم يعد كافيا.. فقد تعودت على قصصي وكلامي البذيء، حتى أني لم أعد أذكر متى انفجر فيضانها آخر مرة.. وذات يوم قلت لنفسي: حين تدخل السياسة إلى الحب تفسده.. فأنا وستيفاني كائنان سياسيان لم يعد بإمكانهما أن ينتجا الحب.. أو ربما عاشقان أفسدتهما السياسة!.

الفصل الخامس

باتت كلمة «يسار» موجة في سنوات الربيع العربي. لقد حولها التكفيريون إلى شتيمة. ثم تحالف كثير من كانوا يساريين مع هؤلاء التكفيريين على أن يجعلوا منها عنوانا للانتهازية والتلتون وعدم الشبات والاستغراق في الايديولوجيا.. المفارقة أن الذين يسكنون في بيوت الماضي الكئيبة والبائسة هم الذين يتهمون اليسار بالايديولوجيا والديماغوجيا.. وكما أرادنا الخصوم أن نكون، كينا بأكثر مما يريدوننا أن نكون. صغيرو الحجم. نتحدث بلغة متعالية ومنتفخة. لا نعرف الواقع.. ولا نعرف الناس. أقليات تختبئ خلف رموز أجنبية تقليدية.. تكرر ما جاء في أدبيات اليسار الأوروبي.. مختلون عقليا.. ونحن مسرورون بذلك.. لا نقدر إلا على تنظيم الإضرابات تلو الإضرابات. نحب الكسل وشرب الجعة والتسكم بين البارات والكلام البذيء وتوجيه الاتهامات ثم إطلاق الوعود الجميلة والإلحاح على استمرار النهج الشوري!. دون أن يكون لنا أي تأثير.. فبينما كان الآخرون، أولئك الذين نعتبرهم دراويش وباعة دين وأوهام وتجار تعويذات وشعارات، يهندسون ويختارون الطريق، كان اليسار إما يكتفي

برفع الشعارات أو برفع صور الشوريين العظام للقرن العشرين!.. مرت الانتخابات تلو الانتخابات ولم يحصل اليسار على نتائج مبهرة كما حصل الآخرون.. حتى أولئك الذين دخلوا متأخرين للانتخابات على أحصنة النظام القديم حصلوا على نتائج أفضل من نتائج اليسار.. ما من أحد قام بنقده الذاتي.. ما من أحد تواضع وتصرف على قدر نتائجه.. ما من أحد أقنع حتى نفسه بأنه إذا كان لا يسير في الطريق الخطأ، فعلى الأقل يجب أن يتعرض سبيلاً من يدفع بالشعب إلى طريق الماضي!.. لم ندرك أبداً أن العدو كان يهزاً بنا.. كما لم ندرك أبداً لماذا نحن متحاسدون ومتخاصمون ومتناقضون رغم أننا نحمل بذرة جيدة في داخلنا..قرأنا الماركسية وامتلأنا بمساواة الاشتراكية.. ودافعنا عن الوطنية والسيادة والأمة العربية وثرواتها.. ثم ها أننا لم نجنب شيئاً لا من عطف الشارع ولا من صندوق الانتخابات.. إذا تحدثنا عن إصلاح الأرض ضحكوا علينا.. وإذا تكلمنا عن التأميم ومحاكمة المجرمين وعدم الإفلات من العقاب، طمأنونا ببعضة كلمات ثم صفعونا بركلات عدة على مؤخراتنا.. إذا تكلمنا عن إعادة توزيع الثروات أسكتوна بتهديد إعادة العمل بالشريعة.. أما إذا تكلمنا عن عودة قبضة البوليس، أو عززوا ل مجرمين أن يقوموا بعمليات إرهابية.. وفي الأخير، بات كل يساري متهمًا في وطنيته إذا لم يتحالف مع الأمن والبوليس ولا يطالب بإعادة قوانين الإرهاب وتنبيتها.. فعلاً سيذكرنا التاريخ كمثال ساطع عن غباء نخبة كانت تتكلم لغات أجنبية، أغلبها متخرج من مدارس الغرب وعاشت عدّيد التجارب وحلمت كثيراً بالثورة، ولكن حين جاءت الثورة، لم

تدرك أبداً أن الثورات تأتي وتمضي في سبيل حاها إذا لم تجد من يحتضنها ويمتنع عنها كفرصة لا تظهر إلا مرة خلال كل قرن.

قال «أميلكار كابرال»، ذلك الشوري الجيد كما وصفه كاسترو ذات يوم، «الثورة لا علاقة بها، إن كنا نحن الشوريين على صواب وعلى حق أو لم نكن».. الثورة تحب القوة والفتوا والاختراق.. الثورة هي أن نهزم خصومنا قبل أن يعلنوا الهجوم..وها هي الثورة تأتي دون أن يشعر أولئك الشوريين أنها أتت.. ثم ها هي تتبيس على قارعة الطريق حتى جاء المهاجرون، والتكتفيريون ودعاة الشريعة واليمين ورجال البترودولار ليستولوا عليها.. كنا، وأنا من هؤلاء، ربما على حق، ولكن لم نعرف ذلك في اللحظة المناسبة.. أي بمعنى ما، لم نكن على صواب.. ونتيجة لذلك علينا أن نتحمل ركلات التاريخ.. فإذا وصفنا البعض بمجموعات من الخونة والمهووسين، فلأننا قد خنا الأمانة وخذلنا الشعب.. استبدلنا كل شيء بالضجيج وذهبنا إلى أعلى البحار والسماء نبحث عن المصطلحات وأدوات التحليل بينما الأمر كان واضحًا جداً.. حين كانت الثورة الفرنسية، كان عمر نابليون بالكاد لا يزيد عن العشرين.. طفل كورسيكي من أصول إيطالية، قصير وبدين إلى حد ما وشره في النظارات كما في الأكل.. أصر والده المحامي أن يرسله إلى العسكرية وهو في سن العاشرة. ولأنه كان فقيراً، فقد وجد في الشكنة ملذاً: «كنت ألعب مع أقراني وأظل قابعاً في زاوية من المدرسة وأنا أحلم بما يرضي قلبي.. ولكن لا أحد كان يجرأ على الاستيلاء على زاويتي. كنت أدافع عنها بكل ما أملك».. في الواقع لم يكن نابليون شيئاً. فهو صغير

السن والحجم، ولكنه كان يملك إرادة.. وقد عرف مبكراً أن تلك الإرادة كافية للانتصار على الآخرين.. كانت نابليون ذاكرة رائعة، قال عنها «جون دورمسون»، «أنها كانت خزان بسعة قارة كاملة». بعد ست سنوات أصبح ذلك الكورسيكي الصغير ملازماً ثانياً.. سمي بالعريف الصغير في البداية بسبب قامته القصيرة. كان يقرأ كل شيء يعثر عليه. وحين انفجرت الثورة، كانت كورسيكا تريد أن تتخلص من الاستعمار الفرنسي.. أما أن تستقل بذاتها أو تنظم إلى إيطاليا.. عاد نابليون إلى جزirته ليقاتل الفرنسيين. فالثورة حررت كل شيء ولم يعد هناك ما يرغم كورسيكا على الخضوع، غير أن سفرة صغيرة إلى باريس غيرت من رأيه ومن اتجاهه دفعة واحدة: لقد رأى الحق ورأى الصواب معاً. واستنتاج «أن هذه الثورة من أجل الشعب لا من أجل جزيرته كورسيكا.. وأنه انطلاقاً من باريس يمكن أن نفعل الكثير.. أما في كورسيكا، فإننا لن ن فعل أكثر من دفن الثورة»..

ها هو نابليون يندمج في محاربة أعداء الثورة.. لم يبتعد بعيداً ليجلس فوق ربوة ويعطي نصائحه.. بل انضم إلى الجيش المقاتل إلى جانب الثورة.. وكما في كل المعارك لا بد أن تدفع الشمن.. وحين سقطت حكومة روبيبيير كان على نابليون ابن الخامسة والعشرين أن يدفع الشمن. فقبض عليه وأودع السجن ثم جرد من رتبه وأطرد من الجيش.. عاد إليه الفقر وبذا المستقبل أمامه مظلماً.. ولكن فيما كان الشباب ينظمون مسيرة للإطاحة بالمجلس الشوري الذي شكل بعد روبيبيير، نودي عليه وأوكل مهمة تدمير تلك المسيرة. فاز نابليون في مهمته واستعمل الرصاص لتفريق المسيرة فأصبح

جنرالا.. ومن ثم أرسل به إلى إيطاليا لينشر أفكار الثورة.. أصبح نابليون لا يذهب إلى أية مهمة إلا لكي ينتصر. احتل شمال إيطاليا ثم التف على النمسا وفرض شروطه عليها.. وحين أرادت فرنسا أن تتوجه إلى بريطانيا التي تريد الإطاحة بثورتها. قام نابليون بالاختراق الكبير.. اتجه إلى مصر ليقطع عن بريطانيا طريق الهند والثروات.. وفي مصر لم يتردد، إذ قال للناس: «جئتكم لكي أدفع عنكم لقد بعثني رسولكم. إن هذا المذكور في قرآنكم»، حمد فقهاء الأزهر، الرب ثم نودي عليه كقائد جديد أصبح يحمل اسم «أبونا أبو تراب». من مصر عاد إلى باريس قبل أن يتحطم جيشه بشكل نهائي على يدي الضابط البريطاني نيلسون، معلنا الانتصار.. ثم ما لبث أن قام بحصار الحكومة التي لم تعد تعرف طريق الصواب.. وبدفع من الشارع أخرج نابليون نواب الشعب وأطردهم ثم تولى القيادة معلنا نفسه قنصلا عاما على طريقة أجداده الرومان.. كان الشعب التونسي قد خرج على بكرة أبيه من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال. قدر الخبراء الأمينيون والإعلاميون أن جنازة شكري بلعيد قد فاقت المليون.. احتلت الجماهير الغاضبة المباني والشوارع والمقابر. وبات البرلمان فارغاً ومهجوراً لا يملك أي صلاحية.. ومع ذلك لم يتقدم أحد نحو البرلمان.. لقد سارع الجميع نحو المقبرة.. وحين اقترح البعض أن تتجه الجنازة إلى البرلمان لاحتلاله وإعلان الثورة الجديدة.. لم يجد إلا من يسخر عليه. حتى أولئك الذين كانوا يحملون النعش، لم يفكروا إلا في الصور التي ستلتقط لهم!.. لم يكن لدينا آنذاك لا نابليون ولا تروتسكي.. الجنرال الذي ظهر للعالم وكأنه حامي

الشعب والثورة، غادر إلى النسيان وهو يقول: «هذه البلاد إذا كانت واقفة على قدميها حتى الآن، فذلك يعود إلى بركة أوليائها الصالحين».. والذين انتسبوا طويلاً إلى نسل لينين وتروتسكي أمعنوا طويلاً في الحديث عن الفلفل والطماطم، حتى أصبحوا أضحوكة مرة وأرجوحة لعودة النظام القديم في مرات عدة.. تزوج نابليون من ابنة الإمبراطور الهاسبورغي فرانسيس غصباً عنه وأنجب منها طفلاً سماه نابليون وأعطاه لقب ملك إيطاليا. بات نابليون أكبر من شارلمااني.. وقد أعطى لأقاربه ممالك كثيرة. وزع معظم بلاد أوروبا على عائلته ولكن لم يكن متساهلاً معهم. بل كان فظاً وعنيداً.. كتب ذات مرة لأخيه ملك ويستفاليا: لقد اطلعت على أحد أوامرك الأخيرة.. أعتقد أنك مجنون وغبي. أليس لك صديق يرشدك على ما هو أحسن؟ أنت ملك وشقيق الإمبراطور ولكن تلك الألقاب لا قيمة لها إذا لم تكون جندية تنام في العراء في مقدمة جيوشك، تجلس على حصانك ليلاً نهاراً. وتسير دائماً في المقدمة».. وهكذا لأول مرة يصبح الغازي صديق الشعوب المغزوة. فعل ذلك في الشرق. وها هم الألمان تسيطر عليهم الرغبة في التحرر على يدي غريب. ها هم الطلبة والشعراء وال فلاحون وحتى النبلاء في مواجهة حكوماتهم للتحرر.. آنذاك رأى هيغل نهاية حقبة من التاريخ، وحين شاهد حصان نابليون أمام القصر الملكي، لم يقترب منه كثيراً ولكنه رغب أن يأكل بعض الألمان من روثه حتى يستيقظ الألمان على القوة والعقل.. ربما لم يكن هيغل يعرف أن حصان نابليون من فصيلة عربية وإلا لما نطق بذلك. ولكن الشاعر الكبير غوته هو أيضاً اتجه إلى الحصان وقال له:

«فلتحرك ذيلك كما تشاء.. فصاحبك أعظم من أن يهزم».. أجاب الروس عن ذلك بفترة قصيرة.. تحالف الجميع مع البرد مع الروس، فعاد نابليون من آخر رحلاته خائباً، لكنه ظل أسطورة لدى شعبه.. أكل الثورة، قال البعض. البعض الآخر رأى أنه جعل منها مدفناً وبارجة.. والتاريخ قال: إذا لم نصنع من الثورة مجدًا وصولجاناً، فإنها تصنع من الشعب يتامي وحزاني..

خلع نابليون خلعاً ثم أرسل إلى جزيرة صغيرة في المحيط الأطلسي. بعد ذلك اجتمع الأوروبيون ليتقاسموا أوروبا على يد النمساوي الدهية ميتزنيخ، إستاذ كسينجر.. ثم انطفأت الثورة وصعد شقيق الملك لويس السادس عشر إلى العرش باسم لويس الثامن عشر وعاد البذخ والفساد ونبي الشعب الثورة.. وكانت الـ 26 عاماً من الثورة كما لو أنها لم تحدث أبداً..

سألت أم الإسكندر مرةً أبنها: ما طموحك يا بني.. قال: أن أحكم مقدونيا. وبعد ذلك ما تفعل؟ قال: سأحكم الأغريق. وسألته أمه. وبعد أن تحكم الإغريق، ماذا ستفعل؟ قال: سأحكم آسيا. وبعد ذلك؟ سألته أمه.. بعد ذلك أعود لأموت بالقرب منك في مقدونيا. تنهدت أم الإسكندر ثم قالت:

- ها أنت بالقرب مني.. إجلس هنا واستموم في مقدونيا.. إلى جانبي. حكاية أم الإسكندر كان على أم نابليون أن ترويها لابنها حين قرر الذهاب من كورسيكا إلى باريس، لكنها لم تفعل ذلك لأنها لا تعرفها أو أنها تعرف عناد ابنها..

*** *** ***

بعد أقل من عامين كان إحساسي أن الثورة قد انطفأت شعلتها..
أدركت كذلك أن طاقتها ضعيفة ومحركها يوشك على التوقف..
كتبت لها وأنا على قدر كبير من الإحباط:

- إن الإحباط يقتلني يا مهـى.. ألا أجد عندك ملـاذا؟..

- إنك تجعلني مندفعة جداً؟؟ أفضل أن أحافظ برأسـي باردة..
عندما يأتي هذا الطلب من رجل مثلـك أشعر بالاضطراب..

- أعرف أن رأسـك باردة، ولكن يقيناً أن قلبـك ساخـن.

- إلى حد ما. أحـاول أن تكون رأسـي باردة.

- وبالنسبة للقلب؟

- لدينا سلطـات ضعـيفة على القـلب. عادة ما يـحب المـديح..

- كلـنا خـاسرون أمام مـعارك القـلب. وغالـباً ما لا نـتعلـم.

- صـحيح. هـذا لـيس عـيبـاً وـلا ضـعـفاً.. ما دـام يـنبـض بـالـحـيـاة.

- هل تـعرـفـين يا مـهـى.. عنـدي قـلب نـفـاث.. مـنـذ أـن رـأـيـتكـ، وـقـد
مضـى الآـن أـكـثـر مـن شـهـرـ، وـهـو يـنبـض بـسـرـعـة فـائـقةـ، وـلا أـعـرـف
كـيـف اـبـعـث لـه الـهـدوـءـ.

- هـذا مـا لـا يـجـعـلـني مـحـايـدة أو بـارـدـةـ الأـعـصـابـ.. هـا أـنـت تـعـودـ
إـلـى تـغـذـيـتي بـالـمـديـحـ. أـتـرـكـكـ فـي رـعـاـيـةـ اللهـ.. أـحـبـ أـن تـظـلـ ذـاـكـرـتكـ
طـازـجـةـ.. إـلـى لـقـاءـ قـرـيبـ مرـادـ!..

(في المسـاء نـصـبـ أـكـثـر غـضـبـاـ حـين نـتـعـرـضـ لـوجـبـةـ منـ الإـحـبـاطـ..
وـحـين يـلـاحـظـ الآـخـرـونـ غـيـابـنـاـ، يـثـيرـنـاـ اـنـتـباـهـهـمـ أوـ اـحـتـفـاـهـهـمـ بـحـضـورـ

الآخرين.. أن تفقد مكانك في هذه الحياة هو أن تفقد مكانتك فورا. فحين علمت: «ماري لويس» نبأ موت الإمبراطور من الجريدة، كانت قد التقت مع المستشار النمساوي ميترينج وهو الذي رتب زواجهما من عشيقها «الكونت نيرنبرغ» حين أصبح نابليون منفيا في «سانت هيلين». سمعت بالنبأ فحزنت قليلا ولكن في اليوم الثاني وضعت مولودا جديدا من زوجها الجديد. بكى ايفلون ابن نابليون من «ماري لويس» وقد كان في العاشرة من عمره، وفاة والده بصمت.. ولم يشاً أن يرى أخيه الجديد من أمه لمدة ثلاثة أسابيع. لا أحد صدق موت نابليون، إلا التاج البريطاني. وابن نابليون ايفلون. التاج البريطاني لأنه تورط في تسميم الإمبراطور بمادة الزرنيخ.. والابن ايفلون لأنه حلم بأن والده يرمي له منديلا في البحر!.. الآخرون، حتى الملك الفرنسي لم يصدقوا النبأ. قد يكون الخبر مؤامرة.. الإشاعات تتكرر منذ عدة سنوات، فلماذا لا بد أن نصدق هذه الأخيرة!.. مات مقتولا بالرصاص، محترقا، مخنوقا، مختنقا بغاز الكلريلون قرب موقده، قذف بنفسه من أعلى صخرة، هرب من الجزيرة فغرق في البحر.. لا ربما هو موجود في أمريكا.. أو في المكسيك بقصد تنظيم جيش لمقاتلة الملوكين.. في إحدى المرات أعلن عن وجوده في صومعة في القاهرة.. فلا حون أكدوا مشاهدته.. آخرون قالوا أنه من عليهم ممتطيا جواده بلباس الرهبان.. في روما لم تصدق أم نابليون الشرسة والقوية النبأ ثم واجهت الحقيقة بجاش كبير. كتبت إلى اللورد كاستل ريج طالبة جثمان ابنها، إلا أنه لم يجدها.. كتمت صراحتها إلى أجل بعيد كما فعلت صافية أرمدة القذافي وقبلها ساجدة أرمدة صدام حسين

وقبلها سهى أرملة عرفات! ليس لنقص في الشجاعة أو الحزن أو الغضب، ولكن للاحتفاظ بما تبقى من الكرامة.. وللاحتفاظ ببقية كرامتي لم اعد إلى مهني، إلا حين رن مؤشر الماسنجر بكثير من العذوبة..

- هاي، مراد، أفتقدك هذا المساء..

- ولكني أنا افتقدك في كل مساء..

- لم أكن أعرف أن حضوري إلى مكتبك ذات صباح سيكون بمثل هذا التأثير.

- لأنني قد رأيت في نظراتك الوعد بشيء ما. لأقل الوعد بالسعادة..

- لديك عيون حادة.. خارقة.. تذهب باتجاه الأعماق.. وذلك ما يسمى بصدمة الأوزان التي كثيراً ما تحدث غرغرة في البطن..

- ولكني لم أر ما أقرأ الآن!..نعم، كان الكلام يقفز من عينيك لا من فمك، كالشظايا حين كنت تتحدث. ولم أر وها خاصاً..

- سترين ذلك حين نلتقي.. فمهما كانت اتجاهات الرياح، فإن الشمس ستذهب إلى حيث يجب أن تذهب..

- أحب تعابيرك.. إذن علينا أن نتبع الشمس.. هل تسمح لي أن أقول لك شيئاً صغيراً.. لقد لاحظت استعمالك للفواصل بكثرة وأنت تكتب لي.. أما أنا فأكثر من نقاط التعجب.. علاش هذا؟

- ربما هو الغرور.. الغرور شيء غبي لا يجعلنا نقول ما نريد أو نبوح بما نفكر فيه.. لذلك نكتب من النقاط المتتابعة. أما نقاط

التعجب فهي أسلوب للتأكد من وجود الآخر.. نوع من البحث عن التأييد والتأكيد.. تردد في القبول بما نقول أو نكتب.

- أحياناً أراك تكثرون نقاط التعجب مثلـ..

- لأن لا أحد يعرف أين يوجد مقعد النجاح أو النجاة.. ما هو أكيد علينا أن لا ننتظرقطار القادم بحجة البحث عن المقعد الوثير.. ما من قطار قادم يؤمن لك ذلك!..

- أحب إجاباتك الأنique.. إنك لا تبدو لي محبطاً كما تقول..
كيف ترى وضع البلاد بعد الذي حدث البارحة!..

- لا تحزني.. كثير من العمليات الإرهابية تبدو لي غير مفهومة كما يجب.. مضخمة جداً في أحيان كثيرة أو في أغلب الأحيان.. قبل يومين ظهر الرئيس في أبهى حالاته.. أعتقد انه وصل إلى كرسي الرئاسة لكي يستريح.. لكي يضيف إلى شيخوخته سنوات أخرى أكثر بهجة وأقل عزلة. في بلاد العرب يمنحنا كرسي السلطة القدرة على النظر من فوق.. ولكن من تحت لا نعرف حتى مدى متانة أرجل الكرسي!.. شيء مؤلم أن نستقيل من الحياة، وننزل داخل الحياة!..

- تتكلم عن سياسيينا.. أنت على حق!..

- والمؤلم حقاً أن المتطرفين من كل صفة سيحاولون استعمال هذه المأساة لكي يقسموا التونسيين، لاعبين عن الخوف. الخوف هو سيد اللعبة.. في هذه البلاد لكي تعيش، عليك أن تخاف أو تخيف!.. قد يبدأ موسم دموي كبير.. ولكن لنبقى متهددين.

- أنا كذلك على اعتقاد راسخ أن كل مأساة من شأنها أن توحد بيننا.. ولكن كم يجب من الوقت؟ وكم يجب أن يكون حجم المأساة.. أعتقد أن هناك عجزاً ما!..

- هذه الكلمة تبدو ساكنة في صدر الرئيس لكنه لم ينطق بها ولن يستطيع أن ينطق بها.. يريد أن يكون متفائلاً إلى أبعد الحدود. عجيب أن نجد رجلاً في مثل سنه وفي حجم مسؤوليته وهو على هذا القدر من التفاؤل.. ولكن حذار.. ذات يوم إذا لم يقل الحقيقة، فسيقول عنه الناس، أنه مات.

- لا أريدك أن تتركني عند تقاطع التشاور يا مراد..

- لست متشائماً.. أنا محبط.. التشاور هو ما يجعلنا متيقظين للأسوأ.. هو ما يجعل إرادتنا صلبة.. أما الإحباط، فهو قد يتحول إلى استسلام..

- لنترك هذا إلى وقت آخر.. لا أريد أن أسقط فيما تسميه بالإحباط.. أريد أن أعرف ما الذي يحدث بالضبط.. (كنت دائماً على قناعة بأن ما عرفته وأنا في العشرين هو ما أعرفه حالياً وأنا أقترب من الستين).. أقل أو أكثر بقليل لا يهم.. ولكن طيلة الأربعين عاماً وأنا أدقق وأجرب وأمحض وأقلب ما عرفته لكي أصير أعرف أكثر.. ولكن أعرف فقط أنني لا أعرف حتى ما يجب أن يقال.. هذا ما قاله أرسطو منذ زمن بعيد.. قلت ذلك مرة لأحد أصدقائي الشعراً فريد ريكوبي.. فرديد قائلاً: اترك الكلام جانباً على قارعة الطريق.. سوف يتحول إلى عشب أو سوف ينتفع كمنطاد ثم يصعد إلى السماء).. عدلت من مزاجي قليلاً بعدما أخذت جرعة

من التفاؤل ثم كتبت إلى مهى التالي:

- ما عرفته في سن العشرين هو ما أعرفه حاليا وأنا أقترب من الستين. أنا أغبطك على وجودك في باريس مرة أخرى في أقل من أسبوع. لا شك أن قطرات المطر غير المتواوش تنكسر فوق سياجات الحديد والمعادن ورؤوس النساء الراكضات إلى مواعيد مؤجلة وغير محققة.. إنها فضاعة الجاذبية العاطفية، حين تصطرك الأسنان من فرط السرعة.. من فرط الخوف أو من فقدان الدهشة.. ثم تنساب الشمس البيضاء عبر الضباب والسحب فينتشر الضوء

بريقه كقميص شفاف فوق جسد من رخام!.. تلك هي باريس كما أتخيلها. لازالت، تقول لنا جميرا لا يوجد حب دون قليل أو كثير من باريس أو من العنف كما قال كونراد لورونزو. ولكن ما المعنى في ذلك؟ أعرف فقط كيف يجب أن أخلط بين الحب والعنف بمقادير دقيقة حتى تكون الوجبة أكثر سحرا وفتنة..

- لا أظنك مخطئا.. لو كنت إلى جاني لارتديت لك قميصا شفافا وأبيض.. ولعرفت منك أشياء كثيرة كسر الخلطة بين الحب والعنف أو عما عرفته وأنت في العشرين. فأنا أيضا أعتقد أن كل ما عرفته قد عرفته في العشرين..

(لم أرأ أن أتمادي معها في إثارة التهيجات. كانت تبدو لي مستعدة لذلك وإلا ما كانت لتشير إلى قميصها الأبيض الشفاف.. أعرف أن المرأة حين تقرب من الأربعين تصل إلى مرحلة ناضجة مع عواطفها بحيث لا تشتهي وجة الجنس إلا إذا كانت ذات بهارات جديدة أو سبقتها مقبلات شهرية.. صحيح أنها تصبح أكثر

جراة. تصبح قادرة على رفض مضاجعة الديكة.. بل ترغب دائماً في أسلوب الحمامنة الوديعة ذات الشاعرية. يصبح الشاعر في الرجل هو المنتصر أو المرغوب. وحين تفتقد ذلك في زوجها، تبحث عنه خارج الزواج).. لذلك تركتها دون إشباع حين انتصف الليل.. ولكن في الصباح كتبت لها:

- استيقظت هذا الصباح باكرا على وقع خطوات بعيدة وهي تقترب مني وكأنني على رصيف حلم فوضوي. أقيمت نظرة متکاسلة من الشباك فرأيت ربيعا غاضبا. فجأة رأيت شجرة الرمان قد استعادت خضرتها في غفلة مني، فعرفت أن الفصول تتتصارع بالألوان والريشة لترسم العالم على طريقتها. تسأليني ماذا أريد من باريس؟ لا شيء يا صديقتي لأن كل شيء يخرج من باريس يفقد معناه.. أريد فقط أن أتحرر من المكان لكي أصل إليك.. حين تجلسين لشرب قهوة الصباح، أغمضي عينيك قليلاً وتنشقين جيداً، سوف تصلك رائحة الحقيقة. نعم للحقيقة روائح لا يشمها إلا أصحاب الهمات والقامات العالية ذات الكبراء..

بعد حوالي ساعة.. جاءتني المفاجأة. كتبت مهى تقول:

- ها أنا في طريقي إلى المطار.. انتهت جولتي في باريس. اشتمنت بعض الروائح المفقودة.. أنا مثلك ينطفئ داخلي بريق الأشياء عندما تقطف من مكانها. أنا لا أحب حتى التقاط الصور التذكارية. يكفيوني ما يبقى في الذاكرة.. ولقد رفعت كؤوساً عديدة في غيابك علىها تقترب من الحقيقة. سأهاتفك حين أصل إلى تونس.. قبلاتي..

(وأجتاحتني فرح عارم ملأ قلبي وأدخل عليّ نوعاً من الاضطراب.
لم أتوقع أبداً أنها ستأتي اليوم إلى تونس.. وبعد قليل من الوقت
رأيت أن أكتب لها ما سوف تقرأه حين تصل إلى تونس..)

- غجريتي النبيلة.. يصحو الغجر عادة قبل الديكة.. يستحمون في النهر ثم يشقون طرقاتهم نحو الغناء والتجوال. ثمة دافع كبير لدى الغجر لهذا الترحال الكبير والمستمر هو الحاجة إلى التحرر من المكان والزمان. أما أنت فلا أعرف ما الذي يجعلك تركضين من مطار إلى مطار. هل هو الشغف بالحياة؟ هل هو الهروب من الواجبات اليومية؟ أم هو البحث عن ملاذ يتسع لكل أحلامك؟
أعتقد جازماً أنك امرأة من موسيقى لا تعترف لا بالحدود ولا حتى بالإيقاعات النمطية.. موسيقى فوضوية مناسبة متدفقة إلى ما داخل الحدود وما تحت الجلوود.. سأسعى حين أراك إلى معرفة اتجاهات الشغف لديك لأعرف اتجاهات بوصلكي التي ما عادت تدق إلا على دقات ساعتك ووقع قدميك وجرحة حقائبك ومواعيد سفرك.. أكيد حين تصلين ستتجدين قلي قد وصل إلى حيث أنت.. كلمة أخرى: قد تجدين رجلاً في الركن الخلفي للتاكتسي ينتظرك، قبليه ولا تسألي عن اسمه.. إنه الرجل الذي يكتب إليك الآن من خلف الزجاج في مقهى شبه مهجور.

*** *** ***

حتى شاعر الإنسانية الكبير الحاصل على جائزة نوبل، التشيلي بابلو نيرودا صديق الزعيم سلفادور ألندي ضحية الامبرالية ، المدافع الأول عن حقوق البشرية المعذبة، كانت له هفوات تصاهي

الفضيحة.. فخلال الحرب الإسبانية تخلى عن ابنته الوحيدة في السنة الثانية من عمرها.. وأنكرها بلا رحمة وقال فيها كلاما سفيها لا ينطق به إلا أبو سفيه لا لسبب إلا لكونها مصابة بمرض «استسقاء الرأس» الذي يعطل الدماغ ومن ثم يشل أي نمو طبيعي.. إن صديقي فريد ريكوي الذي يحب أن تناديه «فريديريكو لوركا»، هو أيضا ربما أكثر اخبطاطا من بابلو نيرودا.. فزوجته زليخة ما انفكـت تـشهر بـه في كل مكان.. أعلنت أنها ستفضـح سـفالاته وـندـالـاته إـلـى أن تـرغـمـه عـلـى الـانـتـحـار.. اـدـعـتـ أنها أـلـقـتـ عـلـيـهـ القـبـضـ وـهـوـ يـضـاجـعـ أـخـتهاـ. وـأـنـهـ حـمـلـ اـبـنـهـ الصـغـيرـ إـلـى إـحـدـيـ الجـمـعـيـاتـ بـدـعـوىـ أنـ أـمـهـ قدـ اـخـتـفـتـ وـأـصـبـحـتـ منـ مـجـاهـدـاتـ النـكـاحـ فيـ سـورـياـ. وـأـنـهـ يـعـاشـرـ المـثـلـيـنـ وـيـقـومـ باـصـطـحـابـهـمـ إـلـىـ الـبـيـتـ.. اـدـعـتـ أـشـيـاءـ أـكـثـرـ إـسـفـافـاـ، لـكـنـ لـأـحـدـ صـدـقـهـ. فـفـرـيدـ رـكـابـيـ وـالـذـيـ عـرـفـ بـفـرـيدـ رـيكـويـ بـعـدـ أـنـ اـسـتـبـدـلـ الـأـلـفـ بـالـوـاـوـ لـيـحـصـلـ عـلـىـ لـقـبـ فـرـيدـ رـيكـويـ شـاعـرـ مـلـتـزـمـ وـيـكـتـبـ أـشـعـارـاـ غـاـيـةـ فيـ الـرـوـمـانـسـيـةـ الـشـوـرـيـةـ.. وـيـتـحـذـ منـ فـرـيدـ رـيكـويـ لـورـكاـ مـثـالـاـ لـهـ.. وـهـوـ صـدـيقـ لـشـعـراءـ عـرـبـ كـبـارـ مـثـلـ سـعـديـ يـوسـفـ وـأـدـونـيسـ وـشـوـقـيـ بـزـيـعـ وـمـرـيدـ الـبرـغـوـثـيـ وـحـقـ سـعـادـ الصـبـاحـ.. وـلـهـ صـورـ فيـ الـأـلـبـومـ عـلـىـ صـفـحـتـهـ فيـ الـفـايـسـبـوكـ مـعـ عـبـدـ الـقـادـرـ الـجـنـابـيـ وـمـحـمـودـ درـوـيـشـ وـأـلـوـادـ أـحـمـدـ.. إـلـىـ جـانـبـ ذـلـكـ، فـهـوـ عـضـوـ نـاـشـطـ فيـ إـحـدـيـ التنـظـيمـاتـ التـرـوـتـسـكـيةـ.. وـمـاـ تـقـولـهـ زـليـخـةـ رـبـماـ يـصلـحـ كـخـلـفـيـةـ عـامـةـ لـرـوـاـيـةـ أـبـطـالـهـ شـعـراءـ مـهـوـوـسـونـ أوـ شـعـراءـ مـنـطـوـونـ، أوـ شـعـراءـ معـقـدـوـنـ.. فـهـوـ يـشـبـهـ تـمـاماـ مـاـ وـرـدـ فيـ رـوـاـيـةـ «ـمـالـفـاـ»ـ لـلـهـوـلـنـدـيـةـ «ـهـاـغـارـ بـيـتـرـزـ»ـ عـنـ فـضـيـحةـ «ـبـابـلـوـ نـيـرـوـدـاـ»ـ مـعـ اـبـنـتـهـ الـمـرـيـضـةـ

«مالفا». والحقيقة أن «مالفا» كانت ضحية أبيها بابلو وزوجته الاندونيسية الهولندية ماريا انطونيا.. أما فريد ريكوبي، فقد كان ضحية زوجته منذ عدة سنوات.. كانت زليخة، بائعة البيرة في إحدى البارات بضواحي العاصمة تونس تخفي عمرها عن فريد منذ أن رأها في الليل.. داعبها قليلاً بجمل شعرية غامضة وكان تقريراً لا يرى إلا خيالها.. كانت أصغر منه ببضعة سنوات.. وهذا يعني أنها كانت فوق الأربعين.. ولكنها كانت تحيد التخفي لتخفيض عشر سنوات على الأقل من عمرها.. بعد لقاءين في البار، انتظراها ذات ليلة حتى تكمل عملها ثم اصطحبها إلى بيت صديقه. تم خضت تلك الخلوة عن اتصال جنسي عابر، اعتبره فريد فعلاً بسيطاً في ليلة نحسة! لكن الأفعال البسيطة والعاشرة لا تبقى بسيطة أو عابرة أبداً.. التققطه بعد شهرين في إحدى البارات لتقول له: «لا تهرب.. أنا حبلى.. قل ما هو عنوانك لآتي لك بابنك حين أضعه».. ثم اختفت لظهور بعد نحو عام.

ذات يوم دقت بابه تلك المرأة مع ابنها.. وقبل أن تجلس على الكرسي الوحيد الذي يجلس هو عليه أحياناً لكتابة قصيدة أو رسالة.. قالت: هذا هو ابنك.. انظر إليه جيداً.. ألا يشبهك؟..

(حين تقول الأم للأب.. انظر إليه ألا يشبهك.. ندخل فوراً فيما يسمى بعهد الأمومة.. كلنا نحب أن نصير أبوات.. أحياناً لا نبذل جهداً.. وأحياناً نبذل جهداً مضاعفاً..) أصغى فريد جيداً لما تقوله تلك السيدة التي بدت تكبره بسنوات عديدة لم يعرف تحديدها.. ثم قال: - إذن هكذا الأحداث العاهرة تتحول إلى أقدار.. (قال ذلك

بطريقة أخرى لنفسه: هكذا تنفجر فينا الألغام ولو بعد عامين من مرورنا على حقل أو بان.. لم يقرأ أبداً أن ما يشبه هذا قد حدث مع فريديريكو لوركا ذاته الذي يتشبه به.. ها قد مرت حوالي ثمانين عاماً على موته، ولكن لا أحد قال «أن فريديريكو قد ترك أبناء على صدور أمهاهم ينتظرون آباهم الذي اتهموه بالمثلية ثم أطلقوا عليه «النار في خربة». عاش عاشقاً ومطارداً للنساء ولكن ما من امرأة ادعت أبوته لهذا الطفل أو لذاك الطفل! قال لنفسه: ربما تهمة اللواط أنقذته من إهانات النساء ثم فكر مباشرة في مغامرات كازانوفا، فقال لنفسه أيضاً: لا أعتقد أن كازانوفا ترك كتبة من الأيتام.. أطاح كازانوفا بمئات النساء فأدخلهن إلى التاريخ. نمن في فراش التاريخ إلى الأبد. أما أنا فالكلاد بذات الخطوات الأولى في عالم كازانوفا حتى وجدت من يركض ورأي بفضيحة..

كانت العدوانية واضحة في وجه تلك السيدة التي قالت لي أن اسمها «زليخة» مع أنني غير متأكد حتى من اسمها إلى الآن. لطالما تباهى أمام أصدقائه، أنه عاش بلا منفصالات. أما الآن فإنه لن يعيش يوماً بدون منفصالات. لم يعد فريد يتذكر متى امتنى تلك السيدة. فهو إلى وقت قريب كان ينام عند أصدقائه.. وما كاد يصرخ كأي رجل، يريد أن يهرب من الفضيحة في وجه «زليخة» حتى أخذت الطفل من صدره ثم وضعته على الكانابيه. وضعت بيبرون في فمه ثم فتحت الحقيقة وقالت:

- هذه الحقيقة تحتوي على الحليب وبعض الحفاضات ومنشفة، يمكن لك أن تستفيد منها حتى تتدبر أمرك.. ثم قامت فأسرعت إلى الباب.

أصيب فريد بدوار كبير في الحين. وداهنته مرحلة من الخرس الفجائي إذ كان يحتاج إلى أكثر من بيرة لكي يستعيد نشاطه، فظل صامتا معلقا بين الاستعارات. كان سيشرع في كتابة قصيدة راودته أثناء جلسة مع أصدقائه البارحة، لكنه ظل جاما بلا حركة..

*** *** ***

حكي فريد حكايته إلى مراد عباس. ثم ختم يقول:

- عاش هتلر مع ايفا براون عدة سنوات ولم تحبل منه. وعاش موسوليني مع كلارا بيتاشي عدة سنوات ولم تحبل منه. أما أنا فقد أصبح لي ولدا بسبب مغامرة واحدة لم أعد أتذكر ما حدث أثناءها أبدا.. قل لي يا مراد: هل أنا أكثر فحولة من هذين الدكتاتورين؟.. ضحك مراد.. وكان يصعب على أي رسام أن يتقطض ضحكته لأن الرسامين عادة يميلون إلى الوجه العابسة. ولو حضر رسام معهما لشرع في رسم بورتريه لفريد ريكوبي فورا. كان الأذى باديأ عليه، شفتاه ارتختا وبدأ كما لو أنه تقدم به العمر لمدة سنوات.. لم يبق بداخله أية ومضة فرح أو حتى وعد بفرح ما.. ارتكب خطأ أو خطيئة حياته. وتلك الخطيئة هي التي جعلته ينضم إلى طابور المعدبين. وانتظر فريد أن يتكلم مراد، لكن هذا زاد في ضحكاته ظنا منه أن فريد كان يمزح، لكن فريد ضرب على الطاولة بقوة وراح يهذي بكلمات بذيئة: سأنكح أبو أبوها.. هذه العاهرة التي تدعى أنني والد ابنها..

تذكرة مراد قصته مع ستيفاني. عبر بذهنه ذلك الشريط الأول بخفة.. ستيفاني أيضا حبت بطارق قبل الزواج، ولكن ذلك تم

باتفاق بيننا. لم تخف شيئاً عني، لكنها أرادت أن تضع أمها أمام الأمر الواقع.. أمها كانت مسيحية متغطرسة ولكنها لم تقف ضد زواجنا فيما بعد. أما أبوها فكان متسامحاً وقد بارك علاقتنا حتى قبل الزواج.. كانت ستيفاني قد جاءت إلى تونس لتدرس اللغة العربية في «بورقيبة سكول». وأمام المعهد تصيّدتها كوحش كاسر.. ولم تمضي ثلاثة أسابيع حتى استسلمت.. أعممت كل حواسها وأصبحت مغرة لا تعرف ما إذا كان الفصل ربيعاً أو شتاءً. وما إذا كانت تعيش في باريس أو في تونس. أو إذا ما كانت تعيش حلماً أو واقعاً.. باختصار لقد سحقت كل ما لديها من أسلحة للمقاومة.. ابني طارق لم يأت إلى الحياة لأنني كنت أريده، ولكن لأن ستيفاني كانت تريده.. بالأحرى لأن الوضع العام كان يريده.. بعد ما مرت تلك السحابة البيضاء فوق رأس مراد، سُئل فريد:

- وهل أنت تريد هذا الطفل أم لا تريده؟

- يا حبيبي مراد. أنت تطرح عليّ سؤالاً فلسفياً، وأنا أطرح عليك مسألة أخلاقية. من الذي يدعى أنه ولد بإرادة أهله؟.. أغلبنا إلى هذه الحياة بدون إرادة وكذلك بدون خيارات.. وقبل كل شيء.. وحتى لو كنت أريد هذا الطفل، أليس من الواجب أولاً أن أعرف.. أن أتأكد ما إذا كان ابني الحقيقي.. ابن خصيتي وكروموزماتي أولاً.. ستقول لي ثمة اختبار جيني على أن أمر به ولكن لماذا كل هذه الفضائح.. الناس سيقولون أنني ناكر لابني وأبوتي.. هذه العاهرة دمرتني دفعة واحدة.. وما لم تقدر عليه دولة البوليس أن تفعله، فعلته العاهرة زليخة!..

كان مراد يعد جواباً لفريد، لكنه لم يعد يعرف كيف يهدئ من روعه في البداية.. فالجواب الذي يفكر فيه عليه أن يكون بمثابة جرعة دواء.. بدا له فريد إما معتوهاً أو مريضاً.. وفي الحالتين لا بد أن يحتال عليه لكي يجعله يتلعّم دواعه دون تذمر أو جزع، ثم سأله لكي يصل معه إلى نتيجة موضوعية:

- أنت تخاف من أية فضيحة.. فضيحة أنك هارب عن ابنك أو فضيحة أنك رزقت بولد من نادلة تعمل في البارات، أو من فضيحة أن هذه السيدة عجوز وقبيحة كما تقول؟..
- من جميعها.. حيثما التفت وجدت فضيحة..
- لفترض أن الولد كان من نتاج خصيتك حسب الاختبار الجيني.. كيف ستهرب من الفضيحتين الآخرين؟
- أنت تفرض على أن أقوم بقتلها وبقتل الولد!..
- أنا أعرض عليك أن تتزوجها ثم تطلقها بعد حين كما يفعل من هم في مثل حالتك..
ثم أضاف متسائلاً:

- وما هو الزواج أو الطلاق يا غبي!.. ألا تعرف أن كلامهما ضد الحب لأنهما ينضحان بالفضيحة والخساسة!..

■ الفصل السادس

حين انتصف خطابه الذي ألقاه في جامعة القاهرة منتقلًا إلى ما يسميه محللون «بالمجوم المبطن»، دافع الرئيس أوباما بكلتا يديه عن وجهه حتى لا تخربشه ذبابة بدت له وكأنها طائرة أباتشي.. لا شك أنه لم يفكر أبدًا أن تكون تلك الذبابة قد وقع النزج بها لكي تشوش أفكاره كما يفكر عادة الحكام العرب.. وأنذاك تحمس الرئيس مبارك بأن يتكلم أمام وزرائه:

- وهل يظن نفسه، هذا الزنجي الصغير أنه سيهزمنا.. ألا يرى أن حتى ذباب مصر يدافع عننا؟!

كان القذافي حين ينصب طاولته البلاستيك أمام خيمته استعدادا لاستقبال زواره من الأجانب، لا ينسى أبدا أن يحمل معه «لفة» من سعف النخيل لكي يدفع بالذباب بعيدا إذا حط على كتف أو وجه أولئك الزوار.. هم بإبعاد الذباب عن كتف طوني بلير الذي أجلسه أمامه في عمق الصحراء كتلميذ يتهجي الحكمة ويشرب الشاي المنعنع، عدة مرات، فلم يتمكن من طرد ذبابة كبيرة كانت تخط من حين إلى آخر على أنفه.. وحين قاوم بلير جاهدا لطردها لم يفلح. غضب القذافي، فأمسك «بلفة السعف» وضرب وجه بلير بقوة.. ثم أطلق ضحكة خبيثة قائلًا:

- ها أنا أريحك منها.. ضربة قوية واحدة أفضل من عشرين ضربة صغيرة.. أضاف..
- أو أنكم تعتبرون حتى الذباب من ضحايا القذافي! لا أعرف إن كان الذباب وقع تصنيفه من فئة الإنسان أو الحيوان لكي يتمتع بحقوق الحياة والرفق!!.

ابتسم بلير كما يبتسم أغلب الإنكليز ثم تابع حديثه.. وتذكر في نفس اللحظة كل من القذافي وبليير، ما حدث للجزائر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، حين استعمل داي الجزائر مروحته اليدوية بطريقة غير لائقة أمام السفير الفرنسي الذي أكثر من المماطلات في دفع مستحقات الجزائر ثمناً للقمح الذي كانت تستورده لجيشها الجائع العائد من الجبهات البعيدة مكسوراً ومهزوماً. وسواء كان القذافي مازحاً أو كان داي الجزائر جاداً، فإن الإنكليز والفرنسيين قرروا أن يضربوا بقوة.. احتلت الجزائر في العام 1830 ثم أعيد احتلال ليبيا في 2011. ولو استمع الرئيس مبارك إلى خطاب ذلك الزنجي السخيف والطويل، جيداً، ما كان ليسقط في أقل من ثلاثة أسابيع..

قرب فندق «هيلتون النيل» الذي أغلق أبوابه وتم إخضاعه لحملة تجديد وتحديث عندما اشتراه المستثمر القطري مصعب الصراف.. وفي كافيتيريا صغيرة كانت لاتزال تحفظ ببريقها وزبائنها وأغلبهم من الشباب ذوي الميول اليسارية ومتذوقى موسيقى الروك أندر رول الصاخبة، ظهرت ميرفت في ذلك المساء المكفر بروائح البارود والأكرييلوجان، بلباس غير محتشم وشعر

متطاير وهي تصرخ باحثة عن صديقها خالد..

- خالد.. خالد.. أينك.. الليلة أو غدا سنتهي من هذه البهذلة.
جاءها خالد لا بسا مريولا رياضيا مبرزا عضلات يديه، دافعا
بصدره الثقيل، واضعا على رأسه قبعة رياضية كتب عليها شعار
البيسي كولا..

- ما الجديد يا ميرفت.. لماذا أنت مضطربة..؟

وبعد أن طبع قبلتين على خديها.. همس لها:

- حذار.. الكافيتيريا امتلأت بالبولييس السري منذ ثلاثة أيام.
- هل تعرف يا خالد.. مرسي انتهى.. ذلك المحسو بالكلام
حشوا.. انتهى.. لقد أخبرني بذلك صديقنا الضابط بهجت
السيناوي.. وبعد أن التقطت أنفاسها عادت لتقول:

- بهجت لديه معلومات جديدة.. أنت تعرفه.. وتعرف ما الذي
قاله لنا عن الرئيس المخلوع.. (قال أن نائب الرئيس سيقع اغتياله
أو إبعاده أو اقتلاعه أو إقالته.. وأن الجيش أعد خطة محكمة
لتخلص من عباء الرئيس المريض.. والمسألة لا تقدر أن تكون
مسألة وقت..)

تذكر خالد أمين ذلك جيدا.. والتفت وراءه على نحو ثابت ليراقب
جيدا ما يدور حوله ثم قال:

- هذا الأمر.. قد يتم.. ولكن هذه المرة لن يتم إلا بمذبحة..

ارتعبت ميرفت عبد الرحيم التي كانت لاتزال طالبة بكلية
الفنون الجميلة.. من كلمة مذبحة، لكنها ردت كما لو كانت قد

استعارة لغة أستاذها في مادة تاريخ الفنون..

- ألا ترى معي، أن فكرة السيطرة على مجرى الحياة بالعقلانية أو بالحوار، فكرة سخيفة في أحيان كثيرة.

- قد أوفقك يا ميرفت ولكن أخاف من التوقعات التي تلد الخيبات.. نادين وهاب صديقتك صاحبة الأفكار المجنحة، أين هي الآن؟ وتلك التي كانت تزغرد لقدوم الربيع نادية خطاب أين اختفت؟ إن خافة التفكير ليست بالضرورة أناقة أو رهافة!.. الشورات الحقيقية ليست ريجيم أو إكسسوارات. هؤلاء عصابة قوية ومترابطة.. جيل وراء جيل.. وزعيم وراء زعيم.. أمّا نحن فلا زعيم لدينا.. لازلنا نعتقد أن غيفارا هو قائدنا بينما نغني جميعا: «غيفارا مات»، منذ نصف قرن..

- غدا قد يعني آخرون: مرسي مات..

- لا أحد يموت في هذه البلاد. حتى الفراعنة لا زالوا أحياء.. سيذهبون إلى التقاعد والراحة ليجلسوا يتفرجون على عذاباتنا وويلاتنا.. فحين نصدق الشيطان، لا يعود رب يزورنا..

في ذلك المساء بدا خالد أمين متراجحا بين قناعاته ورغباته..رأيته سوداويا إلى حد ما على غير عادته. لم يعد يثق فيما يجري أصلا. فالذي أطلق عليه الجميع اسم ثورة، هو انقلاب دولي. مجرد انقلاب عالمي بأساليب حديثة. لعبة فيديو ضخمة يتحكم فيها من هم يسيطرون على العالم. صدقنا الكذبة الأولى فكان علينا أن نتابع المسلسل بشغف.. وها هو المسلسل يوشك على النهاية دون أن نفهم ما الذي حدث بالضبط.. أو ما الذي يجري إعداده لمصر

والعرب.. شهداء كثيرون ودعناهم بحرقة ونحن نعدهم بالجنة والانتصار.. ولكن كل شيء لا يزال يبدو بعيدا.. وبعيدا جدا..

تساءلت ميرفت بينها وبين نفسها (لماذا حين يتعرض الرجال لأول خيبة، يعودون إلى العقل والحكمة).. إن أستاذها في تاريخ الفنون والعمارة نجيب سليمان هو أيضا غير مقتنع بالبتة بأن ما يحدث ثورة.. لأن مستوى الإثارة قد هبط ثم تحولت إلى مهرجان من الهيل والسداقة والانحطاط لا ينتهي.. فقبل يومين عاد نجيب سليمان من زيارة للجزائر، فوجد أن الجزائريين مبهورين بما يحدث في مصر وتونس، ولكنهم رأوا أن يتظروا نهاية الشريط حتى يقرروا ما سوف يفعلونه.. تلك الطريقة اليقينية التي يمتلكها نجيب سليمان للتعبير عن أرائه تبدو لي وكذلك لأغلب زملائي جبانة وتتسم بالمخاتلة بيد أن ما ي قوله الآن خالد أمين يتنااسب إلى حد بعيد مع رأي نجيب سليمان!..

كان رأي البروفسور سليمان منذ خلع الرئيس واضحًا. وقد عبر عنه أحياناً بوضوح و مباشرة. قال: «إن ثورة تذهب منذ يومها الثاني إلى الانتخابات لا يمكن أن يكون لها أفق أو رؤية.. فمن سيختلف الديناصورات القديمة هم ديناصورات جديدة، وأغلبها تعود إلى ما قبل التاريخ.. ففي بلد يزيد عدد سكانه كل عام بنحو خمسة مليون لا شك أنه بلد مرهق ومحكوم عليه بالفشل!.. أكثر من 70 % هم الشباب المحبطين والغاضبين. وذلك هو الجيش الجديد الذي سيقع به غزو مصر. إن السلطة توجد دائماً في مكان آخر غير صندوق الانتخابات. وبما أن هذه الثورة لم تر أين تقع السلطة، فإن من يملك المال والسلاح قد فرض على هؤلاء

المساكين الذهاب إلى الانتخابات.. لن ينفع الندم غداً إذا فشلت الانتخابات ووقع تزويرها أو حملت ديناصورات جديدة إلى مكان السلطة.. فذلك كله جزء ضروري جداً للمرور إلى نهاية المسرحية. فما لم تعد الدبابات إلى ثكناتها، فإن لا شيء يمنعنا من الاتحاد مع القوة العسكرية.. فبعد كل حطام وخراب.. ثمة هناك مخلص»..

وبالرغم من أن نجيب سليمان يبدو متشددًا في خطابه ويميل نحو الانضباط والقوة ولا يجد صدى كبيراً داخل الطلبة إلا أنه يظل رجلاً محترماً لأنّه دفع ما يجب دفعه من أجل التغيير. فقد دخل إلى السجن ثلاث مرات. مرتان في عهد عبد الناصر وهو لا يزال طالباً طرياً ومرة ثالثة في أواخر عهد السادات. كان شيوعياً متصلباً.. كان يسير بمحاذاة الثورة دون حسابات كثيرة للربح والخسارة كأي رجل أعمى قد تعود على الأرصفة المزدحمة بالناس لتحاشي السيارات إلى العام 1990. في ذلك العام أُوشك على الخمسين من عمره ورأى العراق قد أصبح حطاماً بسبب عناد رئيسها وجبن رفاقه من الرعماء العرب.. ثم رأى حائط برلين ينهار ثم ينهار من بعده الاتحاد السوفيتي.. لم يخطئ التقدير آنذاك.. قال لزملائه آنذاك: أعداؤنا ليسوا نائمين.. إنهم قادمون.. انتهى القرن العشرون أسوأ نهاية.. يجب أن لا نحلم بعد الآن بأية ثورة.. أو تغيير.. معركة المساواة والعدالة انتهت.. الآن ستبدأ حرب الحريات.. وكما خسنا الأولى، قد نخسر الثانية..

- صديقي ميرفت.. أنا وأنت لا نستطيع أن نكون شيطانين.. قام خالد مرتين من مقعده الطابوريه المرتفع جداً. أراد أن يعدله على مستوى ساقيه لكي لا تظلا متراجحتين ثم عاد يقول:

- الذين يتقنون لغة الشيطان غالباً ما يرفعون رؤوسهم نحو السماء ويواطبون على الصلاة، لكي يجعلوا الله حليفاً لهم.. أما نحن فلا حلفاء لدينا.. فالضابط الذي قال لك أن مرسى انتهى، سيكلف غداً بتنظيف ميدان التحرير وشوارع القاهرة كلها من أمثالنا.. ستكتشفين غداً عدد النصابين والمحتالين والانتهازيين الذين يحيطون بنا.. ستكتشفين أن منحرفين ومساجين وعاهرات وحشاشين كثريين قد رمى بهم البوليس إلى ميدان التحرير.. هؤلاء هم الذين سيخرجون لتحية القايد المخلص.. وهؤلاء هم حالة الشورات العربية..

بعد قليل أقرب من وجه ميرفت حتى كاد يقبلها ثم قال:

- لا تحزني.. أحزني فقط على الذين وعدوا أنفسهم بالجنة.. أغلبهم دفنا في قبور غامضة وعلى وجه السرعة ودون تراتيب.. إننا نعيش حياة من الوهم، ولكن نصر دائماً أن لا نخرج من الوهم..
كان الحزن قد بدأ يبسط جناحيه على ميرفت.. تعكر مزاجها وهي التي جاءت ترقص وتُكَاد تطير من فوق الأرض..وها هي توشك على مغادرة خالد وهي تُكَاد أن تبكي.. تذكرت حبيبها وخطيبها الموعود وهو يسقط أمامها صريعاً في شارع ماسبيرو وجراء طلاقة لم يعرف مصدرها حتى الآن.. لقد أحبت ميرفت حبيبها علاء بدون عناء وبلا أسئلة.. الطريقة التي التقى بها كانت شبه غامضة.. وربما ذلك ما جمع بينهما.. هدير الجماهير هو الذي جعلهما متحددين ثم عاشقين.. لقد أيقظت الثورة بداخلها رغبات كثيرة، بل أطلقت عنانها للتخلص من ثقلها البورجوازي.. رأت

في علاء رجلا شهما يسير دائمًا في مقدمة المتظاهرين، وخطيباً قوياً حين يرفع على الأعناق. فأحبته دون أن تهتم بأصوله الريفية ولا حتى بسمرته الداكنة.. ولا بدinya أو قريته.. قدمته إلى أهلها منذ البداية، ثم باتا مدمتين على بعضهما بعضاً إلى أن حدثت اللعنة.. إنها لا تعرف لا قبره ولا حتى أهله لكي تسأله عنه. اسمه موجود على شاهدة القبر ولكنها متأكدة أن علاء مدفون في مكان آخر.. وربما وقع التخلص من جثته بطرق أخرى.. لم تجد الشجاعة لكي تذهب إلى أهله في الجنوب في أبنود.. ورغم أنها أصبحت متأكدة الآن أنه من أبنود وأن خاله الشاعر الكبير عبد الرحمن الأبنودي، إلا أنها لم تفعل شيئاً لكي لا تتالم من جديد.. كان علاء يقسم لها بكل المقدسات أنه أحبها بعمق، وأنه لن يدعها تقصر شعرها الطويل، وأنه لن يتزوج غيرها.. وحين سقط صريعاً أمامها، اجتازت الصدمة ثم عادت لتنتقم لحبيبها. أصبحت الثورة لديها بمثابة تصفيية حساب مع الذين حرموها متعة اللقاءات مع علاء.. ولذلك كله لم تعد تحسب الخسارة والربح في حياتها.. عادت إلى الميدان بوقاحة وبشهية وكذلك برغبة في الانتقام، لكن صديقها خالد بدا لها أنه عاد إلى التفاوض.. كل يوم كان يبدو أكثر تقاусاً.. وحين همت بالغادر لم تنسى أن تقول لخالد بإصرار:

- يجب أن نمد أيدينا للآخرين.. مصر في حاجة إلى الأمل..

*** *** ***

قبل أن تذهب ستيفاني إلى القاهرة لتغطية الاعتصامات الكبرى ضد الرئيس مرسي. تركت تونس تغلي مثل مرجل. لقد كره التونسيون والمصريون في وقت واحد «حكامهم الجدد» من الإخوان

في أقل من سنة. قالوا أنهم جلبوا لهم الفيضانات والعار والأمراض والدراويس والإرهاب وكل ما يمكن أن يصنع الانحطاط.. وبدأ الرهان حول من سيسقط الأول. في السباق الأول فاز التونسيون بإسقاطهم لبن علي. وفي السباق الثاني فاز المصريون فأسقطوا رئيسهم مرسي.. صعد ذلك الرئيس المنتخب إلى أعلى الشجرة.. لم يعرف كيف ينزل. ولم يعرف متى يجب أن ينزل. ظل معلقاً كطائر مذعور فقد القدرة على الطيران.. ولأن لا أحد ساعده على الحركة. فقد سحب أحد الضباط سلاحه ثم صوب باتجاهه..

وحين رأى حكام تونس ما حدث في القاهرة أصابهم الرعب ثم تماثلوا للانسحاب. لم يكن الله في عونهم كما يدعى عادة الإخوان. فعندما يتخذون من الله عكازاً لتعبرهم وفشلهم.. أو خشبة إنقاذ من الغرق، وعندما يريدون تحويله إلى الله للضعفاء والفاشلين ويجردونه من النخوة والسيادة والحكم، عادة ما لا يكون الله خاطئاً كما يريدون أن يكون..

قال لها زوجها مراد عباس، إذا سقط حكام تونس فسوف يتبعهم حكام مصر. وإذا حدث العكس، فإن النتيجة ستكون نفسها.. لم يعد لهؤلاء من مكان. لقد خربوا كل شيء في زمن قصير.. فعلوا ما لم يفعله الدكتاتوريون في ثلاثين أو أربعين عاماً.. إن أفضل إنجازاتهم هي تخريب معنى الثورة..

بتلك الخلفية دخلت ستيفاني إلى القاهرة.. كتبت تقريرها الأول من فندق شيراتون الجزيرة.. لازالت تتهجد المشهد المعقّد.. حتى زملائهما من الجزيرة أو من فرنس 24 لم يمدوها بالكثير من

الاستخلاصات.. اعتمدت على حسها وكذلك على الأنترنت. كانت تبحث عن «سكوب» يجعلها في صدارة زملائها.. اتجهت في اليوم الثالث من وصولها مباشرة إلى السفارة الإسرائيلية.. تمكنت من اختراق الحصار الأمني الأول فالثاني ثم وقفت أمام البوابة الإلكترونية طالبة موعدا مع السفير. رأت أن مقابلة مع السفير الإسرائيلي ربما تفك بعض الألغاز.. فزملاؤها الذين رأتهم خلال اليومين الماضيين كانوا لا يكفون عن مناقشة الموقف الإسرائيلي من الإطاحة بمرسي. ولا شك أن معرفة الموقف الإسرائيلي من تلك المسألة ستساهم في فك اللغز..

- لماذا تريدين مقابلة السفير؟ سألهما ضابط الحراسات من خلال شباك صغير لغرفة الكترونية محصنة جدا..

- لأحاوره لحساب وكالة البوبي. أي.. وكذلك لصحيفة - لونود - الفرنسية.. أنا صحفية، مراسلة متوجولة في بلدان الشرق الأوسط.. انظر هذه بطاقة..

- انتظري قليلا.. لا أعرف، ربما السفير غير موجود..
- أنا أريد موعدا معه.. أعرف أن انشغالاته كثيرة..

كانت لاتزال واقفة، حين قرعت الإنذارات بقوة.. فكرت أن يكون موكب السفير قد حل.. وحين التققطت أنفاسها رأت سياجا كبيرا قد ارتفع من ورائها لتصبح داخل المبنى.. قال لها الضابط..
- لن يغفر لي الرب، لو تركتك للخطر..

كانت هناك جموع بدأت تتحشد وتتجمع وهي تهدد باقتحام السفارة. ولم يكن أمام الحرس الإسرائيلي إلا أن يعزز الحراسات

والبيضة لحماية سفارته.. رأت ستيفاني في الساحة الداخلية من خلال شباك صغير عشرات من الجنود الإسرائييليين المدنيين والحاملين لأسلحتهم.. استنتجت بسرعة أن إسرائيل أرسلت بتعزيزات من الرجال والسلاح تحسباً لكل طارئ.. وما هي إلا لحظات حتى حضر إلى المقصورة الداخلية، رجل بدین وسريع الكلام والخطوات ليقودها إلى الطابق الثاني عبر المدرج الخلفي.. تعلمت ستيفاني خلال عملها الصحفي أن السياسيين لا يستسلمون إلى الصحفيين إلا إذا كانوا يريدون إيصال رسالة ما.. كما تعلمت أن تغلق فمها حين يبدأ رجل السياسة في الكلام، ثم تغلق عينيها عن أي شيء يحدث خارج سياق الاستقامة.. فالاستقامة قد تكون جديرة بالإعجاب، لكنها لا تساوي شيئاً لدى دبلوماسي قد يكون خريج أجهزة المخابرات مثل بنجمان عموس سفير إسرائيل في القاهرة.. جمعت معلومات كثيرة عنه قبل أن تذهب لمقابلته.. وأهم ما عرفته عنه أنه ضابط سابق في الموساد. وقد عمل في العراق جيداً إبان الغزو الأمريكي.. وهو من أصول اسكندرانية.. يتكلم العربية جيداً وله مؤلفات في «استراتيجيات الحكم».. إلى جانب ذلك فهو يحب الأحصنة وله مزرعة في النقب لتربية الأحصنة.. وقد جمع ثروة كبيرة من تجارة الأحصنة بين مصر وإسرائيل..

تحدث بنجمان عموس عن الثورة المصرية كما لو أنه أحد جنودها. أبدى إعجابه بالشعب المصري وكذلك بالشباب المصري الذي لم يتعب ولم يكل حتى هذه اللحظة.. إنه يريد الآن الإطاحة بمرسي كما أطاح ببارك.. لا أعرف إن كانوا صائبين

هذه المرة.. لأنهم يبحثون عن الرجل النقى؟.. ولكن أين يوجد ذلك الرجل النقى؟ نحن أيضا نبحث عنه في إسرائيل، ولكن قد يعيق طريقك ذلك الرجل النقى حين تجده.. قد يقوم الناس حين يكونوا متحمسين بأعمال جيدة.. ولكن هناك دائما من لا تعجبه تلك الأعمال الجيدة.. كل هؤلاء الشباب سيختفون بعد أسبوع أو اثنين أو ثلاثة.. وبعدها سيكتشفون أن الخارطة تغيرت..

سألته ستيفاني مفترضة:

- هل الخارطة والأرض تتطابقان معا في هذه اللحظة؟

ابتلع السفير عاموس السؤال دفعة واحدة ثم أجاب على طريقته: - حين نغمض عيوننا، ليس بالضرورة أن يأتي النوم.. أو السلام.. وهي تحاول تفكيك ما نطق به السفير عاموس خلال تحرير تقريرها، عثرت ستيفاني على كلمتين فقط تكررتا كثيرا خلال اللقاء وهما: «الرجل النقى».. و«السلام».. استخلصت أن إسرائيل لا تريد الإطاحة بمرسي وتريد السلام مع مصر.. ولكن ذلك لا يجب أن تعتد به.. وبعد أن أرسلت تقريرها عرفت من خلال شاشة التلفزيون أن ذلك الشباب الذي مدحه السفير الإسرائيلي قد اقتحم سفارته..

*** *** ***

أن تكون دبلوماسيا جيدا هو أن تعرف كيف تتظاهر. فأي شيء لا يؤذى بلادك هو عمل نبيل. وقد كان عاموس يتفنن في التظاهر.. هذا ما احتفظت به ستيفاني في رأسها بعد أن كتبت تقريرها.. عليها الآن أن تستعد لعشاء رسمي قد يكون خارج

الفندق. لقد قبلت الدعوة من زميل لها في قناة الجزيرة كانت قد ساعدته لإجراء حوارات مع مسؤولين تونسيين. جلست في زاوية من الصالون الكبير تنتظر إسماعيل السمان، وهو صحي سوري عمل مراسلاً لقناة الجزيرة في أكثر من بلد.. وبما أنها لم تأكل إلا سندويتش خفيف خلال النهار كله، فقد كانت تشعر بالجوع وتنشهي عشاء دسما. فتحت مجلة «التايم» الأمريكية لكي تتصفحها بسرعة وتختر المقالات التي عليها أن تقرأها فيما بعد، عثرت على مقابلة صحافية مع أمير قطر يتحدث فيها عن «الربيع العربي» وعن أهمية مصر وضرورة التخلص من حاكم سوريا الذي لم يعد له مكاناً في سوريا.. في أقل من ربع ساعة حضر إسماعيل ثم طرح عليها الذهاب إلى عشاء جماعي في بيت السفير القطري.. لم تمانع، بل أحسنت نفسها محظوظة لأنها تكون قد اتقت بسفريرين في نفس اليوم. سفيراً أهم دولتين يتحركان على الساحة العربية وهما يصنعان جزءاً من تاريخها. وهما: إسرائيل وقطر.. أشعرها إسماعيل أن العشاء سيحضره صحفيون مصريون وعرب، وكذلك ناشطون سياسيون.. لم يذكر لها أي اسم، لكنه قال لها: العشاء قد لا يكون مهمـا.. ولكن اللقاء مع هؤلاء في حد ذاته حدث كبير بالنسبة إلينا نحن الصحفيين!..

حين جاءنا السائق ليقلنا إلى بيت السفير بمنطقة المعادي، ركبت أنا وإسماعيل في المقعد الخلفي كعاشقين.. انطلقت السيارة الدبلوماسية تشق شوارع القاهرة. تخطت الجسر بسرعة ثم اتجهت نحو اليمين صعوداً في طريقنا إلى المعادي. كنت ألتفت إلى الوراء من حين إلى آخر كما لو أن هناك من كان يتعقبنا.. رأني إسماعيل

قلقة، فعلق قائلاً على شوارع القاهرة - ما أحل شوارع القاهرة دون ازدحام، وخاصة في الليل.. آنذاك تذكرت ما قاله لي زوجي مراد قبل أن أسافر إلى القاهرة: سوف تجعلك القاهرة كثيبة من شدة الزحام.. لا أعرف كيف ستتحملين ذلك..

بعدما اكتمل السلام والحضور قام إسماعيل ليعرف الضيف ببعضهم. آنذاك عرفت أن إسماعيل هو الذي اقترح على السفير ذلك العشاء وهو الذي اختار لائحة الحضور.. وها هو يعرف بنا الواحد تول الآخر. وباختصار كان هناك قطريان الأول وهو السفير الذي لم أعد أذكر إسمه الآن. والثاني يدعى مصعب الصراف. قال لنا إسماعيل أنه رجل أعمال يمتلك منتجعات سياحية في إسطنبول وأغادير في المغرب وبانياس في سوريا وشرم الشيخ في مصر. وهناك ثلاثة مصريين، أحدهم يعمل بصحيفة الأهرام ويدعى عبد الوهاب يحيى والثاني محامي وناشط سياسي. والثالث طيار متყاعد عمل طويلاً في الخطوط المصرية ثم في الخطوط القطرية.. وهناك صحفية لبنانية تدعى سمر تعمل مراسلة لقناة «الحرة» الأمريكية ثم هناك رجل سوري في الأربعينات قال عن نفسه: أنه معارض.. واسمته أبو منذر.

على مائدة العشاء، دلني أحد الخدم، وهو من أصول آسيوية على مكان جلوسي.. للتوضيح طلب منه أن يجلسني بين رجل الأعمال مصعب الصراف وإسماعيل السمان. كانت الطاولة مستديرة، لذلك كنا نرى بعضنا جيداً.. لم أكن مهتمة بالحديث كما ينبغي لأنني كنت جداً جائعة.. دائمًا نحن النساء ما نقع تحت العيون.. كنت أعرف أنهم سيراقبون طريقة أكلي والكمية التي سأكلها

والأطباق التي أتمتع بها، ليحكموا في النهاية ما إذا كنت نهمة أو أنيقة في طريقي و اختياري.. ما إذا كنت حريصة على وزني ومظهي أم لا .. كل ذلك لم يعد يهمني إلى أنأخذت قسطا وفيرا من الأكل لغالبة الوهن الذي أصابني من شدة الجوع.. آنذاك سمعت إسماعيل يقول:

- شيخ مصعب.. ستيفاني التقت بالسفير الإسرائيلي اليوم.

- عال.. هذا سبق يا ستيفاني..

ردت ستيفاني مبتسمة..

-وها أنا في حضرة سعادة السفير القطري أيضا.. لكن لم أفتر ولم أتغدى معه..

- صحتين مدام ستيفاني.. الأكل حلال عند اليهود كما المسلمين.. يختلفون في كل شيء إلا في الأكل الحلال..
قال الشيخ مصعب مستدركا:

- نسيت أن مدام ستيفاني غير مسلمة!..

هنا ردت ستيفاني مدافعة عن دينها الذي جاهدت من أجل أن تختاره. لم تقل أنها حاربت أهلها من أجل أن تصبح مسلمة، ولكنها قالت:

- أنا مسلمة وأم لولد مسلم وزوجة لرجل مسلم..

(...يخشى بعض الناس كل ما هو غير مألف لهم، لذلك وجد الشيخ مصعب صعوبة في الرد. ثم قال موجهاً كلامه إلى سعادة السفير كما لو أنه يعتذر عن خطأ ارتكبه حين تكلم عن الدين في عشاء دبلوماسي:)

- هل ثمة أمل لنجاة الرئيس يا سعادة السفير؟

تلقى السفير السؤال ثم رماه إلى عبد الوهاب يحيى ، الصحفي بيومية الأهرام. وظل ينتظر الجواب حتى يفرغ فم يحيى من الأكل..

*** *** ***

استمر الحديث ثقيلا. كل واحد كان يتلمس كلماته بعناية ويميل إلى أكثر التعبير غموضاً أو استغرقاً في العمومية.. ولو سئلت الآن كيف كان ذلك العشاء لقلت كانت تنقصه البهجة وتغلب عليه الصرامة المفتعلة. إن سفيراً واحداً من سفراء العرب قادر على إفساد مئات الأمزجة.. لم أتعثر على أي تحليل جيد أو إشارة ذكية.. والشيء الوحيد الذي يمكن أن أدركه ذات يوم هو أن الشيخ مصعب، قد حاول احتوائي وظل يتبعني بنظراته الحادة إلى لحظة الوداع. وقد دس تحت صحني بطاقته الشخصية ثم حاول أن يستدرجي إلى قصص شخصية أثناء استراحتنا في صالون الوداع.. وحين شعر بالإرهاق، استخدم حيلة لكي يبدو لطيفاً وقريباً.. نادى على إسماعيل إلى حيث كان يجلس ثم بدأ يحدثه عن نيته في إنشاء قناة تلفزيونية في تونس.. سأله عدة أسئلة عن قوانين البث والتوكاليف ووضعية الصحفيين. وطلب منه أن يعد له ورقة بيانات تقديرية. ثم طلب منه أن يستعين بي. وأنذاك أشار لي إسماعيل بأن التحق بكرسي إلى جانب مصعب، فكرر مصعب ما كان يقوله لإسماعيل طالباً مني أن أساعده على ذلك حالماً أعود إلى تونس.

في طريق عودتي إلى الفندق، سألت إسماعيل ما إذا كان صديقه

مصعب جداً في مشروعه. فقال لي:

بالتأكيد لأنه مكلف بذلك على ما أعتقد.. ما كان ليتكلم في الموضوع في بيت السفير لولم يكن مكلفاً بذلك. أضاف إسماعيل بعد أن نزلنا من السيارة..

- في بلداننا العربية، أحياناً يكون السائق أقوى من السفير.. أظن أن الشيخ مصعب هو الذي يأمر السفير وليس العكس.. ثم ختم أقواله:

- على العموم لنفترض أنه جاد.. وقبل عودتك إلى تونس، سوف نتفق على كيفية التنسيق والاستفادة.. ربما أتيتك إلى تونس بعد نحو أسبوعين..

و قبل أن استسلم للنوم كتبت ما جال في خاطري من انطباعات عن ذلك اليوم الطويل جداً.. في مصر يبدو القطريون والإسرائيليون متتفقون على ضرورةبقاء الرئيس مرسي.. في الثورات العظيمة، يحضر الأوغاد حين يغيب الأبطال.. وفي عالم السياسة، يصبح مصاصو الدماء في منتصف الليل رجالاً شرفاء.. والثوريون غرباء وندلاء.. وفي مصر بالذات تيقنت أن العرب بلا بوصلة لأنهم سلموا مفاتيح بيوتهم لرجال صغار وعديم الضمائر..

كنت سأافر بعد يومين، ولكن انفجار الأحداث بتلك الطريقة جعلتني أترى ثـ. كنا كصحفيين نراهن على الاستقالة والإذعان لمطالب الشعب أو الذهاب إلى مذبحه كبرى تنهي اللعبة كلها.. واقترب الموعد الذي ضربه الجيش لبدء الحوار. لم يعد يفصلنا عنه إلا ليلة.. وفي الصباح قال لي إسماعيل: إن الجيش

المصري لا يمكن أن يتراجع.. خطته واضحة والشعب لا يزال معه.. ثمة أكثر من أربعة ملايين ينادون برحيل مرسي.. أكثر بخمس مرات من الذين كانوا ينادون برحيل مبارك.. اليوم قد يكون أطول يوم على مصر.. إنه شبيه بيوم مقتل السادات.. وأظن أن المعركة بين الجنرال والمرشد التي هي مستمرة منذ حوالي قرن، ستضع قواعدها الجديدة في هذا اليوم..

قلت له بعفوية..

- إذن ليس ثمة اعتبار لأية شرعية.. كان يمكن أن يدعو الجيش إلى استفتاء على الأقل.

أجابني إسماعيل بخبرته في متابعة إدارة الحكم في بلاد العرب:

- الشرعية توجد على أفواه البنادق كما يقول ماوتسي تونغ..
جادلته لسبب وحيد هو أن أعرف اتجاهات عواطفه..

- ولكن قد يكون الحاكم جيداً أو سيئاً هذا موضوع.. وأن يكون شرعاً هذا موضوع آخر..

- ثمة العديد من الشرعيات في عالم السياسة، قال إسماعيل ثم راح يعدد بعضها.

- ثمة شرعية ثورية.. وأخرى انتخابية.. وأخرى تاريخية.. وأخرى شعبية.. ثم أن تنازع الشرعيات ليس هو الموضوع الأهم عند الشعب المصري.. الجيش لا يستطيع أن ينتظر حتى تحرق القاهرة.. أليست هذه أيضاً شرعية يمكن أن نطلق عليها شرعية الإنقاذ أو الخلاص..

كنت أخدع نفسي بإبداء الموافقة على كلامه.. رأيته قد زاد حماسه رغم أنه يشتغل مع تلفزيون قطري وصديق كبير وموثوق فيه لدى القطريين الذين لا يريدون أن يسقط مرسى.. لقد راهنوا عليه وعلى الإخوان كثيراً ووضعوا في خزينة الدولة المصرية حوالي عشر مليارات من الدولارات.. ثم أرسلوه إلى موسكو للاتفاق على صفقة سلاح.. بعد ذلك رأيت أن أقول له:

- ولكن هذا يتعارض مع سياسة قطر.. أن الحزن الكبير سيكون في الدوحة.

نظر إلى إسماعيل بعين لا تخدع أحداً بل معانها الذي يفضح مدى حماسه لانقلاب عسكري، ثم قال:

- مصر لا يحكمها إلا العسكر.. هل تظنين أن الجيش المصري الذي يحكم هذه البلاد منذ قرنين ونيف سينهزم مرة واحدة أمام جماعة الإخوان.. أو سيصمت مجاملة في قطر.. سنكون ساذجين لو صدقنا ذلك.. لقد تبخر الآن حماس الثورة وعاد الجيش إلى الانضباط.. إلى حالته الطبيعية.. يجب أن تعرفي أن لولا الجيش لما سقط مبارك.. الجيش هو الذي يرسم الخرائط.. قد تلعب قطر وإسرائيل.. ولكن الجيش هو الذي سيربح في آخر المطاف..

ووجدت في كلام إسماعيل تبريراً للدم. بدا لي كلامه تفاهة أمام الألم الذي سيلحق بأناس كثيرين.. إن فكرة تدمير الهيكل على الجميع فكرة شيطانية أشاعها الرهبان والقساوسة لمحاربة فكرة التقدم. إن الدم هو أسوأ شاهد على الحقيقة كما يقول نি�تشه. فالدم يسمّ أنقى المشاعر والتعاليم ويحوّلها إلى جنون وحقد يعمّان

القلوب إلى الأبد.. كان ذلك ما يخالج قلبي وعقلي، حين سمعنا صراخا في ردهات الفندق ما لبث أن تحول إلى حفل لرحيل مرسى.. لقد تم إسقاطه واقتيد إلى السجن مع كل رجاله.. وأنذاك رأيت كيف أن الغرب يشيخون وبيدهم التعب حين يريدون أن يتقدموا.. رأيت كذلك بأم عيني كيف أن إسماعيل قد نسي نفسه كصحفي وانطلق لينظم إلى ذلك الحفل البادخ في إسفافه وطغيانه!.

الفصل السابع

زار كاتب الروايات البوليسية الشهير «جان لوكاريه» بيروت عدة مرات في سبعينيات القرن الماضي. وذات مرة طلب أن يلتقي عرفات. سأله عرفات وهو لا يزال في عز مجده: لماذا جئت إلى هنا؟ أجا به لوكاريه:

- جئت أبحث عن قلب الفلسطينيين.

أمسك عرفات بيد «جان لوكاريه» ووضعها على قلبه، ثم قال له:

- هذا هو قلب الفلسطينيين..

قال «جان لوكاريه» فيما بعد: لقد أدهشني بإجابته. شعرت في الحين أنه لا بد أن يكون للفلسطينيين وطن..

وحين التقى لوكاريه في التسعينات برجل الكاجي بي «بريماكوف»، سأله هذا الأخير باستفزاز:

- هل تستطيع أن تقول لي كيف يتحول جواسيس بريطانيا إلى روائيين كبار من سومرسيت إلى غراهام غرين إلى جون لوكاريه؟
قال لوكاريه أجابتة أنا أيضا بما يمكن أن يوجع القلب، أي بلغة لا يفهمها إلا الجواسيس..

- سيد بريماكوف.. الماسوس رجل يتلخص على الأعداء. أما الروائي فهو رجل يتلخص على الأعداء والأصدقاء.

ثم أضاف:

الماسوس يعيش حياة قد لا تروى بينما الروائي يروي قصصا قد لا تعاش!!!

إنه عذاب اللغة وعذاب الحقيقة معا.. قال لي «مثنى عبد الفتاح» على طريقته، الذي دعاني على فنجان قهوة قرب الروشة في بيروت. وجدته قد أصبح تقريباً شيخاً. ورروي لي كيف أنه عاد إلى العراق، لكنه لم يتألف مع المجازر والكذب فعاد إلى بيروت.. قال لي أيضاً: العراقيون منقسمون أولاً إلى شعراً وإرهابيين. ثم هم منقسمون بين شيعة وسنة ثم هم منقسمون بين عرب وأكراد. ثم هم منقسمون بين أمريكا وإيران.. ثم هم منقسمون بين علمانيين وتكفيريين. ثمة نخبة في العراق مركبة من كل شيء. وكعادتهم لازالوا متخفين بالشعر حتى أنهم يعانون من عذاب اللغة.. يبلغ العراقي سن السابعة عشر، فإن لم يتحول إلى شاعر، يذهب إلى الجندي أو الحسينية.. أو إلى مجموعة إرهابية.. قال لي أيضاً.. أن قصائد العراق كلها من المتنبي إلى مظفر النواب لا تساوي ثمن سيارة وليس لها مفعول سيارة مفخخة واحدة تجعل الأجساد البشرية مفخمة كعجلات المطاط.. ثم ختم مراتره: أني لا أفهم كيف تلد الأم العراقية شقيقين.. واحد يصبح شاعراً والثاني يصبح انتحارياً؟!

مازحته فقلت له:

- قد يوجد السبب الأول في الإنسان الأول.. السومريون والبابليون هم الذين علموا البشرية اللغة والشعر وكذلك الحرب والغزو..

وسمعته يقول:

- كانت القصائد مهمة لأن الناس كانوا يقرأونها ويفهمونها ويحاربوا بها أحيانا الاستبداد.. أجابني مثني. ثم أضاف:

أما الآن فهي لا تقرأ وإن قرأت، فهي لا تفهم. فيما الشعرايزدادون توغلًا في الغموض، حتى بات الشعر كما لو أنه إعلانات لسيارات مفخخة. هل تستطيع أن تقول لي ما هي السعادة التي يريد أن يبيتها أي شاعر اليوم في العراق. هل تستطيع قصيده أن تكون سلاحا اعتراضيا لصاروخ أو حتى كلب حراسة لسيارة مفخخة.. أو تحذيرا للمارة من موت قادم لهم؟؟؟

وسأله:

- وأنت هل لازلت تكتب الشعر؟

أجابني بسرعة:

- أكتب أحيانا لأنني لست سعيدا بالبطة.. كنت أكتب في الماضي لأنني أشعر بالسعادة. أما الآن، فالبكاء أرتدي نعالى دون أن يداهمني السعال أو الرعاش من فرط الرداءة.

(تذكرت في الحين ما كتبه هنري ميلر عن الشيخوخة.. فإن كنت قد بلغت الثمانين وأنت لست مشلولا أو مختلا أو معتلا.. إن كنت لاتزال بصحة جيدة وتستمتع برياضة المشي وبواجباتك

اليومية. إن كنت تستطيع النوم دون حبوب منومة، فأنت شخص محظوظ ومن الأفضل لك أن تسجد شاكرا لللطف الرب). .. عاش هنري ميللر حياة مليئة بالمخاطر حتى ملأ الدنيا بأخباره وفضاعات كتاباته الإيروسية. كان فضائحيا بشكل لا يطاق.. وقد تبارى مع الإيطالي ألبرتو مورافيا، فكان هو الأكثر فضائحية في الكتابة كما في الحياة. خانا زوجتيهما وعاشرها بنات صغيرات وافتخر كل منها بقضيبه.. ولم يبلغ مجدهما إلا الرسام بابلو بيكانسو. كان صديقي مثني بالكاد قد تجاوز الستين من عمره. وهو لا يزال يتمتع بقسط كبير من الصحة والقوة.. قلت له:

- بيكانسو يقول دائماً، في الستين يشعر المرء بالشباب، حين يكون الوقت قد فات.

رد على:

- هذا الكلام يتناسب أكثر مع المرأة، فحين تبلغ الأربعين تعود إلى مراهقتها..

أكمل كلامه، فرن هاتفه.. تحدث بسرعة وسمعته يذكر اسم المقهى الذي كنا نجلس به ثم عاد ليقول:

- صديقي ستأتي بعد حين.. إنها تحب ما تقوله.. يا يحيى إنها أربعينية ولكنها عائدة بقوه إلى سنوات المراهقة.. امرأة موغلة في القدم وفي الحياة.. أعطاني مثني بسطة صغيرة عن صديقته. قال، أن اسمها سمنتا أويوب، مسيحية سيريانية، كاتبة سيناريوهات سينمائية. مطلقة من ثلاث رجال.. أبووها وغد كبير في عالم الأعمال. لها أخت تكرهني جدا لأنني تجرأت عليها ذات مساء.

سمنتا هي الأجمل ولكن الرغبة في مضاجعة أخت العشيقه رغبة موجودة في قلب كل شاعر. ثم أوصاني التالي:

- كن حذرا.. هذا الكلام لك أنت فقط.. ثم حذرني:

- لا تطيل النظر كثيرا في عينيها أو في مؤخرتها. لها عيون زاخرة بالتواطؤ. أما مؤخرتها فذات حساسية عالية لكل من يحدق فيها.. إنها مؤخرة سخية. وهذا ما يرغب فيه أي عراقي!..

بعد ذلك أفرغ كأس الجعة في بطنه ثم اقترب مني ليسألني:

- وأنت يا يحي.. احك لي ماذا فعل بكم الشيخ الغنوشي؟..

ثم أضاف:

- لا تقل لي أنه رجل معتدل.. لا يوجد بوذا في الإسلام. ولا يوجد غاندي في بلاد العرب ولا حتى طاغور في الأدب العربي. أقلهم يضرب بالسيف أو السكين.. خريجو بريطانيا وأمريكا يفخون السيارات، خريجو موسكو كانوا يضربون شعوبهم بالغاز.. أما خريجو كابول فيذبحون بالسكاكين أمام الكاميرا كما لو أنهم يمثلون في استوديوهات هيوهيليوود.

*** *** ***

حين وصلت «سمنتا»، طبعت قبلتين على وجه مثني ثم صافحتني وظللت واقفة. قدمني لها مثني على طريقته قال:

- هذا صديقي منذ عهد طويل. منذ ثلاثة عقود لم أره. كان شابا ولايزال. أعتقد أن من يعرف كيف يعيش لا يشيخ أبدا..
بعد ذلك أضاف..

- قبل الطوفان، كان المرء يعيش أكثر من 200 عاماً ويظل شاباً إلى أن يبلغ 150 عاماً. وبعد الطوفان، انخفض عمر بني آدم ليصبح أقل من 100 عاماً، إذا كان من سكان الجبال.. هذا ما تقوله لنا الأساطير السومرية..

كانت سمنتا لاتزال واقفة ثم اقتربت علينا أن ننتقل إلى مكان آخر. قالت:

- سنركب السيارة ونذهب إلى منطقة عين المرسية.. لقد تركت سياري على حافة الطريق الخارجية.. لم أجدها مكاناً لكي أركنها.. ثم أن هذا المقهى لا يعجبني.. ليست به أية حميمية..

استسلمنا للاقتراح وقام مثني ليدفع الفاتورة.. وتشاغلت أنا بالهاتف كي أتفادى التحديق في عيون سمنتا (إحدى تحذيرات مثني..) وجاء مثني فاتجهنا نحو السيارة (كنت أسير في المقدمة حتى ألتزم بتحذير مثني الثاني ولا أحد نفسي مدققاً في مؤخرة صديقه).

حين وصلنا إلى المقهى، أحسست أن عهوداً طويلاً قد قطعناها رغم أن المسافة لا تزيد عن كيلومترتين لو ذهبنا إليها في خط مستقيم.. فقد انتقلنا من مقهى اسمه «ليالي الشرق» إلى مقهى آخر اسمه «اينشتاين». قلت في نفسي: (يا إلهي.. كيف يتفق العرب على أسماء المقاهي ولا يتتفقون على أن إسرائيل عدوهم.. تركت تونس تمتلئ يومياً بهذا الجيل الجديد من المقاهي.. فهم قد أصبحوا يزخرفونها بأكثر مما يزخرفون مساجدهم ويختارون لها أسماء مثيرة مثل اينشتاين وهنري ميلر وهمنجواي وشوبنهاور

و«عند فرويد» و«الفرسان الثلاثة» و«عند سارتر».. ويستجلبون زبائن في غاية من الدلال والدلع. وحين أخذنا مکاننا على إحدى الشرفات، قلت لسمنتا:

يذكرني هذا المقهى بمقهى كنت من جلاسه.. أحببته في البداية لشیئين، قربه من بيتي ثم اسمه همنجواي.. بعد فترة غادرته لشیئين: ضجيجه الكثیر وزبائنه الذين لا يعرفون همنجواي رغم أنهم يتصدرون للتغيير في بلدانهم سواء كانوا تونسيين أو ليبيين!..

ضحك مثنی ثم علق قائلاً:

مساكين العرب.. منذ أن أصبح زعماؤهم يسمون أسامة بن لادن وأيمن الظواهري وأبو بكر البغدادي، اتجهوا إلى تسمية مقاهيهم بأسماء أعلام وفلاسفة غربيين. ثم قال:

في القاهرة، فتحوا مؤخراً مقهى اسمه «أوباما غولدن». وقد أخذني بعض الأصدقاء إلى مطاعم ومقاهي مثل «فكتوريا رویال» و«فولتير» و«دوتسوفسكي» و«سارة برنار» وترشل.. ولم أر أي مقهى يسمى بأحمد شوقي أو طه حسين!.. لا تتعب نفسك إنهم يبحثون عن الحقيقة التي لا يريدون امتلاكها أبداً..

التقطت سمنتا كلمة «حقيقة» ثم رمتها بطريقتها إلى صديقها مثنی:

الليست هي الحقيقة التي تعذبك يا مثنی؟

ثم اتجهت نحوي وقالت لي:

لطالما عذبني صديقك بشكواه من اللغة التي فقدت معناها وسط القذائف. وكذلك من الحقيقة التي تناثرت كمرآة سقطت من السماء..

كدت أن أقول لها: (ها أنك اقتربت من مفهوم محي الدين بن عربي للحقيقة). وبما أنها جالسون في مقهى اينشتاين، فقد أردت أن أدخل إلى عالم اينشتاين.. قلت:

- حين زار طاغور بيت اينشتاين بالقرب من برلين في العام 1930، كان زلزال كبير قد وقع في الهند لكن لا أحد منهم، لا اينشتاين ولا طاغور كان يعلم بذلك. ولأنهما لم يعلما بحقيقة حدوث ذلك الزلزال، فقد دخلا في نقاش آخر عن الحقيقة.. (بالتأكيد لو علم اينشتاين بالزلزال لأرجعه إلى تفاعلات جيولوجية وربما لأخبر طاغور ، بأنه، أي اينشتاين سيصبح بعد عشر سنوات فقط قادرًا على صنع الزلازل.. ربما أيضًا دعا طاغور إلى الالتزام بنوع من الأخلاق تحفظ النوع البشري والحيواني من الدمار..)

- وما الذي دار بينهما من حديث إذن يا يحي؟ سألني مثني. علقت «سمنتا» حين سمعت اسمي فقالت:

- اسم جميل.. اسم قديم وثري بالإيحاءات. الدينية.. قلت ذلك بسرعة ثم عدت للإجابة عن سؤال مثني..

- طاغور بشعره الأبيض ولحيته المسترسلة كاد أن يهيمن على اينشتاين. قال له: إننا نتشابه في المظهر يا ألبير لو تركت لحيتك تنمو، لقال عنا الناس أننا أشقياء.. كانت تلك دعابة لا بد أن يبدأ بها حكماء الشرق حديثهم عادة.. ثم أضاف جادا..

- حين كنت أحاضر في هذا البلد عن عالم الحقيقة، العالم الأبدى للإنسان.. كنت أنت يا ألبير مشغولا بمطاردة كيانين

عنيقين هما المكان والزمان مستخدما الرياضيات لفهمها..

رد اينشتاين:

- وهل وجدتها تلك الحقيقة يا سيد رابندرنات؟

- الحقيقة تدرك بواسطة البشر، قال طاغور، لكن اينشتاين قال:

- أنا أؤمن بالحججة الفيٹاغورية رغم أنني لا أستطيع برهنتها..
أؤمن أن الحقيقة مستقلة عن البشر. أنها مشكلة منطق الديمومة..

- الحقيقة هي ما نمتلكه منوعي للإدراك.. قال طاغور ثم ضرب مثلاً على ذلك فقال:

طاولة هنا هي الشيء القابل للإدراك بواسطة الوعي الذي يمتلكه البشر نتيجة تناقض عقلاني وتوافق على تسمية الأشياء.

قال اينشتاين بحبور عظيم..

- ها أنني أقترب من إقناعك. ستظل الطاولة هنا في المنزل هذا، حتى لو لم يكن أحد في المنزل.. إذن وجودها كحقيقة مستقل عن البشر. لا أستطيع أن أثبت لك ذلك رياضياً، ولكن بالإيمان الذي قد نشترك فيه جميعاً..

ثم أطلق ضحكة عالية (في الحقيقة لم يعد قادراً على الضحك العالي، لأن الغليون قد هده هدا)..

وقال على نحو منخفض:

- إذن ألا ترى أن اينشتاين أكثر تديننا منك يا سيد طاغور؟
وختم يحيى روایته قائلاً ومعليقاً.. (أظن أن طاغور غضب قليلاً

وقال لاينشتاين.. لست أكثر أو أقل تدينا.. لكنك تريد أن تكون إلها جديدا)..

بعد ذلك عادت بي «سمنتا» إلى حيث توقف بي مثني حين كنت معه في مقهى «ليالي الشرق» وسألته:

- أخبرني عن تونس هل صحيح أن ثورتكم هي الوحيدة التي نجحت؟

قلت لها بنوع من التأسف:

- نجحت!.. لا أدرى. ربما لأنها أبقت كل شيء في مكانه.. إذا أراد صاحب هذا المقهى أن يبيع مقاهه لشخص آخر، فإن المقهى سيستمر في العمل.. بالطبع ستحدث بعض الضوضاء من العمال.. سيسؤل البعض عن صاحب المقهى الجديد.. سيحاول صاحب المقهى أن يغير بعض الديكورات، كأن ينزع صورة المالك القديم ويعلق في مكانها صورته ثم تستمر في العمل..

- أراك متشارئا جدا.. ألم تطردوا دكتاتورا بأقل الأثمان..

- أطرد نفسه بنفسه. هو الذي اختار أن يرحل.. لربما كان أكثر حكمة من الجميع. الجن في أحيان كثيرة يمنحنا الحكمة!..

تطور تأسيفي إلى أن أصبح غضبا واكتشفت أن بداخلي غضب لا ينضب، كما لو أنني أريد العنف لكي أبرر وجود الفساد. وقلت لنفسي، الفساد موجود وسيظل موجودا، ولكن لماذا العنف لتبريره.. ثم تسائلت: لو أنني انضممت إلى الجوقة لما كنت بمثل هذه الحالة من التبرّم والتشاؤم.. بعد ذلك هدأت وقلت:

- اثنان فقط رجحا من هذه الشورة.. واحد جاء من بعيد كما لو أنه وصل على معراج إلى قصر قرطاج. والثاني جاء من خلف الموت متخفيا، كما لو أنه خيال لرجل قديم جدا..

قال لي مثني:

- هل تقصد المرزوقي والباجي؟

- نعم، لا غيرهما.. الأول شرع في بيع قصور الرئاسة كما لو أنها من ممتلكات أبيه ثم نصب مزادا علينا لبيع سيارات بن علي وكيلوتات وأحذية وفساتين لليل بن علي كما لو أنها من ممتلكات زوجته.. والثاني ها هو يستعد لبيع الموانئ والشركات الوطنية والقواعد والطرق..

قالت «سمنتا» بسذاجة النساء..

- ربما يحتاجان للأموال. لقد سرق الرئيس السابق كل شيء..
قلت لها وقد ارغمتني سذاقتها أن أدفع عن الرئيس السابق..
- سرق كثيرا ربما.. ولكنه ترك كثيرا أيضا.. لقد أنفقوه بسرعة وبتهور. ثم أضفت..

- يا عزيزي لنفترض أن المرزوقي باع تلك القصور، وهي ليست إلا فيلات متواضعة تسمى تجاوزا بالقصور، فإنه لن يجمع أكثر من عشرين مليون دولار في أحسن الحالات. وهذا المبلغ لا يكفي لشرب القهوة ليوم واحد لشعب يزيد عدد سكانه عن 12 مليون..
اكتفى ببيع الكلاسين وبعض السيارات والأحذية.. ثم وزع بقية السيارات على الشرطة الرئاسية وكذلك على مجموعة من المعارضين

يدعون أنهم معرضون للاغتيال.. وختمت قائلاً:

- هذه هي الرداءة التي لا اسم آخر لها غير الخسارة.. هذا هو الابتذال الذي لا أجد له اسم آخر غير النذالة!.. تصوري: معارضون يساريون يركبون سيارات مرسيدس وب.م ورونج روفر رباعية الدفع كانت من أملاك الرئيس السابق.. هكذا بيلاش.. لكن الحقيقة ليست بيلاش.. فقد كان ذلك من أجل أن يصمتوا.. استبدلوا الثورة بسيارات فارهة، لكنها قديمة!! أليست هذه هي الرداءة يا سمنتا!.. لا تصدقني شيئاً. إنهم تجار روبافيكا وخريجو سجون ومقاولو جهاد في بيشاور ومعهم تجار خضروات بالجملة في بروكسيل وأصحاب مسالخ لحم حلال في بريطانيا ومنظمات دولية عتيدة أصبحت تشتعل لصالح الموساد والسي.اي.اي. وتجار عملة ومهربون وحجاج وأئمة أميين..

كان مثني منشرحاً لما كنت أقوله. وهو يستطيع أن يقول أكثر على ما يحدث في العراق، لكنه اكتفى بالتالي: في الخمسينات جاءنا ضباط صغار في العراق وسوريا ومصر. كانوا صادقين إلى حد السذاجة.. ولكنهم لم يبيعوا شيئاً لا من قصور الملك عبد الإله ولا من قصور الملك فاروق. بل أتموا الأراضي والنفط وحاولوا أن يبنوا أوطاناً فسيحة.. وحينما اتحدت سوريا مع مصر، أضاف الملك فاروق إلى بطاقة الشخصية وقد كان لاجئاً طوعياً في روما، لقباً جديداً: «الملك فاروق، ملك مصر وسوريا»..

ضحكتنا ثلاثة وقدرنا جميعاً شهامة الملك فاروق وكذلك شهامة أولئك الضباط الصغار.. ثم اقترحت عليهم أن يضعوني

أمام الفندق (فقد اقترب موعدني مع صديقي الفلسطيني توفيق السراج)..

*** *** ***

وصل توفيق السراج إلى فندق «الغولدن توليب» متأخراً بحوالي ساعة.. قال أنه تأخر بسبب الازدحام، فهو يسكن في الضاحية الجنوبية.. ويصعب على المرأة أن يقدر الوقت الذي يستغرقه للذهاب إلى الحمراء.. كنت قد رأيت توفيق قبل يومين، واتفقنا أن نذهب معاً إلى «عباس فرشخاي»، تاجر السجاد الإيراني الذي التقينا به معاً في تونس قبل نحو ثلاثة أشهر. تركت مهمة ترتيب الموعد لدى توفيق. ثم هاتفني في الصباح بأن السيد عباس ينتظرنا في إحدى محلاته لبيع السجاد في منطقة رياض الصلح.. ركينا سيارة أجرة ثم اتجهنا نحو العنوان الذي سجله توفيق على ورقة صغيرة.. حين اقتربنا من ساحة النجمة قال لي توفيق:

- قد يدعونا صديقنا عباس إلى العشاء.. هل لديك مانع؟

أجبته على نحو مبهم:

- لنرى ذلك.. نقرر مع بعض.

- أعرفه جيداً.. لن يتركنا.. عباس رجل شهم..

آنذاك فكرت لو أن عباس فرشخاي رجل شهم وغني كما يعتقد توفيق فلماذا لم يرسل لنا سيارة بسائقها، ولكنني أبعدت ذلك السؤال حتى لا يفسد مزاجي وأقنعت نفسي بأنه رجل لا يريد أن يترك أثراً لأي عمل يقوم به.. شيء من الفذلكة السوداء لا أفهم مصدرها أحياناً وهي غالباً ما تفسد التواصل.. ذلك التواصل

الذي يتطلب من الذين يسعون إليه كثيراً من الصبر والتواطؤ والاستسلام!..

استقبلتنا سيدة في الأربعين أو أقل بكثير، بابتسamas رقيقة.. كان واضحاً أن السيد عباس، إما أنه لم يصل بعد. وإما أنه موجود في جناح ما في هذه المغازة الضخمة والفسحة. وأشارت إلينا بأن نسير وراءها. اخترقنا رفوفاً طويلة وعالية من السجاد الفارسي الفاخر جداً.. قدرت المسافة بنحو 50 متراً حتى نصل إلى المصعد الذي سيرفعنا إلى جناح السيد عباس فرشخاً.. وحين انفتح المصعد في الدور الثاني، ظهر عباس مبتسمًا وحاضنا كل منا بدفء وحنان. كان يرتدي بدلة إفرنجية وقميصاً ما وبدون كرافته، وكل التخب الإيرانية في عهد الملالي. كانت إيران قبل نحو أربعين عاماً من أكثر بلدان الشرق التي وقع غربتها أو تغريبها، إراد الشاه، أن يفعل ما فعله كمال أتاتورك في تركيا، ولكن الثورة أزاحت كل شيء وعادت لتنزع عن كاهلها الغرب الخارجي وترتدي الغرب الجواني. ففي أعمق أعمق هذه البلاد توجد نزعة آسيوية عريقة وأصيلة!.. في إسلامهم ولغتهم وجغرافيتهم. ربما هم قريبون من العرب، ولكن في أصالتهم وانضباطهم وفلسفتهم قريبون من عالم الهند. حتى عقيدتهم الإمامية هي عقيدة وجودية.. بما يعني أنها مركبة تاريخية!..

دخلنا إلى جناحه فوجدنا رجلين آخرين، أحدهما كان يرتدي عباءة سوداء. قدمنا إلى ضيفيه ثم قدم ضيفيه لنا. ثم طلب منا أن نجلس وهو لا يزال مرحاً ومبتسمًا.. قال:

- هذه هي بيروت.. إنها مكان جيد للقاء العرب والعجم كما

يقول فقهاء العرب!

أحسست أنه لا يحب كلمة عجم التي يطلقها العرب على الذين لا يتحدثون العربية، ويقصدون بها في الغالب الفرس.. ورغم أن علماء الفرس قد أعطوا الكثير إلى المسلمين والعرب، فإنهم ظلوا عجما في نظر من لا زالوا بدوا. الإسلام انطلق بدويًا، ولكن أهل الشام وأهل الفرس هم الذين جعلوا منه ديننا مدنياً ومدينياً.. أنا نفسي لا أحب أن يطلق على أي شعب كلمة عجم.. لذلك ضحكت وقلت له:

- كل غريب في نظر البدو. أعمجي.. لا عليك..

فهمني عباس فرشخاي جيداً وفهم أني فهمت قصده.. والتفت إلى ذلك الرجل الذي يرتدي عباءة سوداء والذي كان يدعى حسين رستم وقال:

- أغلب العرب لا يعرفون أن الذين يرتدون عباءات سوداء في إيران يحملون جينات عربية. نحن أبناء وأحفاد الرسول. وإن ذن نحن أحفاد وأبناء قريش..

قال عباس معلقاً على ذلك.. إنه يمزح.. ولكي ينقل المحادثة إلى مكان آخر، قال:

- ما رأيكم أن نذهب إلى العشاء؟

كان متوجهاً إلي، فأحسست كما لو أنه يقصدني لوحدي.. فقلت:

- من ناحيتي ليس لدي مانع.. بعد ذلك التفت إلى توفيق وسألته:

- هل لديك مانع؟..

- أبدا.. لنتوكل على الله يا عباس بك.

في المطعم فقط، عرفت أن دعوة العشاء كانت موجهة لي ولتوافق فقط.. السيد حسين رستم وكذلك الرجل الآخر الذي كان معه والذي يدعى على ما ذكر «سلمان» لم يلتحقا بنا إلى المطعم.. أن تكون ضيفاً لعباس فرشخاي، فهذا كرم كبير. وأن تكون جليسًا إلى جانبه على طاولته، فهذا فخر لك. هكذا شعرت . ما من أحد من بجانب الطاولة ولم يسلم ولو بإشارة خفيفة. ذهب في ظني أنه صاحب المطعم.. وكدت أسأل صديقي توفيق ولكنني لم أفعل، وحين بدأ النادل يسجل طلباتنا تأكدت أنه مجرد زبون خاص جدا. سأله النادل عن سبب غيابه الطويل. قال له: لم نرك منذ حوالي شهر.. لقد سألوني عنك كثيرا.. حتى السيد أبو علي غفار، صاحب المطعم سألني عنك قبل يومين..

وسائله عباس:

- كيف هي أحواله.. هل هو موجود الآن..

- لو كان موجوداً لخرج لاستقبالك.. أظن أنه سافر إلى طهران.. تركنا السيد عباس يختار بنفسه الصحون التي سيقدمها لنا النادل. فالمطعم متخصص في الوجبات الفارسية والهندية.. لذلك أوكلنا المهمة إلى السيد عباس. قلت له فقط:

- لا أريد أن أكثر من الأكل. أعرف أن أطباقكم شهية. وشخصياً أحب مذاقها ونوعية بهاراتها، ولكنني لا أحب أن أصبح

متخماً. فهذا يعطلي حواسي الأخرى. ضحك توفيق وعباس ثم تركاني أرد على مكالمة هاتفية. ابتعدت عن الطاولة وكذلك عن الضجيج، خرجت إلى باحة المطعم، ثم كبست على زر الرد.. كان المتحدث من تونس، صديقي مراد عباس، أحبينا بعضنامنذ أول لقاء لتشابه الأسماء. فأنا يحيى مراد علوان وهو مراد عباس. بسرعة قال مراد..

- ألا تعرف ما الذي حدث هذا المساء.. قبل نحو ساعة فقط..؟

أجبته بصوت عال لشعوري أنه بعيد جداً..

- لا أعرف.. قل لي ما الذي حدث..

- لقد فجرروا سيارة «ميسي باص» كانت مليئة بالحرس الرئاسي.. وقع ذلك بالقرب من مبني الداخلية. خذ بالك الحكومة قد تسقط.. الباقي نفسه قد يرحل.. إنها حرب البوليس في موجتها العالية.. (كنت أعتقد أنه سيخبرني بموت الغنوشي أو الباقي.. رأيت أن الأمر لا يدعو إلى كل هذا الاضطراب العاطفي الذي أصاب مراد) فقلت له:

- مراد.. مهما كان عدد الضحايا، سوف تمر تلك الحادثة تحت عنوان الإرهاب.. سوف ينساها الناس بسرعة. أما الرئيس فلا تخف عليه.. لن يذهب إلا بمقادير إلهية أخرى..

عدت إلى الطاولة على نحو مهموم. ففي الحقيقة شوشتني ذلك الخبر وأحالني إلى ما كان يفكر فيه مراد، إذ ماذا لو انسحب الرئيس، وترك الفراغ السحيق لجموعة من الذئاب والشعالب؟ لم أكن أعتقد بذلك البتة ولكن من طبعي أن أضع أمامي كل

الاحتمالات حتى أكثرها سذاجة أو أقلها توقعها. ولا شك أن عباس قد شعر بأن مزاجي قد تغير، فسألني برفق:

- لا تقل لي أن هاتفك بريء. لقد رن عدة مرات وكان مصرًا أن تردد.. هل أنت متزوج يا يحي؟ هل العائلة بخير؟

- نعم متزوج، لكن الهاتف ليس من زوجي. إنه صديق لي من تونس، أخبرني أن عملية إرهابية من الحجم الكبير قد حدثت في تونس قبل نحو ساعة.. سيارة «ميسي باص» اقتحمتها رجل انتشاري، فقتل عدداً كبيراً من رجال الحرس الرئاسي..

بدأت الأطباق تتواли علينا بسرعة وكأنها تنزل من السماء.. وبدأنا ثلاثة نلتقط بشوكاتنا ما طاب لنا.. فكنا أحياناً لا نكاد نلتقط أنفاسنا من أجل أن نلتقط أطراف الحديث.. كلام كثير قلناه قد ذهب أدراج قرقعة السكاكين والصحون.. وحين شفينا شيئاً ما من نهمنا، رأى عباس أتلمس جيوبي فقال لي:

- يمكنك أن تدخن.. هذا الركن مخصص للمدخنين.. ثم سألني.

- هل زرت طهران يا يحي..

- نعم أكثر من مرة.. أول مرة بعد سقوط الشاه مباشرة.. وبعد عودة آية الله الخميني بيومين من باريس.. كنت هنا في بيروت آنذاك.. وكنت أعرف الكثير من رجال مجاهدي خلق، ثم زرتها أثناء انتخابات خاتمي.. وأخيراً زرتها بمناسبة أعياد الثورة في

العام 2014.

- وهل تفكّر في زيارة أخرى؟

- إذا كان صديقي توفيق معي، فسوف نكون سعداء.

وسمعت توفيق مرحبا وقائلا:

- سنكون أكثر سعادة لو كنت معنا يا سيد عباس.

- ثمة دائما من يكون في خدمتكم بأفضل من عباس..

سألت نفسي، كم يعرف عني هذا الرجل؟ وهل ثمة ما يجعله يدعوني إلى زيارة طهران؟ وهل يكون تاجر سجاد كبير.. أم رجل جهاز كبير؟ أردت أن أقول له أنني أرغب في اللقاء بشخصيات نافذة هذه المرة، لكنه سبقني إلى القول:

- ستلتقدون برجالات مهمة خلال هذه الزيارة.. اتركوا لي مسألة التنظيم. وسوف أخبركم..

بطريقته الخاصة، حسم عباس النقاش وترك المسألة لوقت مناسب.. ثم عاد يسألني:

- هل تعتقد أن الذي حدث قبل حين في تونس عمل داخلي أم خارجي؟

قلت له دون عناء الدقة باعتباري بعيد عن تونس منذ نحو أسبوعين.

- لا شيء يحدث اليوم في هذا العالم ولا يكون متشابكا ومتدخلا بين الداخل والخارج.

ثم تابعت:

- إذا كان الضحايا من الحرس الرئاسي، فال المستهدف هو الرئيس..

ورغم ذلك فإن الرئيس سيفهم الرسالة جيداً لكنه لن يستسلم.. فهو لن يرحل. أعتقد سيعلن حالة الطوارئ كالعادة ثم يتوجه إلى تنظيف جهاز البوليس. فالإرهاب في تونس حرب بوليس مختلطة مع مراكز أخرى للسلطة تعمل بين الداخل والخارج..

بعدما أكملت حديثي، لاحظت أن معظم الكلام دار بيدي وبين عباس فرشخاي.. لقد تكلم توفيق القليل حتى بدا لي وكأن دوره مرسوماً بعناية.. كان يوافقني على ما أقول في أغلب الأحيان.. وكذلك يفعل مع عباس.. وحين بات كل منا ينتظر في الآخر متى ينطق أو يعبر عن رغبته بالانصراف، صمتنا ثلاثة دفعة واحدة.. ثم سمعت السيد عباس:

- على العموم.. أناأشعر بسعادة بالغة وأنا أتحدث إليك يا سيد يحي..
يجب أنأشكر صديقنا توفيق..

لم أكثر من رد الكلام الجميل والأنيق ولكني حرصت على ألا أكون جافاً، فأبديت كل الإعجاب بالسيد عباس. وبطبيعة الحال لم أنس أن أمدح المطعم الفارسي والثقافة الفارسية.. تواصل بينما الحديث بروتوكولي في الطريق.. حرص عباس بك على أن يضعني أمام الفندق.. نزلنا ثلاثة من السيارة، وبعد أن تبادلنا السلام تابعاني (عباس وتوفيق) إلى أن بلغت بهو الفندق.

*** *** ***

في السبعينات من القرن العشرين لم تكن تهمة «الإرهابي» حين تطلق على شخص أو زعيم سياسي مشينة أو شتيمة. كانت

تعتبر وساماً لحاملاها. فهو مناضل كبير ضد الامبرالية والصهيونية والرجعية واليمين الرأسمالي.. كانت كلمة «إرهابي» أو انتشاري أكثر تداولاً وأكثر تعبيراً عن قناعة ذلك المناضل الراديكالي. فهي عنوان للراديكالية والتغيير الجذري.. وحتى وإن وجدت جماعات إسلامية في تلك السنوات، فإنها كانت إلى حد ما متمسكة بالدعوة والنصيحة وطريق الرشاد.. إن كلمة «شهيد» أو «استشهادى» لم تصبح طاغية على الفعل السياسي الراديكالي، إلا حين بات اليساريون أيتاماً فألصقت بهم تهم «الإرهاب» من كل جانب.. لقد عوضت أفغانستان بيروت في التوجهات والاهتمامات وكذلك المصطلحات.. فمن كان يقاتل الإمبرالية والصهيونية في بيروت أو في روما أصبح إرهابياً. ومن كان يقاتل موسكو والشيوعيين في كابول أصبح شهيداً أو استشهادياً. أما الآن فقد اختلط الحال بالنايل.. إذ يمكن لجزال أمريكي أن يسمى إرهابياً انتشارياً يهجم بسيارته المفخخة على جامعة أو سوق خضار أو حتى مستشفى «بمناضل حريات»، فيما يطلق أي ضابط إسرائيلي على أي طفل فلسطيني يحمل في حقيبته مقاصراً صغيراً كلمة إرهابي.. احتارت الأمم المتحدة في توصيف وتصنيف وتعريف «الإرهاب» وفي النهاية قال بوش لكوني عنان:

- اسمع أيها الرجل.. كل من ليس معنا، فهو إرهابي لأنه ضدنا..
 صمت كوفي عنان ولم يناقش الأمر. فهو يدرك أن أمريكا قادرة على تصنيفه كإرهابي متعاون مع إيران أو الفلسطينيين أو صدام حسين يستحق الطرد ثم المحاكمة!.. وهكذا لا يزال خريجو جبال أفغانستان هم مناضلو الحرية حسب التصنيف الأمريكي،

إلا قلة منهم، أولئك الذين تمردوا عليهم أو خانوهم أو تعبراً من الخدمة تحت الإيجار وذهبوا إلى مناطق أخرى وبلدان أخرى لفتح ورشات قتالية تعمل لحسابهم أو لحساب من يختلف أو يتعارض مع أمريكا..

لم يكن الإيرانيون قد تورطوا لا كمواطنين ولا كحكومة في حروب أفغانستان الوسخة.. ولكنهم بالتأكيد قد استفادوا من «الورطة السوفياتية» لإنجاح ثورتهم ثم استفادوا من «الورطة الأمريكية» لثبت أركان نظامهم. وحين جاء الأميركيان إلى العراق بدا أن الطوق قد أحكم على آيات الله، لكن هؤلاء تفتنوا منذ البداية في إدخال الوحش الأميركي إلى زريبة العراق حتى يتمكنوا من القبض عليه أو إراهقه وإدمائه والانتقام منه..

هكذا كان توفيق السراج يخمن. وكنت أجده على صواب خاصة بعد أن اعترفت أمريكا بإيران كقوة إقليمية يمكن، التعاون معها والاعتماد عليها في بعض المهام. ولكن ما كان يشغلني دائمًا هو مدى قناعتي بأن ما تقوم به إيران هو في مصلحة العرب أم لا.. لقد تعلمت أن ما من دولة تخدم كأجير لدى دولة أخرى إلا إذا كانت لا تمتلك قوت شعبها لمدة ثلاثة أيام.. ورغم أنه من الصعب أن نعثر على تهاون ما في السياسة الإيرانية في دعمها للفلسطينيين والمقاومين اللبنانيين، إلا أنها لا تستطيع أن تعطي لأية دولة صكاً على بياض لحسن سيرتها. فالازدواجية الإيرانية واضحة هي أيضاً: إنها تقف مع الذين يؤيدون واشنطن في بغداد، ثم تقف مع الذين يحاربون إسرائيل وأمريكا في لبنان وسوريا وفلسطين.. وهي تتعارض مع إسطنبول في سوريا وتتفق

معها في محاربتها لأي كيان كردي. فمناضلو الأكراد خارج القبة الأمريكية هم إرهابيون بالنسبة لكل من إيران وتركيا..
- فأين أجد الحقيقة؟

تساءل صديقي توفيق السراج وقبله تساءل نيته.. أجاب نيته: الحقيقة كما يفهمها كل نبي وكل طائفي وكل مفكر وحتى كل اشتراكي وكل رجل دين، أن لا بلوغ إليها مهما كانت صغيرة أو متناهية الصغر.. أما صديقي توفيق السراج فقد أجابني ونحن ذاهبان لزيارة الفاكهاني، قال:

- ها نحن في الفاكهاني مرة أخرى. ذات يوم كانت هذه المنطقة تسمى «جمهورية الفاكهاني العربية». بعضهم كان يسميها «بالكومونة العالمية الأولى». وقد تواجدت فيها الجامعة العربية ومكاتب الثورة الفلسطينية بجميع فصائلها ومناضلو الثورة الإيرانية قبل هروب الشاه ومناضلو الجبهة الساندينية في نيكاراغوا والزائريون وجميع المعارضات العربية من منظمة «إلى الأمام المغربية» إلى «الحزب الشيوعي» العراقي بشقيقه وثوار المؤتمر الإفريقي وكارلوس وبعض مناضلي الأولوية الحمراء والتوبوماروس ومنظمة «العمل المباشر» ومناضلو الأكراد بكل فصائلهم ومناضلو الجزيرة العربية،.. فهي تمتد من مبني اليونيسكو حتى مخيم صبرا وشاتيلا وتمر بالجسر حيث الغجر ثم تتسع حتى تنفتح من حدود مسجد عبد الناصر والبرير وشارع المزرعة لتصل إلى العصفورية، مستشفى المجانين والملعب الرياضي الكبير.. هنا في هذا المربع الأخير للثورة العربية، كانت جميع الأفكار تتقابل وتفاصل وتعيش مع جميع الأسلحة.. تباهى عرفات بذلك أمام العالم وقال: هذه ديمقراطية البندقية

الفلسطينية!.. طلب جميع حكام العرب وده وتفهمه وراهنوا على كل شيء حتى على طيبته الشخصية أو اغتياله.. ثم تمنى أغلىهم أن يقتل في الغزو الإسرائيلي.. فاوض العرب والروس وأوروبا بتلك الجمهورية الصغيرة. ومن هناك كان يهددهم فيتسابقون إلى إرضائه حتى هجمت إسرائيل.. في تلك الجمهورية لم يكن أحد محسنا من النقد أو الشتيمة.. عرفات نفسه كان يوصف «بزعيم الخط الاستلامي» في أدبيات اليسار الراديكالي.. وكان يبتسم ويقول لرجاله: هؤلاء يحبونني وأنا أحب أن ينتقدوني. غدا سيعرفون من هو زعيم الخط الاستلامي!.. ملك المغرب كان يستمع إليه جيدا رغم أنه كان يدعم اليسار المغربي. كذلك كاسترو وبريجنيف وميتران.. فالثورة الفلسطينية تملك سحرا خاصا. فحق من كان يعارضها أو لا يحب أساليبها كان لا يفصح عن ذلك، لأن الفاكهاني تعجب بمعارضيه.. من لم يكن يتحدث إليك في «مقهى أم نبيل» أو مقهى «أبو علي» قرب دار الآداب ومكتبة الطليعة ولا يحمل بين يديه كتابا وفي خصره مسدسا أو مدقة صينية، فهو إما لا يؤمن بأفكاره أو لا يؤمن بالثورة.. كان السلاح هو الدليل على الإيمان بالأفكار الراديكالية.. وكان أولئك الشوريين قد عرروا كيف يتعاشرون مع سراويل الشارليستان والقمصان المزركشة وكتب لينين وويلهام رايش وتروتسكي والأشعار النثرية والنصوص الإباحية.. وكذلك البندقية، عنوان العنف الثوري.

فحين نكون في العشرينات من أعمارنا، تكون أجسادنا تغلي بطاقة ألف ميغاواط، بالأحساس الأكثـر قدرة على توليد العنف!. ما كان يجب أن نعرفه فيما بعد أن الأفكار أقوى من الأجساد. ضع

فكرة جبارة في رأسك وسوف ترى: إما أن تصبح سجينًا لها أو تجعل منك خليطًا من المولوتووف. قرأتنا ماركس وأنجلز أن العنف هو القابلة الضرورية للتاريخ. وشرح لنا ذلك لينين في مساجلاته وويلهام رايش في مداخلاته بأن ذلك العنف الشوري نبيل لأنه يطمح إلى التغيير. بعد ذلك تأكدنا في الميدان أن الفكرة حتى وإن كانت خاطئة، هي طاقة ساحقة وموجهة. وبالتالي فهي أيضا نوع من أنواع العنف. قدمني صديقي توفيق السراج في تلك الأيام إلى أحدى الفصائل الفلسطينية. ورغم أن توفيق يعرفي جيداً منذ درسنا معاً لمدة سنة في جامعة بغداد، إلا أنه أخضعت لاختبارات عصيرة حتى لا أكون مندساً أو عميلاً أو متسللاً حسب لغة تلك الأيام. ثم شيئاً فشيئاً أصبحت أحظى بثقة لم أكن أتوقعها لدى قادة ذلك الفصيل.. وبعد تدريب بسيط على السلاح في الجنوب، كلفت بالإشراف على التوعية السياسية برتبة «مفوض سياسي»، بينما أشرف توفيق على التدريب العسكري بلقب «مفوض عسكري»، (إذ تلقى دورتين قبل أن أتعرف عليه واحدة في بغداد وأخرى في موسكو)، وذلك لفريق من الشباب الصغار تتراوح أعمارهم بين 18 و 20 عاماً. في البداية لم أكن عارفاً بأصول تلك المهمة الصعبة وكان يكفي أن تكون متكلماً جيداً وجاماً لبعض المصطلحات الراديكالية وقارئاً لبعض الكتب الشورية حتى تصبح قادراً على تعبئة رؤوس وأفئدة ذلك الشباب بالحماس والأفكار التي لم تكن تعرف مدى قدرتها على التدمير والتدمير الذاتي!

كنا في شقة كبيرة تطل على الملعب والمارستان (العصفورية). اليوم يبدو لي من الصعب أن أشرح ما كان يدور بيبي وبين أولئك

الشباب إذ كان أغلبهم قريباً مني في السن.. ولكن شيئاً فشيئاً بدأوا يستسلمون إلى لساني ويثقون في قدراتي البلاغية.. كذلك على أن اعترف اليوم أنه في البداية لم أكن أعرف أنني أقوم بتهيئتهم لعمل انتحاري.. أي للموت المحقق، ولكن فيما بعد عرفت أن ذلك الفريق يجب أن نختار منهم خيبة لا تزيد عن 12 فرداً.. ثم يطلب منا أن نرشح 6 أفراد من بين الاثنين عشر للقيام بعمل بطيولي داخل خطوط العدو الإسرائيلي (كومندوس).. والآن لو أنني تحدثت عن شروط اختيار أفراد ذلك الكوموندوس البطولي فإنني سأشعر بالخجل، ولكن علي أن أكون شجاعاً وأذكر بعضها، وهي على أية حال مملة من القادة الكبار: أن يكونوا الأقل ذكاءً والأكثر عزلة عاطفية والأقل ارتباطاً بعائلاتهم والأكثر اندفاعاً ثم أولئك الذين ينحدرون من بلدان بعيدة أو أواسط هامشية. بحيث لا يمكن لأحد من عائلاتهم أن يسأل عنهم. كانت شروط قاسية ومهينة وجارحة للكبراء، ولكن بما أن فعل الثورة يبرر كل شيء، فقد كنت أقول لنفسي وكذلك لتوفيق:

- بما أن هذا الهامشي والغبي والمندفع والمتهور ستتاح له فرصة بأن يكون بطلاً وتعلق صورته على الجدران والواجهات، فهذه مكافأة كبيرة له!..

كان علينا أن نختار 12 فرداً من أصل 18 أو عشرين ثم نختار 6 من أصل 12 فرداً. كانوا يأكلون جيداً ويتمتعون بكل شيء لأن يقيموا حفلات رقص وغناء أو يلعبوا الشطرنج.. وقبل انتقامهم إلى الجنوب استعداداً للتدريب الميداني والحي واطلاعهم على نوع العملية التي سيقومون بها، كانوا يمارسون بعض رغباتهم

الإنسانية!.. لا أحد منا كان يعرف ما نوع المهمة البطولية وأين ستقع ومتى ستقع، لا أنا ولا الأبطال ولا حتى توفيق المفوض العسكري.. ففي الجنوب سيترك كل شيء لتقدير القيادة. التوقيت، الظروف الدولية، الظروف الأمنية وكذلك الأهداف والرسائل.. وحين يبدأ الأبطال في تسجيل شهاداتهم ووصاياتهم بالصوت والصورة (عرفت فيما بعد أن تلك التسجيلات تؤخذ لبعض العواصم العربية للحصول على المال والدعم) غالباً ما تتوقف العملية قبل انطلاقها، لأن أحد الأبطال قرر أن يختار الحياة على الموت. بعضهم يطلق النار على رجله من الأسفل بدعوى الخطأ أو يرمي بنفسه في حفرة ليصاب بكسر.. أو يخترع أية حيلة ليختفي.. ولكن فشل عملية لا يوقف مساراً أو نهجاً ثورياً.. وهكذا تبدأ القيادة في استقطاب مجموعة جديدة من الشباب!..

قال لي توفيق ونحن نتخطى أزقة الفاكهاني نحو شارع المزرعة العريض:

- ربما أخطأنا في الدفع بهؤلاء الصغار إلى الموت باسم الشهادة البطولية.. ولكن ليس من حق نيتشه أن يندد بكل نوع من الشهادة..

- ربما كان نيتشه على خطأ مثلكنا وربما كان على حق حين قال: أن الشهداء، أولئك الذين يضخون بحياتهم من أجل حقيقة لا يملكونها، هم كارثة كبيرة في تاريخ البشرية.

- مع ذلك لاتزال الشهادة تمثل إغواء كبيراً في هذا الشرق الملبد بالطلاسم منذ عيسى ابن مريم. قال توفيق ثم واصل يقول:

- نيتشه أظنه كان يتحدث عن المسيح حين دفع حياته ثمنا لنبوة لم يعش لا مخاضاتها العسيرة ولا حروبها الحقيقة!..

وافقته على نصف ما قال في المسيح، لكنني عارضته فيما كنت واثقا من أنه يعتقد، وهو أن «العمليات الاستشهادية» (التي يستخدمها الجميع، الأبطال والخونة والعملاء الآن) لاتزال ذات جدوى في يومنا هذا..

ثم قلت له:

- هل تعتقد أن قيمة قضية أو عظمة ثورة تحريرية يمكن أن تختصر في سيارة مفخخة أو في اختطاف طائرة؟.. ثم أضفت:

- حين تتحول الجريمة إلى شيء مجيد ومجد، نكون قد أجهزنا على جوهر القضية.. هذا ما لم يدركه العرب منذ اختطاف أول طائرة وإنزاها في مطار عمان حتى آخر عملية قام بها داعش!

كنا نتحدث طوال الطريق رغم أزيز محركات السيارات ونبهات كلاكسون التاكسيات العالمية.. ليس ثمة من يستعمل كلاكسون سيارته في العالم أكثر من تاكسي السرفيس في لبنان. فكما لو أنه يسبح بالضغط على الكلاكسون. ثمة هوس بالكلاكسون حتى لو كان الطريق مفتوحا.. حتى لو لم يكن هناك من يتربّل على الطريق.. يبدو الأمر كما لو أن كل سرفيس يعرض خدماته عن طريق منبهه، لذلك فإن المنبهات متعددة الأصوات والنغمات كما الايفونات.. ثمة من يدفع أموالا إضافية لمنبه سيارته وكذلك لرقمها المتميز وكذلك لنغمة آيفونه!!.. والحقيقة هذا ما عاد من اختصاص اللبناني فقط، بل بات ثقافة لدى العرب من محبيهم

إلى خليجهم.. ذهبت بنا خطواتنا وأحاديثنا إلى أن بلغنا منطقة «فردان» الفارهة فقررنا أن ندخل إلى إحدى المجمعات التجارية لتأكل بعض السنديتشات وننعش عيوننا بجمال فتيات الجيل الرابع الجديد!..

*** *** ***

ودعت توفيق في فرдан، قرب فندق البرستول، تركته ينتظر تاكسي، أما أنا فقد تمشيت عبر نزلة السارولا باتجاه «الغولدن توليب». كنت راغباً في قيلولة استعداداً لسهرية مع مثني. وجدت تحت باب الغرفة رسالة كنت أظن إنها تذكير من إدارة الفندق بدفع الحساب، غير أنها كانت تحمل لي مفاجأة أخرى: «أنا سما عبد الصمد. هذا رقم هاتفي.. أقبلك وإلى اللقاء». تضاربت الأسماء في ذهني لمدة عدة دقائق. عدلت حبال ذاكرتي كما يعدل أي فنان حبال صوته أو إيقاعات عوده.. وفجأة رحت أتساءل: كيف عرفت تلك السيدة أنني موجود هنا.. لقد تركتها في القاهرة. وقالت لي أنها ذاهبة إلى شرم الشيخ مع صديقتها «سمر» التي تعمل كمراسلة لقناة «الحرة».. توصلت في الحين إلى استنتاج مفاده: سمر عبد الوهاب هي التي دلتها على عنوان إقامتي، وإسماعيل السمان هو الذي أخبر سمر. ومن المحتمل أن تكون ستيفاني هي التي أخبرت إسماعيل، فهي الوحيدة التي تعلم بوجودي في بيروت من خلال زوجها مراد عباس.. الآن وقد عرفت السلسلة لم يعد جسمي يطلب قيلولة. عدت إلى النشاط بعد الدوش. ثم طلبت الرقم بحذر شديد من فرط المفاجأة..

- ألو.. أنا يحي يا سما..

- وأنا سما يا يحي..

لعدة ثوان انهال علينا ضحك غزير.. ثم قالت..

- حق لو كان اسمي سما، فإن الأرض التي يوجد عليها يحي،
ليست بعيدة..

- خاصة إذا كانت هذه الأرض، هي أرض أجدادك.. هكذا
علقت ثم قلت لها:

- لن أسألك كيف عثرت علي.. ولكنني خمنت أن صديقتنا سمر
عبد الوهاب قد ساعدتك..
قالت:

- حتى لو لم تساعدني، فقد كنت سأعرف.. ألا تعرف أنني
أعمل في شركة غوغل.. في الحقيقة تركت لك بطاقي مع سمر،
ولكنك سافرت فجأة دون أن تراها.. (آنذاك لاح لي خيال سما
عبد الصمد وهي واقفة في مكتب الجزيرة بالقاهرة مع ستيفاني
واسماعيل السمان.. صورتها لا تزال طازجة ومثبتة في منطقة ما
من جهازي العصبي).

حين أكملنا المكالمة وتواعدنا أن نلتقي في المساء، جاءتنى أسئلة
أخرى: مثل ماذا تريد مني هذه السيدة؟ وهل يمكن أن أصنف
لقاءنا الأول بالصدفة التي تتحول إلى تجربة؟ وهل هي تريدين لهمة
ما أم هي سيدة معجبة تتحول أحيانا إلى «صيادة»؟. تحدث يوميا
ملايين الصدف في العالم.. ونظرية الصدفة والضرورة جزء من
النظرية марكسية.. ثلثا العالم تم اكتشافه عن طريق الصدفة..
ثلاثة أربع الزواجات تحدث بالصدفة.. أكبر الاختراعات تمت

عن طريق الصدفة.. ولكن أشك أن يكون لقائي بها مع ستيفاني عباس وسمر عبد الوهاب وإسماعيل السمان في مكتب الجزيرة بالقاهرة لمدة ربع ساعة كان محض صدفة. صحيح تبادلنا بعض النكات والأخبار، ولكن ذلك ما كان يثير إعجابها إلى الحد الذي «طاردي» فيه إلى بيروت.. عرفت آنذاك أنها لبنانية وأنها عازمة على الذهاب إلى شرم الشيخ.. وأنها تملك شركة اتصالات، مقرها في قبرص. صحيح أيضا أنها أعجبتني في كل تفاصيلها، خاصة في ضحكتها ثم وقوتها ذات الدلال والتجير. ولكن لم أهتم أبدا بها إلا كصدفة جمالية أو شاعرية أضفت على مكتب الجزيرة الكليب شيئاً من البهجة لمغالبة الأخبار السيئة!..

لا أستطيع بطبعي الماكر أو بحسي الجدي أن أصدق أن الصدفة خالية من الضرورة أو غير محكومة بحساب الاحتمالات.. أو حتى غير مجهزة بردار الحساسية والتوقع.. طردت كل ذلك من راسي حين نزلت أتمشى في شارع الحمراء في انتظار موعدي مع «سما». تركت ساعة ونصف بين موعدي معها وموعدي مع مثني.. ورأيت أن ذلك كافياً لكي أفهم ما يجب أن افهمه من هذه السيدة.

تمشيت بضعة خطوات فقط على رصيف الحمراء باتجاه شارع السادات. وفجأة يظهر أمامي الشاعر بول شاول.. يمشي الهويناء رافعاً رأسه إلى السماء كالعادة رغم سنه التي أصبحت متقدمة!.. كان لا يزال يمشي، تركته يمشي في هذا الشارع منذ ما يزيد عن ثلاثين عاما.. يكتب المقالات عن المسرح حين يجلس في المقهى.. أما الشعر فهو يكتبه واقفاً أو سائراً كما لو أنه يستعيره من الجدران والإعلانات وكذلك من وجوه الناس ودخان السيارات ومؤخرات

النساء. قال عنه صديقي الشاعر محمد العبد الله الذي لم أحضر جنازته رغم وجودي في بيروت.. بول شاورو يكتب الشعر كما لو أنه طفل يبول.. فكل قصائده طويلة عموديا ذات كلمة أو كلمتين في السطر الواحد.. إنه الطفل الذي لا يزال يتبول على كل الذين باعوا الوطن بالمال وأقنعوا الشباب بالانتحار للتحرير.. قلت له حين استوقفته:

- بول.. قبل ثلاثين عاما كنت تشبه اينشتاين.. الآن إنك تشبه «بيرتراند راسل».. أيهما أقرب إليك؟

- آه.. هو أنت.. أينك يا رجل.. ما الذي حدث في بلادكم الجميلة.. هل ذهبت مع الريح!

بعد عناق طويل وتربيت، أحسست أنه لا يزال شابا.. صوته لم يتغير، فمه لا يزال يحترق بالسجائر والسجائر لازالت تستريح على شفاهه بلا تعب ولا كمل.. ثم سمعته يقول..

- أحب راسل.. هذا الذي ذكرته.. اينشتاين لو عاش الآن لقبض عليه ك مجرم حرب.

ثم كرر:

- أحب راسل الذي عاش شغوفا بالحب، مولعا بالمعرفة ومعانقا لمعاناة البشر..

لم ألب رغبته في شرب فنجان قهوة معه، لكنني وعدته ب اللقاء في صباح الغد.. كنت على جناح من قلق. فموعدي مع سما عبد الصمد وهو يقترب لم يجعلني هادئا أو راغبا في الحديث مع أي أحد آخر..

في غالب الأحيان، نظن أن المغامرات الجنسية ستقودنا إلى حقيقة أن نعرف أنفسنا. أحياناً نقول لأنفسنا أن امرأة واحدة قد تغير حياتنا رأساً على عقب بأكثر مما تستطيع أن تفعله سلطة غاشمة أو دولة استبدادية فاشلة! أحياناً أخرى يذهب في باليتنا أنها سنعيش من الآن فصاعداً حياة جذابة، سحرية وغنية بحيث لا نعود نبحث عن نساء آخريات.. بكل تلك التوهمات والرغبات نستجيب لمواعيد مع نساء عادة ما لا نعرف اتجاهات أحاسيسهن أو أسباب ولعهن بنا..

تبدي لي أن الوقت لا يمضي. أو أني أصبحت مهووساً بالموعد أكثر مما يجب. نعم لا أبالغ أبداً. هذا يحدث معى حين يكون موعدى مع امرأة جديدة.. ولكونها هذه المرة جديدة وغريبة وفاتنة، فقد ازداد تمطط الوقت. بل لعلى أنا الذي لا أريده أن يتقدم لأنني لازلت أعتقد أن سقف توقعاتي قد يكون عالياً جداً. وقد لا يعدو أن يكون الأمر مجرد ترحاً تقوم به سيدة تشتعل في عالم التواصل والاتصالات، من أجل بناء ما يسمى بالعالم المفتوحة بين الناس. تذكرت نساء كثيرات ربطنى بهن الصدفة. عثرت على اثنتين فقط قد احتفظت بهما ذاكراً.. واحدة التقيت بها في طائرة وأنا قادم من الدوحة إلى القاهرة.. كانت ذاهبة إلى الإسكندرية مع طفلتها وخادمتها لقضاء عطلتها. زوجها سوف يلتحق بها بعد أسبوع كما قالت لي.. اقترحت علي أن أنزل في الإسكندرية معها.. ولكن لم أفعل ذلك، لأن حبيبتي كانت مسجلة بمطار القاهرة.. في اليوم الثاني، توجهت إلى الإسكندرية. قالت لي أنها حجزت لي جناحاً في الميلتون.. وحالما اصل ستأتي إلي.. كانت أكثر من جريئة منذ أن

رأيتها في الطائرة.. فقبل أن تأخذ مقعدها في الدرجة الأولى بدأت في نزع عباءتها لتظهر جمالها. حدقت فيها طويلاً وأنا اتباطأ في السير نحو مقعدي في الدرجة الثانية. وعندما أصبحت الطائرة في الجو، جاءت لطلب مفي بكل جرأة أن أغير مقعدي وأذهب إلى جانبها في المقعد الخالي.. بدا علي بعض الاستغراب مع أنني كنت متأكداً من دعوتها وحقى من رغبتها.. ثم قلت لها..

- ها أنا أيضاً أجلس لوحدي.. اجلس هنا.. خلف الطائرة
أفضل من مقدمتها..

تلك السيدة الخليجية لا يمكن أن أنها إلى يوم مماتي. وحتى عندما رويت الحكاية لزوجي لم تغضب. بل هنأتني على ما فعلت وفرحت جداً لأن زوجها فعل وصادق.. ولكنني كما لا يمكن أن أنساها، فإنه لا أتوقع أن أراها إلى الأبد.. ثلاثة أيام قضيناها معاً في الإسكندرية ثم تقطعت بنا السبل. لقد غيرت كل أرقامها.. كانت دكتورة في طب الأطفال.. وإلى يومنا هذا كلما رأيت طبية سألتها إن كانت طبيبة أطفال أم لا.. كانت تدعى سمية.. وقد ظل ذلك الاسم يسكنني إلى هذه اللحظة.

المرأة الثانية التي لاتزال طازجة في ذاكرتي تدعى سمارين.. هذه كانت رسامة فوتografية. التقيت بها في معرضها الخاص في إحدى الغاليريهات الفاخرة جداً بالدار البيضاء. كنت بصحبة صديق مغربي. وقف متذهولاً أمام صورة فوتografية لفتاة تنظر في المرأة متراخية بعنجر حاد، وهي تمد يدها إلى ثديها كما لو أنها تريد أن تعصره.. كانت ترتدي قميصاً شفافاً مفتوحاً إلى ما تحت الصدر..

توقفت طويلا عند تلك الصورة بالأبيض والأسود.. وبعد أن قمت بجولة داخل الغاليري، عدت لأقف أمام صورة الفتاة.. ورأيت فتاة تشبهها إلى حد ما أو هكذا تخيلت، تقف بجانبي تقول لي:

- هل أعجبتك هذه الصورة؟

- لم تعجبني فقط.. بل دمرت كل حواسِي دفعَة واحدة.. لا
أستطيع أن أغادرها..

بعد ذلك سألتها:

- ألمست أنت التي في الصورة؟

ضحكَت سمارين. وقالت لي: أنت الوحيد الذي عرفت ذلك..

- إذن لست أنت التي التقطت هذه الصورة..

أجبتني واثقة:

- أنا المصورة.. وأنا الصورة.. أما كيف فسوف أقول لك فيما بعد..

فيما بعد، ذلك الخلط بين المتوقع والملغز وغير المتوقع، زاد من اضطرابي. أدركت أن المرأة يمكن أن تختفي وراء صورتها. ويمكن أن تظهر من خلال صورتها. كما يمكن ألا تنفصل أبدا عن صورتها ويمكن أيضا أن تكون هي صورتها أو خارج صورتها!..

وها هو موعدِي مع سما عبد الصمد قد اقترب. حثثت خطاي لأصل إلى الفندق قبلها وأنا أتساءل ما إذا كانت سما داخل صورتها أو منفصلة عن صورتها!..

الفصل الثامن

حين احتاج بوش الابن إلى وصف يطلقه على أبو مازن، بعد لقائهما في العقبة قال: «إنه رجل لا يكذب.. ولا يعرف كيف يكذب».. علق صحفي من «هارتس» عن ذلك: «أي أنه رجل لا يصلح للحكم». وحين ذهبت ستيفاني نيكولاس لتغطية المسيرة الكبرى لشارع الجمهورية في باريس تنددوا بالإرهاب بعد الهجوم المسلح على صحيفة «شارلي هبدو» رأت أبو مازن يقف في الصف الأول مع نيتنياهو وفرانسوا هولاند والباجي قايد السبسي وآخرين من بينهم ساركوزي الذي كان بصحبة كلارا وهو يحاول أن يظهر في الصف الأول بكل الطرق.. تجاوز البرتوكول وظهر في الصف الأول فبدا كما لو أن هولاند قد تخلى عن دوره كرئيس. وكتبت ستيفاني آنذاك: «ها هم يظهرون منديدين بالإرهاب كما لو أنهم أنبياء من عصر قديم.. لا أحد كان يظهر على وجهه شناعة ما حدث لا في باريس، ولا في الموصل.. هجم الإرهابيون في باريس ليقتلوا الصحافة. وهجموا في الموصل ليقتلوا التاريخ مرة أخرى.. أما هؤلاء الذين يسيرون في شارع الجمهورية، فهم قادة كبار في التضليل والتمويه والأكاذيب..».

امتلأت صفحات الفايسبوك بالتعليقات الساخرة: كتب أحدهم: «إرهابيون ينددون بإرهابيين»؛ وجاء في صفحة أحد الناشطين الفلسطينيين: «نتنياهو كتفا إلى كتف مع أبو مازن.. ضد الإرهاب!». أما مراد عباس، فقد كتب على صفحته التالي: «سياسيون وإرهابيون وكذابون، يتداولون التعازي ويدررون دموع التماسيح».. ثم ختم متسائلاً: «لو سألنا اليوم الرئيس بوش: هل وجدت سلاحاً نووياً أو إرهابيين من تنظيم القاعدة حين دخلتم إلى بغداد؟ لقال: لم نطلب من الناس أن يصدقوننا. كنا نكذب بكل بساطة، ولكن ما العيب في ذلك. السياسة هي معالجة الأكاذيب القبيحة بالأكاذيب الجميلة!.. أما لو سألت وزير دفاع بوش السيد رامسفيلد الآن عن أصل كذبة الجيش الرابع في العالم؟ لقال لك: نعم كنا نضخم الحقائق وإلا كيف يمكن لنا أن نصنع نصراً كبيراً، إذا ما جعلنا من عدونا شيئاً بسيطاً!»..

هكذا أعتقد كل العالم، أي العالمين بلغة القرآن.. الحقيقى والافتراضي بلغة غوغل، أن الأخرين «كولبياو» سيحتلان فرنسا ويجتاحان أوروبا كلها، ثم يأمران بذبح رهبانها وأيمتها وحاخاماتها وعلمائها وجنرالاتها وفلسفتها، وربع نسائها الفاسقات..

ثمة توافق بين الناس والحكام على ارتكاب الدناءات حسب ميكافيلي. فالناس لكي ينعموا بالأمن والسلام عليهم أن يصدقاً أكاذيب حكامهم. والحكام لكي ينعموا بالسلطة والمال عليهم أن يحسنو من منتوج أكاذيبهم.. تلك الغواية المدنسة لم تنته ولن تنته أبداً. استمرت عبر كل العصور.. وأصبح من حكم الضروري أن يستغل الحاكم غباء شعبه وأخطاء الناس الساذجين لكي

يبسط نفوذه وسلطته.. ولكن مهما أتقن الكذابون أسلاليهم، فإن قدرا بسيطا من الذكاء البشري قادرًا على كشف أكبر كذبة.. تتشابه الأكاذيب في حبكتها ومنظفتها وكذلك في غبائتها.. ويتتشابه السياسيون ومعهم المثقفون في أكاذيبهم وتتشابه طواحينهم، لكن أهم أكاذيبهم صلابة لا تصمد إلا قليلا من الوقت..

يا لهول هذه الشعوب المسكينة التي أصبحت رهينة للأكاذيب.. كان على العرب أن يصدقا أن الحلف الأطلسي يزرع الربيع وينشر السعادة والديمقراطية.. وكان عليهم أيضا أن يصدقا أن أمريكا قوة خيرية اعتمدتها الرب لزراعة الخير في بلاد العرب وإصلاح دينهم.. صدقوا كذلك أن أوباما قد يكون من نسل بلال مؤذن رسولهم.. وهو ليس إلا مسلما متخفيا، كان يحب موسيقى الجاز ويصلي مع جدته حين كان طفلا.. ولكن الحقيقة التي سيسجلها التاريخ ستقول ذات يوم: لم يقتل من العرب والمسلمين في أي يوم من الأيام مثلما تم قتلهم وإبادتهم وتشويههم في عهد أوباما حفيد بلال.. ولم يصبح العرب رهائن ولا جئن وإنهابيين مثلما أصبحوا في عهد باراك حسين أوباما!..

انتظر لحظة، وستكتشف بنفسك أيها القارئ أن العرب يكتبون قصصا ولا يكتبون تاريخا. ما أريد معرفته، كتب مراد عباس، لمهى زعفراني على المسنجر، هو كيف يؤكّد لنا المؤرخون أن ما حدث بين الإغريق وطروادة تاریخا أو قصصا! وأن قصائد هوميروس كانت أناشيد حماسية أم كانت تاریخا لما حدث.. لما زعم مؤرخو الإغريق أنه حدث! ردت مهى:

- يمكنك أن تعرف ذلك إن كان ذلك حقيقة أو توهّمات من خلال ما يحدث الآن.

صحيح أن كؤوس الشراب كانت موجودة، والأسلحة كانت بدعة والسفن كانت رائعة وكذلك الأحصنة والأمراء والرعاة الذين تحولوا إلى محاربين وموسيقيين.. ولكن لا نعلم أبداً ما إذا كان حصان طروادة الضخم حقيقة أم اختراعاً.. وسوف لن يضطرب المؤرخون مثلما اضطربوا قبل عدة سنوات حين كشف الجيولوجيون والأركيولوجيون عن مدينة طروادة المطمورة تحت الأرض.. ولكن ماذا وجدوا؟.. وجدوا خاتماً لم يكن من صنع هذه المدينة. نقشت عليه أحرف باللغة الهيروغليفية، لغة الفراعنة، وهذه الأحرف تبيّن أنها لملك فرعوني، كان سلفاً للملك اخناتون، هل يعني هذا أن الفراعنة هم الذين ذهبوا إلى طروادة وليس الإغريق؟.. هل سرق الإغريق بطولات غيرهم؟ هل استعمل الإغريق مرتزقة من جنود الفراعنة للاستيلاء على طروادة؟..

استمرت تلك القصص تنموا حتى وصلت إلى القرن الواحد والعشرين.. أطلق الحلف الأطلسي اسمه على حربه على ليبيا، «أوديسا»، أي «ملحمة هوميروس».. سجل التاريخ أن رجلاً يشبه الخرافة يقتل شعبه، وأن العالم قرر أن يخلص ما بقي من شعبه من الهالك، ثم نسجت خرافة فوق خرافة حتى اقتنع الجميع في بضعة سنوات قادمة، أن الأمر لم يكن خرافة.. كانت الأكاذيب الكبرى فيما مضى من الأزمان الغابرة إما أن تصنف كأسطورة أو كخرافة.. اليوم يطلقون عليها سياسة أو مهام إنسانية أو ما شابه!.. ها هم الآن يصنعون خرافة أخرى تسمى بالبند العريض

«إرهاباء». وتصنف هنا بداعش، وهناك بدامس وهنالك بالقاعدة!.. لم تكن هناك قاعدة في العراق أو في ليبيا. ولكن حين جاء الأمريكان، جاءت معهم القاعدة.. بعد حين خرجت داعش.. ثم فتحت الدول خزائنهما لتنفقها على محاربة هذه الخرافات!..

ولأن هذه الدول في واقع الحال مجموع مركب من الأجهزة والعصابات ورجال المافيا، فها هو كريم كروان، ذلك الآزميري الشره، قد أصبح من أكبر تجار تجنيد الشباب والأطفال في العالم للزج بهم في حروب تدر عليه عشرات الملايين من الدولارات.. كذلك مصعب الصراف.. ما كان ليصبح هذا القطري الصغير أهم رجال السياحة في العالم العربي في أقل من ثلاث سنوات.. ها هو ينتقل من بلاد إلى أخرى وهو ينسق ويرعى رجاله ومستخدميه كما لو أنه مكلف بمهمة إلهية..

تقاسمت الأجهزة ورجال الأعمال المغامرين المهام والأموال لزرع الإرهاب وهم يرفعون شعارات محاربة الإرهاب. ولو أن الإرهاب انتهى من العالم، فإن هذه الأجهزة سوف تتفنن في صنع أي إرهاب آخر.. وما رأيكم في الدولة التي تنفق عشرين مليون دولاراً أو أكثر على قتل شخص واحد.. بالتأكيد ليس هذا الشخص هرقل أو دراكولا؟ ثم هل يمكن أن يعرف السادة النواب، نواب الشعب، كم تنفق دولتهم على محاربة الإرهاب؟.. ثمة عمل بسيط لإنفاق المزيد من الأموال دون رقيب أو حسيب، هو أن يقوم جهاز أمني بعملية تفجير هنا أو هناك ثم تعطى الإشارة لكي يخرج تنظيم جهادي يتبنى تلك العملية.. في الحقيقة لا وجود لمثل ذلك التنظيم على الأرض.. إنه مجرد بيان يكتب على جدار

صفحة افتراضية لا يعرف صاحبها.. فهل يعقل أن يكون ذلك التنظيم الإرهابي قوة عظمى بحجم الاتحاد السوفياتي سابقا؟ هل يعقل أن يضرب في باريس والهند وألمانيا ومدريد وسوسة وبروكسل وأسطنبول في نفس الوقت؟..

لا تنتظر أية لحظة لكي تعرف.. أكذب فقط لكي تحصل على الأموال.. هكذا صاغ رجال الأمن ومعهم رجال المافيا في جميع بلدان العالم شعارهم الجديد.. فحين تدفع أكبر دولة في العالم فدية بـ 25 مليون دولار لكل من يقبض أو يدل رجال الأمن على مخبأ لأحد رجال القاعدة، فمعنى ذلك أن هذه الدولة تريد أن تزرع حروبًاأهلية في كل مكان.. ولكن كيف نترك تلك الفدية لكي يحصل عليها مساكين من المتقطوعة؟ فأجهزة الدولة هي الأولى بها.. وبتلك الطريقة راحت معظم أجهزة الدولة المحلية تعمل بالتوازي مع المafيات والمهربيـن وبعـض المغامـرين ثم مع الدولة العالمية في واشنطن..

ما كانت ستيفاني نيكولاس (عباس سابقا) تعرف أن زميلها إسماعيل السمان يعرف السيدة شاهي شهبار إلا حين وصلت إلى إسطنبول. عثرت على مصعب الصراف صدفة في بهو الفندق كما لو أنه كان ينتظرها.. لم تتعرف عليه إلا حين اقترب منها وسلم عليها بثقة كبيرة في النفس.. آخر مرة رأته، كانت في بيت السفير القطري بالقاهرة.. لم تكن هناك بينهما لا مواعيد ولا معرفة ذات حميمية حتى تنسكب عواطفهما على رخام المهو.. ولكن كان هناك ما يكفي للفخر لدى مصعب لأنه عثر عليها.. وما يكفي لستيفاني من التعجب: كيف عثر عليها؟..

قال مصعب:

- وصلت قبل يومين. وغدا سأسافر، لكنني مستعد لتأجيل سفري يوما آخر..

فأجابت بارتباك:

- هذه صدفة استثنائية سيد مصعب. لم أكن أعرف أنني قادرة على تشویش مواعيده..

- على أية حال لا يذهب في بالك أنني الأحق أو أطاردك أو ما شابه.. وإذا سألتني كيف وجدتني، فإن الله وحده يعرف الإجابة..

ضحك ستيفاني بأناقة شديدة.. ثم قالت:

- لا تقل لي أن إسماعيل السمان لم يخبرك بوصولي اليوم إلى هنا..

أقسم مصعب، أنه لم يتصل بإسماعيل منذ يومين. وأنه الآن فقط تذكر أن عليه أن يتصل به من أجل بعض الأعمال..

- وهل ستقول له أنك التقيت بستيفاني؟..

ارتباك مصعب للسؤال. بل ارتباك من نوع الإجابة التي سينطق بها.. بحث عن كلمات مناسبة ومغطاة بالثقة.. ثم قال:

- كما تريدين..

- لا مانع لدى، قالت ستيفاني ثم أردفت..

- لنفترض أنه علم بلقائنا.. لا يذهب في باله أننا كنا على موعد مرتب..

أعجبته كلمة موعد.. وأوحت له بأن ستيفاني ربما وقعت في

خطأ لن تقدر نتائجه إلا بعد فترة.. ولكن مصعب الصراف، الذي كان يفكر قبل حين كرجل أعمال، سرعان ما أصبح يفكر كدنجوان. عاد يتأمل في تقاسيم وجه ستيفاني بسراهاة ثم أنزل بؤرة عينيه إلى صدرها ثم إلى ما تحت صدرها.. وقال وفمه قد أصبح أكثر رطوبة:

- لن أخبره من جهتي..

ثم سألهما:

- أديك وقت عند الظهيرة.. سوف أعرفك ببسيدة مهمة في هذه البلاد..

*** *** ***

شاهي شهبار هو الاسم الجديد الذي دخلت به شاهيناز عطاس إلى عالم إسطنبول. عملت صحافية في إحدى المحطات التلفزيونية في دبي. وقد اشتهرت ببرنامجهَا «فاشيون 21» أكثر مما اشتهرت ببرنامجهَا السياسي في محطة بيروتية أخرى.. ربما لم تتعايش مع عالم السياسيين الذين يحاولون جميعاً أن يصلوا إلى مخدعها خاصة حين يعرفون أن زوجها ميشال، موجود في قبرص أغلب الأوقات.. فرجال السياسة يثثرون أمام بعضهم ويويحي كل واحد منهم، حتى لو كان شيخاً مقوساً، أنه امتنع مؤخرة شاهي، وأن شاهي تحب الرجال المشاهير حتى وإن كانوا مسنين.. عانت كثيراً من تلك الإشاعات التي تحول بعضها إلى معارك مع زوجها أو معارك بين بعض السياسيين وعشيقاتهم الآخريات.. بات بعضهم لا يريد الحضور معها على الشاشة.. ثم ذات يوم دخلت إلى مدير البرامج وقدمت له استقالتها..

سأله آنذاك مدير البرامج أنطوان لحد (ليس ذلك الذي خان وطنه وأصبح عميلاً لإسرائيل كما يعتقد حزب الله على الأقل) عن السبب، فاكتفت بالقول: «كرهت السياسة وزهرت من شيوخ الطوائف الذين يرتدون الجينز ويركضون وراء المؤشرات ويحترمون الدستور!». وبالرغم من أن أنطوان يملك خبرة عالية في فهم أولئك الصحفيين الذين يرمون باستقالتهم بعدما تكون برامجهم قد أصبحت ذات جدوى إشهارية، إلا أنه هذه المرة عجز عن فهم شاهيناز عطاس، ما إذا كانت تريد مرتبًا أعلى أو أنها حصلت على فرصة أفضل لدى تلفزيون آخر.. أو أنها فعلاً كانت جادة وتريد أن تخرج من هذا الذي سمتة «بماخور السياسيين».. (قالت فيما بعد لصديقتها مرام الحلبي: يأتي بعضهم إلى الاستوديو ببدلة غير مناسبة، فنعيده بدلة مع كرافاته مناسبة، نشذب من شباته وحواجه الكثيفة.. نطلي وجهه بالبودرا لكي يجعله وردية، نرش بعض المواد اللامعة على شعره فتجعله أقل بياضاً.. ثم نساعد له على الصعود إلى كرسيه ونلته على الكاميرات الموجهة له.. وبعد ذلك نجده قد أصبح يريد أن أذهب معه إلى الفراش!..)

- وماذا بإمكانني أن أفعل؟ أولئك هم سياسيو بلادك.. تسأعل أنطوان ثم أضاف:

- اتركيمهم يحترقون..

وما كاد ينهي كلامه حتى فكرت أن اللياقة هي التي منعتها من قول الحقيقة!.. ثم قالت ما كانت تفكري فيه:

- اسمع يا أنطوان.. أنا لم أعد قادرة على العيش تحت التهديدات..

ولما ألحت على الاستقالة، قال لها:

- عالم التلفزيون نصفه خيال ونصفه دجل ونفاق.. لو ذهبت إلى المريخ ستتجدين دائماً من يهتم بمؤخرتك أكثر مما يهتم بأفكارك!
ثم سألهما:

- هل حدث معك شيء عنيف؟..

- سأقول لك كل شيء ذات يوم.. الآن ليس لدى ما أقوله يا أنطوان..

اقربت من البكاء ولكنها لم تبك.. ولأن أنطوان يعرف مدى عنادها، فقد وضعها أمام قرارها.. ولكن مدير برامج في أي تلفزيون لا بد أنه يعرف تفاصيل كل صحفي وكل صحافية يعملان معه.. فشاهيناز ليست بالمرأة المحافظة ولا بالزوجة الوفية ولا هي بالصحافية الشريفة! ورغم كونها غير متشيعة لأي حزب وغير محسوبة على حصة طائفية ما.. وتعرف كيف تسحب الستارة بخفة بينها وبين أي رجل لا يعجبها أو لا يدخل إلى قلبها، إلا أنها أيضاً متقلبة ومتوتة أحياناً.. وقد أعمتها الشهرة وباتت تحدق نحو عالم آخر أكثر رحابة وربما أكثر شهرة وأموالاً..

بعد نحو شهر سيكتشف «أنطوان لحد» أن شاهي أصبحت تقدم برنامجاً عن الموضة والجمال والأناقة تحت اسم «فاشيون 21» في إحدى محطات دبي الكبرى!.. قال لنفسه: هذا هو مكانها.. رجال السياسة يلزمهم عجوز أو رجل أصلع.. إذ ماذا يعني أن نسأل ناثياً عراقياً أو لبنانياً عن رأيه في داعش وهو مثل لطائفة شيعية أو درزية أو إيزيدية!.. وبماذا يمكن أن يجيب مفكراً أو باحث

استراتيجي حين يسأل عن الفرق بين أمينة فاخت وصابر الرباعي؟
لو سأله مقدم البرنامج: هل تفضل أن تنام ليلة مع انجلينا جولي
أو تجلس ليلة واحدة على كرسي السلطة في بلادك، لكان السؤال
ممتعاً وشيقاً لأن ما من مفكر استراتيجي ذكي سيفضل ليلة يتيمة
من السلطة على ليلة سخية مع انجلينا جولي..

لو أن شاهي أخذت الحياة على أنها مجرد وظيفة أو مهنة، لظلت
مدرسة في إحدى الثانويات ببيروت. كانت منذ البداية مدركة أن
الحياة شيء آخر غير الوظيفة. هي لغز كبير، واسع وعميق.. مملكة
واسعة تتواجد فيها لتأمين الحياة وسط الحياة وكذلك للتفوق
على الحياة باكتساب معاني أخرى للحياة.. ربما يبدأ الاعتقاد
بالتفوق في امتحان.. أو القبول في وظيفة ما.. أو الزواج من رجل
ما.. ولكن الحياة بالنسبة لشاهي شهبار هي أكبر من ذلك.. هي
للفقراء والأغنياء.. الأذكياء والأغبياء.. هي الدناءة والرفعة.. هي
أيضاً الصراع بين الجماعات وبين الأجناس وبين الأمم.. هي أيضاً
الولع والطموح والقلق والغيرة والاكتئاب والفشل والسقوط
ومعاودة النهوض!

- ما معنى أن تكون غبياً ومتعلمًا وتحمل أوسمة وشهادات
ويظل عقلك على مر الأيام باهتاً وضجراً وغبياً؟

طرحت شاهي ذات مرة هذا السؤال على مصمم الموضة العالمي
إيلي صعب.. فأجاب ببساطة:

- ذلك هو حال الإنسان غير الذكي والخائف.. إذاً كنا نعيش في
خوف دائم، فإننا نفقد ذكاءنا.. وإذا فقدنا ذكاءنا فقدنا معنى اللذة!..

نزع الخوف، ترجمته الوحيدة: الحرية.. وإن الحرية هي الأم الحقيقة للذكاء.. هكذا لخصت شاهي ما قاله إيلی صعب.. والحقيقة أن ما تعلنته شاهي من تلك الجملة التي نطق بها مصمم الأزياء تعادل كل ما تعلنته خلال سنتين من جميع السياسيين الذين استدعتهم إلى برنامجه السياسي.. حقا إن السياسيين يشبهون الفيلة.. لحمهم لا يؤكل، أعمارهم طويلة وأوزانهم ثقيلة.. وأفكارهم سوداء.. بعضهم فقط، وهم نادرون يتميزون بالخفة الذكاء والأمل وروح الهجوم.. هذا الصنف إما أن ليس لديه ما يخسر أو أنه لا يسعى فعلاً إلى الربح!.. قال ترامب مؤخراً عن منافسته هيلاري كلينتون.. «يا إلهي كم هي ضجرة ومملة.. تريد أن ترضي الشعب الأميركي كلها، وهي غير قادرة حتى على إرضاء زوجها!.. ألم تسمعوا أن كلينتون حين كان رئيساً لم يكن يجد الوقت الكافي لغلق بنطلونه!.. أضاف ترامب: «لا أتكلم هنا عن هيلاري كلينتون كامرأة.. فأنتم تعرفون أنني محب للنساء.. إنني أتكلم عن فيلة تتخذ من الحمار شعاراً لها»..

- يتمازج رجال السياسة في أمريكا بلا حدود. يخترقون حجرات النوم ويتكلمون كما لو أنهم ينظرون في المرآيا، قالت ستيفاني حين سمعت ما قاله مصعب الصراف وهو يتحدث عن الانتخابات الأمريكية..

سألها مصعب مباشرة:

- ما رأيك في السيد ترامب..

- رجل من الغرب.. رجل بعيد جداً.. إنه التقىض الحاد والصادم لأوباما..

ابتهاج مصعب لذلك الرأي.. فهو بطبعه لا يحب أوباما. فهو رجل ضعيف ولن جدا ولم يعرف كيف يرضي أي طرف في معادلة الحكم.. يريد أن يخرج نظيفا بأي ثمن، وهو لا يعرف أن ثمن تلك النظافة قد كلفت العالم غاليا.. قال:

- أوباما حكم ثماني سنوات. هل أمريكا لم تستيقظ بعد من السكرة يا ستيفاني؟

- لو استيقظت من سكرتها على يدي ترامب، فإننا قد نذهب جميعا إلى المحرقة.. ترامب رجل يلعب بكرة من النار.. قد نصدق جزءا من جبنه، ولكننا لا يجب أن نصدق أبدا أي جزء من نبله..

كان مصعب قد تواجد مع ستيفاني في البار. دعاها إلى كأس. في الحين طلب سيكارا فاخرا من صنف «كوهيبا». أحضره له النادل على صينية خاصة ثم راح يمرره على شفتته ويلعقه من حين إلى آخر بلسانه لكي يصبح طريا.. وقبل أن يستعد لقص رأس السيكار وصلت شاهي إلى البار.. شاهي تعرف جيدا بـ«اراغون» في فندق الشيراتون. وتعرف أيضا حتى الركن الذي يرتاح فيه مصعب الصراف. لأنه يقع بمحاذة الواجهة البلورية الكبيرة المطلة على الحديقة والنافورة البدعة التي يقال إنها بنيت في عهد السلطان عبد الحميد الأول.. (لاحظت ستيفاني أن هذا الفندق شبيه بفندق ماريوت) في القاهرة. كلاهما كان قصرا للسلطان. هذا للسلطان عبد الحميد.. والآخر للخديوي إسماعيل.. يا لجمال الهندسة!..

وإذ بات مصعب الصراف محاطا بسيدتين من أجمل السيدات، فلا شك أنه يشعر بالفخر، ولكن رجلا مثل مصعب حتى لو

كان عربيا وأصوله بدوية وحار الجسد والنفاس، تعود كيف يمسك برأسه باردة ويشرب الماء، إذا كان النبيذ أو الوسيكي سيرفع من حرارته..

استقرت شاهي في الزاوية الأخرى من الكنابيه الطويل، بعد أن تبادلت ثلاث قبلات مع مصعب وثلاث أخرى مع ستيفاني. ثم وضعت ساقا على ساق برفق ودلال والتفتت مبتسمة إلى ستيفاني:

- مرحبا بك في إسطنبول يا ستيفاني.. كنت فيما مضى زميلة..
- قال لي مصعب، أنك صحفية جوالة.. ثم أضافت:
- يا لها من مهنة شاقة ومتعبة.. أفضل شيء فيها أنها ليست مملة ومتجدة باستمرار..

بدت ستيفاني كما لو أنها خجلى أو خجولة بالنسبة لشاهي.. أن تكون خجولة، فذلك حجاب لا ينزع بسهولة. فهو التحذير المتواصل من جميع ما نشتهي حتى نقتل جميع رغباتنا. أما أن تكون خجلي، فذلك أسلوب قد يخفى شغفا كبيرا بالحياة، لكنه يحتاج إلى مناخات خاصة لكي يفتح ذلك الشغف.. طلبت شاهي من النادل أن يأتي لها بكأس من النبيذ، دون أن تجهد ذاكرتها.. اختارت في الحين كأسا من «دون كيروت». ثم اقترحت على ستيفاني أن تجرب معها هذا النبيذ الإسباني. قالت:

- إنه رائع.. سوف تطليبي كأسا أخرى.. أراهنك..

كانت شاهي مصرة على أن تكسر حاجز الخجل لدى ستيفاني.. وقد يكون ذكاء الحياة قد أوصلها بسرعة إلى أن ستيفاني ستكون أروع لو خرجت من خجلها.. وكما لو أن ستيفاني أرادت أن تعبر

عن ارتياحها لشاهي، وافقت على كأس من «الدونكيخوت».. كما وافقت على الرهان!.. أكان مصعب هو الذي طلب من شاهي أن تلعب دور «كسارة الحواجز».. أم أن شاهي هي التي أرادت أن تكون «مؤلفة قلوب» حتى يكون مصعب منشرحا!.. ذلك السؤال لم تجب عليه ستيفاني حتى بعد شهر، حين أعادت طرحة على نفسها وهي تستعيد شريط تلك الليلة..

*** *** ***

كان يمكن لشاهي شهبار أن تخمين ان ستيفاني إحدى عشيقات مصعب الصراف بما أنها تنزل في نفس الفندق الذي ينزل فيه.. كما كان لستيفاني أن تخمين أيضاً أن شاهي شهبار هي إحدى عشيقات مصعب الصراف في إسطنبول، الجاهزة دوماً لاستقباله. ولكن ذلك لم يفسد لا مزاج ستيفاني ولا مزاج شاهي.. ولم يحرك بداخلهما لا الغيرة ولا التباكي. كان مصعب منهمكاً في مص سيكاره كأنه أمير بين محظيين. وكان الدخان يغطي المساحات الفارغة بينهم.. ثم فجأة انتبهت كل من ستيفاني وشاهي أنهما يرتديان نفس اللون.. ستيفاني كانت تضع على كتفيها شالاً أصفر فاقعاً وكذلك كان لون حذائهما.. فيما كانت شاهي قد ارتدت قميصاً أصفر مع تنورة سوداء وحذاء أصفر.. ولو لاحظ أحد الجالسين في ذلك البار تشابه الأحذية لقال: إنهما سيدتان من عارضات الأزياء قد عادتا للتو من عرض خاص للأحذية.. أو لفكرة في أنهما يستعدان للذهاب إلى حفل راقص. وفي حالات قصوى كان سيقول أنهما يتتسابقان من أجل رجل يعشق اللون الأصفر، أو أنهما سيدتان قد حطت عليهما حمى الغيرة.

ولكن مصعب لا يحب اللون الأصفر.. وربما لم ينتبه إلى ذلك إلا حين قالت شاهي:

- حذاؤك جميل يا ستيفاني.. أنت أيضا تحبين اللون الأصفر..
ردت ستيفاني، وهي ترفع قليلا من ساقها اليمنى:
- اشتريته قبل يومين من باريس. لأول مرة أرتديه.. إنه جميل..
أليس كذلك؟

(كان مصعب يستمع إلى تلك الحكايات النسائية الصغيرة.. وقال لنفسه: أظن أن النبيذ قد نزع الخجل عن ستيفاني. هل تراها ستتغلب على ذلك الخجل. وكم يكفيها من كاس حتى لا تفقد وعيها أو تقلب فجأة إلى امرأة عنيفة وانفعالية) ولكن ستيفاني فاجأته بالقول:

- ما الذي تشربه يا مصعب?
- كوكتيل مارتينيكي.. ممزوج بقليل من الكامباري..
- لماذا لا تجرب هذا النبيذ.. إنه جيد.. ثم أضافت:
الدونكيخوتا الإسباني شبيه بنبيذ «الجورا» الفرنسي.. يصنع من صنف معين من الكروم البيضاء، ويحتفظ به لمدة ست سنوات على الأقل في براميل خشبية من السنديان..
- سأجرب الدونكيخوتا فيما بعد على العشاء..

آنذاك سقط شال ستيفاني أو لنقل انزاح عن كتفها، فباتت في مستوى خصرها، وجذبته قليلا لا إلى فوق، ولكن إلى مستوى حجرها وتركت جزءا منه يتارجح بين ساقيها.. فتحت له فجوة لتدخله بين ساقيها ثم أطبقت عليه كما لو أنها تريد أن تقبض

على شيء ما. هكذا لاحظت شاهي. أما مصعب فقال لنفسه: ها هو مجد الأصفر يسقط.. أراد أن يصرخ.. كما لو أن علم حزب الله قد سقط أمام عينيه، ولكنه كان لا يزال واعياً.

قال لشاهي بصوت منخفض:

- منذ أن وضعت شاهها بين فخذيها، وأناأشعر بنشوة غير عادية..

التقطت ستيفاني ما قاله مصعب وهو يدس كلماته في أذن شاهي مباشرة.. لكنها لم تعلق.. حركت ساقيها لكي تعدل في جلستها ثم أعادت وضع الشال في مكانه.. أي بين فخذيها.. أي إلى ما فوق الركبة.. (كان ذلك بالنسبة لمصعب كأنه مسلسل ملحمي، ذلك أن الأصفر جعله مندفعاً وقد يجعله متھوراً.. فلأول مرة يكتشف أن الرجال لا يحركهم اللون الأحمر مثل الشiran.. وإنما يحركهم اللون الأصفر لأنّه مشع كالشمس ويزيد من الطاقة والمرح بالرغم من أنه لا يحبه..)

لكن شاهي شهبار تعرف جداً ما الذي يفعله اللون الأصفر بالرجال. فهي متخصصة في الأزياء وتعاصر عارضات الأزياء وكذلك مصمميها وبائعيها. فهو لون الشمس التي هي ثروة الأرض وطاقتها.. لذلك فإن جسد المرأة الذي يكون مغطى بالأصفر، هو قطعة مرکزة من الشمس مخبأة في الأرض سرعان ما تتحول إلى طاقة لدى الرجل.. أو بريق يدل على حيث الترف والسعادة والحرارة.. لم يكن من الصعب على شاهي أن تلاحظ أن ستيفاني ما انفك تدل مصعب على خط الحرارة أو طريق الجوهرة.. ولكن من أين لمصعب أن يفهم كل ذلك؟ أما ستيفاني فربما لم تتعلم ذلك من

عالم الأزياء، ولكن من عالم مارسيل بروست باعتبارها فرنسية. لقد انهر بروست بإحدى لوحات «فيرمير» التي لطخها بالأصفر الفاقع ثم أخرج منها سيدة تتبرج وعلى كتفها شال أصفر.. وكان يكفي بضع زهرات من عباد الشمس الصفراء ليضع «فان غوغ» لوحة بد菊花ة قبل أن يصاب بجروح على إثر سقوطه في حقل من القمح، وهو يبتعد قليلاً عن لوحته ليرى مدى تناقضها.. لم ينتبه إلى الحفرة التي كانت وراءه، وهو لا يزال يبتعد إلى الخلف حتى سقط مغشياً عليه.. وإنْ هو أيضاً لون ملعون وذلُك منذ العصر الوسيط. فإذا كان من لون الترف والذهب، فهو من لون الكبريت.. ثم هو لون يهودا واليهود عندما كانوا هؤلاء منبوذين وملعونين وبعد إجبارهم على ارتداء النجمة الصفراء.. بعد ذلك أصبح رمزاً للرجال الذين تخونهم زوجاتهم، ثم شعاراً لمكسيكي الإضرابات وخونة النضال العمالي..

فسّر مصعب الصرف كل ذلك العرض الساحر بالأصفر، على أنه دعوة غير متوقعة لأداء جسدي جيد وغير متوقع. ورأى فيه تحدياً عليه ألا يخسره. وهو تحدٍ يشبه تحديات الصفقات التجارية الصعبة التي غالباً ما يجيدها.. ولأنه لا يزال يثق في قدراته ومواهبه ونضجه، فقد راهن على أن يفوز بهما معاً.. أي بستيفاني وشاهي وبدفعه واحدة قال:

- سنصعد للعشاء الآن.. ولكن ليكن في جناحي..

*** *** ***

كل ما تذكره الآن ستيفاني عن تلك الليلة، أنها استيقظت في

الصباح فوجدت نفسها في فراش مصعب الصراف لكنها لم تجد مصعب إلى جانبها.. كان الضوء قد بدأ يتسرّب من خلف الستائر حين فتحت عينيها وهي تحاول أن تدرك المكان الذي توجد فيه.. تأكّدت في أقل من ثانية أنها في جناح مصعب. وقامت بسرعة لتفقد بقية الجناح فلم تعثر لا على مصعب ولا على شاهي.. لا في الصالون ولا في الغرفة الأخرى.. دخلت إلى الدوش وحين خرجت وجدت مصعب جالساً في الصالون الصغير.. كانت لاتزال ملتفة

بروب الحمام، قالت له بدهشة:

- أين كنت.. لقد كنت أفتشر عنك.. لقد أربعتي..

فكرة للحظة أن يخاطلها ويقول لها: لقد تركتك تنامين لوحدي حين أكثرت من شرب النبيذ، ولكن خاف أن تكون أثار المعركة الجنسية التي خاضها بجدارة لاتزال شاهدة عليه.. كذلك خاف أن تكون ستيفاني لاتزال تتذكر كل ما حدث.. فهو يعرف أن النبيذ قد يزيد من التهيج ويرخي الأعصاب وكذلك أعضاء الجسم، ولكنه لا يذهب بالذاكرة.. قال ضاحكا:

- تعودت القيام مبكراً جداً.. نزلت إلى الكافيتيريا لشرب قهوة.. لا أستطيع أن أستعيد نشاطي إلا إذا تناولت قدحين من القهوة..

قالت في الحين:

- أنا أيضاً أريد قهوة..

- ستشربين قهوة من إعدادي يا ستيفاني في هذا الصباح..

قال مصعب ذلك ثم قام باتجاه الكيتشينات الصغيرة حيث توجد كل المواد والمعدات لإنضمار القهوة والشاي.. بعد حوالي

خمس دقائق عاد حاملاً صينية صغيرة فوقها فنجانان كبيران من «النيس كافية». كانت لا تزال تسرح شعرها أمام المرأة.. وبعد أن لفت شاها الأصفر على نصف جسمها التحتي بداية من السرة، وقد أكتفت إلى ما فوق السرة بقميصها الأبيض، جاءت لتجلس إلى جانب مصعب لترشف قهوتها..

- هذا «نيس كافية» رائع.. إنه برأحة الهيل وماء الورد. هكذا علقت ستيفاني بعد أول رشفة.

- الأتراك غالباً ما يضيفون مساحتهم الشرقية على كل ما هو أمريكي.. حتى لو كان الأمر يتعلق بدبابات..

قال مصعب، وهو يحاول أن يتذكر الروائح التي انبعثت من جسد ستيفاني البارحة.. فحين بدأ ماؤها يتدفق على فمه، أصبح بطعم الفانيлиيا.. لقد تبلل الفراش إلى حد أرغمه على الذهاب إلى الصالون ليكمل نومه فوق الكانابيه.. أخيراً فقد عثر على امرأة تنعش حنينه إلى الزعتر والنعناع وترسله مباشرة إلى «سيدة سمرقند» التي تعرف عليها خلال رحلة إلى أوزبكستان، وتساءل بينه وبين نفسه: لماذا لا ينهرم هذا الماء المعطر والمنعنع إلا من نساء أجنبيات. فستيفاني فرنسيّة الأصول، وناتانيا الأوزبكية قد تكون روسية الأصول! رائحة الرزتر التي لا زال يتذوق عذوبتها ويشمها بأنفه الكبير تشبه خشب الصنوبر والصندل والكافور الأبيض الذي كان ينهرم مع ماء ناتانيا.. تحسّن أنفه كما لو أنه في حوار صامت معه.. ثم قال:

- ستيفاني.. هل أضعتك ذات يوم في جبال آسيا الوسطى أو

غابات الأمازون حتى أعود فألقاك أخيرا في إسطنبول؟

فهمت ستيفاني أن مصعب قد عبر عن سعادته بطريقة ذكية.. وهذا ما يستوجب عليها أن تجibه بطريقة بارعة.. أرادت أن تسأله عن شاهي، لكنها تمادت في تجاهلها إلى حين. ثم قالت:

- كل شيء لدى لا بد أن يتم بشكل جيد ورائع لأن كل شيء هو مشروع وإنجاز (في ذهنها الجنس إنجاز رائع لا يختلف عن أي إنجاز فني.. فهي دائما ت يريد أن تكون خليطا بين العاطفة والرومانسية والجنون.. حين تكون في عملها تحرص جيدا على مقاومة أي نوع من الغواية.. ولكنها حين تتفرغ لأحاسيسها تتمتع شريكتها بإبداعات عظيمة في التدفق العاطفي..) ثم سألت:

- ولكن لم تقل لي أين هي شاهي.. هل ذهبت إلى بيتها.. لم أعد أتذكر كيف ودعتها.. لازلت أسمعها ت تعرض على كأسا من الشمبانيا هنا في هذا الجناح ثم ما عدت أتذكر شيئا..

- شاهي لا بد أنها لازالت نائمة في بيتها.. لأنها لا تنهمض إلا مع منتصف النهار.. تركتنا على حافة النشوة ثم انسحبت إلى بيتها.. هكذا صاغ مصعب إجابته، فرددت ستيفاني متسائلة:

- لا تقل لي أنها انسحبت غاضبة!..

- لا أبدا.. شاهي ليست عشيقة.. بيننا أعمال تجارية ليس أكثر.. مررنا بمحاجرة أو مغامرتين ثم أصبحنا أصدقاء.. لا أعتقد أنها غيورة.. إنها امرأة ذات قلب مصنوع من الأوراق النقدية.. قلبها نباتي من خشب الأرز اللبناني..

(لا يزال مصعب بين الحين والآخر يتحسس أنفه.. هل تراه لا يزال يتذكر الروائح التي تدفقت مع مياه الشهوة العارمة.. أو هو يريد أن يقود ستيفاني إلى غواية جديدة.. أم أنه يداعب أنفه كما لو أنه يباركه على الكنز الذي عثر عليه.. عموما فإن أهل الخليج مولعون بأنوفهم ويكترون من التفاخر بأنوفهم.. وحتى طريقة سلامتهم توحى بأن للأنف مكانة رفيعة.. فالشيخ أو الأماء الأكثر رفعة يسلمون بأنوفهم، ولا بد لرأس الأنف أن ينقر أو يلامس أنف الآخر.. وإذا الضيف من عامة الناس فإنه يكتفي باليد أو بوضع رأسه على كتف مضيئه.. وبطبيعة الحال تعلم أهل الخليج استعمال أنوفهم أكثر من غيرهم. ثم طوروا من أداء الأنف، وأصبح ذلك الجهاز الصغير دليلا على صحة الرجل وكذلك على آداء واجباته الجنسية.. ويعتقد أغلب سكان الخليج، وخاصة النساء أن أنف المرأة بمقدار طوله وعرض قاعدته يدل على مقدار طول ذكر الرجل وعرض خصيته.. وكذلك يعتقد الرجال أن أنف المرأة يعكس جهازها التناسلي.. غالبا ما ترغب النساء في تجميل وتصغير أنفها حتى توحى للرجال بأن عضوها صغير وجذاب.. آخرون من شعوب أخرى يرون في الأصابع انعكاس للأجهزة الجنسية.. فمن كانت أصابعه طويلة وغليظة يكون حاملا لعضو طويل وغليظ.. ومن كانت أصابعها نحيفة وقصيرة من جهة الكف لها جهاز صغير وممتع!.. أصبح ذلك اعتقاد راسخ في ذهن مصعب.. ومع التجربة بات متيقنا بأن الأنف هو الأداة الرئيسية في أية عملية جنسية.. لا يقتصر دوره على الشم والإحساس والتهيج والتهيؤ، بل هو غالبا ما يتولى إشارة كل الحواس لكي تشتعل كما يجب. فهو الذي يبعث

اللسان على النشاط والشفط وهو الذي يرسل إشارات أكيدة للقضيب لكي يكون أكثر استعدادا.. ثم هو الذي ينشط الذاكرة ويحرضها على استحضار التاريخ الجنسي لأي جسد.. وأخيرا فهو الذي يدفع بالمخ إلى التخلّي تلقائياً عن أي عزوف..)

باختصار، فإن القرار الذي سيتخذه مصعب في ذك الصباح بشأن ستيفاني، هو قرار صادر من أنفه.. إنه قرار الواقع تحت غواية الأنف!..

*** *** ***

لا يمكن لستيفاني أن تفهم ما الذي حدث أو ما الذي دفعها إلى الشروع في العناية بتلك العلاقة مع مصعب الصراف. كما لا يمكن لها أن تخترق قلب مصعب الصراف لتعثر على جواب مريح ما إذا كان فعلاً قد أحبها.. أو هو سيهتم بها لبضعة أسبوع.. أو لبضعة أشهر ثم يمضي لغيرها.. في نظرها، يتحدى نيتها كل الأحساس الرومانسية التي يسميها الناس حباً، ويقول: أن الحب هو الأنانية في أكثر صورها سذاجة. فهو أي الحب شديد الصلة بالجشع والاستحواذ والتملك والاحتواء.. وهذه صفات كل رجل أعمال وكل رجل سياسة. بل هي صفات مميزة لدى مصعب الصراف.. ولكن كلمة «احتواء» تجعلها ضعيفة حين تسمعها. فامرأة الأربعين، وخاصة وعندما تكون مطلقة هي أكثر النساء اللاتي يبحثن عن الاحتواء..

ولا شك أن ما قاله برنارد شو وبيكاسو فيما بعد «أن الحياة الحقيقية تبدأ في الستين» لا تعدو أن تكون دعاية. ربما تكون صحيحة بالنسبة له شخصياً، كذلك صحيحة لكثير من الفلاسفة

والمفكرين. أما للناس العاديين وخاصة بالنسبة للمرأة، فإن الحياة بحبها ومنتعمتها ورحيقها وكذلك بقلقها وأراجيحها تبدأ في الأربعين.. في هذه السن تصبح المرأة أكثر جرأة ونضجاً عاطفياً.. فهي تنتقل من وضعية الحمامنة إلى وضعية النمرة. تصبح أكثر إلحاحاً في المطالبة بحقها في ترويض الرجل ونزع إرادته وشهامته أمامها.. كذلك بحقها في الكلام المنمق والمعباء بكلمات الغرام وأحياناً المليء بالبذاءة.. بل قد تصبح مشاكسة ومتطلبة وقدرة على المطاردة.. ولكن رغم تلك الشورة العاطفية والجسدية فإنها تظل دائماً خائفة من الزمن ومن عدم التوفيق في العثور على عشير أو عشيق مناسب.. في أحياناً كثيرة، قد يكون حدث الحب الجديد، جرس إنذار، بأن الحب القديم قد مات أو هو يحتاج إلى الإيقاظ.. أحياناً يأتي الآخر، فتصبح العلاقة مثلثة، وهنا يصبح حدث الحب تحدياً وإشباعاً ونهماً. ذلك الشخص الثالث، رجلاً كان أو امرأة إما أن يكون محضاً على استمرارية الزواج أو مدمراً العش الزوجية.. في الغالب ترتضي المرأة بأن تستمر بين الزوج والعشيق. أما الرجل فلا يقدر على ذلك لأنه استحوذى..

يميل الرجال غالبا نحو الغريزة. ويعتقد أغلبهم أن الإخلاص أو التفاني أو الوفاء ليست من أخلاق الرجال. أما المرأة فهي تؤمن بكثير من الإخلاص والحب وتعتني به مثل عقيدة سماوية حسب نيتها. تفعل ذلك برباطة جأش إلى أن يأتي رجل آخر فيحطم دفاعاتها أو تدخل امرأة أخرى إلى مخدعها فتحطم كل بسالتها.. إن الرجل الذي يحب بتفاني على طريقة النساء يصبح عبدا، بينما المرأة التي تحب على طريقة الرجال هي امرأة ناقصة!.. عثر مايوكوفسكي

عن ذلك الفرق حين قرر أن ينتحر تاركا عشيقته «ليلي» في شوارع موسكو بلا ملامح وبلا بوصلة.. قبيل الثورة البولشفية بعامين، وقع فلاديمير مايكوفسكي في حب «ليلي» التي كانت متزوجة، بطريقة جنونية. التقى بها عند مخرج المسرح ودعاه زوجها بعد ذلك إلى بيته من فرط الإعجاب به.. ثم باتت تسكن مسرحياته وأشعاره وترحاله من جورجيا إلى موسكو.. لم يعشق مايكوفسكي «ليلي بريك» الفاتنة والفاجرة فقط، بل عاش علاقات متفجرة آلت إلى الفشل مع عازفة البيانو كاتيانا باكوفيليا التي هجرته إلى حضن أحد النبلاء والممثلة بولونسكايا التي آخر من دعنته حين ذهب إلى الانتحار في الغابة القريبة من بيته. أطلق النار على نفسه وكان موته إعلانا على حب لم يعد حبا وإيذانا بقدوم الثورة كما يقول لينين، وهو يرد على إحدى رسائل عشيقته «اناس ارمان». كتبت «اناس» في ذلك اليوم الداكن: «عزيزي فلاديمير. نحن بعيدان الواحد عن الآخر وهذا يؤلمي جدا.. أنت في ضواحي مدينة كراكوف ببولونيا وأنا في لندن.. أنت تعد للثورة وتنتظر سقوط القيصر.. وأنا أعد نفسي وأنظر أن أراك»..

ها هي ستيفاني تكشف قصتها مع مصعب لصديقها إسماعيل. لقد عرف إسماعيل بلقائهما في إسطنبول وكذلك في دبي ثم في باريس.. وهي إذن لا تستطيع أن تخفي ذلك لأنها لا تريد أن تكون كاذبة أو ممثلة.. قالت له كما لو أنها تضع عليه المسؤولية بعد أن أفصحت عن حب منطقي تجاه مصعب.

- أنت السبب يا إسماعيل.. أنت الذي قدمتني إليه.. وأنت الذي عزمتني على بيت السفير القطري.. ثم أنت الذي أخبرته بأنني في

إسطنبول حين حدث ما حدث..

بالنسبة لإسماعيل الذي لم يفكر أبدا في ستيفاني كمشروع رغبة جنسية أو مغامرة عاطفية، فإن ما حدث لم يشعره بأي نوع من الغيرة أو الحسد أو حق الشهوة.. لذلك قال ببرودة أعصاب: - لا يمكنني إلا أن أبارك علاقتكما..

انتظرت ستيفاني أن يقول شيئا آخر، كان ينصحها أو يفتح لها دفتر مصعب مع النساء، لكنه لم يتكلم.. فقالت: - لا شيء لديك لتقوله لي..

- لا شيء.. أعتقد أن مصعب رجل ذكي جدا.. وأنت أيضا امرأة ذكية جدا.. سوف تتحابان بأكثر مما تتصوران أو تفترقان بأسرع مما تتصوران!..

- ألا يجب أن أكون معه ممثلة.. أقصد ألا تعتقد أن مصعب مثل بارع..

اكتفى إسماعيل بالصمت.. كان بالأحرى يفكر فيما سيقوله لأنه ما طرحته ستيفاني قد يفوق قدراته التحليلية.. صحيح أن كل مشروع جديد يحتاج إلى نوع من التمثيل وخاصة الحب الذي أحيانا قد يبدأ بالهزل لأنه ينطوي على قدر كبير من المسرح ولكن للرد على ذلك السؤال، كان لا بد لإسماعيل أن يحتاج إلى نوع من التمثيل لأنه لا يستطيع أن يغامر بكلام قد يكون خاطئا وقد يكون مع الأيام تهمة له أو قدحا، لذلك قرر اللعب في مساحة معينة فقال:

- حين تصبح المرأة، كل مرأة في متناول من يدعى أنه يحبها، يفقد الحب اهتمامه بها.. هذا ما أعرفه.. وهذا ما افترضه باستمرار. التسليم بعدم وجود الحب أكثر راحة.. وهذا ما يحبه الرجال لدى

النساء فيزدادون انجدابا..

بدا إليها إسماعيل واقعياً وحكيماً.. لم ينزلق إلى م tahات أو صفات أخرى.. وأنذاك رأت أن تسأله أخطر سؤال. سؤال ما انفك يعذبها منذ عدة أسابيع..

- هل ترى من الصحيح أن أخبر زوجي السابق مراد عباس بهذه القصة؟ ثم أردفت قائلة:

- على العموم، أخبرته بأنك هنا في تونس.. ويريد أن يتعرف عليك..

قال إسماعيل بسرعة:

- إذا كان الأمر سيبعدي من التهمة.. فهذا جيد.. أما إذا كان الأمر لكي تنتقمي منه، فهذا شيء سيء جداً.. أنا أقول لا داعي لذلك.. ليس الآن..

*** *** ***

تنتمي ستيفاني إلى طبقة من النساء المتحررات والمتمردات على التقاليد. وقد خاضت حروباً صغيرة ضد عائلتها لكي تتزوج من رجل مسلم. ثم أرادت أن تجبر كل الذين عارضوها بالاعتراف بتحديها وتمرداتها فأصبحت مسلمة.. ولأنها خليط بين مسيحية متزمتة عاشتها مع عائلتها الصغيرة في دريست وإسلام مشوش وفولكلوري عاشته في تونس مع زوجها مراد، فقد ظلت دائماً تشعر وكأنها معلقة بين ديانتين وثقافتين ولغتين وكذلك بين شعورين.. ما إن تبلغ سعادتها حتى يقع النكوص نحو الألم.. وهذا ما حدث معها منذ الليلة الأولى مع مصعب الصراف. وهذه العلاقة تبدو لها في نفس الوقت كورطة وكحاجة ضرورية، لم تسع إليها. وحين

جاءت لم تقاوم لردها.. انساقت باندفاع وكذلك بإهمال أو ربما بتحدي أمام شاهي شهبار.. أصبحت تلك الليلة ذكرى تتعلق بأمنية كانت في صدرها لكنها غير واضحة لديها، لكنها ذكرى تعيش معها وهي تخذبها نحو المستقبل.. وما إن تفكر فيها حتى تصبح نوعاً من الألم.. ألم مستوطن بداخلها لكنه حامل لوعد بالسعادة. إنها من جهة تبدو كما لو أنها تنتظر أو هي فعلاً تنتظر أن يذهب الألم. ومن جهة أخرى فإنها مستمرة في توقع قدوم أو عودة الألم.. ثمة إذن عود على بداع في تناوب اللذة والألم.. فاللذة أو السعادة التي تبحث عنها ستيفاني هي من ذلك النوع الذي يتناوب مع الألم. سمتها أحياناً ببعض الذنب التي راحت تنهال عليها بين الحين والآخر. ثم أدركت أنها امرأة لا تغير كثيراً من الاهتمام لما يسمى بالذنب.. وكان عليها أن تختار إما الاستمتاع والتمتع بالمتعة دون التفكير فيما سوف يعقبها أو ينتج عنها. وإما التفكير والوعي بتلك المتعة وهو ما سوف يجعلها فارغة من أي شهوانية.. ويزيد من حدة الألم.. نعم، إلى تلك الدرجة أصبحت المتعة أشد إيلاماً وألمًا لدى ستيفاني حين تحاول التفكير في علاقتها بمصعب الصرف.. بل هذا ما يجعلها مشوشة الذهن، قلقة، ومتوتة.. ومشوددة كالقوس الذي ينتظر السهم..

في المساء، حين اصطحبت معي إسماعيل إلى حيث يجلس مراد عباس، أبي زوجي السابق، وهو ينتظرنا على شرفة فندق «ضفاف البحيرة»، أعدت عليه ما إذا كان يوافقني على الإفصاح له عن علاقتي بمصعب الصرف.. قلت له:

- لدى إحساس أن هذه العلاقة ستكبر.. ولا أحب أن يسمع بها

مراد من أناس آخرين..
هـ إسماعيل قائلاً:

- احذري.. لا تكوني مجنونة.. لا تفعلي هذا أمامي.. حين
تذهبين إليه لوحدك تصرفي كما تشاءين.. ثم أضاف كما لو أنه
يهزاً..

- فلتأخذي الأمر ببساطة.. لماذا لا تنظري إليها على أنها ضربة
يانصيب.. مصعب رجل تحلم به كل نساء العرب ونصف نساء
أوروبا.. رجل غني ووسيم وقوى..

زاد ما قاله إسماعيل في توتر ستيفاني وقالت لنفسها، (لأنه غني
وقوي ووسيم فأنا أتعذب.. إني لا أعرف متى سيدير لي ظهره).. ثم
قالت لإسماعيل:

- صدقني يا إسماعيل لأول مرة يحدث لي هذا الشيء.. فمنذ أن
طلقت مراد قبل نحو سنتين لم أعاشر أي رجل..

ثم ضحكت وأكملت:

- بصراحة، حتى لو كنت متزوجة، فإنني ما كنت لأضمن لنفسي
النجاة منه!..

وحين اقتربت من طاولة مراد سارعت إلى تقبيله.. ثم التفتت
إلى إسماعيل وهي تقول:

- هذا زميلي إسماعيل السمان. إنه هنا في تونس منذ يومين..
لدينا عمل وثائقى سننجزه معاً ما بين تونس والمغرب..

بعد أن استقرت على الكانايبية المقابلة لمراد واستقر إسماعيل
إلى جانبه الأيسر على كانايبية مستقلة.. استمرت في الحديث عن
رحلتها إلى القاهرة وباريس وإسطنبول.. سألهما مراد ما إذا زارت

أهلها. فقالت بسرعة:

- لم أجد وقتاً لذلك. حضرت المظاهرة العالمية ضد الإرهاب..
ولم يكن بإمكانني أن أذهب إلى دريست.. وعدت أمي بفرصة أخرى.. شعرت بها وكأنها منشرحة لتبأ طلاقي.. وهنا قال مراد..

- لهذا الحد تكرهني أمك؟

أجابت ستيفاني:

- في دريست لا زالوا يشبهون القبائل الجermanية الأولى.. إنهم يقتلون أبناءهم ذكوراً وإناثاً إذا خرجموا عن عادات أهلهم.. ثم ضحكت فضحك مراد وإسماعيل وهو يعلق..

- إذن هؤلاء صعايدة.. وليسوا أوروبيين!..

أطردت ستيفاني من تلك الجلسة كل ما من شأنه أن يعكر مزاج مراد. والحقيقة لقد جاهدت من أجل أن تبعد عنها أي شبهة في علاقتها بإسماعيل. ومع أن مراد متتأكد أن ستيفاني لا تخلط بين العمل والعاطفة.. إلا أنه كان يحاول أن يقبض على أي خيط يمكن أن يقوده إلى أية شبهة من خلال أسئلته الصغيرة وتعليقاته الحادة والاهتمام بالتفاصيل حتى بمخارج الكلمات وحركات الأيدي.. وبعد عدة اختبارات لا طائل من وراءها، سأل مراد إسماعيل:

- وما رأي المصريين في الشيخ الغنوشي بعد أن ذهب مرسى؟..

أجاب إسماعيل بخفة:

- لو رأى المصريون الغنوشي يدخل إلى حانة لما صدقوا!

المصريون ضاقوا ذرعا بتجار الدين!.. عليهم أن ينتظروا قرنا حتى
يعود مرسى..

- وهل تعرف ماذا يقول جماعة الغنوши، سأل مراد ثم أجاب..
- كانوا يقولون مسألة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع.. والآن يقولون
مسألة سنتين أو ثلاث سنوات.

أما ستيفاني فقد علقت على ذلك الحديث السياسي الذي دار
بين زوجها السابق بطريقتها الخاصة قائلة ونحن نستعد
للخروج:

- كم هي عظيمة تلك الشجاعة التي نملّكها لكي نقوم من
السرير كل صباح لمواجهة الأشياء نفسها مرارا وتكرارا.. ولكن
نحن الصحفيون، كم نحن سخفاء أحيانا..

«لما قالت هذا الكلام، كانت ستيفاني تحلم بمضاجعة أخرى
مع مصعب».. هذا ما استنتاجه إسماعيل لعدم تناصقها مع مجرى
الحديث.. أما مراد الذي ودعنا أمام باب الفندق، فلا بد انه أحس
بذلك بعدم التناصق في كلامها، لكنه لم ولن يتخيّل أبداً أن
ستيفاني التي أحبته لأنّه يتكلّم الفرنسية بطلاقة يمكن أن تحب
مصعب الذي لا يتكلّم إلا العربية مع بعض الكلمات الإنكليزية..

■ الفصل التاسع ■

قبل أن يتزوج أرسطو أوناسيس، جاكلين، أرملة الرئيس كينيدي، دعاها إلى طنجة. أوقف يخته في المكان الذي أرست فيه باخرة روزفلت خلال الحرب العالمية الثانية.. ثم صعد إلى سطح الطابق العلوي وصرخ: «ها هنا من حيث عبر روزفلت إلى السلام نحو يالطا للقاء بستالين.. ومن حيث انطلق كريستوف كولومبس إلى العالم الجديد، أعلن للعالم زواجه من السيدة جاكلين كينيدي».. لم يكن أوناسيس ثملاً أو سكراناً، ولكنه كان رجلاً يعرف كيف يربح التحديات ويظل واقفاً.. كانت مارلين مونرو قد التقى بأوناسيس في إحدى السهرات، وحصلت بعد ذلك اللقاء، مداعبات وربما مغامرات بينهما، لكن جون بشبابه ومجدе الرئاسي استطاع أن يخطف مارلين مونرو من أحضان أوناسيس.. وكأي إغريقي له طبع الجبال والبحار، لم يغفر لـ كينيدي ذلك الخطأ.. فقد تمكّن خلال عام واحد أن يسرق قلب زوجته جاكلين.. ثم سرق القدر أو المافيا جسدي مارلين مونرو وجون كينيدي حين تم اغتيالهما.. وبعد عامين، أو أكثر يقليل تزوج أوناسيس من الأرملة جاكلين.. قال أوناسيس فيما بعد لمجلة «لـ ايف» «حين نلعب جيداً، يكون القدر حليفنا.. لقد كنت دائماً ألعب بطريقة جيدة»..

لم يكن ثمة ما يزعجني ذلك المساء. لقد استعدت نشاطي بعد فترة من الكآبة بسبب فسخ خطوبتي مع مروان. قال لي أبي آنذاك: - لن تستطعي العيش في الجزائر.. مروان شاب أنيق وابن عائلة كبيرة.. ولكنه لا يستطيع أن يعيش إلا في بلده.. أبوه رجل عالم وسليل دايات ومروان وحيد والده ولا أعتقد انه سيأتي إلى طنجة ويترك أراضي والده للآخرين..

ثم أضاف..

- الجزائريون يحبون المغرب، لكنهم يحبون بلدتهم أكثر.. ليسوا مضطربين الآن أن ينتقلوا للعيش في تونس أو المغرب كما كان الحال زمن الاستعمار..

مثل ذلك الكلام لم يقنع ساندرا سلطاني بأن تفسخ خطوبتها مع مروان داي، ابن البروفسور إسماعيل داي. في الحقيقة من أقنع ساندرا بذلك هو الرسام والباحث في الحضارات خوسيه بلانتيرو.. قال بلانتيرو لساندرا ذات مساء وهو يدرّبها على مزج الألوان بداره المطلة على المضيق:

- جاءني مروان إلى غرناطة.. أرسله أبوه إلى عندي.. وخرجنا معا.. اخذه صديقا. وجده شابا رائعا في البداية.. ثم عرفت أنه مدخن للحشيش.. ومعاشر للصبيان..

كان كلام بلانتيرو بمثابة الصدمة.. لم تنتظر منه أن يكون فجا بتلك الطريقة. أحست بانقباض شديد ثم راحت تسعل بقوه.. لم تدخل في جدال مع بلانتيرو، فقررت الانسحاب والعودة إلى بيتها. ومنذ ذلك المساء لم تخرج ساندرا من غرفتها إلى أن دعاها بلانتيرو على عشاء جماعي.. كان مروان ربما حلم حياتها،

ولكنها هو يتاخر من ذهنها دونما اسف كبير!.. لقد نسفة بلا نتiro نسفا وبات الآن ربما بدليلا لمروان، حتى وإن كان الأمر بلا غبطة كبيرة.. فبلانتيرو يعرف جيدا أن الرجل متى أخرج رجلا من قلب امرأة، أخذ مكانه، ذلك أن المرأة سرعان ما تحب ذلك الرجل الثاني باعتباره منقذا لها!..

قال لي أن صديقه الياهو دانيال سيقيم عشاء على شرف أحد رجال الأعمال الخليجين.. وأنه يود أن تكون حاضرة معه.. ثم أضاف..

- أريد أن أخرجك من هذه الكآبة يا ساندرا.. انطلق إلى الحياة. لازلت شابة نظرية وذكية..

لم أمانع. وجدت في كلامه شحنات إيجابية، فأبديت استعدادي، وفي مساء اليوم نفسه كنت كأميرة في انتظار فارسها.. غالبا ما كانت تلك النزعة الرومانسية التي أحضنها بداخلي تأخذني على أجنبية سريعة إلى الأماكن التي أحب أن أذهب إليها. وقد كان من الممكن أن أتخيل ذلك العشاء قبل أن أذهب إلى بيت الياهو دانيال، ولكنني ما كنت أود إفساد المتعة حين حدوثها، أو قتل الدهشة بداخلي.. إن ما تفتقده مبكرا حين ندخل إلى عالم الكبار هو الدهشة، بينما الفلاسفة الكبار يصررون على البحث عن الدهشة حتى في الأشياء البسيطة..

اخترت أحل فساتيني لذلك العشاء. قليلا ما أرتدي القفاطين أو الفساتين، ولكن هذه المرة أردت أن أكون في شكل سيدة لا في شكل فتاة طائفة من فتيات الفايسبوك.. إن الفساتين تمنحنا

الأنوثة والدلال وتجعلنا أكثر حضوراً ورغبة لدى الرجال.. ما من رجل قوي لا يحب أن يقف ويتكلم ويسلم على سيدة ترتدي فستاننا.. كنت ألاحظ كيف يقبل الرجل يد المرأة إذا كانت ترتدي فستانها، وكيف يكتفي بمد يده من بعيد على امرأة أخرى ترتدي بنطلوننا.. الفستان هو الوعد المؤجل بالنسبة للرجل. أما البنطلون فهو الرفض المبطّن وغير الواعي لإمكانية حدوث أي انفتاح.. هكذا يفهم أغلب الرجال. وهكذا يتصرفون. فطبقاً لما تبديه المرأة من خلال فستانها يتحول الرجل إلى كائن بشري عار وشفاف..

كان هناك تنوع كبير من المدعوين، تنوع في الأسماء والجنسيات والأديان واللغات وكذلك في الألوان.. لأبدأ أولاً بتلك السيدة الزنجية التي ترتدي زياً إفريقياً والتي تدعى إيزابيلا غوبيتا، وهي سفيرة سابقة لبلادها بورندي في المغرب.. كانت تشبه السيدة ويني مانديلا في صحتها وتحديها وشموخها.. (رفعت هذه المرأة من شموخ المرأة الإفريقية. ظلت متمسكة بالنضال الظبي إلى أن دخلت في صراع مع أرستقراطية حزب المؤتمر.. قال هؤلاء الذين يغيرون منها.. مانديلا وهو في السجن، أنها تخونه مع الشباب.. لم يكن متاكداً. ولما خرج من السجن، قام بطلاقها ثم تزوج من أرملة صديقه سامورا ماشيل الموزمبيقية.. إن قصة ويني ونيلسون هي قصة الحب الجريح في جنوب إفريقيا تماماً مثل قصة الثورة المخدوعة!..)

صاحب الدعوة الياهو دانيال هو الضابط السابق في الجيش الإسرائيلي والذي يملك حالياً منتجعاً كبيراً لليخوت في طنجة وأخر في إسبانيا (على ساحل ماربيا) إلى جانب كازينو في جزر

الكناري، وذلك حسب ما عرفته من خوسيه بلانتيرو والذي قال أيضاً أن الياهو من يهود إسبانيا السفارديم. فما إن فكر في عالم الأعمال حتى عاد إلى إسبانيا.. الياهو دانيال هذا كان رجل خمسينياً، لكنه أصغر من عمره بكثير..

أشار لي بلانتيرو قائلاً:

- هل رأيت تلك السيدة التي تقف إلى جانب الياهو التي سلمنا عليها عند دخولنا؟

كنت أحاول أن ألتفت إلى حيث يشير بلانتيرو ولكنني لم أفعل ذلك إلا بعد أن سمعته يقول:

- تلك المرأة ليست زوجته.. إنها سيدة شهيرة في عالم الأزياء، تسمى شاهي شهبار.. قدمت من إسطنبول واعتقد أنها عشيقه له.. في تلك اللحظة وأنا التفت بحذر لأراها جيداً، رأيتها تتقدم نحو رجل خليجي، ثم وقفت قبالته وراحت تتحدث إليه كما لو أنها تمازحه.. آنذاك قال لي بلانتيرو:

- ذلك الرجل خليجي، اسمه مصعب وأعتقد أنه من قطر. وهو شريك الياهو في كثير من الأعمال. فهو أيضاً يملك منتجعات سياحية كثيرة في طنجة وكذلك في شرم الشيخ..

- لا تقل لي أنه شريكه أيضاً في تلك السيدة. فهي تبدو وهانة بالسيد الخليجي؟

أكمل بلانتيرو حديثه باتجاه آخر فقال لي:

- انظري ذلك الرجل الذي يرتدي شورتا مقلماً.. ربما أمر غير مألف أن نرى هذا في حفل عشاء أو حفل شاي.. ولكن لا

بدأن يكون صاحب حظوة. سأقول لك من هو. انتظري. انتجي جانبياً باتجاه رجل كان يحاول أن يلتقط صورة سلفي مع إحدى الحاضرات.. وشوش معه بعض الكلمات ثم عاد ليقول لي..

- إنه الحارس الشخصي لشاهي شهبار.

فهمت أنه قد يكون العشيق الخفي لها.. فقلت له:

- الحارس الشخصي لماذا هو هنا وسط الضيوف.. لعله أحد العشاق..

- لا أعتقد.. انظري إنه يرتدي مع الشورت قميصاً شفافاً يكاد يلتصق بجسمه.. ثم أضاف..

- إنه «غبي».. صديقي ساباتو الذي سأله أوحى لي بذلك. يعرفه جيداً، والياهو دانيال رجل شرقي وغيره..

باختصار، كان عدد المدعوين يفوق العشرة أشخاص. وربما كان هناك ما يثير الفضول، ولكنني شخصياً لم أجده ما أثار فضولي أو إعجابي.. تحدثت مع أغلبهم وحاول معظم الرجال أن يكونوا مرحين معي وقد أكثروا من مدحه بلا نتiro لأنّه يصطحب معه امرأة شابة وجميلة. ودون مبالغة، فإن أكثر ما شد انتباحي هو حضور تلك السيدة التي قدمت نفسها على أنها صحفية وتدعى ستيفاني نيكولاوس.. أتعجبني حضورها وأن坎坷ها وكذلك لكتتها حين تتكلم بالعربية (وهي دارجة خليط بين التونسية والمصرية) ثم ثقافتها.. كان ذلك الرجل الخليجي الذي يدعى مصعب لم يفارقها إلا قليلاً. وحين كنت أتحدث إليها كان لا يكفي عن التحديق بي كما لو أن لديه ما سوف يقوله لي دون أن تعرف ستيفاني. تعمدت

الانسحاب بدعوى أنني أريد أن أغير كاسي، فأسرع مناديا على النادل.. اختار لي كأسا من الوسيكي، فاعتذر وقلت له:
- لا أشرب الوسيكي.. اكتفيت بكأس من النبيذ وسوف أضيف كأسا أخرى لا أكثر..

ذهب ذلك النادل ثم جاء نادل آخر يحمل قنينة من النبيذ الإسباني.. أمسك مصعب الكأس ليصب النادل. ثم ناولني قائلاً:
- هذا على نخب ستيفاني يا ساندرا ناطحاً كأسه بكأسي.. ثم سألني:

- هل سمعت من قبل ب الرجل اسمه مصعب الصراف؟..

*** *** ***

تبليغ الشقة بالنفس في بعض الرجال أحيانا حتى لتخيل فعلاً أنهم باطراة غير متوجين أو أخوة أشقاء لرجال عظام مثل إيمانويل كانط أو المهاجم غاندي. عاش ومات كانط دون أن يتزوج. فكر مرتين في الزواج لكنه لم يقدر على الزواج.. الفتاة التي أحبها كانط كانت ثرية لكنه قال لها: لن أتزوجك إلا إذا كنت قادراً على أعباء وتكليف الزواج.. في النهاية مات أعزب وهو في الثمانين.. أما المهاجم غاندي فقد كان يحكم إمبراطوريتين وأمتين عظيمتين.. البريطانية التي وضع لها حدوداً جديدة وجعلها متواضعة، والهندية التي بني أعمدتها وأطلقها لتجربة الوجود.. ومع ذلك التقى بسيدة صغيرة من الكشمير طالبة الزواج قال لها:

- إذا كان بإمكانك أن تكوني رقيقة مع عنزتي، فإني سأتزوجك..
أما ذلك الرجل الذي اسمه مصعب الصراف لا شك أنه لا يزال

غير قادر كيف يمكنه هو نفسه دون أن يحتاج أن يكون رجلا آخر. هكذا قلت لخوسيه بلانتيرو، حين غادرنا ذلك الحفل.. فجأة قررت الانسحاب وطلبت من بلانتيرو أن نعتذر ونسحب، وإلا فإنني سأفعل ذلك لوحدي.. قلت له بنوع من النرفزة.. - خوسيه.. مزاجي تعكر.. هذا ليس مكاني.. أنا سأذهب. هل ستذهب معي أم لا؟

في الطريق هدأ خوسيه من روعي ودعاني إلى مطعم متواضع.. وقال لي كأنه يعتذر..

- أنا نفسي لم أكن مرتاحا.. عالم آخر من الادعاء والتشبه.. كنت أحسبه حفل عشاء. فإذا به حفل شرب.. أضاف خوسيه.. - في هذا العالم.. كثيرون من الحالات يريدون أن يصبحوا نبلاء. ولكي تظهر نبيلًا عليك أن تكون مرغما على التظاهر. وحتى تفعل ذلك لا بد أن تكون قادرا على التظاهر ومحكوما عليك بالبذخ والرفاهية والمسخاء إلى حد العجرفة (كان الأرستقراطيون ولا زالوا يتتفوقون على الطبقات الأخرى بالإإنفاق والكرم حتى حين لا يكون في مقدورهم.. ذلك ما ميزهم على الأدنى منهم اجتماعيا مثل الفلاحين.. ولكن حديثي النعمة والأغنياء الجدد يفعلون نفس الشيء.. يكتثرون من البهرج والإإنفاق والبذخ حتى يعتقد الأكثر منهم رفعة أنهم صاروا مثلهم يمتلكون أخلاق النبلاء!.. وفي النهاية النبيل يصرف كل ما لديه باشراح لأنه يريد أن يحافظ على نبالته.. وحديث النعمة ينفق كثيرا بتذمر لأنه يريد أن يكون نبيلا لكنه يبقى خسيسا..)

كانت ساندرا وهي تتحدث مرحة إلى بعد الحدود. كادت

أن تفقد انسراحها في بيت الياهو دانيال لفقدانها المرجعيات الصحيحة لذلك الحضور.. وحين غادرنا عاد إليها ذكاؤها ومرحها.. سمعتها تقول كما لو أنها فيلسوفة ساخرة:

- إننا نعيش في عالم من التشبه والشبهات.. الجميع أصبح يفترى على الواقع حتى لا يكشف حقيقته.. الرجال الذين يسمون بالأقوياء أو الناجحين هم في الغالب نماذج موهبة داخل فضاء من الشبهات.

بعد ذلك ضربت مثالاً:

- خذ مثلاً ذلك الذي اسمه الياهو دانيال.. لا شك أنه قتل عشرات الفلسطينيين الفقراء وزرع الوباء والمبيدات في مزارع اللبنانيين.. وبعد حياة من الفضاعة والترهيب، هنا هو يعيش حياة أخرى من البذخ، لا أعتقد أن رجلاً مثل الياهو يقرأ القصائد أو يحب الرسم.. نفس الشيء بالنسبة لذلك الخليجي الذي اسمه مصعب الصراف.. متى يمكن لذلك الرجل أن يكون غنياً.. إنه يحتاج إلى عقدين آخرين من الخبرة والعمل والتجريب حتى يكون غنياً.. ذلك الرجل يبدو قوياً ومتمسكاً ولاعباً بالنساء لأن اسمه رجل أعمال خليجي فقط.. هكذا تعقد الواجب وتتمطط الشفاه وتتأوه القلوب وتعتقد الألسن ويختار حتى المنجمون حين يلتقي رجل أعمال يهودي مع رجل أعمال خليجي في بلاد اسمه المغرب.. لن يكون لذلك إلا تفسير واحد، هو أننا نعيش ما أخبرنا به الحسن الثاني قبل أكثر من عقدين.. (العقبالية اليهودية مع مال العرب من شأنهما أن يصنعوا المعجزة).. وهل ثمة من معجزة بعد خراب البصرة!..

قلت لخوسيه أيضاً، أن هذا المثل كثيراً ما يردده والدي. وقد انتظرنا طويلاً حتى خربت البصرة ولم تأت المعجزة..

ردّ خوسيه على بشيء من الاعتداد بالنفس باعتباره أستاذ متخصص في فن العمارة عبر الحضارات.. قال لي:

- أولاً يا ساندرا أريدك أن تكوني متعايشه مع هذا العالم من الشبهات.. كل الأوساط بداخلها «أوساط غير نظيفة» ثمة من يتقن التخفي والإخفاء وثمة من لا يتقن ذلك.. إن العالم الجديد يرى نفسه في الصورة التي يرسمها لنفسه. علينا أن نقبل بأولئك الناس بصورهم لا بجوهرهم.. وأما المثل الذي يكثر من ذكره والدك فهو يضرب للذى ينجز عملاً بعد فوات الأوان.. لقد صادف أن اشتعلت ثورة في البصرة عرفت بثورة الزنج وأخرى في منطقة محاذية بإيران.. وكان رأي القائد العسكري أن يذهب إلى إيران لإخماد الثورة هناك، فحدث أن خربت البصرة.. وبعدما انتصر القائد في إيران، عاد لينصر في البصرة.. ولما عاد إلى بغداد قال له الخليفة: نصرك مهم.. ولكن جاء بعد خراب البصرة!..

التقطت ساندرا من الحكاية عبارة «بعد فوات الأوان» ثم أرادت أن تتفلسف فقالت:

- بعد فوات الأوان . قبل فوات الأوان.. لا ترى معنى أن هذه العبارات لا تعني شيئاً بالنسبة للزمن.. ما هو الأوان؟ ومن يضع الأوان أو يحدد الأوان. إذا كنا قد خرجنا من هذا الحفل. فهل نحن خرجنا قبل الأوان أو بعد الأوان.. أو في الأوان نفسه.. ثم إذا سقط هذا الجسر الذي أمامنا وكنا نعبر فوقه.. هل كنا عبرنا بعد

الأوان أو قبله أو في الأوان نفسه.. أي لحظة سقوطه بما يعني لحظة هلاكنا. ربما لو لم يتغلب ذلك القائد على التمرد الذي حدث في إيران ما كان ليتغلب على تمرد البصرة.. وإذا كان ذلك صحيحاً. فإن ما حدث قد حدث في الأوان نفسه، أي في لحظة ناضجة وحبل باحتمالات النجاح.. من أدراينا أن تمرد إيران لو تركه ذلك القائد جانباً ولم يعتبره أولوية إستراتيجية سوف لن يتسع ويلتحم مع تمرد البصرة.. ثم لا يعود ممكناً الصمود أمام تمرد كبير ومفتوح!..

ثم ختمت قائلة:

- اسمع يا خوسيه.. لو أن جون كينيدي قد مر موكيه بدقيقة قبل أو بعد لما كان ليموت على الأقل في تلك اللحظة.. نعم حدث ذلك مع الجنرال ديغول، لكن هذا الجنرال الخنفي ليضع باقة ورد تحت قوس النصر، فمررت الرصاصات من فوق رأسه، فلم يقل أحد فات الأوان بل قال الجميع: لم يأت الأوان بعد..

استمع خوسيه جيداً لما تقوله ساندرا. كان على قدر من التناسق.. ولكنه لم يكن مستعداً أن يدخل معها في نقاشات مطولة أو جدية.. كان يريد أن ينتقل بها إلى عالم أخرى أكثر رومانسية وحميمية.. قال لها فجأة:

- هل لازال مروان على تواصل معك؟

لم تتوقع ساندرا أبداً مثل هذا السؤال من خوسيه، وكاد أن يضيعها مع الإحباط مباشرة لو لم يستدرك قائلاً:

- دعينا نذهب إلى بيتي ساندرا.. أليس أكثر راحة من أي مطعم!..
(كانت مارلين تسأل أمها باستمرار: كيف ترين السيد مونرو.

وكانت أمها تكتفي في كل مرة بأن له وجه رائع مثل وجه راهب مشرق.. وكان مورو كثيراً ما يطلب منه صديقه رأيه في مارلين، فكان يكتفي بالقول.. إنها رائعة لها وجه أمريكا المشرقة والمرحة)، لذلك أرادت أن تخبره بشيء مماثل، وقد أبدت موافقتها على الذهاب معه إلى بيته. قالت له:

- خوسيه سأخبرك بشيء.. هل تعلم أن أمي كثيراً ما تسألني عنك.. آخر مرة حين ارتديت هذا الفستان قالت لي مداعبة.. هذا الفستان لخوسيه أو لرجل آخر.. ضحكتنا بتخابث الأم والبنت دون أن أجيبها.. هل تعرف.. أنها تود أن تراك.. لتتأكد من إنك الرسام الذي رسمتني.. لقد قالت لي في الحين حين رأت اللوحة أن هذا الرجل يحبك.. هل أنت تحبني يا خوسيه؟ كانت غالاً في البداية غاوية وملهمة للشاعر بول إيلوار. وحين رسمها سلفادور دالي تركت إيلوار وعشيقها ماكس ايرنست وارتمنت في أحضان دالي.. غالاً كانت من روسيا. وكذلك أولغا فعلت نفس الشيء مع بيكتاسو. هذا الخنزير كما تسميه أحياناً أولغا لا يرسم امرأة إلا إذا أحبته.. لقد حطم قلوب نساء كثيرات.. أولغا أيضاً كانت روسية.. ولأن الأمر بات مختلطاً على ساندرا. فقد ألت ذلك السؤال على خوسيه بلا مقدمات كثيرة. كانت تفكّر فقط ما إذا كان خوسيه مثل دالي أو مثل بيكتاسو. دالي كان يفتّك بالنساء والغلمان. أما بيكتاسو فكان مكتفياً بمعامراته النسائية.. ولم تفكّر قط في شيء آخر.. إلا في أن يقول لها مثلاً: أنا أحببتك لذلك فقد رسمتني.. أنا رسمتكم لأنني قد أحببتكم..

اختار خوسيه طريقة أخرى للتعبير ثم نطق..

- المهم أن لا تخبرني أمك أن عمري تجاوز الستين..

*** *** ***

حين مات الكوديو فرانكو، دخل خوسيه إلى جامعة مدريد. وقبل أن يصعد فرانكو إلى الحكم بحوالي سنتين، ولد أب خوسيه وهو ثالث إخوته ويدعى خوليо بلانتيرو. وبعد أن صعد فرانكو إلى الحكم بأقل من سنة ولدت أم خوسيه وتدعى ماريا مارتيناز، لذلك فإن الإسم الكامل لخوسيه هو كالتالي: سان خوسيه ماريا مارتيناز بلانتيرو. يمكن القول أن أب وأم خوسيه قد ولدا قبل ثلاث سنوات من الحرب الأهلية التي قتلت أكثر من نصف مليون إسباني من أصل عشرة ملايين. في ذلك الوقت هب الجنرال فرانكو للدفاع عن الملكية ضد الجمهوريين ثم وضع الملك على الرف وامسك بأمعاء إسبانيا بتحالف ودعم من هتلر وموسليني.. اعتمد على حزبه الكتائب وكذلك على جماعات القمصان السوداء التي أرسلها الدوتشي كذلك على الشبيبة النازية للفوهر هتلر.. ورغم ذلك ما كان لينصر لولا جيش المطوعة المغاربة الذي بلغ عدده نحو 50 ألف من سكان الريف بقيادة الضابط محمد أمزيان الذي رقي إلى رتبة ضابط ثم أصبح صديقا شخصيا وحارسا أمينا لفرانكو إلى ساعة مماته.. في ذلك العام 1975 أي حين مات فرانكو، كان خوسيه طالبا في كلية الفنون الجميلة.. وقد أصبح منتميا لليسار العالمي بكل جوارحه. استيقظ وعيه على سقوط الزعيم الشيلي سلفادور ألندي وعلى كفاح منظمة الإيتا الباسكية والتحولات الديمقراطية التي طبعت علاقة بلاده بمحيطها الأوروبي وعلاقة الدولة بالمجتمع

وكذلك علاقة إسبانيا بمستعمراتها الإفريقية.. انقطع عن دراسته في كلية الفنون الجميلة ثم سافر إلى المكسيك ليتعرف على تجربة التياباس الشورية. ومن هناك ذهب إلى أمريكا لينتmi إلى جامعة كولومبيا حيث نال شهادة في فنون العمارة.. بعد ذلك اتجه إلى إيطاليا ليتخصص في تاريخ العمارة الرومانية. ومن إيطاليا ذهب إلى القاهرة مقتفيا تاريخ العمارة الفرعونية.. زار بعد ذلك بغداد ودمشق واليمن وتعلم قدرًا كبيراً من اللهجات العربية ثم عاد لينظم إلى هيئة التدريس في جامعة غرناطة.. أطروحته الثانية كانت حول فن الحدائق في المدينة الأندلسية.. وهنا مزج حسه الفني كطالب فنون جميلة وكرسام وزاده العلمي فيما يتعلّق بفضاءات المساحات في المدينة الأندلسية.. تزوج من كارمن خولييو، إحدى طالباته في جامعة غرناطة لمدة ثلاثة سنوات، وحين طلقها قال لأمه ماريا مارتيناز: «اللعنة.. لم أكن أعرف أن اسمها هو اسم زوجة فرانكو كارمن بولو..» (كانت كارمن بولو تظهر غالباً على الشرفة إلى جانب الجنرال حين كان يخطب في الجماهير المتحشدة التي تصرخ: كوديو، كوديو.. أنت الكوديو..). لا يتذكر خوسيه الكثير من عهد فرانكو، ولكنه لا يستطيع أن ينسى حملات الفالانج القمعية والمداهمات الجامعية وإعلانات حالة الطوارئ المستمرة.. وكذلك مرض الجنرال الطويل.. لم يصدق الإسبان أن جنراهم مات إلا حين أطل الملك الشاب الذي احتفظ به الجنرال كولي للعهد وك الخليفة له وهو يقول للشعب بكثير من الشحوب: «أنا خوان كارلوس.. أنا ملك إسبانيا.. لقد مات الجنرال».. لقد ظهر كما لو كان يؤبن والده.. هكذا أحس معظم الإسبان.. فهذا

الشاب الذي فصله أو نزعه الجنرال عن والده، وجعله ولية لعهده واشرف على تربيته لم يكن قادرًا على إخفاء تأثيره برحيل فرانسيسكي الذي اغتصب عرش أبيه! ابنة الجنرال الوحيدة ماريا كارمن والتي تبلغ حالياً نحو 82 عاماً ذكرت خوسيه حين جاءت لتروي ذكرياتها مع أبيها لطلاب التاريخ في جامعة غرناطة: أن والدها قد تكون ونضج في المغرب. وأن صداقاته لبعض رجال المغرب هي التي جعلته ينتصر في الحرب.. ومن هذه الجملة بالذات بدأ خوسيه يفكر في الذهاب إلى المغرب.. وهذا هو بعد خمس سنوات يصبح خوسيه شبه مهووس بالمغرب.. وحين طلق زوجته قال لأصدقائه: لن أتزوج إلا مغربية بعد الآن..

كان خوسيه إلى جانب اختصاصاته الفنية متأثراً جداً بأندريله مالرو الذيقرأ له أغلب إنتاجاته مثل رواية «الأمل» و«المذكرات المضادة» و«سقوط السنديان» ثم مساجلاتة مع الجنرال ديغول.. لنقل أن - ومضة مالرو - هي التي ظهرت في عيون خوسيه وساندرا منذ أن التقى. ساندرا هي أيضاً مغرمة بمالرو وبشكل ساحر وجذاب. فهي تعشق أدبه وكذلك تعشق شخصه.. لم تتعرف عليه أبداً. فقد مات قبل أن تولد ساندرا بنحو عشرين عاماً. ولكن منذ أن قرأت مذكراته راحت تفتش على بعض فيديوهات له. عثرت على مساجلات حامية له وقد اقترب من السبعين. مع ذلك ظل عنيفاً وذكياً ومتوتراً ولاعباً بالعبارة والسيكاراة معاً.. الحشرجة أو البحة التي كانت تضرب حبال صوته تجعله أكثر طغياناً وفحولة.. أما عيونه فكانت تخترق كل من يتفرج إلى أصابعه المرتعشة وعياراته النارية والطازجة.. أما شكله، فهو لا يختلف كثيراً عن شكل

خوسيه.. خوسيه الذي يقف الآن أمامها على رصيف البحر، وهو يشد شاله الأحمر بكلتا يديه حتى لا يطير مع الريح.. قالت له:
 - ماذا تفعل حين تقع في أسر كاتب أو فيلسوف. وهو ميت منذ زمن طويل..

أجابها خوسيه بعفوية:

- لو كان أندرية مالرو حيا لأجابك عن سؤالك..
 - ماذا قلت مالرو.. هو ذا.. هو ذا العقري المجنون..
 - وقد يكون دجالاً ومحتلاً أيضاً وربما مختلاً عقلياً..
- أجاب خوسيه ثم انهر الكلام بلا توقف:

- كثيرون وكثيرات وقعوا في أسر هذا المجنون.. لا أتحدث عن طلاب صغار. بل حتى عن مفكرين وكتاب مشهورين في عهده.. وكذلك زعماء ورہبان ونساك وسياسيين وصحفيين سليطو اللسان وحتى جنرالات. في شبابه كان يبدو لهم كمعجزة.. اخترق الحرب الأهلية في إسبانيا ثم قفز إلى الهند الصينية ثم إلى الصين.. وفي كهولته، أصبح بطلاً ونموذجًا للمثقف المحارب والجواري. وفي شيخوخته صار نبيهم.. لقد سحر به حتى الجنرال ديغول والزعيم تروتسكي وماوتسى تونغ!!

- ولكن ثمة مثقف وفيلسوف وحيد ملأ الدنيا بأفكاره حين بدأت شمس مالرو رحلتها نحو المغيب. لم يوجد في مالرو ما وجده أندرية جيد مثلاً.. هذا المثقف هو سارتر قال عنه: «سعيت جاهداً لأكمل أحد كتبه، لكنني أجد أسلوبه مملأ إلى درجة لا تصدق.. إنه ينقصه الكثير»..

- اتريكي سارتر جانبا.. لم يكن يحب إلا زوجته فرانسواز ساغان.. أعتقد أنه كان يغار منه. تصارعا حول الجنرال.. مالرو كان يحب الجنرال وسارتر كان يحترم الجنرال فقط..

ومن كان يحب الجنرال؟ سالت ساندرا..

- الجنرال أيضا كان يحب نفسه. ثم زوجته ايفون.. ثم مالرو.. وكان يحترم سارتر..

ديغول ومالرو، كان كل منهما يحب الآخر ولكن الحقيقة كان كل منهما يحب نفسه فقط!..

بعد ذلك سألهما خوسيه:

- هل تعرفين قصته مع همنجواي؟ ثم بدأ يروي لها كما لو أنه قرأها البارحة من سيرة مالرو للكاتب الأمريكي «كورتيس كيت»: بعد تحرير باريس عام 1944 من النازيين بوقت قصير، علم مالرو بأن همنجواي قد وصل مع الفرقة الأمريكية الرابعة للشاشة، وأنه أشرف شخصيا على تحرير فندق الريتز الشهير باندفاع وحماس حيث توجد غرفة للعمليات تابعة لهتلر.. هذا النصر لم يتحمله مالرو لأنه ما كان ليقبل بأن يسرق منه صاحب «من تقع الأجراس» البطولة في عاصمة بلاده. توجه إلى ساحة القاندول محاذيا حدائق التريلري نحو الفندق الذي يسكن فيه همنجواي. كان هذا الأخير في غرفته قد خلع حذاءه العسكري الضخم وانهمك في تنظيف سلاحه صحبة جنوده، عندما أطل مالرو بقامته المديدة والتحيفة. وكان مالرو أيضا قد حضر بزيه العسكري وعلى كتيفه شارات رتبة عقيد. قال همنجواي بأكثر ما

يمكن من اللطف بالنسبة لرجل عنيد وصلب ومتقلب كأمواج البحر..

- بونجور سيد أندريه

فرد مالرو:

- بونجور أرنست.. أهلا بك في باريس..

(لا نعرف ما إذا كان الرجلان قد تصافحا أم لا.. ولكن بما أن يدي همنجواي كانتا ملطختين بالزيوت والشحوم فيمكن لنا أن نتخيل ما حدث.. المهم فقد تجاوزا تلك الإشكالية بنبل الزمالة)

بعد ذلك سأله مالرو:

- هنئنا لنا جميعا بهذا النصر.. ولكن قل لي كم من جندي كان تحت قيادتك؟..

فرد همنجواي بلهجة مرتفعة وواثقة:

- عشرة أو اثنا عشر رجلا.. مئتان على أكثر تقدير..

لم يرغب في التبجح أمام مالرو.. كذلك لم يكن مدعيا.. فقد دخل إلى الجنديه بعد أن عمل كمراسل حربي.. ولكن حين سمع مالرو يقول له: «هذا بسيط.. أنا كنت قائدا لألفي جندي»، اهتاج همنجواي ثم تمالك أعصابه ليحدد له ضربة قوية.. قال مالرو الذي شارك في الحرب الإسبانية والذي سبقه إلى تأليف الرواية بعدة سنوات، بلهجة ساخرة وباردة:

- إنه لأمر مؤسف أن لا نحظى بدعمك سيادة العقيد ونحن نلقى القبض على هذه القرية التي هي باريس..

تألم مالرو لتلك الصفعة.. ولأول مرة يجد نفسه صامتا أمام كاتب عظيم مثله ومحارب عنيد..

أكمل خوسيه قصته لساندرا كما لو أنه كان شاهدا على تلك الحادثة ثم قال:

- لقاء العظام غالباً ما ينقصه الود، لأنّه يتميّز بالحساسية.. ثم أضاف:

- ظل همنجواي يروي تلك الحادثة طوال حياته. وقد أقسم أمام أناس كثيرين وهو يلاعب بندقية صيده بأن أحد جنوده قد جره إلى غرفة الحمام واقتصر عليه إعدام هذا المغفل.. أي مالرو..

- بابا (وهو اسم همنجواي لدى جنوده..) هل تأمر بإعدام هذا المغفل والمتنطع، رميا بالرصاص..

ضحك همنجواي وقال للحاضرين..

- لا يوجد حكماء كثيرون عند المحن.. وهذا ما قاله لنا مالرو فيما بعد..

- أأعجبتك القصة يا ساندرا؟

- إنها مثيرة.. ولكن مالرو يبقى عشيق.. ثم أطلقت ضحكة صافية وقوية سمعها المتوسط والمحيط معا.

*** *** ***

تجاوز الليل منتصفه، حين أوصلني خوسيه إلى باب دارنا. دخلت شبه متخفية. لم أشاً أن أوقظ أحداً. حتى الخادمة تحايلت كيف أمر من أمام غرفتها دون إزعاجها.. نزعت حذائي وحملته بين يدي ثم مشيت على رؤوس أصابعى. صاعدة الدرج نحو غرفتي.. كانت روائح خوسيه لازالت ملتصقة بفستانى.. ترك شعيرات بيضاء

على صدرى.. وكذلك روائح عرقه.. كان طيفه لازال يلاحقني حين ذهبت إلى الحمام. وبعد أن أفرغت مثاني، لم أشأ أن أدخل تحت الدوش.. عدت إلى فراشي، وبعد أن وضعت فيديو خوليوا أغليزياس على ايوفوني وهو يصرخ مغنيا أو يغنى صارخا: (أنتن النساء..) وضعت فستاني تحت مخدتي ورحت انتظر النعاس..

كان خوسيه خليطا بين خوليوا أغليزياس واندريه مالرو. تركيبته الجسدية والفيزيونومية تجمع بين نحافة ايغليزياس وطول مالرو.. وجهه إن كان ضاحكا يأخذ شكل ايغليزياس وإن كان عابسا يأخذ شكل مالرو، يداه ترتعشان مثل مالرو وصوته مبحوح ودافئ مثل خوليوا.. أما شعره الأبيض فقد كان يضفي عليه فحولة لا يمتلكها أصحاب الشعور السوداء.. ودعنته قبل ربع ساعة فقط، ولكنها أنا أرغب في سماع صوته.. وكما لو أنه علم برغبتها، رن الايفون فإذا به خوسيه..

- أنت الآن في فراشك الآن برينسيزا!!

أجبت ساندرا بفنج.. وبصوت متوجه:

- فراشي لم يعد مريحا يا خوسيه.. نعم كنت أفكر فيك..

استجmet ساندرا شجاعتھا ثم سألته:

- هل سنلتقي غدا يا خوسيه..

لم يشأ أن يفاجأها ولا يريد أن يفقدها لذة النوم، لذلك أخفى عليها سفره إلى إسبانيا، ولكنه قال لها ما يمكن أن تفهم منه أنه مشغول في الغد.. قال على نحو غامض..

- غدا سنتهاتف.. وعندها نقرر..

بعد برهة عاد ليعرف:

- غدا ربما سأسافر إلى إسبانيا، وأعود بعد ثلاثة أيام. أضاف:

- السيد الياهو دانيال والسيد مصعب الصراف يريدانني أن
أذهب معهما.. لكنني لا أعرف متى بالضبط..

- إذن أنت ذاuber إلى مذبح الزواج.. قالت ساندرا ثم أطلقت
ضحكه خفيفة.

بعد ذلك جرته إلى مداعبة خفيفة بالهاتف.. وحين بات صوته
مخدرًا، قالت له:

- لسانك خطير.. في كل الأوضاع يا خوسيه

وحين توارى الصوت، بدا الأمر وكان خوسيه قد خرج الآن
فقط من غرفتها!.. ثم قالت لنفسها:

- غريب كيف ينشأ الحب بين شخصين بلا إرادة.. أو كيف
تحب امرأة رجلا لأنه يشبه رجلا آخر؟!

الفصل العاشر

لم يسبق ليخت الياهو دانيال الفخم والمجهز برادار توجيه وتحكم متقدم جداً، والذي أضاف له مؤخراً في مرفأ حيفا جهازاً اعتراضياً لكل الصواعق، أن عاش محنَة الصراع مع العواصف والبحر كالتي عاشها تلك الليلة وهو يقترب من سواحل ماربيا.. المسافة بين ماربيا وميناء طنجة ليست بعيدة. ويمكن اختراقها حتى على مركب مطاطي بسيط، ولكن مفاجآت البحر لا يت肯َّ بها حتى أمهر السباحين والبحارة.. كان مشهداً مذهلاً لو أن المرء كان يتفرج عليه من شاشة التلفزيون وهو ممدد على أريكته. أما أن تعشه وأنت على يخت بين أمواج البحر، فلا شك أنه قد افزع الجميع، حتى أن قائد اليخت فكر أن يطلب النجدة من الحرس الإسباني أو يعود إلى سواحل طنجة حتى تبتعد العاصفة.. في منتصف المسافة كان الجميع على غاية من الانشراح. مصعب أخذ إلى قليل من الراحة.. شاهي شاهبار كانت تلعب الورق مع الياهو دانيال.. ستيفاني نيكولاوس تتناقش مع إسماعيل السمان حول احتمالات النجاح والخسارة للسيد أوباما في مفاوضات فيينا مع إيران.. أما أنا. خوسيه بلانتيرو، فقد كنت أفكِّر في ساندرا.. وحين دخلنا في عين الإعصار، جاءنا الكابتن ليحذرنا ويسد من رباطة جأشنا.. ولما رأيت العاصفة تقترب، قلت لنفسي: أن

ساندرا تعاقبني مع أنها ليست مريم العذراء.. ثم صفت أبواب اليخت من كل جانب فتجمعننا في الصالون وشدتنا ببعضنا بعض كما لو أننا قررنا أن نموت معا.. اختفت الأضواء التي لاحت لنا قبل قليل ولم نعد نعرف اتجاهنا.. ثم ارتفع صوت الرعد وتزايدت سرعة الرياح ورحنا نتمايل بشكل بهلواني.. أحسستنا جميعاً أن هذه الليلة هي آخر ليلة من أعمارنا.. ثم بدأ المطر يهطل بغزارة وبزخات مدوية ومعه البرق الذي لم نعد نتحمله.. أصبتنا جميعاً بالإرهاق والدوار والخوف.. وبدأ هرج ومرج بيننا وراح كل واحد منا يطلب رجاء ربه ويستجدي نبيه.. أمضينا نحو ساعة ونحن معلقون بين الموت والحياة ثم شيئاً فشيئاً بدت العاصفة تبتعد وأصبح بالإمكان رؤية أضواء الساحل الإسباني.. للحقيقة فإن الرجل الوحيد الذي تمالك أعصابه وظل متيناً أن يخته سيتجاوز هذه المحنـة، هو الياهو دانيال. قال للكابتن منذ بدء العاصفة:

- كيف تريدينـا أن نعود إلى طنجة.. هل نحن جبناء إلى هذه الدرجة!.

وبعد أن اقتربنا من المرفأ الخاص بيخوت رجال الأعمال والفنانين والمشاهير، قال وهو يهنتنا على الوصول سالمين:

- كان الـرب معـنا، لأن قلوبـنا لم تكن شـقيـة..

وـجد مصعبـ في تلك العبارة شيئاً من الحـنينـ، أو شـبـهاـ لها لـدىـ المسلمينـ فعلـقـ قـائـلاـ:

- فـعلاـ.. الـديـنـ دـيـنـ اللهـ، لـغـتهـ وـاحـدةـ لـكـلـ أـبـنـائـهـ.. لـكـنـ الـأـبـنـاءـ لاـ يـعـرـفـونـ!..

اقترب اليخت «زارا» من الشاطئ ببطء وترنح، وحين أصبح في مستوى الرصيف، قفزت شاهي شهبار أولا ثم الياهو وهو يمسك بيديها من شدة الإرهاق.. ثم ستيفاني ثم مصعب ثم إسماعيل. وأخيرا نزلت أنا. كان هناك رجل بدین جدا يتکأ على عکاز ومعه رجل آخر جدا أنيق.. تبادل الجميع القبلات والتهاني.. ثم قال لي مصعب:

- هذا السيد اسمه كريم كروان بك، صديق من تركيا.. ثم التفت باتجاه الرجل الآخر وقال:

- أما هذا فهو السيد فؤاد عبدي. وهو صديق من سوريا.. بعد ذلك قال لهما وكان يشد على كتفي..

- هذا صديقنا خوسيه بلانتيرو، إسباني.. رسام واستاذ جامعي ومتخصص في تاريخ العمارة الإسلامية..

الياهو دانيال تولى بعد ذلك تقديم ستيفاني وإسماعيل لكريم بك وفؤاد عبدي، ثم قادنا جميعا نحو ممر طويل مرتبط مباشرة بفندق «أورينتال كوستا» الذي يملكه بالشراكة مع كريم بك..

وأنا أ sisir في مؤخرة الركب، فكرت ما إذا كانت ساندرا ستغفر لي هذه الرحلة الغريبة والتي لم أعد أعرف لا سرها ولا نهايتها.. بعبارة أخرى ملأني شعور بالذنب لأنني لم أخبرها كما يجب.. ثم داهمني شعور غريب مفاده: أن الفقدان يعلمنا الحب.. ثم استنتجت بطريقة المتصوفة، أن الحب هو الفضيلة الكبرى في هذا العالم. فهو يفرغنا من كل أدران الأرض ويملئنا بكل ما هو روحي.. وحالما دخلت إلى غرفتي في الفندق سارعت إلى إخراج

جهاز الأبياد الصغير من الحقيبة ثم كتبت رسالة على الماسنجر لساندرا:

- أنا الآن في ماربيا في الضفة المقابلة لطنجة.. لست بعيدا عنك.. كان يمكن أن لا أصل هنا بسبب عاصفة هوجاء لازالت تعبث بأمعائي حتى هذه اللحظة.. لن أتأخر عليك.. غدا سأذهب إلى غرناطة.. وسوف أتابع دقات قلبك.. أكتبي إلي متى شئت.. قبلاتي الحارة والساخنة. إنها الواحدة صباحا هنا..

*** *** ***

رحلتنا إلى غرناطة التي لا تبعد كثيرا عن مدينة ماربيا، كانت بطلب من شاهي شهبار ومصعب الصراف وكريم بك كروان.. ثم انضم كل من إسماعيل السمان وزميلته ستيفاني نيكولاس. وصلنا إلى هناك على متن سيارتين رباعيتين من نوع «مرسيديس» كانت كل واحدة تحت إمرة سائق مغربي.. بدت لنا غرناطة من بعيد ونحن نشرف عليها من ناحية الجبل بشوارعها وأسقف منازلها وساحاتها مزданة برداء أبيض مبرقع بالأحمر وسط اخضرار عارم يزاحم البناء والمنازل من كل الجهات. كان الجميع يرغبون في زيارة جامع الحمراء.. وهناك ارتديت بدلة الدليل السياحي ورحت أشرح لهم على نحو أكاديمي:

- هذا المبنى العريق نتج عن التحام بديع للحضارات وفن التعايش المشترك. إنه أحد المرايا المصقوله جيدا للحياة المدنية والمتحدة الأعراق والقصائد والثقافات.. استغرق بناؤه أكثر من قرن ونيف.. ولم يتوقف الأباء عن التحسين والتجميل والتزويق خلال تلك المدة.. رغم الحروب والخلافات الدموية.. كانوا كما لو

أنهم يتسابقون مع الزمن لتسجيل زمانهم على صفحة التاريخ..

- هل كانوا يستشعرون الرحيل؟

سألت ستيفاني، بلا نتiro، فأجابها:

- ربما.. كانت حرب الاسترداد قد بدأت. وكانت ممالك كثيرة قد وقع استردادها قبل أن ينتهي المعماريون من استكمال هذا الصرح البديع.. كان واضحًا أنه مبني فخم، أكبر بكثير من مجرد مسجد.. وأعتقد أنه سمي بجامع لأنه يجمع روح مدينة بكل تفاصيلها ونشاطاتها وإبداعاتها.. لم ينسى المعماريون لا الحدائق ولا التوافير ولا كذلك الأسواق والساحات والمكتبات ولا القاعات الفسيحة والمزخرفة، ولا حتى الأبراج والتحصينات.. في البداية صمم قصر الحمراء كمربع: حصن كبير وثمانية قصور بدعة وحدائقتان فسيحتان وهي خاص للحاشية الملكية والحرفيين والعطارين والخدم ثم راح يتسع إلى أن أصبح مركزاً بدليعاً بقلب غرناطة فوق إحدى هضباتها الأكثر روعة.. هنا ابتدع العرب موسيقى الماء، وأعادوا اكتشاف ضوء الشمس والزمن، وانسياب الشعر والآيات القرآنية مع الحجارة المزخرفة.. ورفعوا السلطة إلى مقامات مهيبة وعلى شرفاتها كان ينساب عطر المجد والقوة.. - لو أن كاثوليك إسبانيا يشبهون مسلمي العرب اليوم، لدمروا هذه المعالم الحضارية.

علق إسماعيل وهو يتأمل في السقوف العالية والمزخرفة بالفسيفساء والأعمدة الصلبة، النحيفة والطويلة.. ثم قال:

- أنا الآن لدى قناعة أن حركة الاسترداد كانت حركة ذات نوازع قومية. الدين كان بمثابة محرك لتلك الرغبة القومية.. أما

الذي يحدث عندنا، فإن الدين تحول إلى نزعات مذهبية منغلقة ذات رداء طهوري ولكنه نكوصي..

كان مصعب يستمع إلى إسماعيل السمان. وحاول أن يلقط خيط الجدل ليرد عليه بما يعتقد صحيحاً، فقال:

- أخي إسماعيل، المسلمين العرب صنف آخر من المسلمين..

- هل تقصد أنهم ليسوا ببناء حضارة؟

- لا.. أبداً.. لقد تمكنا من استيعاب حضارات كثيرة وتفننوا في إبداعات كثيرة..وها هو قصر الحمراء شاهد عليهم.. الذي أقصدهه أنهم لا يحبون بعضهم ولا يفهمون بعضهم بعضاً. هم الآن أيتام بلا مشروع لا إسلامي ولا عربي.

ذهل إسماعيل بكلام مصعب. فقد كان دائماً يعتقد بأن هذا الرجل يحمل بين جنباته عقيدة لا تظهر ملخصها أن يعيد مجد الإسلام طبقاً للرؤية أمرائه في الدولة.. وأنه يتنقل بين عدة عواصم في الأسبوع الواحد لا شيء إلا لكي يشارك في صناعة ذلك المجد.. وبما أنه أصبح يشعر بالتحرر في طرح آرائه، فقد تكلم هذه المرة بصراحة وجوارحه فقال:

- العرب لم يحترموا تاريخهم إلا حين احترموا تاريخ الآخرين.. ولم يصبحوا معلمين لشعوب أخرى إلا حين تعلموا جيداً من الشعوب الأخرى.. فمن الفرس تعلموا فخامة وترف الشرق.. كان اختلاطاً بدليعاً أنتج الحدائق والسجاد والألوان والأقمشة الحريرية والتجارة والهندسة والشعر والأرابيسك.. وقد تعلم العرب كذلك من الإغريق التفكير والفلسفة والترجمة وفنون الحرب والاهتمام

بالطبيعة والبحث في أصول الأشياء.. كذلك تعلموا من بizenطة فنون الحكم وقيادة الجيوش والإدارة والهندسة.. أما الآن فإنهم لا يريدون أن يتعلموا شيئاً.. إذا فكروا في مصنع دواء، جاء من يقنعهم بأن شراء الدواء أسهل.. وإذا فكروا في زراعة القمح، وجدوا من يعرض عليهم القمح بسعر أقل.. وإذا فكروا في الديمقراطية، جاءتهم المراكز والمنظمات الدولية ل تعرض عليهم آخر منتوجاتها.. وإذا فكروا بالحروب التجأوا إلى تأجير الجيوش الأجنبية أو المرتزقة من الشوارع الخلفية القصديرية.. فهل تقول لي يا سيد مصعب من أفسد العرب؟ ومن جعلهم يتقاتلون بلا توقف!.. هل هو الإسلام؟ هل هو النفط؟ هل هو إسرائيل؟ هل هو إيران أو أمريكا.. أم كل هؤلاء جميعاً مضافاً إليهم الفقر والجهل والحسد؟!! آنذاك وأنا لازلت على حماسي، حماسي الحموي الذي ورثته عن أبي، اقتربت مني ستيفاني، لتنقذني من ورطة الصدام اللفظي مع مصعب ثم قالت:

- هل رأيت تلك النافورة البديعة.. انظر إنها أمامنا مباشرة.. أريدك أن تلتقط لي صورة وأنا أمامها..
ناولته ايفونها، ثم ابتعدت عنه.. وحين أكمل مهمته، قالت له بصوت منخفض:

- خليك مرن كعادتك.. لا تدخل في صدام أو خلاف مع أحد.. خاصة مصعب.. إنه رجل كتوم.. لقد أصبحت أعرفه جيداً.. أظن أن اسمه مصعب لأنه صعب ومتغصب!..

ضحك إسماعيل وهو لا يزال ملتفتاً إلى الوراء ثم وعدها بأن

يغلق فمه بقطعة من القماش إن لزم الأمر.
ابتسمت ستيفاني ثم فتحت حقيبتها فسحبت علبة شنغوم،
فتحتها ثم قالت:

- خذ هذه العلقة.. إنها مفيدة للسانك..

*** *** ***

خاضت ستيفاني نيكولاوس نقاشات طويلة وصعبة البارحة مع السيد مصعب الصراف في جناحه الخاص بفندق «كوستا أورينتال». وعرفت كم هو متمسك بأرائه إلى درجة التعصب. ورغم أنه كان يريد أن يظل ودوداً معها إلا أن حماسه الشديد لأفكاره كثيراً ما افسد الود بينهما.. وفي آخر النقاشات حول الكرة والاستثمارات في الفرق الرياضية.. تركته وذهبت لتنام لوحدها في غرفتها..

كنت أعرف أن الرياضة وخاصة كرة القدم تتأثر باهتمام لدى الناس وكذلك لدى الدول.. كذلك كنت أعرف أن بلدان الخليج على نحو خاص باتت مهوسه بكرة القدم.. وقد أنفقت أموالاً طائلة على هذه الرياضة.. وأن قطر وضعت ميزانيات ضخمة لإنجاح كأس العالم الذي ستدور حربه على أراضيها.. وهي مستعدة أن تفعل أي شيء حتى لا تخسر ذلك الرهان.. كما أني أتفهم جيداً أن دولة صغيرة مثل قطر عليها أن تنفق الكثير من أموالها لتضخيم قوتها وتحسين صورتها وتحسين مكانتها. أعرف كذلك أن الألعاب الرياضية كثيراً ما اهتم بها الطغاة أكثر من غيرهم وذلك لإهانة الناس. ومنذ أن نظم هتلر كأس العالم في بلاده حتى هجم كل طغاة العالم على الاهتمام بكرة القدم..

ضحكـت مارغريتا مارتيناز ثم أجابـت..
- أعرف جوابـه.. أليس هو من تركـيا!!!..

*** *** ***

«بعد انتقالـها من أزمـير إلى أنـقرـة، أصبحـت لطـيفة خـانـم تـفـكر في دور الوـصـيف على نـحو جـديـ. قـالت لمـصـطفـى كـمال أـتـاتـورـك ذات يـوم: أـنـتـ تـنـادـيـنـيـ بـالـيـاـوـرـ،ـ لـكـنيـ لـأـمـلـكـ حـتـىـ سـيـفـاـ.ـ وـلـمـ تـمـضـ اـيـامـ قـلـيلـةـ حـتـىـ قـدـمـ لـهـ الـقـائـدـ أـتـاتـورـكـ عـلـبـةـ صـغـيرـةـ تـحـتـويـ عـلـىـ سـيـفـ صـغـيرـ مـصـنـوـعـ مـنـ الـذـهـبـ وـالـمـاسـ يـلـيقـ بـوـصـيـفـةـ هـيـ زـوـجـةـ القـائـدـ»..

كانـ كـمالـ أـتـاتـورـكـ لـاـ يـزالـ قـائـدـاـ عـسـكـرـيـاـ يـسـكـنـ فيـ مـقـرـ الـقـيـادـةـ الـعـلـيـاـ بـبـيـتـ الـبـسـتـانـ،ـ وـهـوـ الـآنـ يـسـمـيـ بـقـصـرـ الـمـتـحـفـ..ـ وـكـانـتـ لـطـيفـةـ هـيـ الـمـرـأـةـ الـوـحـيدـةـ الـتـيـ تـعـيـشـ بـيـنـ جـمـهـرـةـ الـرـجـالـ:ـ وـصـفـاءـ وـحـرـسـ وـحـجـابـ وـخـدـمـ وـجـنـودـ وـضـبـاطـ وـسـيـاسـيـوـنـ..ـ الـجـمـيعـ كـانـ يـقـرـعـ الـأـبـوـابـ ثـمـ يـدـخـلـ.ـ وـحـينـ يـكـونـ مـصـطـفـىـ أـتـاتـورـكـ فيـ غـرـفـةـ نـوـمـهـ يـدـخـلـ عـلـيـهـ الـيـاـوـرـ صـالـحـ لـيـوـقـظـهـ..ـ ذـاتـ يـوـمـ كـانـ الـيـاـوـرـ صـالـحـ يـحـمـلـ بـرـقـيـاتـ مـسـتـعـجـلـةـ إـلـىـ الـقـائـدـ الـعـامـ وـأـرـادـ أـنـ يـدـخـلـ إـلـىـ غـرـفـةـ نـوـمـهـ،ـ لـكـنـ لـطـيفـةـ مـنـعـتـهـ وـطـلـبـتـ مـنـهـ أـنـ يـسـلـمـهـاـ الـبـرـقـيـاتـ لـتـقـوـمـ هـيـ بـإـيـقـاظـهـ..ـ لـكـنـ الـيـاـوـرـ صـالـحـ رـفـضـ،ـ خـوـفاـ مـنـ الـبـاشـاـ..ـ أـثـنـاءـ النـقـاشـ،ـ سـمـعـ الـيـاـوـرـ صـالـحـ الـبـاشـاـ يـنـادـيـهـ وـيـقـولـ لـهـ:ـ اـدـخـلـ..ـ كـانـتـ الـبـرـقـيـاتـ حـولـ مـفـاوـضـاتـ لـوـزـانـ.ـ وـبـعـدـ لـحظـاتـ دـخـلتـ لـطـيفـةـ خـانـمـ حـاملـةـ طـبـقـ الـقـهـوةـ.ـ لـاحـظـ الـبـاشـاـ التـوـترـ عـلـىـ وـجـهـ لـطـيفـةـ فـقـالـ لـلـيـاـوـرـ صـالـحـ:ـ سـأـنـتـهـيـ مـنـ شـرـبـ الـقـهـوةـ وـأـنـزلـ إـلـىـ الـمـكـتبـ..ـ

- ذـلـكـ الرـجـلـ الـذـيـ اـسـمـهـ الـيـاـوـرـ صـالـحـ هـوـ جـديـ،ـ يـاـ سـيدـ بـلـانتـيـروـ.

احتار خوسيه بلانتيرو وارتعب في نفس الوقت.. هل يصدقه ويمضي في سماع قصة هذا الرجل الذي اسمه كريم كروان بك، والذي لا يمكن أن يخطأ اثنان في انتمامه إلى «المافيا التركية». إذا نظرنا إلى هندامه وتسلية شعره (يضع دائماً شارة حمراء «بوشيت» في جيب جاكيته الصغير، ويتركها تتارجح كما لو أنها ستسقط بعد حين على الأرض ولا ينزع نظارته السوداء حتى إذا جاء الليل.. أما شعره فيقلبه إلى الخلف مصففاً ولا معاً باستمرار.. وحين يريد أن يتكلم، يحاول أن لا يثير.. وبما أنه بدین ويعاني من انتفاخ في رجليه، فهو يحمل عصا من الأبنوس المزخرف ويرتدى في أغلب الأحيان أحذية مسطحة ومفلطحة..). هذا فيما يتعلق باللحيرة التي انتابت خوسيه. أما الارتفاع فقد عبر عنه كالتالي:

- لم أعرف إلا الآن، أن مؤسسي «مجموعة هرقل» ينتمون كلهم إلى بيوت عريقة. جيدك كان ياور أتابورك. وجد مارغريتا كان وزيراً في عهد فرانكوكو.. وجد الياهو الأول كان رفيقاً شريكاً لكريستوف كولمبوس.. وجد فؤاد عبدي كان مستشاراً في جمهورية مهاباد قبل أن تتبخر من الوجود. وبطبيعة الحال فإن مصعب الصراف لن يكون إلا أميراً متخفياً !!

ضحك كريم كروان وقال:

- في الشرق تبني الثقة بين الرجال عبر الأجداد قبل الأحفاد.. ثم أكمل قصة جده:

- حين ظهرت لطيفة خانم، تقلصت علاقة جدي بالقائد.. داهمه شعور بالتهميش.. وفي أحد الأيام طلب من أتابورك إعفاءه..

كان الأكثر حماساً للزواج أتاتورك من لطيفة بعد عودتها من فرنسا. وكانت متحررة بأكثر مما كان يتوقع أتاتورك نفسه.. ورغم خلافه معها، فإنه كان يحبها حب أب لابنته.. ناداه الباشا أتاتورك ذات يوم. هدأ من خواطره ثم أهداه قصراً في أنقرة وبيتاً لزوجته الثانية المطلقة في أزمير، وأكثر من مئة هكتار في أضنه.. أضنه هي بلاد أجدادي الأوائل. وأتاتورك كان يعتمد كثيراً على تلك المناطق. فقد خبر شجاعتهم في الحروب وقدرتهم على التحمل وسخاءهم وكرمه..

أنا ولدت في أنقرة يا سيد بلانتيرو بالقرب من قبر القائد.. أبي زبيده من أزمير وأبي إبراهيم هو ابن صالح كروان الياور الكبير لدى كمال أتاتورك حتى إعلان الجمهورية.. واصل جدي العمل والحياة حتى سنوات السبعين. كنت تقريباً في العاشرة حين توفي.. عاش أكثر من ثمانين عاماً. وقد ظلت ذاكرته جيدة.. ورغم أنه اكتسب فائضاً من الوزن إلا أنه كان كثير الحركة.. لم أسمعه يوماً يقول كلاماً سيئاً في السيدة لطيفة خانم.. كان فقط يذكر أناقتها وقوتها شخصيتها بشيء من النبلة دون تجريح.. سمعته مرة وهو يصفها لأمي كما لو أنه لم يغادر الخدمة: (لطيفة خانم كانت لها عيون سوداء تلتمع من خلال رموشها الطويلة.. ورغم أن عيون القايد خضراء وذات بريق ينبعث منها السحر والقوة، إلا أن القايد كان لا يقوى على رد أي طلب للطيبة خانم حين تنظر في عيونه).. كانت حسناء من أصول شركسية أكثر قوة من زوجة سليمان القانوني.. حين تضحك تضحك بسخاء وصخب.. ينفتح فمها الصغير وتتمايل إلى الخلف لتظهر أسنانها بالكمال

والتناسق الذي تبرزه الإعلانات الخاصة بأصناف معجون الأسنان في الغالب، كانت ترتدي تايara من الساتان الأسود.. ولم تكن تحجب وجهها بأي نقاب، فهي السيدة الوحيدة التي كانت تفعل ذلك.. وهي تحضر أحيانا مجلس الشعب -البرلمان- ويحيط بها ياوران.. واحد كان اسمه محمود، وهو الياور الخاص لأتاتورك الذي أخذ مكاني.. والياور الخاص بها واسمها رفعت. كانت تحب الخواتم والأساور. ولم يكن اتاتورك ليدخل عليها.. كان آخر هدية حضرت عليها قد جلبها عصمت باشا من لوزان وهو عائد من المفاوضات.. وكانت خاتما من البلاتين كتب عليه اسم القايد كما أوصت بذلك هي بنفسها عبر برقية حررناها معا..)

بعد ذلك تابع كريم بك يقول..

- هكذا ولدت تركيا الحديثة من زواج القايد مع لطيفة خانم.. لم يترکا أبناء، ولكنهما صنعا بلدا جديدا.. فمنذ خمسة قرون لم تظهر أية زوجة لأي سلطان أمام الجمهور.. وفجأة ظهرت لطيفة خانم زوجة القايد والرئيس تقدم الشاي لضيوفها، على صفحات «الواشنطن بوست» و«النيويورك تايمز» و«شييكاغو تايمز» و«لايف» وكذلك صحيفة «مقدام» الإسطنبولية.. بدا الناس مختلفون فيما يرونها.. قال البعض أن تركيا الأمس تموت حتى إذا لم تمت، فمن المؤكد أن تركيا باتت مختلفة. آخرون استهجنوا المسألة وقالوا عن لطيفة خانم أنها جاسوسة يهودية دستها المخابرات الفرنسية لتقود القايد وتركيا معا من غرفة نومها.. لم يقبل كل الأتراك بتلك النقلة الصادمة.. جعلتهم مذهولين ومغلوبين على أمرهم وسيطر عليهم الشعور بالاضمحلال والضمور.. وكما اذكر

فإن جدي نفسه الذي لا يشق له غبار في حبه للقайд، لم يكن أبداً متكيفاً مع تلك المتغيرات. كان يقول أحياناً: إنها أمور شكلية ولكنها خطيرة لأن تركيا العميق لا بد أن تتحرك ذات يوم.. هكذا يا سيد بلانتيرو، غالباً أو دائماً ما ينقادون الأتراك غضباً عنهم إلى حيث يريد قادتهم.

هنا سأله بلانتيرو بخبث:

- قل لي سيد كريم.. هل ترى أنت الفرق بين كمال أتاتورك وبين السلاطين؟!

- شخصياً وبصراحة.. كلّا هما كان يحكم من القلعة.. وكلّا هما كان يقع تحت سطوة الحرير.. الفرق أن كمال أتاتورك كان مكشوفاً.. أي أنه كان يمارس قناعاته على المكشوف.. كان يريد أن يظهر أمام الجمهور كما هو.. كان لا يخاف من الناس والشيخ والمعارضين وكان يحس أن الجمهور معه لأنّه يريد أن يحرره من الماضي الثقيل.. لا تنسى يا سيد بلانتيرو مناخات تلك الحقبة.. هتلر في ألمانيا، ستالين في روسيا، موسوليني في إيطاليا والقاجاري شاه في إيران.. كان على كمال أتاتورك أن يكون بمستوى هؤلاء جميعاً..

تابع كريم بك حديثه إلى بلانتيرو.. وكان يريد أن ينخفض على مزاجه حتى يقول أن الأتراك لا يعرفون الضحك. فقال له:

- أتركتني أمتلك بهذه الحكاية.. رواها لنا جدي صالح. ثم قرأتها بعد ذلك في مذكرات لطيفة خانم:

- كان القائد يريد أن يقوم بجولة داخل البلاد. وقد اختار أن يذهب إلى أضنه في رحلة ستة أيام نحو أسبوعين.. الحاشية ضمت

جدي صالح والياور محمود والياور مظفر والياور رفعت مع قائد الكتيبة إسماعيل حقي. إلى جانب وزراء ومستشارين وعدد من الصحفيين. قال الغازي للطيفة: سأعرفك بتركيا لأنك بالكاد تعرفي أزمير وأنقرة. استمر أكثر من يومين حتى وصل القطار إلى أضنه. في كل محطة كان ينزل الغازي ولطيفة وكان الأهالي يقدمون الذبائح بلا تعب، ولكن الغازي كان غالباً ما يلتفت إلى الوراء حين ينهر الدم. وسألته لطيفة عما به، فأجابها بأنه لا يستطيع مشاهدة الدم بعد كل الحروب التي خاضها!. حين وصلوا إلى أضنه، لاحظ الصحفيون وجود نساء كثيرات على أسطح المنازل وعلى الشرفات.. تحمس آذاك لطيفة وخطبت أمام الرجال والنساء اللاتي يزغرن من فوق السطوح. نزلت بعض النساء ليحتضن لطيفة وطلبن من القايد استضافة زوجته، فعبس وجهه وقال: حيث لا يمكنني الحضور.. لا يمكنها أيضاً..». قال مفتي أضنه آذاك: أن اصطحاب القايد وزوجته في جولة سياحية لا يتعارض مع الإسلام.. وأن ثيابها طبيعية وأن وجودها أمام الناس يتافق مع مبادئ الشرع.. ولكن كمال أتاتورك لا يمكن أن يبتعد عن أنقرة لمدة أسبوعين ولا يأخذ معه «الباشا كاظم» الملقب «بجحا الباشا». وأحياناً «بضحكة أنقرة»..

(كتبت تشا شللر نقلًا عن مذكرات إسماعيل حبيب، الصحفي الوحيد الذي اختاره الباشا ليكون قريباً منه في مقصورته خلال الرحلة: حكى «الباشا كاظم» على متن القطار ذكراً لطيفة خانم جعلتها تص狂ك لمدة خمس دقائق فمنحته ورقة نقدية بقيمة 25 ليرة.. و مباشرة ذهب إلى القايد في مقصورته وهو يميل على جانبه

كما لو انه مسلول. سأله القايد: ما بك يا كاظم باشا؟ هل أصابك شلل..؟ رد قائلاً: الورقة النقدية التي أعطتني إياها لطيفة خانم أخلت بتوازني.. قال القايد: عفارم يا باشا كاظم.. لا بد أن نعالجك وإلا فإنك ستتصبح أعرج. فإذا أعطيتك أقل منها لن يعود لك توازنك، وإذا أعطيتك أكثر اختل توازنك مرة أخرى.. أرني الورقة التي في جيبك لأعطيك مثلها.. أخرج كاظم الورقة من جيبيه وتقدم ليعطيها للقايد. أخذها القايد أتاتورك منه ثم نهره بجدية أن يقف الآن باستقامة.. ها أنت الآن مستقيما.. ألا ترى أنني عالمجتك.. لن تعرج بعد الآن.. ألا تدفع لي أجرتي؟! نادى القايد على لطيفة وقال لها: انظري. لقد خلصته من العرج.. ولم يتمالك القايد نفسه من الضحك ثم أعاد إلى كاظم باشا ورقته النقدية ومعها ورقة أخرى بنفس المقدار..)

هكذا لا يختلف الأمر كثيراً بين ما فعله جحا أتاتورك التركي وجحا بن علي التونسي.. سأل الرئيس أحد أصحابه البعيدين وأسمه «سي العربي» ذات صيف وهو على طاولة الغداء في مدينة الحمامات..

- سي العربي لا بد أنك تمنتت بالدلاع (البطيخ الأحمر) هذا الموسم.. أخبروني أن الموسمجيد وأن وزن الدلاعة الواحدة قد وصل إلى 25 كلغ.. فرد «سي العربي» متصنعاً عفوية إضافية على عفويته الطبيعية فقال:

- سيدى الرئيس.. لا تجعلنى أقسم وأقول أننى لم أر دلاعاً مفتوحاً وأحمر ومشتهى كالذى أراه أمامى الآن إلا على طاولتك الكريمة يا سيدى الرئيس..

تعجب الرئيس وسأله:

- لماذا؟ لا تحب الدلاع؟

- لا يا سيدي الرئيس.. ولكنني أسكن في الطابق الخامس في بناية ليس بها مصعد.. ولا يمكنني أن أحمل معي دلاعة بوزن 20 أو 25 كلغ..

ضحك الرئيس حتى كاد يلطم قميصه الأبيض بفتات الدلاع الأحمر.. ثم وعده بقطعة أرض لبناء فيلا.

تلك الحكاية روتها ستيفاني لخوسيه بلانتيرو، بعدما استمعت إليه وهو يعيد عليها ما رواه له كريم كروان بك عن جده صالح، الياور الخاص لكمال أتابورك..

*** *** ***

اكتشف بلانتيرو أن كريم بك يمتلك موهبة فذة في فن القص.. فقد تركه معلقا فوق شفتيه لمدة ساعة دون أن يتوقف. تنزلق الحكاية من فمه بغزارة باحثة عن التفاخر ثم تتعرج بك نحو تفاصيل غاية في الملاحظة.. وفي كل مرة تريد منه أن يوصلك إلى محطة، يعاود الظهور في منطقة أخرى أكثر رحابة وأكثر كثافة. تشعر وأنت تستمع إليه وكأنك عدت إلى قرن مضى ولكنه لا يزال مألفا لدينا جميعا. وفي خضم ذلك لا يعود القايد أو الغازي أتابورك إلا كبطل مهموم بزوجته لطيفة وبتركيا على وجه العموم.. لا يحب الدماء، ولا يحب الغدر ولا يحب الاغتيالات. وإنما عطف، دافع، يحب الضحك والسفر على القطارات. تداخلت حكاية جده مع حكاية الغازي إلى حد يريديني أن أصدق أن الياور صالح كان له

شأن كبير في عالم الخلفاء آنذاك أو أن كمال أتاتورك نفسه كان لا يفعل إلا ما يمليه عليه ضميره أو شعبه.. والمهم أنه توقف عند حد أخلاقي رسمه لنفسه حتى يصدقه الناس إذ يمكن أن يكون الياور صالح جداً لأكثر من كريم.. بمعنى آخر فإن كثيرين مثل كريم بك يرون تلك الحكايات وينسبون أنفسهم للياور مظفر أو الياور رفعت أو الياور محمود.. شخصياً أعرف أكثر من رجل في طنجة وتطوان يتقدم إلى بكل تفاخر وصفاقة ويقول..

- هل أنت إسباني.. أشرف.. عمي كان حارساً شخصياً للجنرال فرانكو..

وما إن تتورط معه في سؤال موالي، حتى يصنع لك حكاية غاية في الحذق، ثم يعرج بك نحو مواضع أخرى ليس بإمكاننا أن نكتشف غايتها إلا عند النهاية.. قبل عام استوقفني رجل من أصول عربية في روما، قال إنه فلسطيني، وحين استغرقنا في حديث مشوش وسريع حول قضية شعبه، سحب بطاقة من جيبه وقدم نفسه على أنه أحد أحفاد صلاح الدين الأيوبي.. كتب بخط واضح ومذهب على تلك البطاقة: «الأمير المجل، أحمد بك الأيوبي.. وتحتها بخط صغير، الحفيد المباشر للقايد صلاح الدين».. كثيرون من هذا الصنف الذي يبحث عن المجد في التاريخ البعيد في كل بقاع الأرض.. ثمة منهم من يدفع أموالاً كثيرة ليشتري لقباً كبيراً.. هذا يحدث حتى في ألمانيا وفرنسا وإسبانيا.. ولكن أبناء وأحفاد الزعماء الحقيقيين لا يفعلون في الغالب هكذا.. يمرون دون أن ننتبه إليهم.. ويبلغون من التواضع إلى حد التصوف.. فمن يعرف أحفاد ديغول أو أحفاد بيسارك.. أو حتى أبناء ستالين

أو خروتشوف؟ العرب ومعهم الأتراك واليهود لوحدهم يبالغون في تعظيم آبائهم وأجدادهم إلى حد الموس. مهوسون بالألقاب والصواريخ وشجر العائلات كما لو هي ماركة تجارية أو أصل تجاري.. أخيرا قال بلانتيرو لستيفاني كما لو أنه يطلب المغفرة لهؤلاء المساكين..

- مساكين هؤلاء.. ربما يبحثون عن هوية قديمة.. مفقودة أو ضائعة وسط الغبار والدمار..
وافقته ستيفاني وأضافت..

- لو أنهم لا يعيشون مثل هذه الأزمة، لما عادوا إلى الدين في القرن الواحد والعشرين.. انظر جيدا بعد نحو قرن من العلمانية عاد الأتراك إلى الدين.. لا تنسى كذلك اليهود، بعد تطوف كبير داخل الحضارات والثورات والثقافات دام أكثر من ألفي سنة.. عادوا ليعلنوا عن دولتهم اليهودية..

- ولكن يا ستيفاني هؤلاء الذين نتحدث عنهم هم أناس أغنياء، ليسوا قادرين حتى على عد مواههم وصورهم وعشيقاتهم.. ثم هم مندمجون في عالم الأموال والتعدد..

- ومع ذلك يمكن أن يكونوا أكثر ضياعا وتشتا وهشاشة.. المرء يحتاج إلى غير المال.. وكلما كدس الأموال، شعر بفقدان ذلك الذي لا يملكه.. إن مهارات جمع المال توجد حتى لدى اللصوص.. ولكن هؤلاء اللصوص يلزمهم زمن طويل لكي ينسى الناس أنهم كانوا اللصوص.. لذلك تراهم يبحثون عن ألقاب وأصول عريقة وإلى تقديم خدمات وصداقات ومشاريع خيرية لكي يكف الناس

بسرعة عن البحث عن مصدر أموالهم..

- صحيح.. قال بلانتيرو، ثم أضاف:

- حين بدا مراد بيك يتحدث عن جده الياور صالح عن علاقته بالغازي أتاتورك، فرغ ذهني فورا من الصورة النموذجية التي رسمتها لهذا الرجل. أصبحت أراه في الحال أرستقراطيا ونبيلا وعريقا بحيث لم يعد ممكنا أن يتadar إلى ذهني أن هذا الرجل مافيوزي أو تاجر حشيش عبر أفغانستان أو مهرب نفط من العراق.. لقد نزع صورة ووضع أخرى مكانها.. أو ليست هذه إحدى مهارات السوق!.. إنني هنا قد لا أواافقك على «أزمة الهوية» التي تتحدثين عنها إلا باعتبارها طلبا في الانضمام إلى نادي الكبار والمجلدين..

طوال تلك الجلسة المسائية التي قضياها كل من بلانتيرو وستيفاني حول كاسين من الشاي مع بسكويت خفيف، لم يتجاوز الحديث بينهما نطاق موضوع أزمة الهوية عند شعوب الشرق. في الحقيقة كان بلانتيرو يريد أن يعرف أكثر عن مصعب الصراف ولكنه انتظر أن تفعل ستيفاني ذلك دون أن يسألها حتى لا يبدو متطفلا.. ولكن ستيفاني بذكائها فهمت ذلك جيدا.. وحين قررت القيام برسالتها إلى بلانتيرو حين قالت:

- ثمة رجل آخر لا بد أن أعرفه من يكون..

أو خروق شوف؟ العرب ومعهم الأتراك واليهود لوحدهم يبالغون في تعظيم آبائهم وأجدادهم إلى حد المهوس. مهوسون بالألقاب والصواريخ وشجر العائلات كما لو هي ماركة تجارية أو أصل تجاري.. أخيرا قال بلانتيرو ستييفاني كما لو أنه يطلب المغفرة هؤلاء المساكين..

- مساكين هؤلاء.. ربما يبحثون عن هوية قديمة.. مفقودة أو ضائعة وسط الغبار والدمار..
وافتته ستييفاني وأضافت..

- لو أنهم لا يعيشون مثل هذه الأزمة، لما عادوا إلى الدين في القرن الواحد والعشرين.. انظر جيدا بعد نحو قرن من العلمانية عاد الأتراك إلى الدين.. لا تنسى كذلك اليهود، بعد تطوف كبير داخل الحضارات والثورات والثقافات دام أكثر من ألفي سنة.. عادوا ليعلنوا عن دولتهم اليهودية..

- ولكن يا ستييفاني هؤلاء الذين نتحدث عنهم هم أناس أغنياء، ليسوا قادرين حتى على عد أموالهم وصورهم وعشيقاتهم.. ثم هم مندحجون في عالم الأموال والتعدد..

- ومع ذلك يمكن أن يكونوا أكثر ضياعا وتشتتا وهشاشة.. المرء يحتاج إلى غير المال.. وكلما كدس الأموال، شعر بفقدان ذلك الذي لا يملكه.. إن مهارات جمع المال توجد حتى لدى اللصوص.. ولكن هؤلاء اللصوص يلزمهم زمن طويل لكي ينسى الناس أنهم كانوا لصوصا.. لذلك تراهم يبحثون عن ألقاب وأصول عريقة وإلى تقديم خدمات وصداقات ومشاريع خيرية لكي يكف الناس

بسرعة عن البحث عن مصدر أموالهم..

- صحيح.. قال بلانتيرو، ثم أضاف:

- حين بدا مراد بيك يتحدث عن جده الياور صالح عن علاقته بالغازي أتاتورك، فرغ ذهني فورا من الصورة النموذجية التي رسمتها لهذا الرجل. أصبحت أراه في الحال أرستقراطيا ونبيلاً وعريقا بحيث لم يعد ممكنا أن يتبادر إلى ذهني أن هذا الرجل مافيوزي أو تاجر حشيش عبر أفغانستان أو مهرب نفط من العراق.. لقد نزع صورة ووضع أخرى مكانها.. أو ليست هذه إحدى مهارات السوق!.. إنني هنا قد لا أواافقك على «أزمة الهوية» التي تتحدثين عنها إلا باعتبارها طلبا في الانضمام إلى نادي الكبار والمبجلين..

طوال تلك الجلسة المسائية التي قضيابها كل من بلانتيرو وستيفاني حول كاسين من الشاي مع بسكويت خفيف، لم يتجاوز الحديث بينهما نطاق موضوع أزمة الهوية عند شعوب الشرق. في الحقيقة كان بلانتيرو يريد أن يعرف أكثر عن مصعب الصراف ولكنه انتظر أن تفعل ستيفاني ذلك دون أن يسألها حتى لا يبدو متطفلا.. ولكن ستيفاني بذكائها فهمت ذلك جيدا.. وحين قررت القيام برسالتها إلى بلانتيرو حين قالت:

- ثمة رجل آخر لا بد أن أعرفه من يكون..

- ليس هناك أصعب من الأتراك واليهود والإسبان في المفاوضات.. ربما هم يقولون نفس الشيء عنـي.. نحن أيضاً الخليجـيون نحب المشـي في الرمال طويلاً ونقدر على الغوص في البحـار عميقاً.. كانوا يركضون بسرعة، ولكنـي كنت متأكـداً أنـهم سيضطـرون إلى انتظـاري حتى أصل إلى حيث هـم.. كنت أتباطـأ كما لوـأني أشق الصـحراء مشـياً إلى حد جـعلـهم يـقبلـون بما طـرحتـه عليهم من فـرط فـراغ صـبرـهم..

سـألـته سـتيـفـاني:

- أعتقد أن كل شيء قد تم كما كنت تتـوقع..

- ليس على ذلك النـحو.. ولكن يمكن أن أتوقع المزيد في اجتماعـنا المـقبل بـاسـطـمـبـول..

كـانـت سـتيـفـاني تـنـتـظـرـ أن يـفـصـحـ لهاـ أكثرـ، لـكـنهـ اـبـتـعـدـ عنـ الغـوـصـ فيـ هـذـهـ المـواـضـيـعـ إـلـىـ نـاحـيـةـ أـخـرىـ. قـالـ لهاـ:

- غـداـ سـأـسـافـرـ معـ كـرـيمـ بـكـ وـفـؤـادـ عـبـديـ إـلـىـ إـسـطـمـبـولـ. سـأـنـتـقـلـ معـهـمـ لـمـدةـ أـسـبـوعـ منـ أـجـلـ إـتـامـ عـقـدـ بـيـعـ بـيـنـيـ وـبـيـنـ كـرـيمـ بـكـ.. أـمـاـ أـنـتـ فـسـتـعـودـيـنـ إـلـىـ تـونـسـ وـبـعـدـهاـ نـلـتـقـيـ فيـ إـسـطـمـبـولـ.. وـسـوـفـ أـطـلـعـكـ عـلـىـ مـفـاجـأـةـ.. هـذـهـ المـرـةـ سـتـأـتـيـنـ لـوـحدـكـ بـدـوـنـ إـسـمـاعـيلـ.

تابعـ مـصـعـبـ كـلامـهـ:

- الـيـاهـوـ وـبـلـانـتـيرـوـ سـيـعـودـانـ عـلـىـ الـيـختـ إـلـىـ طـنـجـةـ.. ثـمـ نـرـىـ ماـ الـذـيـ سـيـحـدـثـ..

لمـ تـسـأـلـهـ سـتيـفـانيـ عـنـ تـلـكـ المـفـاجـأـةـ الـتـيـ سـيـطـلـعـهـاـ عـلـيـهـاـ فـيـ

إسطنبول. لا بل تركت عبارة المفاجأة تمر كما لو لم تسمعها أبدا.. وقد لاحظت أنه أغفل شاهي شهبار من حديثه، فسألته بلا مقدمات:

- وشاهي، هل ستتسافر معكم أم مع الي فهو إلى طنجة..
أجابها مصعب بسرعة كأنه كان ينتظر ذلك السؤال الذي لا يخرج من حلق ستيفاني إلا إذا دفعته رياح الغيرة!

- شاهي ستبقى في غرناطة.. اتفقا على أن تنظم حفل عرض أزياء في فندق «كوستا أورينتال» بالتعاون مع مارغريتا مارتيناز..

أضاف مصعب:

- لقد رأينا أن نؤجل حفل التوقيع إلى ما بعد التأسيس وإنهاء كل الإجراءات.. وهذا الحفل قد يتخلله حفل عرض أزياء الذي كلفت به شاهي شهبار.. قد يستغرق الأمر نحو شهر أو شهر ونصف.. بعدها سنتقي جميعاً في غرناطة أو في ماربيا..

كان الليل قد انتصف حين همنا بالانصراف.. دعاني مصعب إلى جولة في الحديقة.. أشعل سيكارا ضخماً من نوع تشرشل ثم قال:

- أريد أن أهضم الذي أكلته قبل أن أذهب إلى النوم.. وأضاف:

- لا بد أن تشرشل قد تمشى في هذه الحديقة بالذات.. لقد نام ليلتين في كوستا أورينتال ثم اتجه إلى جبل طارق.. كان ذلك قبل نحو سبعين عاماً.. سوف أريك تمثاله الذي رفع في آخر الحديقة..

عند التمثال قال لي مصعب:

- الملك فهد اقترحوا عليه أن يقيموا له تمثala في حديقة قصره الذي لا يبعد كثيراً من هنا إلا أنه رفض.. لأن التمايل ممنوعة حسب المذهب الوهابي.. نحن أيضاً في قطر لا يزال من المتعذر إقامة أي تمثال.. تخلصنا من الوهابية كمنهج سياسي، ولكننا لم نتخلص منها كمذهب ديني!..

استمعت إليه ستيفاني إلى أن أكمل حديثه. ثم قالت:

- هل تعرف أن تشرشل رفض هو أيضاً مقابلة فرانكو حين جاء إلى إسبانيا.. ولكنه لم يرفض إقامة تمثال له.. في الحقيقة لست أدرى من كان أكثر تطابقاً مع نفسه، الملك فهد أم ونستون تشرشل!.

*** *** ***

حين التقى الزعيم الهندي نهرو بالfilسوف كارل ماركس في العام 2014 في جينيف بمؤتمر دافوس ، كان قد مضى على «ربع أوروبا» الذي عرف بربع الأمة نحو قرن ونصف.. ومضى على موت ماركس نحو مئة وعشرون عاماً. قال ماركس لنهرو بأدب شديد:

- أراك أخطأت سيد نهرو.. كيف تقول: إذا أردنا أن ننهي الأممية في الهند، فإننا قد ننهي الهند كلها.. أعرف كنت تقصد أن تصبح الهند جراء بلا شجر حين يذهب الشجر إلى مصانع الورق ثم إلى المطابع.. ولكنها أنت ترى اليوم أن الهند لم يعودوا أمنيين بالنسبة نفسها كما كانوا في عهده بفضل السيليكون والألوان المعدنية..

التفت نهرو إلى مساعدته قليلاً ثم حدق جيداً في وجه ماركس

وقال له:

- أنت أيضاً أخطأت في توقعاتك يا سيد ماركس.. كنت تعتقد أن الإنتاج سيتضاعف حين تصنع آلات نسيج ضخمة. ولكنها أنت ترى أن الإنتاج يتضاعف ويترافق بينما آلات النسيج تصغر وتتضاءل.. لقد كان تفكيرك ميكانيكياً.. كنت تعتقد أن الحجم يقود إلى وفرة الإنتاج..

في الحقيقة، كان خطأ ماركس أفعى من خطأ نهرو. أولاً لأنه مفكر رفع إلى مصاف الأنبياء ثم أن ذلك قاده إلى أخطاء ميكانيكية أخرى مثل أن البروليتاريا التي تعمل هي التي عليها أن تحكم وأن وفرة الإنتاج ستؤدي إلى الإشباع وأن وسائل الإنتاج التي طالب بتملكها للعمال ستظل على حالها، وأن ذلك كله سينهي الاستغلال والاستلاb . إلى هذا كله لم يفكر ماركس في أن الرأسمالية قد تنجز الكثير مما كان يطالب منه، وأكثر مما أنجزته الأنظمة الشيوعية.. لقد فاقت منجزات وإغراءات الرأسمالية كل ما وعدت به الشيوعية!

كان ذلك موضوع إحدى الندوات التي أقيمت على هامش دافوس التي شارك فيها مفكرون ليبراليون وماركسيون من أوروبا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. كان من بين المحاضرين الأستاذ نجيب سليمان (المصري) وأحد أصدقاء بلانتيرو المختص في الاقتصاد الكمي رفايللو كاستيلو وخبير الاقتصاد الرقمي الأمريكي غابريال ماركث.. وهذا الثلاثي تعاونوا جيداً في تلك الندوة على تحطيم ما تبقى من الماركسيـة..

قال الأستاذ نجيب سليمان الذي حضر إلى دافوس مع وفد

رئيس الوزراء باعتباره عميداً جديداً لجامعة «طنطا» منذ حوالي سنة.. كانت أمالي كبيرة في السبعينات حين كنت لا أزال طالباً.. ظننا أنه بمجرد أن نأتي بمصانع كبيرة من دول الكتلة الإشتراكية يمكن لنا أن نتقدم وننتاج أكثر.. كان هناك الحماس وكانت أيضاً هناك القيادة ولكن الشيء الذي لم يكن موجوداً هو الإنتاج أو الإبداع أو القدرة على التسويق.. أصبحنا أقل استهلاكاً لأن قدراتنا الشرائية تقلصت.. جمدت الرواتب. بعد ذلك تقلص الاستهلاك ثم بات الإنتاج ضعيفاً.. هذا الركودرأيته في الجزائر وكذلك في أندونيسيا خلال زيارتي لهذه البلدان.. ففي آخر السبعينات كادت هذه البلدان أن تجوع ثم دخلت إلى فخ القروض فووقدت تحت اشتراطات البنوك.. هل تعرفون من الذي تنبأ بسقوط الإمبراطورية السوفياتية في ذلك الوقت؟.. إنه أحد اقتصادي الهند الذي زار موسكو مع انديرا غاندي وهو أحد مستشاريها حين قال لها:

- لا تشتري أي شيء من موسكو الآن.. كل شيء سيصبح خردة بعد نحو عقد أو عقدين..

وفعلاً فقد سار الاتحاد السوفيaticي نحو الإفلاس لأنه لم يخترع ما يمكن أن يسمى بـ«استراتيجية الإغراء».. كان ينتج قمحاً كثيراً ولكن آليات التوزيع والإيصال كانت ضعيفة.. وآليات التخزين كانت مخربة والبيروقراطية كانت تمسك بال فلاحين كعصا لضرب أي تغيير من شأنه أن يكسر لوبيات الفساد.. وهذا هي روسيا اليوم رغم تقلص أراضيها الزراعية في أوكرانيا وكازاخستان، أصبحت في خلال عقدين فقط أكبر منتج للقمح.. لقد تفوقت على أمريكا..

لا بسبب الآلات فقط ولكن بسبب إغراءات السوق الحرة..

رافاييلو كاستيلو قال: حين تطورت الآلات في أوروبا في البداية، صاحبتها كذلك ثورة في طاقة الفحم وأخرى في الحديد وأخرى في التوزيع والاستهلاك.. وفجأة جاءت النتائج العكسية لهذا التقدم. أصبح كل مئة حائط مثلاً في النسيج بلا عمل. وقد يموتون جوعاً بسبب تكاثر الآلات.. وبالطبع فإن الإنسان الجائع أو المهدد بالجوع يمكن أن يفعل أي شيء لينقذ حياة عائلته.. دخل العمال في الإضرابات وحلت مأساة بسبب ذلك وهدمت معامل ومصانع كثيرة، ولكن التقدم لم ينته.. يعتقد الماركسيون إلى اليوم أن العمال بطبعهم وموقعهم تقدميون وثوريون ولكن ذلك الجانب كثيراً ما لا يذكرونها. فقد وقفوا ضد ثورات كثيرة وأثبتوا أنهم رجعيون، ومع ذلك لازال هناك من يطالب بتمليكمهم لوسائل الإنتاج.. جاء رأسماليون أذكياء وطرحوا عليهم فكرة التشريك في الملكية بقسط لا يؤهلهم فيه إلى الإضرابات وكذلك بقسط آخر من توزيع الأرباح حتى يظلوا على نشاطهم.. بعد ذلك مكنوهم من قروض صغيرة حين تأتي المناسبات والأعياد، مع ترفع طفيف في المرتبات لا يتجاوز عتبة نسبة التضخم.. ما الذي حدث آنذاك؟ عاد العمال إلى العمل. وواظبوا على الإنتاج ثم تمتعوا بنسبة في الأرباح وبفرص في الإقراض ولم يعودوا إلى فكرة الإضرابات السلبية.. ظلت النقابات بلا عمل لفترة تقريباً، ثم بدأت تدرك أن مصالحها لا توجد فقط لدى العمال والحرفيين والمهنيين، بل هي توجد أيضاً لدى أصحاب رأس المال وأصحاب المصانع والمعامل.. واليوم هم لازالوا في بعض البلدان كما لو

أئهم يعيشون في بريطانيا في مفتتح القرن التاسع عشر، الأمر الذي رفع من نسبة البؤس لدى العمال ولدى أصحاب الأموال على حد سواء.. وحسب رأيي إذا كان هناك من لم يفهم معنى الثورات، هم قادة النقابات في بلدان كثيرة.. فعوض أن ينهمكوا في العمل لتعويض ما فات من زمن وعطالة وبطالة وفساد وتدمير، انهمكوا في إضرابات لا نهاية لها ولا طائل من ورائها.. فهم يدركون أن إغلاق مصنع في بلد ما يجر إلى إغلاق أكثر من مصلحة في البلد نفسه وفي بلدان أخرى. سيتوقف العمل ويفقد العمال مهاراتهم ثم تتوقف البنوك على التمويل، ويهرب الرأس المال إلى مكان آخر، وتتضرر شركات أخرى مختصة في التصدير أو التوزيع ثم يمتد الضرر إلى دوائر أخرى مرئية وغير مرئية دون أن يزداد الإنتاج أو تتحسن الأجور أو يقضى على البطالة.. وإذا حاولت الدولة، أية دولة أن تدخل لفض الاشتباك بين النقابات وأصحاب المال والمصانع، فإنها لا تستطيع أن تفرض رأيها لا على هؤلاء باعتبارهم أثرياء ويستطيعون العيش بلا عمل أو يستطيعون الاستثمار في بلاد أخرى، ولا على النقابات باعتبارها قوة منظمة تهابها الدولة.. ويمكنها أن تخسر معها المعركة!..

كانت ستيفاني تكتب يومياً من دافوس إلى «وكالة الأناضول» التي انظمت إليها عن طريق كريم بك بتوصية من مصعب الصraf. وكانت تكتفي بعرض بعض المحاضرات دون أن تتدخل في أراء أصحابها.. فلأول مرة تحضر جانباً من هذا العرض الساحر للنظريات والوعود والإعلانات لأفضل الابتكارات وكذلك للنقاشات التي تدور بين مجموعات من السياسيين والخبراء. ولو لا

صعب الصرف الذي دفع لها اشتراكاتها مثل هذا الحضور، ربما ما كانت وكالة الأناضول أن تدفع تكاليف حضورها التي تفوق الـ 50 ألف دولار..

على أن ستيفاني التي ذهبت لتغطية نشاطات منتدى دافوس وهي متحمسة ومندفعة، قد وجدت نفسها بين الحين والآخر متوترة أو غاضبة أمام تلك الأرقام المتطايرة مثل (أن الولايات المتحدة أنفقت على حربها في العراق ما يكفي لرفع الأممية من العالم وتزويد سكان العالم بمياه نظيفة) أو (أن 1% فقط من سكان العالم يملكون نحو 99% من ثروات العالم).. ففي مقالها الأخير وهي تودع «منتدى دافوس» تسأله ما إذا كان هؤلاء «الخواجة» يشعرون بأزمات ضمير أم لا حين يطلعون على أرقام الفقر وأرقام مرضى الإيدز وضحايا الحروب وانتشار الإرهاب.. كتبت أيضاً بمرارة: إن مجموعة صغيرة من الرجال، حتى لو كانوا من رفاق أو حواري المسيح ليس بمقدورهم أن يرفعوا الظلم على البشرية مهما أضفوا من قداسة ويقينية على إنجيلهم.

مثل تلك الآراء نشرتها وكالة الأناضول في بثها الخاص بالرأي. ولكن صعب لم تعجبه مثل تلك الآراء لأن الأمير، رئيس وفد قطر قد لاحظ بأن هذه الصحفية الفرنسية المسلمة، كان يمكن أن تكون أكثر لطفاً مع منتدى دافوس..

*** *** ***

وصلت تلك الملاحظة إلى ستيفاني بعد حوالي ثلاثة أشهر من منتدى دافوس. فها هي أصبحت تقريراً تسكن بالقرب من فيلا

صعب الصرف التي يقيم فيها حين يأتي إلى إسطنبول.. وهي فيلا معاذية للدار التي اشتراها من كريم بك بعد عودتهما من غرناطة على إثر التوقيع بالأحرف الأولى على «مجموعة هرقل 21».. اتفقت ستيفاني مع صعب الصرف أن تصبح مستشاراً إعلامية له، على أن لا تقطع عملها مع وكالة الأنضول أو الوكالة العالمية للإعلام المتعدد. وبذلك فقد أصبحت في حاجة إلى شقة قريبة من فيلا صعب الصرف التي تحولت إلى مكتب استشارات متعدد التخصصات.. تكفل باشكيير آغا بالبحث عن شقة صغيرة في منطقة «آياس باشا» بإسطنبول. فلم يمض يومان حتى أبرم عقد الإيجار.. ثم تكفل مراد شمان بتأثيثها في أقل من أسبوع.. وهكذا حين قررت ستيفاني الانتقال من تونس إلى إسطنبول بعد أن رتببت وضع ابنها طارق الذي لا يزيد عن العشر سنوات، ذهبت مباشرةً من المطار إلى شقتها: إنها تقع في الطابق الرابع من مبني «باشاكِي أورينتال» المشرف على البوسفور. بها صالون كبير يحتوي على جناح يفتح على البحر يمكن أن يستعمل كمكتب للعمل. وغرفتان ومطبخ ومر جميل مجهز بأدراج ورفوف يمكن أن تضع عليها ستيفاني كتبها وصورها وبطاقات التقدير التي نالتها خلال عملها. حين دخلت ستيفاني إلى شقتها الجديدة شعرت بسعادة فائقة كما لو أنها مقدمة على زواج جديد.. ألت نظرات سريعة على الصالون والمطبخ وغرفة نومها وهي تمطر شفاهها إعجاباً ثم ذهبت مباشرةً إلى البلكون لتجد نفسها وجهها لوجه مع البحر..

سألت مراد شمان الذي نقلها من المطار إلى الشقة:

- هل أنا أقف الآن أمام البحر الأسود أو البحر الأبيض؟

- أنت الآن تديرین ظهرک لتونس وكذلك لفرنسا..
فهمت ستيفاني أنها تتجه إلى البحر الأسود.. وأن رحلة طويلة
أمامها قد بدأت نحو آسيا..

كانت تريد أن تملأ صدرها بهواء جديد ومنعش، وكان المساء
يقترب ليلاقي ببؤرة المغيب على صفحة البحر. وظللت تراقب ذلك
المشهد الذي يبدأ فيه البحر في ابتلاع قرص المغيب رويدا رويدا
على نحو حميمي، إلى أن ناداها مراد شمان الواقف على الركن الأيسر
من البلكون. ولما اقتربت منه بخطوتين قال لها:

- هناك.. في تلك المنطقة التي لازالت مخصصة للفيلات
والبناءات المنخفضة توجد فيلاً مصبغ الصراف، التي حولها إلى
مقر استشارات لشركته.. إنها ليست بعيدة.. على بعد خمس دقائق
فقط مشيا بالأقدام يا مدام ستيفاني.

أضاف مراد شمان يقول:

- لذلك البيت قصة جذابة.. إنه بيت عريق جدا.. لو عرفت
الآن قصته، فإنك ستصنعين ريبورتاجاً صغيراً عنه في الحال.
دغدغ مراد شمان حاسة حب الإطلاع لديها ودفعها إلى سؤال
استنكاري محمل بحasa استطلاع قلماً تقع في الخطأ..

- لا تقل لي، أنه كان مسكنًا لبولند أجاويد أو لعصمت اينونو..
أو سكنت فيه أغاثا كريستي حين كتبت قطار الشرق السريع..
ليس من حقك أن تخاطل إحساسي!

تمشى شمان نحو الصالون حتى صار قرب الكانابيه.. سمعها

تقول له:

- إجلس. لن تخرج إلا حين أعرف قصة تلك الفيلا..

بدأ مراد يبحث عن مدخل إلى الحكاية ثم تكلم دون عناء كبيرة بترتيب أفكاره فقال:

- قبل نحو تسعين عاما من الآن، كان ذلك، البيت المطل على البوسفور، بمثابة المقر العام لحكم تركيا الكمالية. وها هو الآن يصبح مقرا لصناعة قرارات كبيرة للشرق الأوسط كله في عهد تركيا الأردوغانية.. تلك الفيلا هي بالأحرى قصر. إنها تبدو لي كما لو أن حجرها الأساسي قد وضع إلى جانب حجر البركة..

قبل فترة قصيرة كانت من ملكية كريم بك.. والآن فهي من ملكية مصعب بك.. ولكن قبل ذلك بنحو 90 عاما كانت سكنا للطيفة خانم، مطلقة القايد أتاتورك، قال مراد شمان أيضا دون أن يبدو عليه التشكيك في معلوماته، أن كريم بك اشتراه قبل نحو ثلاثة سنوات فقط من أحد أحفاد «آل أوشاكي زاده».. وأعتقد أنه ابن المنجي شقيق لطيفة الذي آل إليه البيت بعد وفاة الأب معمر.

أجلت ستيفاني سؤالها (لماذا اضطر كريم بك إلى بيع هذه التحفة الأثرية) ثم طالبته بأن يبقى في إطار الحكاية التاريخية.. فعاد يقول:

- يبدو أن الأب معمر أوشاكي اشتري ذلك البيت ليسكن فيه مع عائلته بعد طلاق ابنته من كمال أتاتورك.. قيل آنذاك أن سبب الطلاق هو عدم إنجابها لطفل.. ثم تأكد فيما بعد أن أتاتورك لا ينجي.. وقيل أنها ارتبطت بعلاقة عاطفية مع أحد الكتاب المشهورين «أميل لودفيغ» لم يتمكن أتاتورك من اكتشافها إلا

بعد الزواج حين سافرت إلى براوغ والتقت معه خفية.. هذا الرجل عرف تركيا جيدا في بداية القرن العشرين وكتب عن الحرب العالمية الأولى ثم تفرغ إلى كتابة السير الذاتية لزعماء كثيرين.. وفي اعتقادي أن هذا كله غير مؤكدة. فالمؤكد أن لودفيغ تعرف على طيفه وهي متزوجة. وحين طلقت عادا فالتقى، ولكن باسم آخر هو فاطمة صادق.. المهم بعد الطلاق لم يعد مكنا لا للطيفه خانم ولا لأبيها معمر ولا حتى لأخواتها أو إخوتها أن يبقوا في أزمير.. آنذاك قرر الأب معمر بك زيادة أن يشتري منزلا بطاوابق أربع في «أياس باشا» في إسطنبول. وفي ذلك البيت.. وفي الطابق الرابع منه سكنت طيفه خانم..

(يا إلهي.. ما هذا التشابه.. طيفه خانم في الطابق الرابع بعد طلاقها.. وبعد نحو قرن تأتي ستيفاني وهي مطلقة لتسكن في الطابق الرابع في المبنى المجاور). ذلك ما خطر في ذهن ستيفاني وهي تترقب بقية القصة، آنذاك القت بسؤالها المؤجل:

- ولما اضطر كريم بك إلى بيعه بعد ثلاث سنوات؟

قال مراد شمان:

- اشتراه.. أدخل عليه إصلاحات كبيرة. أقام فيه عرس ابنته كمال ثم باعه.. لنقل أن كريم بك صياد صفات. اشتراه بعد أن ربح عدة ملايين في نقل البترول الخام من كردستان إلى تركيا.. ثم باعه مقابل صفة أخرى مع تنظيم داعش بترتيب من قطر.. لم يذكر مراد شمان نوع الصفقة الثانية، ولكن ستيفاني خمنت أن تكون أيضا في تهريب النفط) وحين سأله عن نوع تلك الصفقة، أجاب بسرعة:

- المهم تم نقل البيت إلى ملكية مصعب بك ضمن تسويات ومفاهيم كبيرة تتعلق بشراء الأسلحة وتهريب صهاريج النفط وإطلاق سراح بعض الأسرى الأتراك لدى إحدى التنظيمات التابعة لقطر.. وأعتقد أنه تنظيم النصرة.. باختصار، دارت مفاوضات كبيرة في أكثر من مكان ثم استقرت في ذلك البيت الذي سيظل دائماً يعرف بقصر «آل أوشاكي»، حتى وإن أصبح تابعاً لمصعب بك..

أحسست ستيفاني بشيء من الغيرة لدى مراد شمان، فهمتها على أنها نوع من الاعتزاز والفخر بتركيته.. فسألته ما إذا كان زار البيت قبل إدخال الإصلاحات عليه، تكلم كما لو أنه يتالم على مجرد قد ضاع..

- حين اشتراه كريم بك كان لا يزال على أبهته القديمة حتى وإن بدت عليه بعض آثار الزمن والإهمال.. كانت لذلك البيت العريقة بوابة حديقة رائعة ومرآب سيارات يدخل إليه من أحد الأبواب السفلية. لم يكن الباب الرئيسي للبيت من جهة البحر كما هو الآن، بل كان من جهة البر، يصعد إليه عبر ثلاث درجات.. أتذكر زجاج النوافذ المطلي والمزركش برسومات بد菊花 وملونة.. وإذا فتحت هذه النوافذ، ظهرت أمامك طبقة ثانية من الزجاج حماية من البرد. كان بيته مهيباً. في مدخله رواق كبير يؤدي إلى تفرعات الطوابق. وهذا الرواق يعلوه بابان كبيران. كل منهما على دفتين. أحدهما يؤدي إلى قاعة الطعام على اليمين ويؤدي الثاني إلى الدرج المنحدر نحو المطبخ. والثاني يؤدي إلى قاعات الجلوس والاستقبال.. وهناك تجدين نفسك، وقد أصبح قصر «توب كابي»

الشهير ثم المضيق بكماله إلى الأسفل. على جدران تلك القاعات، علقت ثروة من اللوحات الزيتية لأشهر الرسامين في تركيا وإيران وكذلك في فرنسا.. ثم ترين ثريات الكريستال وهي تتارجح فوق رأسك مثل التيجان.. وعند طرف الدرج، كانت لاتزال تماثيل من البرونز قد اصطفت لنساء عاريات وهن يحملن المشاعل.. كشفت لنا أوراق الملكية وخارطة البيت أن ثريات الكريستال اشتريت في العشرينات من براغ وأن تماثيل البرونز قد نحتها فنانون من نابولي، وأن أثاث البيت قد جلب من باريس وهو من عهد نابليون الثالث، وأن الأبواب قد تم نقشها في أزمير. وأن المرايا التي علقت على جدران المدخل قد صنعت في باريس وأن السجاد الذي كان لايزال على حالة جيدة، قد تم جلبه من أضنه وكذلك من أصفهان وتبريز وسمرقند.. كانت السقوف عالية ولا تزال حتى الآن.. وكان يتم الصعود، قبل أن يضاف إليه الآن مصعد كهربائي، إلى الطوابق الطويلة الثلاثة من كوريدور طويل في آخره درج مزدوج فرش بسجادات رمادية وحمراء صنعت في أوشاك.. الموطن الأصلي لعائلة أوشاكي زاده..

فجأة سألته ستيفاني:

- أوشاكي زاده هذا.. هل هو من أصل فارسي؟

- قد يكون.. لا أعرف بالضبط.. إنما هو متحدر من مدينة أوشاك التي تقع بالقرب من بحر أيجيه، ويعتبر ميناء أزمير ميناء كل منطقة أوشاك.. وبما أن أجناسا كثيرة، وخاصة التجار، قد سكنت تلك المنطقة، فمن المحتمل أن يكون معمربيك من أصول فارسية خاصة وأن آباه كما ذكر حسب عقود الملكية يسمى إسماعيل.

وهذا الاسم يوجد بكثرة في إيران.. ثم أضاف محدرا وهو يبتسما:
- لو ثبت أن الأب معمراً فارسي، فإن ذلك قد يعني أن لطيفة
خانم من أصول فارسية وليس تركية.. وربما كانت شيعية لا
سنوية!.. ثم أضاف مبتسما:

- لا.. لا يهم ذلك كله.. كمال باشا أتاتورك لم يكن متدينا ولم يكن يعنيه الدين..

بعد ذلك عاد إلى تاريخ ذلك البيت، فتابع يقول:

حين أكمل مراد شمان حكاية البيت الذي اشتراه مصعب بيك

القطري، سأله بعيون مفتوحة:

- وأنت ماذا تفعل.. ما هو عملك يا سيد مراد (آنذاك فقط تذكرت أن زوجها السابق اسمه مراد. وأن هذا الاسم لا يزال له مفعوله السحري على كيانها).

- أنا أعمل نادل في مقهى ومطعم على الموسفور. لست بعيداً من هنا.. ولدي أعمال أخرى مع كريم بك ومصعب بك حين يكونا في إسطنبول..

استغربت سيفاني أن يكون نادل يملك كل هذه المعرفة التاريخية وهذه الذاكرة الدقيقة. ثم هذه الشقة الكبيرة التي يحظى بها لدى كريم بك ومصعب بك وهما من أغنياء الشرق الأوسط، ولكنها لم تكشف عن استغرابها.. فالتفت إليه قائلة:

- لا يوجد شيء نشربه في هذه الشقة يا سيد مراد.. أنت لا تزال صاحبها. وبداية من الغد سأكون أنا صاحبتها..

قام مراد فوراً واتجه نحو المطبخ وهو يقول:

- كل شيء موجود.. كل أنواع المشروبات.. أما الأكل فيوجد تحت هذه العمارة أكثر من مطعم.. يمكنني أن أطلب لك أكلاً إذا كنت جائعة..

بعد أقل من دقيقة عاد بـ كأسين وفتح ورجلاً ماء غازيتين بين يديه ثم وضع كل شيء أمامها وقال:

- أنا سأشرب هذه الزجاجة. وأنت أيضاً لك هذه الزجاجة..

وبعد أن فتحهما قال:

- لنبدأ بالماء.. الماء الظاهر هو صابون القلوب والمودة..

ثم قال:

- حين أخرج من هذا البيت، أرمي ورائي حفنة من الملح..

سألته باستغراب:

- لماذا الملح..

فقال لها:

- حتى لا أعود ثانية إلى هذا البيت.. تلك عادات أهلانا..

- وإذا أردنا من الشخص أن يعود.. ماذا نرمي وراءه؟ سأله ستيفاني، فأجاب مراد:

- في هذه الحالة لا نغلق وراءه الباب. بل نترك الشخص المغادر يسحب الباب خلفه بيده..

كان مراد يتحدث العربية بلهجة شامية.. ظنت أنه من سوريا، سأله: كيف يتحدث العربية بشكل جيد وهو تركي، فأجاب بسرعة: أبي من أصول عربية. من لواء الإسكندرية. أما أبي فهو من أضنه. إنه قريب من كريم بك.. أبي أيضاً يتكلم العربية لأنها عمل طويلاً كتاجر بين حلب وأضنه..

وحين أراد مراد أن ينصرف، استأذن، فقام ستيفاني لتصاحبه إلى حدي الباب.. سلم عليها مودعاً بكلمات تركية وعربية فقال:

- تشكراً لي ستيفاني خانم.. تمام.. إن شاء الله كله تمام..

بعد ذلك تركته يسحب الباب بيديه. وحين انغلق الباب أحكمت إغلاقه بمفتاح التأمين ثم عادت تتتجول في الشقة وهي

تفكر فيما قاله جان بول سارتر مرة بأن بوسع المرء استخلاص الفلسفة من منفحة الدخان حين نذهب إلى ألمانيا..وها أنا في إسطنبول ويمكنني استخلاص حكمة التاريخ حتى من تجاري الدماء.. ولم يمض ربع ساعة حتى رن جرس الباب.. ثم رن جرس الهاتف وهو يقول لي:

- أنا مراد افتحي الباب..

حين فتحت الباب، ناولني علبة كرتونية مربعة وهو يقول:

- هذه بيتزا من مطعم «البيتزا هوت».. تصبحين على خير ستيفاني خانم..

وكالعادة، تركته يسحب الباب بيده.. عسى أن يعود ذات يوم..

*** *** ***

حين توجهت ستيفاني إلى فيلا «آل أوشاكي» في صباح اليوم التالي لتبادر عملها الجديد كمستشار للشيخ مصعب الصراف، كانت لاتزال محتلة بتلك الحكاية التي رواها لها مساء أمس مراد شمان.. استقبلتها عند الباب «باشكيير آغا»، أحد مساعديه مصعب الصراف وكريم كروان بك.. ثم قادها إلى مكتبه في الطابق الأول.. وقبل أن تفحص مكتبه جيدا طلبت من باشكيير آغا أن تقوم بجولة داخل الفيلا.. عادا إلى رواق المدخل الكبير.. ثم بدأت تتأمل في مجموعة الصور الفوتوغرافية المعلقة على الجدران والموضوعة داخل كادرات مذهبة ومزخرفة.. عرفت من خلال قراءاتها لعناوين الصور، أن مراد شمان كان دقيقا في عرضه لتاريخ هذا القصر.. هنا هي صور جورج دي بولنجيه معلقة على المدخل

مباشرة بشاريين يشبهان شاري جورج كليممنصو.. ثم ها هو نامق باشا يقف بعصاه ويحيط به ثلاثة من أبنائه.. ثم ها هي عائلة معمراً بييك أوشاكي وهي تحيط بالقائد أتاتورك.. كان عمر بييك يرتدي بدلة بيضاء كروازيه وحذاء أبيض موکاسان.. وخلفه تظهر وجهة بتاييرها الأبيض وهي تشد خصرها بحزام داكن ليس بلون الحذاء الأبيض والمكعب ثم تظهر لطيفة بنصف قامتها مرتدية روباً أسود يصل إلى كعبها ليظهر حذاء أسود مشدوداً بخيوط سوداء.. وفي الوسط ما بين عمر وكمال أتاتورك تقف أم البنات لتأخذ مساحة كبيرة نظراً لامتلائها خاصة بداية مما تحت خصرها، فتبعد في روبيها الأسود الفضفاض وبقصة شعرها القصيرة كموديل لنساء العشرينات المتحررات ثم بحذائهما المكعب، كأنها مصارعة أو حاملة أثقال من الوزن الشقيـل.. وإلى جانبها يقف الغازي بيـدلـته السـودـاء المـفـتوـحة على جـيلـيـه أبيـض دـسـ بـداـخلـه رـبـطة عنقه ثم وقف كما يقف الممثل كلينودستوت، فاتحا ساقيه ومبرزاً حذاءه الموکاسان، رافعاً رأسه إلى الأعلى وواضعـاً يـديـه خـلفـه.. أما في طرف الصورة فتقـفـ إلى جانبـهـ أختـ لـطـيفـةـ خـانـمـ، رـقـيةـ الـتي توـصـفـ بـآـنـسـةـ الـجمـالـ.. حقـاـ إـنـهـ مـنـعـشـةـ بـفـسـتـانـهاـ الـفـضـفـاضـ الأـسـودـ وـبـوجـهـهاـ الصـبـوحـ.. إنـهـ تـشـبـهـ غـرـيسـ فيـ عـزـ شـبابـهاـ حينـ تـزـوـجـتـ أمـيرـ مـونـاكـوـ.. التـقطـتـ هـذـهـ الصـورـةـ فيـ بـدـاـيـةـ الـثـلـاثـيـنـاتـ فيـ 1930ـ، أيـ بـعـدـ طـلاقـ لـطـيفـةـ منـ أـتـاتـورـكـ بـبـضـعـةـ سـنـوـاتـ.. وـهـذـاـ الـأـمـرـ وـاـضـحـ جـداـ لـأـنـ لـطـيفـةـ لمـ تـكـنـ تـقـفـ إـلـىـ جـانـبـ أـتـاتـورـكـ كـمـ تـفـعـلـ عـادـةـ حينـ كـانـتـ زـوـجـتـهـ وـحـيـنـ كـانـتـ لـاتـزالـ خـطـيبـتـهـ.. ثـمـ أـنـ توـقـيـعـ الـمـصـوـرـةـ الـأـلـمانـيـةـ الـتـيـ التـقطـتـ تـلـكـ الصـورـةـ وـهـيـ «ـلـيـنيـ»

ريفنستاهل» لم تزر تركيا قبل ذلك العام.. إذن تفييد الصورة بأنها زيارة مجاملة قام بها أتاتورك لبيت آل أوشاكي بعد الطلاق بنحو عامين.. برزت الفوتوغرافية ليني ريفنستاهل في البداية كراقصة ثم كممثلة سينمائية ثم كمخرجة ومصورة فوتوغرافية.. جسدت هذه الفنانة الشابة والفاتنة بالنسبة لهتلر رمز الجيل الجديد الذي سيجتاح العالم باسم ألمانيا الجديدة والنازية.. استدعاها الفوهرر بعد أن تأثر بفيلمها الذي ظهرت فيه كفتاة متوحشة تدخل إلى الكهف تبحث عن جذورها ثم تخرج نحو الجبال لتتزحلق على الثلوج، وهي تقفز في الأعلى فتبعد كنسر جديد أبيض اللون. لم تتحدث «ليني» في مذكراتها عما دار بينها وبين هتلر خلال لقاء دام ساعتين، ولكن كثيرين تحدثوا عن علاقة غرامية بينهما.. ثم قرر أن يضمها إلى قسم التصوير والدعائية الخاص به شخصيا.. سافرت معه إلى بلدان كثيرة وركبت معه في الطائرة أثناء عواصف خطيرة.. وقد أنها ذات مرة إلى صديقه كمال أتاتورك قائلا له:

- هذه فنانة رائعة يا سيد البasha، لكنها لا تحبني..

ضحك هتلر وأتاتورك ضحكة عالية ثم وقف جنبا إلى جنب أمام سيارة المرسيدس التي لاتزال إلى الآن واقفة في ضريح كمال أتاتورك. بعد ذلك التقى هتلر ليني ريفنستاهل لها أكثر من صورة. تعرضت هذه الفنانة لأكثر من محاولة اغتيال. واحدة منها في إسطنبول. وتعرضت طائرتها للسقوط في إفريقيا ببلاد النوبة أثناء تصوير فيلم لها فنجت من الموت بأعجوبة.. عاشت أكثر من مئة عام ولم تبدي ندما أبدا لأنها كانت صديقة هتلر ونالت هدايا من موسليني والتقطت صورا للغازي أتاتورك.. وفي آخر حوار معها في

قناة «أرت» الألمانية.. قالت: «هايدغر أيضاً كان معجباً بـ هتلر.. ما الغرابة في الأمر..»

ليس ذلك ما اثار ستيفاني، وهي تتذكر «ليني ريفنستاahl» كما لو أنها تبحث عن مبررات لوجودها أو لعملها الجديد في فيلا آل أوشاكي مع رجال مولعين بالأعمال والدسائس ومتغرين وتحوم فوق رؤوسهم مئات الشبهات.. فالذى أثار دهشتها فعلاً هو تلك الصورة الضخمة المعلقة في مكتب باشكير آغا.. إنها الممثلة الخلásية الساحرة والأفرو/آسيوية «هال بيري» وهي ترقص بخففة بقطعتين من القماش الأسود تتشابكـان عند الخصر بخيطين أبيضين يتدرجـان حتى مستوى حوضها، حيث ينكـشف الجزء الأعلى من فخذيها من فتحة تنورتها الأمامية، وهي تتلوى بـ كعب عال كأنـها ساندريلـا.. انتبه باشـكـير آغا إلى ستيفـانـي وهي تـحدـقـ في صورة الممثلة «هـال بـيرـي»، فـلمـ يـرـ مـانـعاـ منـ أـنـ يـسـأـلـهاـ فـقاـلـ:

- هل أـعـجبـتـكـ «هـال بـيرـي»؟

- إنـهاـ مـزـيجـ رـائـعـ منـ الـأـنـوـثـةـ وـالـرـقـةـ وـالـرـشـاقـةـ وـالـلـوـنـ.ـ ثـمـ أـضـافـتـ:ـ
- شـاهـدـتـ فـيـلـمـاـ لـهـ مـنـذـ عـدـدـ سـنـوـاتـ،ـ أـعـتـقـدـ أـنـهـ يـتـحـدـثـ عـنـ
ـ الـكـراـهـيـةـ وـالـعـنـصـرـيـةـ.ـ وـقـدـ فـازـتـ عـنـهـ بـالـأـوـسـكـارـ.

قال باشـكـيرـ:

- وـهـذـهـ اللـقـطـةـ مـأـخـوذـةـ عـنـ ذـلـكـ الفـيلـمـ.ـ «ـفـيـ ظـلـ الـكـراـهـيـةـ»،ـ
ـ وـلـكـنـ سـأـقـولـ لـكـ شـيـئـاـ رـبـماـ لـاـ تـصـدـقـيـهـ عـنـ هـالـ..ـ

بلـ رـيقـهـ كـمـاـ لـوـانـهـ يـسـتـعـدـ لـإـطـلاقـ كـذـبـةـ ثـمـ تـكـلـمـ:

- هـذـهـ اـبـنـةـ خـالـتـيـ.ـ خـالـتـيـ قـوـقـازـيـةـ مـنـ الشـيشـانـ،ـ سـافـرـتـ إـلـىـ

أمريكا منذ بداية السبعين. وتزوجت أمريكا زنجيا وأنجبت منه «هال» و«ايرام». العالم صغير يا مدام ستيفاني. نحن القوقازيون إما أن نحارب أو نسافر!!.

- هل أنت من غروزني يا باشكير؟
سألته ستيفاني، فأجاب:

- نعم من غروزني.. جئنا إلى هنا. إلى إسطنبول في أواخر التسعينات. لم يكن عمري آنذاك يزيد عن 13 أو 14 عاما.. بعد نحو ثلاثة سنوات وحين انتهت الحرب، عدنا إلى هناك.. وقبل نحو خمسة سنوات، عدت إلى إسطنبول.. لوحدي.. لم أتلاءم أبدا مع الوضع الجديد لغروزني.. أصبحت مدينة غريبة عنا.. امتلأت بالروس أكثر مما كانت عليه زمن الاتحاد السوفياتي.. خسر الشيشان الحرب أمام الروس.. ولكن الشيشان لا ينسون هزائمهم أبدا.. سوف يعودون من قمم الجبال ومن وراء الوديان كالغزا لبلدهم ذات يوم..

كان باشكير آغا يتحدث بيقينية مفزعة.. رايته في تلك اللحظة يريد الابتعاد عن الحديث عن أهله، فقلت له:

- هل نواصل الجولة داخل بيت آل أوشاكي..

في تلك اللحظة، التفتنا معا للوراء لكي نتقدم، فإذا بي أجد نفسي وجها لوجه مع مصعب الصراف.. كان قد وصل لتوه إلى مكتبه، ثم نزل يبحث عني بعد أن أخبروه بقدومي. لم يتأخر كثيرا، بعد أن سلم علي بحرارة، في أن يقول لي:

- تعالى، سأقدمك لزملائك، ثم نصعد إلى مكتبي لنتحدث في

موضوع هام.

سرت بمحاذاته وأنا أحاول ألا أتصق به. قال لي:

- هذا البيت يوجد به خليط عجيب من الأجناس والعرقيات والأديان والثقافات. ما نريد أن نصنعه معا هو ما ننضم إليه جميعا. لم يفصح كعادته. قلت في خاطري هذا الرجل بدا يفزعني. ولا أجد نفسي إلا مستسلمة له.. حتى الأسئلة الصغيرة والذكية غالبا ما تتبع من ذهني حين أكون معه. ثم رايته يفتح بابا من دفتين.. وقال:

- هذا المكتب هو مكتب شاهي شهبار.

حين دخلت لم أر أي شخص: لا شاهي ولا غيرها، فقال:

- شاهي لازالت في غرناطة، ستعود ربما بعد أسبوعين..

انتحى يسارا وأنا أتبعه ثم قال:

- الآن سندخل إلى مكتب شخص لا تعرفينه حتى الآن.. وبعد طرقات صغيرة، فتح الباب، فدخل ثم دخل خلفه.. في الحين رأيت رجلا يقفز بسرعة ليصبح أمامنا في أقل من خطوتين. عانق مصب الصراف ثم سلم علي باليد وراح يدعونا إلى الجلوس، لكن مصعب قاطعه قائلا:

- لا يا أبو منذر.. مجرد زيارة. السيدة ستيفاني مستشارتي الإعلامية تريد التعرف على فريق عملنا فقط..

أضاف يقول لي:

- لو سألتني ما اسم أبو منذر الحقيقي، فسأقسم لك أنني لا أعرفه.. ثم أطلق ضحكة.. بعدها سمعت ذلك الرجل الطويل

والبشوش يقول:

-أنا علي أبو منذر ياشيخ..

-مرحبا بك.. أبو منذر.. ثم تابع..

- إنه مدير المشتريات لدينا.. وكذلك مدير المخازن.. لا أحد يفلت من رقابة أبو منذر حتى لو كان فأرا..

بعد ذلك قادني إلى جناح آخر به عدة غرف.. طرق باب الغرفة الأولى ثم دخل لوحده بعد دقيقتين خرج ومعه سيدة شقراء مبتسمة ومرحبة.. قال لي..

- هذه السيدة مرام حسن.. من سوريا.... وبالتحديد من حلب.. مسؤولة عن جمعية لحماية الأطفال من الحرب..

قبلتني مرام ثلاثة قبلات كما يفعل أهل الشام، ثم طلب منها مصعب أن تنادي على زميلاتها للتعرف على..

خرجت سلمى فقال مصعب:

- هذه تونسية.. إنها تعمل مع مرام في الجمعية..

أضافت سلمى:

- وأتابع أيضا أعمال السيد كريم كروان مع شاهي.. ثم قالت لي مباشرة..

- أظن أنني أعرفك يا مدام.

- اين وكيف؟

قالت:

- في التلفزيون.. كنت تظهرين قبل فترة ك محللة أو معلقة سياسية في بعض البرامج بالقنوات التونسية..
- نعم. هذا حدث عدة مرات.. وإذا نحن أصدقاء قبل أن نتصافح.
- كنت من المعجبات بك في البداية.. ثم هبط مستوى اهتمامي بالتلفزيونات عامة..

قاطعها مصعب قائلاً لي مرحباً:

- وهذا حبيب رودباري.. ها هو وصل الآن.. إنه صحفي تركي متخصص في الريبورتاجات بالمناطق الساخنة.. قبل أسبوع فقط، عاد من «كوباني» بريبورتاج تناقلته معظم الصحافة العالمية.. يعمل بصحيفة «جمهوريات» التركية.. ويعمل معنا في مهام خاصة..

- بعد ذلك انضم إلينا إسماعيل السمان الذي انتقل من قبلي من القاهرة إلى إسطنبول بعدما أغلق مكتب الجزيرة وتقلص عدد العاملين به.. ومعه السيد فؤاد عبدي الذي سلم علي بحرارة ثم سألني عن أخبار خوسيه بلانتيرو ثم قال:

- لا ينقصنا هنا إلا السيد بلانتيرو.. إنه رجل عالم ومهذب ومتواضع.. لقد أحببت فعلاً ذلك الرجل..

قلت لفؤاد عبدي:

- هناك رجل آخر ليس معنا الآن هو الياهو دانيال..

قاطعنا مصعب كالعادة وهو يقول لي:

- وهذا هي السيدة سما عبد الصمد قد وصلت..

سألها مصعب في الحين:

- كيف عرفت أننا هنا.

ردت بسرعة:

- وكيف يمكنني أن أعمل في شركة الغوغل إذا كنت غير قادرة على تحديد مكانكم.. ألا تعرف يا سيد مصعب أن إحدى تطبيقاتنا الأكثر إثارة هي الجيولوكاليسن (تحديد المكان)؟

قال مصعب وهو يرحب بها على نحو مبتهج:

- أهلا بالأميرة..

ثم أضاف:

- مدام عبد الصمد.. هذه مدام ستيفاني، مستشارتي الإعلامية الجديدة.. فرنسية وعربية في نفس الوقت..

ثم التفت إلى وقال:

- وهذه مدام سمي عبد الصمد خبيرة لدى شركة غوغل ومتخصصة في البرمجة والتطبيقات.. تقيم في قبرص وهي مدير تنفيذي في المركز الإقليمي بقبرص، لكنها حالياً تفكّر في مشروع آخر..

بعد قليل من الوقت استغرقه في الابتسamas ومصافحة الزملاء وهم يعودون إلى مكاتبهم، قال لي:

- الآن سنصل إلى مكتبي وستصعد معنا السيدة سمي. لدينا اجتماع مع كريم بك والشيخ رشدي العطار..

*** *** ***

لكي أقرب لكم الصورة، يشبه مصعب الصرف في تفاصيل وجهه وضحكته البشوشة وشنباته الخفيفة، وزير خارجية بلاده حمد بن جاسم آل ثاني، لكنه أقصر منه بمقدار ثلث مترا.. فمصعب الذي لا يتتجاوز المتر وستين سنتاً يبدو بدينا مع أنه ليس كذلك. إنه ممتليء إلى حد ما. عضلاته لاتزال مشدودة وحتى بطنه لا يبدو لا بارزا ولا منتفخا.. لذلك غالباً ما يعوض عن قصر قامته بلباس حذاء مرتفع. وتبرز إحدى مواهبه مصعب في أنه رجل رغم ثروته الكبيرة، فإنه يبدو دائماً متواضعاً وقريباً من الذين يعملون معه، لكن لديه عيوب كثيرة يعرفها أناس مقربون منه، وأخرى لا يعرفها إلا من اقتربوا منه أكثر.. يأكل بسرعة ويلتهم الطعام دون أن يمضغه.. يرتدي قمصاناً مشجرة ويصر على ربطه العنق أن تكون ملونة أيضاً.. يطارد النساء ثم يتركهن حين يصبحن ناضجات وجاهزات.. يختفي عن الأنظار دون استئذان ويغير من أرقامه فوراً فلا يعود ممكناً العثور عليه.. وثمة شيء آخر أعرفه عنه شخصياً، انه كثير الشخير عندما ينام.. وتنتابه بعض الهمسات أو الكوابيس من حين لآخر.. توجد الحياة كلها في طرف لسانه وفي حساباته البنكية، لا يغير للعلاقات العاطفية أي اهتمام كبير.. كل شيء يبدأ وينتهي عند غزوته أو غزوتين.. لياقتة البدنية جيدة ومع ذلك فهو ضعيف الأداء وبارد الأحساس، ولا يملأ قلبه إلا الحديث عن الصفقات والأعمال. قال لي عدة مرات أنه يحب زوجته لكنه يستعين عليها بالسفر والغيابات الطويلة.. فالزواج لم يكن لديه إلا بمثابة محطة صغيرة توقف

بها ذات يوم ثم تجاوزها.. عاش مع الزواج انكمashات صادمة ولم ينفتح مجددا عن النساء إلا حين عاش في المغرب. هناك بدأ يولد من جديد.. ولكن حين ولد رأى نفسه فوق الحب بشكل صارم.. بعد ذلك اتجه إلى أمريكا فرأى حياة أخرى ولكنه لم يندمج فيها تماما، قال لي: نحن أبناء الخليج نشبه نساءنا.. ما إن نصل إلى أوروبا أو أمريكا حتى نزع عباءاتنا ونرميها جانبا. وحين يأتي وقت العودة نعود لتنظيفها وننكوتها ثم نرتديها لنزل بها متخصصين في مطارات جدة والدوحة والرياض والمنامة.. أكمل تعليمه في جامعة كولومبيا، قسم التجارة والإدارة والأعمال. تخصص في قسم إدارة الأزمات. وحين عاد إلى الدوحة، وجد أن بلاده قد تحولت إلى قوة عظمى في البناء والجسور والبني التحتية.. شعر بالفخر لأن ما رأه في أمريكا وهو نتاج قرون من العمل قد رأى ما يشبهه في بلاده وقد تم خلال عقد فقط من الزمن.. عائلته تنتمي إلى أكبر العائلات المرتبطة بشرق السعودية. وله أبناء عمومة موجودون كذلك في البحرين، لذلك لم يجد صعوبة في الانطلاق: بلد غني وطموح، أمير قوي وعنييد وعائلة ثرية ومتقدمة ثم مناخ عالمي مناسب ومتناسب مع طموحاته.. وما إن أتي ما يعرف بالربيع العربي، حتى أصبح رجلاً متميزاً في عالم الأعمال.. رجالاً لم يتخيّل نجاحه وصعوبته حتى أبوه الذي انحاز إليه وشجعه أمام إخوته الآخرين..

والاليوم، إذا كانت حصيلة زواجه العاطفية فارغة، فإن حصيلة حساباته البنكية مليئة جدا.. إنه سريع الخطى ويتمتع بحسنة سادسة في الأعمال. ويحظى بمصداقية وكذلك بمحظة من الأمير

الحاكم مباشرة، ولكن مصعب القوي والناجح والعنيد والمنفتح، لم أره خجولاً جداً، مطاطئ الرأس وغير مستعد لا للنقاش ولا حتى لإطلاق نكتة، مثلما رأيته في ذلك الصباح، أمام الشيخ رشدي العطار.

كان كريم كروان بك قد سبقنا إلى مكتب الشيخ رشدي العطار واتخذ مقعدها له قبالته على طاولة الاجتماعات المنتصبة في الجانب الآخر من قاعة المكتب الضخم ذي الستائر البيضاء التي يتلاعب بها نسيم الصباح القادم من البحر.. ولا بد أن حديثاً كان يدور بين هذين الرجلين قبل أن نقطع وحدتهما وندخل عليهما: مصعب الصراف ثم أنا، ستيفاني وسمى عبد الصمد.. قام الشيخ رشدي ليسلم علينا ويجلسنا على مقاعدهنا، أما كريم بك فاكتفى بالمصافحة وهو جالس مكتفياً بانحنائه ومنتذراً لعدم الوقوف بسبب تورم في ساقه..

افتتح الشيخ رشدي ذلك الاجتماع بالترحيب بي مطولاً وقال أن الشيخ مصعب حدثه عني وهو يثق في مهاراتي المهنية كثيراً.. ثم مضى مباشرة إلى موضوع الاجتماع قال:

- علينا أن نناقش اليوم نقطتين أو ملفين كما علينا أن نخسم أمرهما اليوم. الأول هو موضوع إمكانية إيصال الأنترنت إلى شمال وشرق سوريا ثم إلى شمال وغرب العراق. في تلك المنطقة من حلب إلى دير الزور ثم من الموصل إلى الفالوجة لا تصل الأنترنت. وعليينا أن نجد طريقة لإيصالها.. أما الموضوع الثاني فيتعلق بإنجاز بعض الأفلام الوثائقية عن ساحات القتال في تلك المناطق وعن معسكرات التدريب والتجنيد وكذلك عن الحياة العامة في

المناطق التي توجد تحت منظمات «النصرة» و«داعش» ثم عن مخيمات اللاجئين في الأردن وتركيا..

بعد أن أكمل حديثه، مرر الشيخ رشدي الكلمة إلى مصعب الصراف. لم يجد الصراف نفسه حتى في شرح ما قاله الشيخ رشدي، فالتفت مباشرة إلى السيدة سمي عبد الصمد قائلاً:

- نريد أن نفهم موضوع الأنترنت من السيدة سمي.

فتحت سمي عبد الصمد الملف الذي وضعته أمامها ثم تكلمت بثقة كبيرة:

- كما يعلم السيد كريم والسيد مصعب، فقد أمضيت نحو شهر في دراسة هذا الموضوع. سافرت إلى قبرص لأطلع على الشركات الخاصة ببيع خدمات الأنترنت والتقيت مع وسطاء في بيروت قاموا بنقل خدمات الأنترنت إلى لبنان خارج سلطة الدولة.. ويمكنني الآن أن أقول أنه بالإمكان التعاقد مع شركة وساطة وخدمات لإيصال الأنترنت إلى تلك المناطق..

سألهما كريم بك:

- مع من سيتم التعاقد في هذه الحالة؟

- معي.. عفوا مع الشركة التي قمت بتأسيسها مؤخراً في قبرص. إن عملي كمديرة تنفيذية في غوغل الإقليمي قد مكنني من الحصول على امتياز الخدمات الخاصة بغوغل.

- معنى هذا أننا لا بد أن نبرم تعاقداً مع شركتك لكي نحصل على هذه الخدمات.. قال كريم بك..

أضاف الشيخ رشدي:

- وكم يجب من الوقت لكي يبدأ التنفيذ والإرسال؟

- خلال ثلاثة أسابيع يفتح إرسال الخدمات.. ويبقى على المتواجدين هناك أن يقيموا محطات إرسال ثابتة أو متنقلة لتتلقي خدماتنا.. لن يكون الأمر صعباً البتة.. في لبنان تصل الأنترنت عبر شركات كثيرة منها ما هو تحت رقابة الحكومة ومنها ما هو خدمات موازية خارجة عن سيطرة الحكومة، لا بل لا تعرف بها..

التفت الشيخ رشدي إلى مصعب وسأله عن رأيه، فلم يتأنّر عن إعطاء موافقته المبدئية، على أن تتم دراسة كل التفاصيل الفنية والمدة الزمنية وطاقة البث والإرسال ونوعية هذه الخدمات وكيفية الاستخلاص. وإلى ما ذلك..

- طيب، إذن ننتقل إلى موضوع الريبورتاجات والخدمات الإعلامية.. قال الشيخ رشدي ثم طلب من ستيفاني أن تمده بمقترحات إذا كانت قد اعدت شيئاً..

قالت ستيفاني:

- نعم.. فكرت حالياً في نوعين من الريبورتاجات، الأول دعائي، والثاني إنساني، أضافت شارحة ما تعتقد ضروريًا في الوقت الحالي.

- إن العالم كله يتحدث عن داعش لكنه لا يعرف عنها شيئاً محدداً غير كونها منظمة إرهابية، متعصبة دينياً.. تقتل وتذبح وترغم الناس على الشريعة وتتاجر في التهريب من النفط إلى الأعضاء البشرية إلى الآثار. وهنا لا بد أن نكشف عن الوجه الآخر لداعش.. ما هي أهدافه؟ كيف يدير المناطق التي يسيطر

عليها؟ ما نوعية التعليم الذي يشرف عليه؟ من أين يأتي بالمقاتلين، كيف ينظم حياة الناس. الخ.. ثم لا بد أن نذهب إلى المخيمات لكي ننقل آلام الناس في محاولة للضغط على الحكومات.. إن المخيمات تمتلئ بالمسنين والمهمشين والأطفال. وهؤلاء لا بد أن نعتني بهم حتى يعرف العالم آلامهم وعذاباتهم..

وختمت ستيفاني كلامها بالقول:

- لدى سيناريوهات رأيت أنه لا بد من إنتاجها خلال مدة قصيرة، خاصة وأن خدمات الأنترنت ستتصبح متوفرة في هذه المناطق في مدة قريبة..

آنذاك أخذ الشيخ رشدي العطار الكلمة مرة ثانية، ولكن لكي يأمرنا بالانصراف على أن نعود بعد يومين لاستكمال الإجراءات الفنية.. ثم التفت إلى مصعب وكريم بك قائلا لهما:

- لا بد أن نبدأ هذه الإجراءات المادية لتأسيس الشركة.. لم يعد أمامنا وقت كثير.. ثم فتح أيفونه وبدأ يتكلم مع الرياض..

الفصل الثاني عشر ■

بعد نحو ثلاثة أسابيع من مباشرة عملِي في إسطنبول، كان علي أن أسافر إلى الموصل. كنت أرى نفسي كما لو أنني أتدرج إلى الهاك ولكن بلا مقاومة. الآخرى أن أقول كنت راغبة في تلك الرحلة حتى وإن كانت مرهقة وذات مخاطر عالية.. مصعب هو الذي اختار أعضاء الفريق الذي سيسافر إلى الموصل.. أخبرني قبل موعد السفر بيومين فقط.. قال لي حين زارني في شقتي:

- سيكون قائد الفريق باشكيير آغا. وستذهب معك مرام حسن والصحفي حبيب روباري والكاميرا مان سفيان التونسي.. ستتجدون كل شيء جاهزا.. وأنا على يقين أنكم ستقومون بعمل جيد وجبار. إنني أعتمد على ذكائك وشجاعتك.. صمت قليلا ثم أضاف:

- ما ستقومين به سيجعلك نجمة في عالم الصحافة.. وغدا سيصبح رصيدا تاريجيا في مذكراتك.. إنه المادة الأولى والطريقة لكتابة التاريخ..

كان بإمكانني في تلك اللحظة أن أقاوم ذلك العرض الذي كان في شكل مهم. وبما أنني كنت راغبة في القيام بذلك، فقد اكتفيت بسؤال واحد:

- هل هذا الاقتراح من عندك أو من عند الشيخ رشدي العطار..
أجابني:

- في المحصلة، لقد تم اختيارك.. لا يهم إن كان مبني أو من الشيخ العطار.. وفي كل الأحوال علينا أن نحترم التراتبية التي يفرضها تقسيم العمل داخل شركتنا.. الشيخ العطار هو كما تعرفين رئيس مجلس الإدارة، وأنا المدير التنفيذي.. وكريم كروان، عضو مجلس الإدارة ونائب مدير تنفيذي.. أظن أن هذا قد أصبح واضحاً.

هكذا انتهى الحوار بيني وبين مصعب. ولم أر أن أموراً كثيرة قد تغيرت في الفترة الأخيرة إلا حين وصلنا إلى الموصل. ورغم أنني متابعة جيدة للسياسة العربية إلا أن ما حصل قبل نحو ثلاثة أشهر من صعود ملك جديد في السعودية، قد فرض ذلك التغيير في التراتبية وتقسيم العمل والمهام.. كان هناك من يعتقد منذ بدء الربيع العربي أن قطر سوف تلعب طويلاً وسوف تخلق في سماءعروبة كما لو أنها قائدة لهذا الربيع.. ولكن في النهاية سرت السعودية كل شيء.. بدا لي أن فكرة الكازينو التي كان يتحدث عنها زوجي السابق مراد عباس صحيحة. فهو الذي كان يقول لي: انتبهي لا أريد أن تخطئي.. اللاعبون كثُر، ولكن الكازينو هو الرابع الوحيد والكبير!..

وصلنا إلى مطار «ديار بكر» في المساء. وهناك وجدنا سياري توبيوتا رباعيتي الدفع في انتظارنا.. كل سيارة بها سائق وحارس. باشكيرو وسفيان التونسي ركباً في سيارة.. وأنا ومرام وحبيب ركينا في سيارة ثانية.. وكان لا بد أن نذهب من «ديار بكر» إلى «ماردين»

لنعم ليتنا هناك.. الساعات الثلاث التي قضيناها على الطريق كانت مرهقة، لأن اللهفة للوصول إلى ماردين لم تكن تناسب مع السرعة.. ذلك أن الجو كان باردا جدا وعاصفا.. ثم أن الطريق المنعرج بين الهضاب والجبال جعلنا نتذمر منه.. بالإضافة إلى ذلك فقد كنا نضطر أحيانا للتوقف في عرض الطريق حتى تمر بعض الأبقار. كان من الممكن أن أسأل حبيب ما إذا كان رعاة البقر لا يخافون من هجوم الذئاب في هذا الوقت المتأخر، ولكنه قال لي متطوعا: هذه الأبقار مسروقة.. إنها ذاهبة إلى المسلح.. سوف تصل قبلنا إلى سوريا..

بعد قضاء ما تبقى من ليتنا في ماردين في فندق أقيم على قمة جبل، انطلقنا باكرا نحو القامشلي، نقطة الحدود بين تركيا وسوريا.. آنذاك قال لنا السائق بلهجة مطمئنة..

- الآن سدخل إلى الأراضي السورية.. وسوف نمر على طريق جبلي تحت سيطرة جبهة النصرة.. ليس ثمة ما يقلق رحلتنا. إنشاء الله سنصل إلى الموصل في أقل من ثلاثة ساعات..

وبعد نحو ساعتين بطيئتين جدا وصلنا إلى مدينة سنجار التي لا تبعد كثيرا عن الموصل. تركنا الحسكة على الغرب ثم انحدرنا شرقا نحو سنجار.. توغلنا أكثر نحو الشرق، فلاحت لنا الموصل من بعيد كما لو أنها تنتظر من بعيد موكب هارون الرشيد.. كنا نطرد الخوف أحيانا بثرثرات تافهة وسخيفة أو بضحكات هستيرية، ولكن ليس الخوف فقط الذي كان يوحمنا، بل يجب أن نقول، أن شعورنا بالفخر والتميز ونحن نسير في أرض داعش التي لم

تهزمها جيوش ستين دولة مجتمعة هو الذي كان يوحدنا ويبعد علينا الخوف. ازداد فخرنا كلما توقفنا عند حاجز ما. فما إن يظهر الحارس بطاقة مع كلمة السر حتى تفتح الطريق أمامنا.. وبالتأكيد لم تكن تحت العناية الإلهية وإنما كنا تحت العناية الدولية التي تحتاج إلى أكثر من رحلة مرهقة لكي نستطيع فك شيفرتها!!

ولكن الموصل ليست مجرد مدينة كبيرة ومتراحمية وذات كثافة سكانية وغنية بثرواتها وتجارها وتقاليدها.. إنها توجد عند عقدة الطريق بين العرب والفرس والأتراك، وهي تستلقي على ضفاف نهر دجلة منذ آلاف السنين.. فقبل نحو ثلاثة آلاف عام وما يزيد، كانت عاصمة للأشوريين. ثم استولى عليها الكلدانيون قبل ميلاد المسيح بسبعة قرون.. وخلال تلك القرون امتلأت بالمحصون والقلاع حتى جاء عصر الإسلام فأضاف لها رباطات كثيرة. لم تسلم الموصل في كل حرب كبيرة بين شعوب تلك المنطقة من الدمار. الكل كان يريد السيطرة عليها لأنها مفترق الطرق والتجارة والمياه.. حكمها الفرس والروم ووصلت إليها حتى جيوش الإغريق.. ثم استسلمت للعرب منذ زمن بعيد، لكنها لاتزال تناور من أجل أن تعيش في سلام بدا مستعصياً عليها عند كل احتكاك. الموصل التي لاحت أمامنا ونحن نهبط من القمم نحو السفوح، هي الموصل التي بناها العرب، وهي الساحل الأيمن لنهر دجلة. أما الموصل القديمة والتي تقع على الساحل الأيسر، فهي تعرف بنينوى. يقال أن الأكاديين هم الذين أطلقوا عليها ذلك الاسم الذي يعني الخصب والتواصل.. أعتقد أن العرب قاموا بترجمة الكلمة.. فالخصب والتواصل هما الميزتان الكبيرتان

لأرض الموصل. دخلها العرب المسلمين من تكريت.. وجاءت قبائل تغلب والنمر من جنوب الأنبار. توسيع في عهد الأمويين وعاد إليها بريقها التاريخي القديم.. في العهد العباسي دارت فوقها حروب لا تمحي من الذكرة. بعد ذلك عادت إلى السلام. انضمت إلى إمارة حلب في عهد أبي فراس الحمداني. وأصبحت أهم مصدر للغذاء إلى بغداد.. سيطر عليها السلجوقية الترك لفترة فعاشت نحو ثلث قرن تحت الخراب والخوف، رغم ذلك فقد شاركت في رد الصليبيين.. وفي عهد عماد الدين زنكي الأيوبي عاد النظام إليها وكذلك التجارة والزراعة والعلم. لكن المغول حين هجموا عليها من الشمال والشرق أذاقها كل أنواع العذاب والإذلال. دارت أبشع أنواع الحروب في ذلك العهد، كما لو أن ما يحدث الآن ما هو إلا نسخة كربونية عن تلك الحقبة السوداء. استباحها المغول فقتلوا أهاليها وشردوهم نحو الجبال والصحاري، ولم يسلم أزidiyo سنجار من بطشهم.. بعد نحو قرنين من حكم المغول، ظهرت دولتان على أرض الموصل. عرفت الأولى بدولة الخروف الأسود، والأخرى بدولة الخروف الأبيض.. لم يفهم أحد من الأهالي في ذلك الزمان مثل هذه التسميات.. بدت لهم من نسج المغول حين اختلفوا قادتهم من الجيل الرابع في الحكم. ثمة من قال أن الخروف الأسود يمثل المغول الذين ينحدرون من منطقة جنوب الصين وأن دولة الخروف الأبيض هي التسمية التي اختارها التتار، وهم مغول منطقة الشمال.. وفي نهاية قصة تلك الدولتين، اتضح أن حرب الخروفين كانت بين الفرس والترك.. أو بين الشيعة الفرس سادة آل البيت (العمامة السوداء) والسنّة الأتراك.. فما إن سيطر

الصفويون الفرس على العراق، حتى انتهت قصة الخروفين اللذين ظلا يتناطحان على الأرض العراقية طويلا.. بل لا زالا حتى الآن، إن تاريخ العراق الدموي هو تاريخ الموصل مكتفأ ومحثرا بالدم. من الأشوريين إلى البعثيين ثم إلى ما بعدهم، عصر الملالي والباشوات والعقلات والقبعات.. حين تفقد بغداد قوتها وأبهتها تصبح محزقة بين البصرة والموصل، وقد تكون بغداد أقيمت كعاصمة لجسم ذلك الصراع القديم والمتجدد، ولكنها حين أصبحت مجرد مربع أخضر للسياسيين المتآمرين والمحاسدين والمتخاصمين باستمرار، عادت كل من البصرة والموصل إلى ذلك الخصم الدموي اللعين..

وللحقيقة لم افهم حكاية داعش، أو على وجه الدقة لم أبدأ في تهجي شيفرة داعش إلا بعد وصولي إلى الموصل بنحو ثلاثة أيام.. استوقفتني سيدة في إحدى المحلات التجارية وكانت غارقة في رداء أسود، لا يظهر منها إلا وجهها النحيف والأبيض، أدركت أنني لست من سكان الموصل من خلال لباسي (بطلون جينز، وجاكته طويلة إلى ما تحت الردفين وحذاء رياضي ثم فولار زهري على رأسه) فتشجعت للكلام معه.. ابتعد باشكير الذي كان يرافقني مع الحارس، فسألتهني:

- هل أنت سائحة؟

قلت لها:

- أنا صحفية.. جئت لأتعرف على مدینتكم..

قالت وهي تدعولي بالتوقيع في مهمتي..

- هل ستطول إقامتك هنا؟

- ليس لدي أية فكرة..

قالت بشيء من الأسف..

- يؤلمني أنني لا أستطيع استضافتك..

تملّكتني خجل من كلامها، فقلت لها وأناأشكرها..

- لا بأس، لا بد أن الأمور ستتغير.. يا..

- أنا اسمي زينب.. طبيبة أطفال. ورسامة.. عيادي هدمت ثم نقلت للعمل في إحدى المعسكرات البعيدة.. أما مرسمي فقد دمر وحرقوا جميع لوحاتي.. وعقابي هو أن أعمل كطبيبة في أحد المعسكرات بلا مقابل أربعة أيام في الأسبوع..

خلال حديثنا القصير، كانت زينب تنظر مذعورة في جميع الاتجاهات.. وحين رأت فرقة من شرطة النساء تركتني واختفت في الزحام.. بلا اعتذار..

*** *** ***

يشبه حاكم بغداد في كل العصور عازف الأكورديون. إن كان متمكنًا من النوتة والسيطرة على جناحي تلك الآلة الموسيقية وقدرا على النفح القوي لتوليد الأصوات والنعمات، فإنه سيكون قادرًا على عزف سمفونية العراق.. وإن لم يكن متمكنًا من ذلك، فإن الناس لن يحضرها إلى نشيد سمفوني قوي ومتماسٍ، وإنما سيستمعون إلى مناحات وأصوات حزينة ومتداخلة.. يعلق العازف هذه الآلة على صدره بحملتين توضعان على الكتفين ثم يمسك الآلة من الجناحين اللذين يتحرّكان بوساطة منفاخ يدفعه

العاذف ويسحبه بيده اليسرى، وتحرك اليد اليمنى لوحة الأزرار اليمنى المخصصة للألحان الرئيسية فيما يستخدم يده اليسرى لتحريك لوحة أزرار الأصوات المنخفضة. وهنا يحدث الانسجام الصوتي.. هذه الآلة الموسيقية هي حديثة جدا بالمقارنة مع آلات أخرى. اخترعت قبل قرنين فقط، ولكنها لم تشتهر إلا أثناء الحرب الأولى، حتى لتبدو كما لو أنها اخترعت من أجل حاكم العراق الحديث. فهذا البلد يقع بين قوتين جامحتين هما إيران وتركيا.. وكانت أرضه منذ عهود طويلة ساحة حرب لكل غزاة العالم القادمين من الشرق أو من الغرب.. ولربما لم يؤسس العباسيون عاصمتهم بغداد في المنطقة الوسطى من هذه الأرض إلا لكونهم كانوا على وعي، بأن حاكم بغداد عليه أن يعزف بكلتا يديه نحو الجنوب ونحو الشمال لكي يحفظ العراق بانسجامه. وطبقاً لذلك فإن ما يحدث الآن في الموصل هو نتيجة خلل قام به حكام بغداد خلال عزفهم المختل.. ارتفعت الأصوات المنخفضة ثم انخفضت الأصوات الأساسية العالية.. فحين أصبحت البصرة ومعها الكوفة وكربلاء أكثر حضوراً، راحت الموصل والفالوجة ومنطقة الأنبار تختفي أو تتهشم.. ولم ينتبه حكام بغداد إلى ذلك الخلل الهازموني، إلا حين خرجت الموصل عن سيطرتهم وبدا لهم أن لوحة الأصوات الرئيسية قد أصبحت معطلة تماماً.. وهكذا لن تجد بغداد انسجامها إلا إذا أعادت الانسجام بين البصرة والموصل.

كنت أفك في تلك المعادلة الموسيقية التي يعزفها الأكورديون، التي لطالما استهوتني نغماتها حين كنت صغيرة وأنا أستمع إليها في بيت جدي، وكذلك أمام كنيسة - سان سيلفستر - المقامة في

حينما وكذلك في المدرسة أثناء الاحتفال بقدوم العطلة المدرسية..
حين جاء باشكيير آغا ليقول لي وهو على غایة من الانشراح..
ـ لقد تحدد موعد لقائك مع خليفة المسلمين أبو عمر العدناني..
أضاف قبل أن أسأله متى ذلك:

ـ سنبقى جاهزين.. لن نغادر البيت حتى يحين موعدنا.. سوف
يرسلون من يحملنا إلى مكان الخليفة..

ناديت في الحين على سفيان وكذلك على حبيب لأخبرهما بأننا لا
بد أن نكون جاهزين.. طلب حبيب أن نجلس معاً لنعد محاور
الأسئلة.. ونقسم العمل فيما بيننا.. وقبل أن نبدأ في إعداد محاور
الأسئلة التي سنلقيها على أبو عمر العدناني، كان لا بد أن نلقي
نظارات سريعة على القنوات التلفزيونية. كان الحدث الأكثر فاجعة
في جميع نشرات الأخبار هو الانفجار الذي حدث بأنقرة بالقرب
من ضريح كمال أتاتورك. لقد أودى بحياة جنود وضباط كثيرين..
ثم وزعت الاتهامات على الجانبيين: حزب العمال الكردستاني
وداعش.. الفاجعة الثانية كانت انفجار في سوق خضار
بيغداد فاق ضحاياه الـ150 شخصاً.. وضعفهم من الجرحى.. أما
الخبر الثالث، فهو المتعلقة بالقصص الروسي لبعض قوا عد وغرف
عمليات النصرة وداعش في وسط وشمال سوريا وساحلها.. ما تبقى
من الأخبار: أورددغان يتوعّد حزب العمال، أو بما يغمز إلى اتفاق
توقف إطلاق النار مع بوتين.. وال سعودية تكشف من غاراتها على
منطقة مأرب والعاصمة صنعاء..

في الصالون، عاد حبيب وستيفاني ليلتقيا من أجل إعداد

أسئلتهم. تناقشا فيما لو رفض أبو عمر العدناني أن يكون اللقاء مصورة.. ورأت ستيفاني، أنه لن يرفض ذلك لأنه كثيراً ما يظهر وهو يخطب في صلاة الجمعة أو في بعض المناسبات الدينية.. أما حبيب رودباري فرأى أن يجهز نفسه لأية مفاجأة لأنه من الممكن أن يستبدل أبو عمر العدناني بديل له.. وقال مازحاً:

- ضعي نفسك مكانه.. أنا مثلاً لو كنت مكانه لأرسلت شخصاً آخر ليجيب عن أسئلتنا..

- تقصد أن يرسل بديلاً له.. شخص يشبهه ويتحدث مثله..

- ولنفترض ذلك! كيف سنعرف إن كان الذي سنلتقي معه هو أبو عمر العدناني الحقيقي أو بديل له..

فعلاً، نحن ذاهبون إلى رجل لا نعرف عنه إلا النذر اليسير.. عاش ومات الملا عمر زعيمطالبان، ولم يلتقي بأي صحفي، حتى قيل أنه مجرد نسج خيال.. فالملا عمر ما هو إلا بن لادن آخر. كانت القاعدة توحّي بأن هناك زعيمًا أفغانياً هو الملا عمر، ولكن ثمة من شكك في ذلك إلى حين اصطاده الطيران الأمريكي في إحدى وديان قندهار.. انتهى بن لادن ثم من بعده الملا عمر، لأن الأمريكيين لم يعودوا في حاجة إليهما.. واليوم تكثر الإشاعات بين الحين والآخر حول مقتل أبو عمر العدناني.. وقد يكون قتل فعلاً في إحدى الغارات، ولكن داعش لا تريد أن تفصح عن ذلك حتى لا تنهر هيبتها.. أو لأن الأمريكيان لا يريدون أو لا يملكون الدليل القاطع على مقتله.. صحيح أنه ظهر في مناسبات عدّة.. ولكن من يؤكّد للناس أن ذلك الشخص الذي يقال أنه أبو عمر هو أبو عمر نفسه..

حسب باشكيير آغا الذي عمل إلى جانبه كحارس شخصي لمدة نصف عام، ثم كلف بمهام أخرى خارجية بين الموصل وإسطنبول، فإن أبو عمر قد أصبح أكثر حيطة من ذي قبل.. أي قبل نحو عام. فهو يتوقع اغتياله في أية لحظة ويستبدل حراسه في كل أسبوع أو أسبوعين. كما يستبدل أماكن نومه وعمله باستمرار ويضطر أحياناً إلى التخفي حتى في ألبسة رياضية أو رداءات نسائية. أما الأشخاص الذين يعرفون مكانه فهم بعدد أصابع اليد ولا يملكون أية وسائل اتصال فيما عدا جهاز صغير يربطهم بمركز الحراسة مباشرة..

سألت حبيب عن مرام التي رافقتنا من إسطنبول إلى الموصل، فقال بأنه لم يرها منذ ما قبل البارحة.. ثم أعرب عن شكوكه ما إذا كانت مرام تنام في نفس البيت الذي ينامان فيه وقال:

- أظن أن مرام تغادر البيت في الليل ثم تعود إليه في الصباح..

سألته باستغراب:

- كيف عرفت ذلك؟

حكي لها ما شاهده بأم عينه وهو جالس في الصالون بصدور قراءة رواية «الأليف شافاك»، قال:

- رأيتها مرتدية عباءة سوداء كانت تغطي حتى وجهها، ولكنني عرفتها من مشيتها. جاءها رجل ومعه امرأة أخرى محجبة ثم اصطحبها معهما.. سمعت بعد ذلك محرك السيارة حين انطلق السائق بقوة.. وقد طال جلوسي في الصالون حتى ساعة متأخرة من الليل، لكنها لم تعد.. سكت حبيب دون أن يضيف شيئاً

وتركتني معلقة على أسئلة كثيرة.. آنذاك صدقت ما قاله لي مصعب الصراف بأن مرام حسن تعرف أبو عمر العدناني جيداً.. وقد تلقت تدريبات كثيرة، وهي كانت تشرف على كلية لتدريب البنات عن القتال.. وأنها قد تكون تعرفت على أبو عمر العدناني منذ أن كانت في الرقة! ولكن مصعب لم يقل لي ما إذا مرام تعرفت إلى أبو عمر ثم جاءت إلى إسطنبول. أو أنها جاءت من حلب إلى إسطنبول ثم وقع تجنيدها وإرسالها إلى أبي عمر في الموصل.. ثم عادت إلى إسطنبول لمهام أخرى..

قلت لحبيب:

- كيف تقيم هذه السيدة؟

قال:

- حين تكون في إسطنبول تبدو لي كعازفة بيانو.. والآن تبدو لي كجاسوسة.. كما تأهارتني.. هل أنا مخطئ؟

ضحكـت لما قاله حبيب وفي نفس الوقت تذكرت ما قاله لي مصعب بلسانه نacula عن مرام، قال لي: أنت ستلتقيـن بـرجل جعل كل العالم يقف على ذيله كالكلب.. إنه لا ينام أبداً في المكان نفسه أو في المكان الذي يعيش فيه. كما أن طعامه يتم إعداده في عدة أماكن مختلفة وغير متصلة ببعضها بعضاً.. وله العديد من متذوقـي الأكل حتى لا يتم تسميمـه.. وهو لا يخرج أبداً إلا إذا كان مرتدـيا بدلة مضادة للرصاص.. ويـشترك مع الفنان محمد عبد الوهـاب والمليـاردير «هـوارـد هوـغ» وـصـدام حـسـين وـسـتـالـين في هـوس مـرضـي، يـسمـى «ـبـهـوس الصـابـون». إنه يـغـسل يـديـه كلـما صـافـح أحد

الأشخاص إذ يخشى أن يقع تسميمه عن طريق نقل مواد مسممة عبر الأصابع.. كما حدث لكاстро ذات مرة وكما وقع تسميم شافيز مؤخرا.. ولكي يكون جاهزا باستمرار في كثير من المناسبات، فإن لأبي عمر أشخاصا يشبهونه شبهها غريبا يحلون محله.. وقلة من الحضور من يمكنون قادرا على التمييز بين الصحيح والمزيف (كان ستالين يفعل ذلك باستمرار.. وكان يكشف أعداءه وسط المكتب السياسي بتلك الطريقة.. فتمكן من إعدامهم جميعا فيما عدا اثنان هما: كروتشوف الذي حل محله ونكل به تنكيلا لأنه كان يتزم الصمت وكان يعتقد أن الشخص الذي يرأس المجتمعات هو ستالين حتى لو لم يكن ستالين. والشخص الثاني هو بيريا رئيس الكا.جي.بي الذي كان يعرف أيهما ستالين الحقيقي وأيهما المزيف)..

أقنعت نفسي أولاً بأن ذلك ليس مهما.. فحتى لو تحدثنا إلى شبيه أبي عمر، فإن الناس لا يعرفون إن كان الحوار معه أو مع شبيهه.. ثم حاولت أن أقنع حبيب فقلت له:

- ما الذي يهم.. ولنفترض أننا سنتحدث مع شبيهه. المهم أن ما سوف يقوله، هو ما كان يجب أن يقوله أبو عمر العدناني الحقيقي.. لا تتعب نفسك بهذا الإشكال!.. نحن لم نأت لا لكي نغتاله ولا لكي نتأكد من شخصه وإنما لكي نحاوره..

قال حبيب:

- كمال أتاتورك كان له أيضا بدلاه. ولكن بعد فترة وحين صار محبوبا بين الناس تخلى عنهم.. وكان أحيانا يتخفى في لباس

الشيخ.. وحين تعرض بيته للهجوم، خرج في عباءة نسائية بعدها ألبس لطيفة خانم بدلة عسكرية وكاسكـيت وأوقفها على الشباك خلف ستائر بيضاء شفافة فوق صندوق من البرتقال جلبه من المطعم، لظهور طويلة وشبيهة له.. ولما أفلت من الذين جاءوا ليلقوا عليه القبض عاد ليداهمهم من الخلف بعد أن جلب لهم كتبـية مقاتلة من إحدى المعـسكـرات..

بعد ذلك روى لي ما كان يفعله صدام مع بدلائه. حين فرض الأطباء على صدام تمارين رياضية لتخفيض وزنه بسبب آلام حادة في ظهره. أرسل بدلائه إلى الركض يوميا حتى ينخفض وزنه. أما هو فقد فرض على نفسه حمية صارمة. بعد فترة اكتشف أن وزنه خف بنحو 12 كلغ فأصبح يبدو أكثر طولا وأكثر شبابا. أما بدلاؤه فقد ظل وزنـهم كما هو بدون نقصـان.. آنذاك طالب جميع وزرائه وضباطـه بتخـيف أوزانـهم وسمـى ذلك بـحـقبـة التـرشـيق! نـيـرونـ كان يـحبـ أن يـخـضرـ الأـلـعـابـ الـأـولـيـةـ ويـشـارـكـ في اـفـتـاحـهاـ في سـبـاقـ العـربـاتـ، وـلـكـنـهـ ماـ إـنـ يـخـضرـ، حتـىـ يـتـمـارـضـ جـمـيعـ الـرـياـضـيـنـ، وـتـصـبـحـ جـمـيعـ الـعـربـاتـ غـيرـ مـهـيـأـ لـلـسـبـاقـ خـوـفاـ منـ أـنـ يـصـلـ نـيـرونـ فيـ الـمـرـتـبةـ الثـانـيـةـ فـيـعـدـمـ مـنـ سـبـقـهـ.. كانـ يـرـكـضـ لـوـحـدـهـ وـيـفـوزـ بـمـيدـالـيـاتـ الـيـوـمـ الـأـوـلـ ثـمـ يـبـدـأـ سـبـاقـ الـرـياـضـيـيـنـ!..

كـناـ أـنـاـ وـحـيـبـ نـتـسـلـيـ بـتـلـكـ الـحـكـاـيـاتـ الـتـيـ صـاحـبـتـ حـيـاةـ دـكـتـاتـورـيـيـنـ وـطـغاـةـ فيـ كـثـيرـ مـنـ بـلـدـانـ الـشـرـقـ وـالـغـربـ.. وـكـانـ يـمـكـنـ أـنـ نـتـحـدـثـ عـنـ تـشـاوـسـيـسـكـوـ الـذـيـ لـاـ يـرـكـبـ طـائـرـةـ أـوـ قـطـارـ إـلـاـ إـذـاـ كـانـ مـعـهـ رـئـيـسـ السـكـرـيـتـاتـ وـقـائـيـدـ الـجـيـوشـ وـنـصـفـ دـزـيـنـةـ مـنـ الـوزـراءـ. فـهـمـ تـرـسـانـتـهـ وـرـدـاءـهـ الـوـاقـيـ منـ كـلـ غـدرـ أـوـ انـقلـابـ.. وـتـطـولـ

القائمة من هتلر إلى بن لادن.. لو لا أن باشكيير آغا لم يهجم علينا فجأة ليقول لنا:

- موعدكم بعد صلاة الظهر مباشرة.. هل أنتم جاهزون..
هاتفت سفيان بأن يخرج من غرفته ويتفقد كاميرته.. وبطارية الإضاءة..

لكن باشكيير آغا سارع إلى مقاطعي:

- لا داعي.. كل شيء جاهز هناك. هناك سيتم التصوير. ثم يسلمون لكم نسخة على سي.دي
قلت لباشكيير آغا:

- والأجوبة، هل هي جاهزة أيضا..

ضحك ثم قال:

- الأجوبة حسب أسئلتكم يا ستيفاني.. لا أحد يتكلم في مكان خليفة المسلمين.. حتى نائبه أبو بشر القحطاني لا يستطيع أن يتكلم بالنيابة عنه..

ولأنني لأول مرة أسمع بهذا الاسم «أبو بشر القحطاني» كنائب لل الخليفة أبو عمر، فقد انتابني شعور بأن مرحلة استبدال الأحذية لمواصلة المسير قد تبدأ قريباً. وربما لم يكن لقاوئنا هذا مع أبو عمر العدناني إلا لقاء الوداع أو لقاء الانتقال.. ارتسمت في ذهني علامات مضيئة ومثقلة بالأسئلة.. ثم قلت لنفسي: بعد اللقاء قد أخرج من الاستفسارات المزركشة إلى الحقائق البذرية..

بسرعة قفزنا إلى ثلاث سيارات «رونج روفر» سوداء، رباعية الدفع. كل واحد منا في سيارة.. ثم سارت كل سيارة في طريق

مختلفة.. لنجد أنفسنا في الوقت نفسه أمام بوابة ضخمة ومحصنة تحصيناً جيداً بالمدفعية والحراسات وأكياس الرمل.

*** *** ***

رفعت الحاجز بسرعة، فدخلت السيارات الثلاث إلى سرداد طويل، ثم انفتح باب عريض وثقيل جداً في آخر السرداد.. واصلت السيارات إلى سردار آخر.. أحسست أننا صرنا بمستوى أربع أو خمسة طوابق تحت الأرض.. بعد ذلك تركنا السيارات وتمشينا نحو درج لنزل ما بين 40 و60 درجاً لنجد أنفسنا في النهاية أمام قاعة فسيحة ومضاءة بشكل قوي وجيد.. سلم علينا أكثر من شخص، أدركنا أنهم فريق التصوير والإخراج.. قادنا رجل في الثلاثين من عمره قدم نفسه على أساس أنه المخرج «مايكل»، وكان واضحاً من شكله أنه أوروبي، إلى حيث سنجلس أنا وحبيب لإجراء مقابلة. طلب منا أن نجلس لترتيب الديكور.. ثم أضاف:

- أنتما ستجلسان قبلة الخليفة.. وثمة خمسة كاميرات ستتولى تصويركم..

بعدها تكلم مع المصورين لضبط الكادر.. ثم نادى على أحد مساعديه ليتولى تجهيزنا بالميكروفونات..

وفي أقل من خمس دقائق على تجهيزنا وتثبيتنا على الكراسي، خيم صمت عميق، ثم سمعنا جلبة خلف القاعة.. أدركنا أن الخليفة قد وصل، قمنا لنسالم عليه.. كنت مصرة على أن أمد إليه يدي حتى لو ظلت معلقة.. وهكذا فعلت حين أصبح الخليفة المسلمين أبو عمر العدناني أمامنا، فالتحقق يدي وظل ماسكاً بها وهو يبتسم

متوجهاً إلى الكاميرا.. بعدها سلم على حبيب بيشاشة، وظل ينتظروننا حتى نجلس لكي يجلس هو..

وكان لا بد أن ابدأ بسؤال يحمل شحنة عاطفية لكي نتسلل إلى أعماق الرجل.. كان أستاذ في كلية الصحافة والاتصال «ريجيس دوبريه» (نعم ريجيس صديق غيفارا لا غيره) ينصحنا دائماً بإشاعة دفق عاطفي في البداية تجاه محاورك لكي تكسب وده.. وسيكون من الأفضل لو طرحت عليه في نهاية اللقاء أسئلة صغيرة حول حياته الشخصية لكي ترسم له صورة لا تمحي لدى القارئ أو المشاهد.. وطبعاً لن أنسى دائماً تلك النصيحة التي سمعتها من أحد الجنرالات وأنا أسأله: كيف يمكن لشخص خجول أن يتغلب على خجله أمام رئيس أو ملك أو قايد أو جنرال؟.. قال لي الجنرال بادنتر: بسيطة.. عليك أن تخيلي أنه يذهب إلى التواليت ويجلس كل الناس لكي يدفع بالقاذورات كل الناس..

كان سؤالي الأول للخليفة بعد الترحيب:

- لم نتوقع أبداً حسب ما قرأناه وشاهدناه وسمعناه عنكم وعن داعش، أنكم على هذا النحو من البشاشة والأريحية والتسامح.. إن الناس سيتساءلون بعد أن يشاهدو هذا اللقاء ما إذا كانت هذه البشاشة حقيقة أم ربما هي ضرورة لتسويق صورة جميلة عنكم!..

ابتسم أبو عمر ثم مرر يده على لحيته بهدوء وهو يستعيد من الشيطان، طالباً من الله التوفيق.. ثم راح يتكلّم:

- الناس يعرفون عنا الصورة التي يريد أعداؤنا إشاعتها.. سيظل

الناس ضحايا ما لم يسعوا بأنفسهم إلى الحقيقة.. إن الطريق إلى الحقيقة لا بد أن يمر بالعدالة.. لا حقيقة بلا عدالة وكذلك لا عدالة بلا حقيقة. ها أنا أمامكم. ماذا ترون أمامكم؟ هل أنا إنسان أم شيطان؟.. وعلى العموم حين يكون المرء قوياً ومؤمناً لا يعود في حاجة أن يتسلل العدالة من الظالمين.. لن يتزعزع حلمنا لأننا نراه قريباً، ولا يقيننا الراسخ، لأنه يقين رب القدس.. وأنا أقول دائماً للمجاهدين والفدائيين، كل التحام بيننا هو التحام مع الله.. لذلك فإن الجن وكثير من الإنس قد اجتمعت علينا وضدنا ولم تقدر على زعزعنا.. إن صعاليك الأميركيكان لم يعودوا يرهبونا، فكيف للأوغاد الآخرين أن يتجرأوا على محاربتنا. قلنا لهم: هذه أرضنا. وهذا ديننا ونحن أحرار أن نقيم دولة الحقيقة والعدالة الإسلامية فوقها..

صمت الخليفة أبو عمر وحدق في حبيب بعينين حادتين متوقعاً مصدر السؤال التالي، فبدأ حبيب بإسداء التشكرات إلى الخليفة على استقبالنا وإتاحة فرصة اللقاء معه ثم قال:

- إن مساحة دولتكم تمتد من نهر الفرات حتى نهر دجلة.. وهي تسيطر على ثروات عظيمة ومساحات شاسعة. لكن أغلب المراقبين لا يتوقعون لها الحياة.. إنهم يقولون عنها: شطحة من شطحات الصحراء العربية، ويصفونها بدولة السكاكيين والأحزمة النasseفة أو بدولة الدراويش الجدد. وأحياناً يذهبون بعيداً فيقولون أنها دولة العصابات العابرة للقارات.. ولا شك أن هذا يزعجكم ويجعلكم عاجزين عن الدفاع عن مبادئكم.. ما رأيكم في ذلك؟ أصغى أبو عمر بكل انتباه إلى سؤال حبيب. كانت الجدية

تبعد في أسنانه المصطفة إصطافاً جيداً. فابتسماته لا تدل على الأريحية، بل هي مجرد انفراجة بين شفتيه.. وأظن أنه بحث عن لهجة.. أو عن إيقاع لكلامه بعيداً عن أي مزاح..

- اصغوا جيداً يا أصدقائي، إذا كان الناس كلهم ضدك، فإنه من الصعب أن يجعلهم معك فوراً.. أنا أدرك تماماً أن هناك من يسخر منا ويتندر بنا، ولكن الجميع يهابنا ويحسب لنا ألف حساب، ويحاول أن يتفاوض معنا.. إذا كنا نحن مجرد عصابة، فلماذا كل هذه التحالفات الدولية وكل هذا الهرج والمرج الذي يبدأ من مقاعد الأمم المتحدة إلى غرف نوم الزعماء والرؤساء.. وإذا كنا نحن دولة السكاكيين والأحزمة النasse، فلماذا تتمتع الموصل بالكهرباء التي لا تتمتع بها بغداد.. وإذا كنا نحن دراويش جدد، فكيف لنا أن ندير دولة مساحتها أكبر من دولة بريطانيا العظمى!.. صمت أبو عمر ساحباً نفسها من الأوكسجين ثم عاد يقول على إيقاع منخفض..

- انظر يا سيد حبيب. نحن ظاهرة استثنائية لأننا لا نشبه، لا من يحاول تقديرنا ولا من يحاول محاربتنا.. نحن ظاهرة لا يمكن إدراكها عن طريق المقارنة أو الاختلاف. لسنا جماعة إخوانية ولا نحن حشاشون جدد، ولسنا حزباً مثل الأحزاب. وإنما نحن شعب يريد أن ينهض على قواعد الله ورسوله.. هذه البلاد، أرض العراق والشام والتي تسمى داعش الآن، هي أرض التأسيس الإسلامي الأول، الطهوري، العارم بالمحبة والعدالة والمفتح على الخير.. ليس بإمكانني اختزال نظام الاستثناء على عالم السياسة وحدها، ولكني أقول أن انبهاري بالعلوم والرياضيات لا يجعلني رجلاً زاهداً أو

درويشا.. لقد جربت أن أتمتع بالجمال كشكل هندي، حين كنت شاباً، ولكنني أنا الآن على قناعة تامة أن الجمال كلّه كمعنى وشكل ومحظى ليس له من اسم سوى اسم الله الحي القدوس..

أقول لكم اليوم، وصلت فكرتنا إلى كل بلاد العرب، وأصبح لنا موالون وأنصار ومجاهدون.. والحقيقة أنه لأول مرة منذ ألف عام ينفتح العالم العربي على هذه الفكرة الجامحة والممانعة.. إنها فكرة إعادة بناء الدولة الإسلامية.. ظلت الجماعات الإسلامية المتحزبة لمدة قرن، منذ سقوط الخلافة العثمانية، وهي تحلم بوضع هذه الفكرة على الواقع لكنها لم تقدر لأنها اختارت طريق المساومة والارتهان وأسلوب الملائمة والتواافق.. ثمة شيء جوهري لم يدركه هؤلاء هو: ما أسميته بنظرية بناء الذات، القائمة على نوع من الأصالة الخالصة والتجربة والمغامرة والاستثناء.. فأنا أبو عمر العدناني، لو أردت أن أكون مثل هؤلاء لقمت بخيانة ذاتي وخيانة الذات الإلهية!..

كنت قد اتفقت مع حبيب أن يترك لي الأسئلة الأكثر إثراجا فلعل الشيخ أبو عمر يكون أكثر أريحية حينما تأتي الأسئلة من امرأة، لكنني رأيت حبيب قد دخل منذ سؤاله الأول في منطقة الإثراج.. لذلك صفت سؤالي كالتالي:

- شيخ عمر.. رفعتم شعار: داعش تتمدد. ولكن بعد فترة بدا كما لو أنكم اكتفيتم بمنطقة النهرين.. لم تتمددوا لا نحو دمشق ولا نحو بغداد ولا حتى نحو الجنوب.. هل هذه هي حدود دولتكم إلى وقت آخر.. لا بل أن هناك من يراها لم تعد تتمدد، بل هي تتقلص.

- هنا ربما سأجييك بطريقة فلسفية.. ثمة فرق بين الوجود والفكرة.. إنهما مترابطان، ولكنهما متعارضان.. نحن الآن ربما في الحد الأدنى من الوجود البطولي.. ولكن فكرتنا أوسع من وجودنا.. وهنا تأتي التوترات والتعارضات وحتى الانقسامات والاختلافات.. لدينا شيء لا يقبل الانحلال أبداً.. ما نصبو إليه هو ما يصبو إليه مئات الملايين.. لا بد للزمن أن يكون جسراً بين وجودنا وبين فكرتنا.. كنا قبل عام على أبواب بغداد وكان بالإمكان الدخول إليها، ولكن تقديرنا كان يقول: أن حجم الخسائر والفضاعات سيكون كبيراً لدى أهلنا..

قلت لهم:

أتركوها.. ستسقط كثمرة ناضجة.. وبالنسبة لدمشق، كان تقديرنا أنها ستسقط بمجرد أن تسقط حلب، لكن حلب لاتزال على غيها.. لا فائدة من الهجوم على دمشق.. يجب خنقها في الشمال من جهة حلب وفي الشرق من جهة دير الزور، وبعدها سترى كيف ينتشر نظام دمشق. استطعنا أن نقطع طريق الدعم الفارسي الذي يأتي عبر بغداد إلى دير الزور. وهذا كان حاجة إستراتيجية لقطع الطريق أمام ما يعرف بالهلال الشيعي.. فعلاً ما كنا نحسب أن موسكو ستتدخل بتلك القوة. قد يكون الروس قد قطعوا علينا الطريق نحو دمشق، ولكن ذلك الأمر لا يعدو أن يكون مؤقتاً..

- وماذا عن تركيا.. إنها تبدو صديقة لكم.. كل شيء يمرّ عبر تركيا: المتطوعون والسلع والتمويل والسلاح وتجارة البترول.. ما تقوله الصحافة، أنه لو لا تركيا لما استمرت داعش ثلاثة أسابيع، بالكاد ستجد الوقت لكي تنسحب بلا خسائر.. آخرون يقولون أن

داعش موجودة في جيب الغونكور التركي.. هل هذا التوصيف صحيح ياشيخ عمر؟

ذلك السؤال طرحته رجل تركي.. صحفي تركي لا غيره. هذا يدركه جيداً الشيخ عمر، لذلك استنتاج في الحين أن الأتراك ليسوا متفقين في نظرتهم إلى داعش أو نظرتهم إلى سياسة أوردوغان.. ثم أجاب:

- تركياً دولة قد تكون صديقة.. ولكن كل دولة مضطربة أن تلائم بين تعارضات مصالحها.. نعم إننا نبيع البترول إلى الخارج.. ولكن من قال أننا نبيعه إلى الدولة التركية؟.. ثم ماذا نفعل بالبترول إذا لم نبعه.. هل نحرقه وشعبنا يحتاج إلى الأكل والتطيب والملابس؟ هل ثمة دولة واحدة لا تبيع بترولها.. ثم هناك مبالغات كثيرة حول ما يأتي من متطوعة وسلاح عبر تركيا.. نعم هناك متطوعة عرب ومسلمون من أنحاء العالم، ولكن أغلب مجاهدينا وفدائينا هم من أبنائنا.. أبناء العراق وسوريا.. وفيما يتعلق بالسلاح، فأنا على استعداد لكي أبيع من يريد السلاح. لدينا فائض من السلاح.. نحن لا نحتاج إلى دبابات أو منظومات صواريخ.. حربنا حرب غير تقليدية.. ولا حاجة لنا بأي سلاح من شأنه أن يصبح عبئا علينا.. لقد استولينا في معركة الفالوجة والموصل على ما يكفي لتسلیح ثلاثة جيوش متوسطة.. ماذا يفعل السلاح إذا لم يكن هناك من يقاتل به؟

خرقنا الشيخ أبو عمر بننظره حادة حين فرغ من الإجابة ففهمت أنه يأمرني بسؤال آخر فقلت:

- ثمة من يقول أيضاً أنكم «وهابيون جدد» بأسماء أخرى.

أي أنكم «صناعة سعودية - قطرية - تركية» مشتركة.. قاطعني الشيخ أبو عمر قائلاً:

- نحن لسنا مصنع سيارات.. ولا نحن سيارة تصنع قطعها في أماكن كثيرة ثم يجري تجميعها في مكان آخر.. لو كنا هكذا لما انتهينا منذ فترة.. ولكن هل تعتقدين يا أختنا الكريمة أنه من الممكن أن نعيش مقطوعين عن العالم حتى لو كنا بضعة أشخاص.. نحن مشروع كبير.. كبير جدا لم يكتمل بعد.. لا أحد قادر على احتواهنا.. نحن دولة ناشئة وهناك دول نتعاون معها.. ثمة دول أخرى تفاوضنا وتعاونت معنا تحت الطاولة وفي الخفاء.. وثمة دول تخاف منها فتقرب إلينا.. لدينا بالطبع أصدقاء.. وهؤلاء الأصدقاء مختلفون في حجم التعاون.. ثم هم مختلفون في تقدير مشروعنا.. هناك من يرى تعارضًا بين مشروعنا ومشروعهم.. وهناك من يتوقع حتى الصدام في المستقبل.. في عالم السياسة لا شيء نهائي.. ومن يعتقد أنها رهينة لدى البعض أو صنيعة البعض الآخر، فهو خطئ.. أبو عمر العدناني قد يموت الليلة أو في الليلة التي تليها، ولكن هناك ملايين يؤمنون بما يؤمن به أبو عمر..

- وإسرائيل يا شيخ عمر.. علاقتكم بإسرائيل مشوشه وغير واضحة.. وكثير من المتعاطفين معكم يؤخذونكم فيما ما يمكن أن يسمى بهذه العلاقة المشبوهة.. كيف لدولة إسلامية تطالب بالعدالة والتحرير من الطغاة أن تتعاون مع كيان صهيوني مثل إسرائيل.. هل هو تحالف الضرورة، أم هو تحالف الإيمان: دولة إسلامية مع دولة يهودية؟ (كنت أنقل إليه ما يفكر فيه أغلب الناس).

عبر الشيخ عمر عن تجهمه لهذا السؤال، من خلال تعقيد بسيط ل حاجبيه.. عرفت أنه متجمهم وعابس وليس متعجبا فقط من خلال هجته الحادة.

- إذا كان بلدي محتلا، فهل علي أن أذهب لتحرير بلد آخر؟ في الماضي أعتقد الإخوان المسلمين أن تحرير القدس يمر عبر أفغانستان. حتى الفلسطينيون ذهبوا إلى أفغانستان لأنه كان محتلا من السوفيات.. هل علينا أن نترك العراق لإيران ونذهب لتحرير القدس كما تقول الدعاية الفارسية.. قد يأتي يوم تتعارض فيه المصالح والمساحات ولكن الأولويات اليوم تفرض علينا أن نحكي دولتنا الإسلامية إلى حين يشتد عودها ويتصلب.. بينما وبين إسرائيل ما يمكن أن نسميه بالمرحلة الخرساء.. لا بد أن تتضح الأمور وسيعرف العالم أننا لا نتعاون مع إسرائيل لا بأكثر ولا بأقل مما يتعاون معها الآخرون.. لا بل أصارحك القول: إذا كانت إسرائيل لها علاقات مع بعض أصدقائنا، فلا يعني ذلك أن لدينا سلاح أو مدربي أو ضباط إسرائيليين..

- ولكن لديكم علاقات تجارية ومدنية.. يقال أن معظم الأدوية تأتي من هناك.. وأن بعض كوادركم يعالجون هناك؟..

- نحن لا نعرف إلى أين يذهب النفط الذي نبيعه.. حتى النفط الإيراني يصل إلى إسرائيل ولكن عبر شركات أخرى. كذلك الأدوية. فهي تأتينا عبر شركات أغلبها عربية وتركية وأذربيجانية وحتى فرنسية. أما ضباطنا الذين ذهبوا إلى العلاج هناك، فنحن لا نعلم بذلك.. قيلعني أنني زرت إسرائيل مرارا وتكرارا.. فهل علينا أن نصدق كل ما يقال.. نعم ذهبت إلى «أربيل» للعلاج

قبل نحو نصف سنة، ولكنني لا أصدق أن من كان يعالجني هم من الإسرائييليين، إلا إذا كان الإسرائييليون أصبحوا يتكلمون بالكردي؟

صمت قليلا ثم عاد ليقول:

- ما جدوى النقاش في أمور لا ترتكز على الجزم.. إنهم يقولون كل شيء دون تفكير أو دراية.. هذا استغباء للبشر.. يعتقدون أنفسهم كما لو أنهم منقذون للقدس.. مسألة القدس لا تزال جذابة عند هؤلاء.. ولكنني أتحداهم أن يكونوا صادقين.. إسرائيل موجودة مع أمريكا في بغداد.. وعلاقتنا بأمريكا ليست أفضل من علاقات بغداد أو طهران بإسرائيل وأمريكا.. سوف يتمزق رداء القدس قريبا ويظهر مرشدتهم مع مرجعهم عاريين!..

ونظر إلى حبيب لأعطيه فرصة طرح سؤال كان على قدر كبير من الحساسية.. فمهده إليه جيدا ثم أطلقه في الأخير كرصاصة طائشة. قال:

- شيخنا الجليل.. أنت قائد و الخليفة الدولة الإسلامية. تعرف جيدا أن تاريخ الدولة الإسلامية كان مليئا بالتسامح والتعدد.. ومهماقرأنا من نكوصات وارتدادات عنيفة. فإن الأقليات غير المسلمة قد عاشت في سلام داخل الدولة الإسلامية.. كانت الدولة العباسية رحبة ومتعددة ومتسامحة، بل ثمة من وصفها مؤخرا بأول الدول العلمانية.. كذلك كانت دولة الإسلام في الأندلس.. ورغم جبروت الدولة العثمانية، إلا أنها احتوت التعدد والتسامح.. كل هذا أقوله لكي أسألكم: ماذا فعلتم باليزيديين؟ هل ضاقت دولتكم بهذه الديانة القديمة!..

سدد الشيخ عمر نظراته بعيدا ثم رفعهما نحو السقف، بعدها انطلق في إجابته:

- الايزيديين هم موجودون في قراهم وبيوتهم. شخصيا أحد حراسي من الايزيديين.. ستتفاجأون أكثر لو قلت لكم أن السيدة مرام الحرة التي رافقتك من اسطنبول إلى هنا، هي من الطائفة الايزيدية.. إنها من بعشيقه ثم انتقلت مع عائلتها إلى حلب. والايزيديون يتكلمون في عمومهم اللغة الكرمانجية، إحدى لغات الـكـرـد، وثمة منهم من يعتبرون أنفسهم عرب. ديانتهم غير تبشيرية، قريبة من الإسلام أو هي إسلامية منحرفة. موحدون لكنهم يعبدون الشمس. وعموما فهي خليط بين الإسلام والزرادنشية والمانوية.. وهذا لا يزعج الدولة الإسلامية في شيء. أما أن يستخدمهم الفرس لإثارة البـلـيـلـة وتشويه دولتنا، فذلك لسنا مسؤولين عنه. لقد تعرض الايزديون عبر تاريخهم إلى أكثر من 70 حملة إبادة شنت ضدهم من الفرس وغيرهم.. وقد أرادوا أن ينسوا كل تلك الإبادات ويلصقوا بدولتنا عارا لم نرتكبه أبدا.. إذا هرب الايزديون إلى الوديان والجبال، فلأن الآخرين يريدون استخدامهم لتشويه الدولة الإسلامية. اذهبا إلى سنجار في طريق العودة، وسترون الايزيديين يعيشون في سلام.. أقول لكم بكل صراحة أن الفرس هم من صنع مأساة الايزيديين منذ زمن بعيد. منذ أن أرسلوا رجلا يدعى يزيد بن أبي أنيسة من فارس إلى البصرة زاعما أن الله سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتابا يتكون من جملة واحدة ينسخ بها الشريعة الإسلامية (أعوذ بالله).

بعدما أكمل الشيخ استعادته، رأيت أن سؤال الشحنة العاطفية

قد حان وقته لأن اللقاء قد أوشك على نهايته.. قلت للشيخ عمر:
- هل لديك أبناء يا أبا عمر..

- نعم ثلاثة أبناء وبنـت.. ولدي زوجة واحدة.. إنكم لا تصدقون ذلك..

ضحكـت فضـحـكـ حـبـيـبـ ثم شـاعـ جـوـ منـ الضـحـكـ حـقـ طـالـ
المـصـورـينـ والـحرـاسـ..

*** *** ***

قال لي حبيبـ وـخـنـ نـهـمـ بـرـكـوبـ سـيـارـةـ الرـونـجـ الـقـيـ وـجـدـنـاـهـاـ فيـ
مـكـانـ آـخـرـ غـيـرـ الـذـيـ نـزـلـنـاـ فـيـهـ لـلـعـودـةـ إـلـىـ الـبـيـتـ،ـ وـقـدـ بـدـأـ الـغـرـوبـ
يـقـرـبـ لـيـلـامـسـ مـدـيـنـةـ الـبـصـرـةـ.

- لقد أنجزـناـ سـكـوبـاـ صـحـفـياـ نـادـرـاـ جـداـ،ـ لـاـ يـضـاهـيـهـ إـلـاـ سـكـوبـ
سلـمانـ أوـغـلـوـ معـ كـمـالـ أـتـاتـورـكـ حـينـ كـانـ لـاـ يـزالـ فـيـ فـيـلاـ تـشـنـكـايـاـ
بـأـزـمـيرـ،ـ وـهـوـ يـتـصـيدـ لـحظـةـ القـفـزـ إـلـىـ السـلـطـةـ لـتـدـمـيرـ مـاـ تـبـقـيـ مـنـ
الـهـيـكـلـ الـعـثـمـانـيـ..

(قلـتـ لـنـفـسـيـ:ـ تـبـاـ لـكـمـالـ أـتـاتـورـكـ..ـ الـأـتـرـاكـ يـسـتـحـضـرـونـ أـتـاتـورـكـ
حتـىـ حـينـ يـذـهـبـونـ إـلـىـ الـحـمـامـ..ـ حـتـىـ حـينـ يـنـامـونـ مـعـ زـوـجـاتـهـ..ـ
كـمـالـ أـتـاتـورـكـ لـاـ يـزالـ يـقـبـضـ عـلـىـ أـرـواـحـهـمـ وـيـشـارـكـهـمـ حـتـىـ فـيـ تـحـبـيلـ
نـسـائـهـمـ)..ـ ثـمـ قـلـتـ لـحـبـيـبـ حـينـ وـصـلـنـاـ لـلـبـيـتـ وـجـلـسـنـاـ لـوـحـدـنـاـ فـيـ
الـصـالـوـنـ..ـ

- نـعـمـ..ـ إـنـهـ سـكـوبـ عـظـيمـ..ـ سـبـقـ صـحـفـيـ ستـكـونـ لـهـ تـدـاعـيـاتـ
خـطـيرـةـ!ـ

فـيـ الـحـقـيقـةـ كـنـتـ رـاضـيـةـ عـنـ نـفـسـيـ وـفـيـ الـوقـتـ ذـاـتـهـ غـاضـبـةـ..

فالبلا ما ننتبه إلى بعض التفاصيل حين يفوت الأوان.. ثم نكتشف بعض الشفرات.. بعد ذلك نبدأ في تبخيس العمل الذي قمنا به لأنه كان من الممكن أن يكون أفضل.. وكان من الممكن أن نسأل أكثر لكي نستفيد أكثر.. إن مسألة الإشاع بالنسبة للصحفي عويبة جدا.. القليل جدا من الصحفيين من يشعر بالإشاع أو بالرضا النام.. فحالما ينتهي من عمله حتى يقول لنفسه: كان يمكن أن يكون أفضل لو تباطأت أكثر أو أسرعت أكثر هناك أو بحثت أكثر هناك.. وهذا ما حدث مع طوال تلك الليلة.. فقد وجدت نفسي كما لو أنني قمت بمهمة ناقصة أو بعمل فيه كثير من التواطؤ.. ورغم أن لا أحد فرض علينا الأسئلة.. ولا أحد طلب منا أن نقدم أسئلتنا مكتوبة كما يفعل بعض السياسيين، ولا أحد أشعرنا بضيق الوقت.. إلا أنني، على الأقل من ناحيتي، فإن كثيرا من الأسئلة كان علي أن أقيها ولم أفعل.. هل نسيت؟ هل كنت أتحاشى غضب أبو عمر؟ هل كنت تحت أشعة الانبهار؟ هل أكون قد تواطأ مع انبهاري وإعجابي بنفسي وأنا أجلس أمام أخطر رجل في العالم.. ثمة أسئلة أكثر إثارة لم أ تعرض لها مثل ذبح الأجانب، وحرق الأسرى وسب النساء واستخدام الأطفال في عمليات الانتهار وتجنيد المراهقين وتناول حبوب الملوسة، وتحطيم الآثار.. أو مثل علاقات تنظيم داعش بالأردن وبقطر وبالداعشات الأخرى الموجودة في ليبيا وسيناء.. أو مثل أفلام الدعاية المرعبة ذات الحبكة الهوليودية التي تبثها داعش عبر الأنترنت.. كذلك عن أسلوب الحكم والخلافة في الدول الإسلامية وكذلك عما يسمونه بالديمقراطية التشاورية أو

عن الخلافات والصراعات الداخلية بين الولاة والأمراء والقضاة.. حتى بين القبائل والجنسيات. فأبناء القبائل العربية الكبرى منقسمون، والأنصار القادمون من الخارج مختلفون والأمراء والقضاة متصارعون.. كل ذلك لم نتعرض له في لقائنا مع الشيخ أبو عمر العدناني..

جاء سفيان وانظم إلينا في الصالون، خرج من بيته معكر المزاج، بل كان غاضباً لأنه لم يتمكن من تصوير اللقاء. وحتى من حضور اللقاء. قال لنا أنه وضع في غرفة ليجد نفسه مع ثلاثة من الحراس أشبعوه شايا وأسئلة ونظارات.. قال أيضاً أن أحد التونسيين كان من بين الحراس الثلاثة، قدم لي نفسه بكنية (أبو هدى المدائني) من منطقة الساحل، لكنه لم يكن مستعداً أبداً أن يتحدث معي في أي شيء عن تونس، كما أني لم أتجرأ على دفعه إلى الحديث عن تونس.. قلت لسفيان وأنا أحارو أن أخفف من غضبه:

- سوف نطلع على الحوار حين يصلنا غداً من ديوان الخليفة..

تساءل سفيان:

- هل احتفظوا بالحوار؟ ثم أضاف مستغرباً..

- يمكن أن يحتفظوا به إلى الأبد..

- ماذا تقصد؟

- كأن يتخلوا عن بثه.. أو يرسلوه مباشرة إلى اسطنبول.. أو يقع بثه عبر وسائلهم الخاصة على اليوتوب..

هذا الذي لم أفكّر فيه أبداً، طرحة أمامنا سفيان دفعة واحدة

إلى حد أثار خوفي وغضبي.. إلى حد سمعت رأسي يتصدع كمن يفقص بيضة.. وقلت لسفيان بلهجة متواترة:

- ستوب.. ستوب.. لماذا كل هذا التشاوؤم.. لأنك لم تقم بتصوير المقابلة؟

تدخل حبيب بهدوء حين رأني متواترة:

- ستييفاني.. غدا صباحا، سنعرف كل شيء.. لا أعتقد أنهم سيبيثون اللقاء على اليوتوب.. لماذا نطرح احتمالات بشعة في مثل هذا الوقت!..

آنذاك رأيت أن أصعد إلى غرفتي وأبحث عن حبة منوم لكي أقاوم طرد الأشباح والهلوسات التي رأيتها تقترب مني.. لم أتمكن من مراودة النوم إلا عند الفجر حين بدأت الماذن تنادي على المصليين.. كان صوت المؤذن لجامع أبي ذر الغفارى الذي يجانب إقامتنا بعدة أمتار يكاد يخترق جدران الغرفة، حتى حسبت في لحظة ما أن ستائر الغرفة كانت تترافق من صدى صوته.. وحين قمت لأقبض على المستائر، وجدت أن الواجهة البلورية كانت غير محكمة الغلق، وكانت نسائم الفجر تعبث بها.. أغلقت الواجهة جيدا ثم عدت إلى الفراش.. آنذاك أوشكت أن أنسى كل شيء، بعدهما توصلت إلى فكرة مفادها أن يكون هذا الحوار طريقة لتأجيج الصراعات بين أبي عمر وبين أركان دولته.. أو أن يكون قد أرسلونا إلى هنا لكي نسرع في حسم الصراع الدائر بين الخليفة أبو عمر ونائبه أبو بشر القحطاني وأبو يحيى القرشي وكذلك بوالي الرقة أبو نصر الأموي.. بعد نحو أربع ساعات من النوم، تخلصت

من أفكاري الحزينة ثم اندفعت إلى الحمام لأنزع كل ما تبقى من بودرة على وجهي الذي بدا لي أكثر نظارة رغم تلك الليلة التعيسة بسبب تخمينات ملعونة.. هكذا في الليل تكبر أكبر التخمينات لتصبح كوابيس وأشباح.. ولو أن ما طرحته سفيان كفرضية، قد طرحتها في النهار، لما فكر أحد في أرجحيتها. أما وقد قالها في الليل.. في ساعة متأخرة من الليل، فقد أصبحت قريبة جداً من الحقيقة من فرط ثقلها حتى لنكاد نشعر أنها مصيبة قد وقعت على رؤوسنا!..

بعد أن أحضرت قهوة مع بعض الكعك من المطبخ، سحبت من حقيبتي بعض المجلات التي تتحدث عن الخلافات والصراعات داخل تنظيم الدولة الإسلامية.. كنت قد قرأت الكثير عنها في صحف فرنسية وإنكليزية واحتفظت ببعض القصاصات لمراجعتها عند كتابي للروبرتاج عن زياري للموصل.. تيقنت أن أبو عمر العدناني هو الذي أسس جيش المجاهدين في العراق بعد الغزو الأمريكي للعراق في العام 2003. وكانت له كنية ثانية هي أبو مريم الأنباري. وقد انضم إلى تنظيم الإخوان في البداية ثم ذهب إلى أفغانستان ثم عاد من هناك بفكر راديكالي يتمحور حول تكوين دولة تشبه دولة الطالبان. خرج عن الإخوان وراح يهاجمهم ويتهمهم بالتواطؤ والعمى الفكري. كان يعيش متخفياً عن عيون نظام صدام حسين، لكن الأميركيكان كانوا يعرفون هذا الرجل منذ أن كان في أفغانستان ثم كانوا يعرفون أنه موجود في العراق منهمكاً في بناء تنظيمه الخاص (وربما على هذا الأساس كان بوش يتهم صدام حسين بالتعاون مع تنظيم القاعدة).. دخل

من إيران إلى العراق واختفى إلى أن ظهر مع «الصحوات»، اعتبر أن «الصحوات» مؤامرة أمريكية للقضاء على المقاومة وإدخال العراق في حرب أهلية على أساس مذهبي، فبدأ يكتسب شعبية متزايدة في أوساط المقاومة والأئمة السنة. في ذلك الوقت كان مصعب الزرقاوي قد نال استحقاق النجومية في مقاومة الغزو الأمريكي ثم نال استحقاق الشهادة، فأفضيَت الساحة لأبي مريم الأنباري الذي غير اسمه إلى أبي عمر العدناني.. كثُرت الاتهامات صوبه فقيل أنه مغدور ومعقد ومعتد برأيه ومنقاد إلى الدم وممتلئ بالغيرة ومتقلب المزاج والفتاوي.. ثم قيل أنه من ضباط المخابرات العراقية في عهد صدام. وأنه خرج من السجن بعد اتفاق مع الأمريكان لضرب «قواعد الزرقاوي». تعاون الرجلان في البداية وقال ذات مرة أبو عمر «أن الزرقاوي هدية أنزَلها الله من السماء لشعب العراق». ثم ما لبث أن اختلفا حول مسائل كثيرة حول من يجب تكفيره من الشيعة ومن النظام.. هل يجب تكفير كل الشيعة أم سادتهم وعلمائهم فقط.. وهل يجب تكفير كل النظام أم شرطته وجيشه فقط؟ وحين مات الزرقاوي بلغ الخصم شده بين الزرقاويين والعبدانيين ولم يستطع أيمن الظواهري أن يصلحه. وجاء إعلان دولة العراق الإسلامية ليحول ذلك الخصم إلى صراع دموي بين أنصارهما.. مات في ذلك الصراع اثنان من رجال أبو عمر العدناني، كانوا أكثر راديكالية منه وهما أبو حمزة وأبو عبيدة، فأتمهم أبي عمر بقتلهم لكي يتخلص من الرجال الذين يزاحمونه على القيادة.. وحين انتشرت الحرب في سوريا، رأى أبو عمر أن يمد علاقات مع جبهة النصرة، فأرسل صديقه وقد عرف

في البداية تحت كنية «أبو أوس» إلى سوريا للسيطرة على تنظيم النصرة عن طريق التوحيد، أو عن طريق التسلل والتغلغل داخل التنظيم من أجل التخلص من كل الذين لا يبايعونه ويبايعون تنظيم الدولة.. وهكذا بعد فترة قصيرة تم الإعلان عن دولة العراق والشام الإسلامية.. وهي ليست إلا تركيبة إيديولوجيا بين أفكار القاعدة القديمة والقاعدة الجديدة واندماجاً بين تنظيم الدولة الإسلامية في العراق التي يتبعها جيش المجاهدين والدولة الإسلامية في سوريا التي تتبعها جبهة النصرة..

حين أكملت قراءة ما جاء في «الغارديان»، وجدت أن هناك تضارباً في المعلومات والأسماء والتاريخ.. ولكنني خرجت بقناعة هي: أن داعش مليء بالدسائس والزعماء والتدخلات، وأن أبو عمر العدناني قد لا يكون إلا خليفة مؤقتاً إلى أن يحين موعد رحيله..

نزلت من غرفتي نحو الصالون، فإذا بي أجد باشكير آغا في انتظارنا، أنا وحبيب.. بعد لحظات جاء حبيب وعندها سحب باشكير من حقيبة صغيرة يحملها تحت إبطه، حزمتين صغيرتين من الكتب والمنشورات وبداخل كل حزمة قرص مدمج ثم ناول كل منا حزمة قائلاً:

- لقد أتيت لكل منكم بنسخة من لقاء الخليفة أبو عمر.. ثم أضاف:

- النسخة الأصلية سيتم إرسالها مباشرة إلى إسطنبول. لقد طلبها كل من الشيخ مصعب الصراف والشيخ رشدي العطار بإلحاح..

■ الفصل الثالث عشر

عدت إلى تونس مباشرة من اسطنبول. طلبت إجازة من مصعب الصراف حالما عدت من الموصل. كنت أشعر كمن ولد من جديد، وأنا أدخل بيت «آل أوشاكى».. جاء الجميع ليهنيء بالسلامة. وقد شعرت بالفخر، لكنني كنت أحتج إلى قسط من الراحة لكي أستأنف عملي.. لذلك وجدت كل التفهم لدى مصعب الصراف وكذلك لدى الشيخ رشدي العطار الذي بات صاحب القرار الأول والأخير..

وصلت إلى تونس قبل يومين من الذكرى الـ 240 لعيد الاستقلال الأمريكي.. وجدت في علبة الإيميل دعوة لحضور هذا الاحتفال الذي سيشرف عليه السفير الأمريكي بنفسه.. وكما توقعت، فقد وجدت أمامي حضورا كثيفا.. امتد الصف إلى الباب الخارجي.. ثم فرشت السجاجيد الحمراء لاستقبال النخب التونسية. سياسيون من كل الأطياف، صحفيون، رجال أعمال، ناشطون في المجتمع المدني ونساء لا عد لهن ولا حصر.. وحين أغلقت أبواب السفارية التي تتوسط العاصمة التونسية وتقسمها إلى نصفين، لتظل كقلعة مشرفة على حركة السير في الأرض وفي السماء، بدأ النشيد الرسمي الأمريكي (نشيد المارينز).. ثم تقدم السفير المستعرب إلى المنصة

بعد أن أكمل استقباله لزعماء الأحزاب والسفراء والوزراء ليلقي كلمة الترحيب: فجأة راح السفير الأمريكي يقرأ قصيدة الشاعر الراحل منذ نحو ثلاثة أشهر أولاد أحمد: نحب البلد كما لا يحب البلد أحد.. صباحاً مساء ويومن الأحد.. ولو شردونا، لعدنا غزاة لهذا البلد.. سيطر على الجميع دفق عاطفي.. صفقوا بأدب شديد كما تفعل النخب المؤدبة والمدجنة.. ثم سمعت صديقتي وزميلتي سامية تقول لي همساً: انتبهي جيداً.. هذا السفير خطير جداً.. أخيراً أصبح الشاعر أولاد أحمد بعد مماته، كبيراً حتى في أعين الأميركيان.. ثم راحت تردد كما لو أنها أصيبت بفالج..

- شيء لا يصدق.. برأفوا.. برأفوا.. هذا شيء عظيم أن يبدأ سفير الولايات المتحدة خطاب ذكرى استقلال بلاده بنشيد أولاد أحمد عن حبه لتونس..

بعد أن أنهى السفير الأمريكي خطابه، توزع الحضور في أرجاء ساحة السفارية.. ذهب السفير ليتجاذب الحديث مع بعض الوزراء وزعماء الأحزاب.. ثم رأيته يقترب من حين لآخر إلى بعض الصحفيين والناشطين السياسيين.. وأنذاك قالت صديقتي سامية..

- لماذا أنت على هذا القدر من الاستغراب.. قبل عامين، بدأ السفير الأمريكي في بغداد خطابه بقصيدة لسعدي يوسف.. وحين انتهى الحفل، جاء من يقول له: كيف تقرأ قصيدة لهذا الشاعر الذي هو ضد أمريكـا منذ أن ولدته أمه.. صحيح أنه شاعر كبير، لكنه يحرض ضـدنا إلى حد أنه بات متـحسـلاًـ لـداعـشـ..

ضحك السفير ثم قال لمحثته:

- أنا اخترت سعدي يوسف لأنه شاعر كبير.. ثم لأنه ضدنا..
ألا تعلم بذلك؟

يشبه أولاد أحمد، سعدي يوسف شبها غاية في الإتقان حتى لكانهما شقيقان ولدتهما أم واحدة.. الخجل حين يكون صاحياً والسمرة والفهم المكتنزع.. وكثرة الشرب والتدخين والتتسكع وحب المقاهي وكذلك حب التنمية والموهبة. لكنهما مختلفان في أشياء أخرى. لقد شق كل منهما طريق حياته بشكل مختلف. سعدي يوسف كان شيوعياً منذ نعومة أظافره. انتهى إلى اليسار وقضايا العالم الثالث، عاش متنقلًا من بلد إلى بلد. لم يعد إلى بلاده منذ أواسط السبعينات.. أما أولاد أحمد فلم يغادر تونس أبداً إلا لسفرات قصيرة.. ولم يكن سياسياً، ولم ينتم إلى اليسار في جميع طبعاته.. مع ذلك فإن موهبته جعلته يتتفوق على كل شعراء جيله في بلده.. ولا بد أن الإدارة الأمريكية تدرك قيمة هذين الشاعرين وإلا ما كان سفيرها في تونس وبغداد يفتتحان خطابهما بقراءة قصائد لهما!..

قبل فترة تسأله عملاق الأدب الأمريكي نورمان مايلر عن أصل النذالة الأمريكية. قال: «أن الذين يحكمون أمريكا متورطون في النذالة إلى أبعد حد.. فكما هم لا يفرقون بين بلد وآخر حين يتعلق الأمر بالاستيلاء على الثروات، فهم كذلك لا يفرقون بين ثقافة وأخرى حين يتعلق الأمر بالاستيلاء على مواهب الشعوب».. بحركة بطيئة يرفع مايلر يديه إلى السماء، يشير إلى المحيط وهو يمتد وراء الخليج الشفاف ويهز رأسه

الأبيض ثم يقول بصرامة: لا بد أن أوضح سخافتهم وتهتكهم.. حتى لو أدى إلى تأخير كتابة روايتي الجديدة التي أشتغل عليها منذ عامين!.. لم يتراجع رغم الهجومات التي استهدفته من كل جانب.. المحافظون اتهموه بالتشكيك في العقيدة الأمريكية، والليبراليون شتموه لأنه عرى تناقضاتهم وأكاذيبهم، كذلك اليساريون لأنهم حسب اعتقاده يتلهون بالقصور والقاذرات ولا يمتلكون القدرة على المواجهة.

بين مايلر ومراد عباس أكثر من جيلين.. ولكنهما متلاحمان في معركتهما ضد البشاعة الأمريكية.. قال مراد في اليوم الثاني لاحتفال السفارة الأمريكية: لن أصمت على هؤلاء اليرابيع النتنة، حتى لو كلفني الأمر تأجيل إخراج فيلمي الذي أصبح جاهزاً للتصوير.. كان وجهه متوجهما ويداً في ذلك الصباح وكأنه قام من النوم فقط ليندد بتلك التخب المتهدكة والمتهالكة على أسوار السفارة الأمريكية.. صمت قليلاً ثم عاود هجومه قائلاً:

- هؤلاء ليسوا طابوراً خامساً كما تعودنا أن نصفهم.. إنهم طابور السادس..

طلبت منه ستيفاني التي ذهبت إليه لتناول فطور الصباح معه بعد غياب طويل وقد اصطحب معه ابنهما طارق.. أن يشرح لها ما الذي يعنيه بالطابور السادس..

- الطابور الخامس يطلق عادة على العملاء المنديسين.. أما السادس فهو يعني العملاء المكسوفين. ثم أضاف:

- تعودنا أن نرى حكومة وطنية.. وإلى جانبهما جماعات تشغّل

لحساب الخارج.. أما الآن فالحكومة نفسها هي التي تشتبه في حساب الخارج.. أن الطابور السادس هم أولئك المصطفين وراء بعضهم بعضاً ينتظرون الوصول إلى بين يدي السفير الأمريكي. وختم قائلاً:

- الطابور السادس لا يعادله إلا الأسطول السادس.. لنقل بطريقة أخرى الطابور السادس هم جنود الأسطول السادس.. فاجأته ستيفاني بسؤال من منطقة أخرى بعدما هدأ قليلاً. فقالت:

- ولكن ألا ترى معي أن الزمن قد تغير.. لقد اختلط كل شيء ولم يعد هناك من أهمية لرؤية الأشياء على هذا النحو.. هل تستطيع أن تفعل شيئاً آخر أكثر مما يفعل هؤلاء.. ثم ماذا بوسعهم أن يفعلوا؟!

أجاب مراد بكثير من الوثوق واليقينية:

- إنهم يحولون التاريخ إلى مسرحية هزلية.. ولكن لا بد أنهم يصنعون مأساتهم بهذا التهتك المرضي.. هم الآن على قدر من البهجة لأن الأميركيكان يسلمون عليهم ويفتحون لهم أحضانهم وخزائنهم، ويفرشون لهم السجاد الأحمر.. ولكن لا بد أنهم يشعرون بالخزي والعار.. ما هذا الخلط العجيب والغريب.. أناس لا يلتقيون أبداً إلا حين تفتح السفارة الأمريكية لهم أبوابها.. أمام السفير يصبحون وديعين ومتعاونين ولطفاء.. وما إن يخرجوا من السفارة حتى يتمترس كل واحد وراء حزبه وهو يحلل ما إذا كان سيجد الدعم من السفير لمحاربة خصمه السياسي.. بعد فترة يكتشف

كل واحد منهم أنه لم يكن إلا خرقه.. مسحة من الحيش والقش..

بعد ذلك قال مراد:

- ستيفاني.. أخبريني أنت كيف كانت رحلاتك.. هل أعجبتك الإقامة في اسطنبول؟

للحظات بدا فم ستيفاني فارغاً من الكلام.. ثم قررت أن تقول له:

- هل تعرف يا مراد.. هل تصدقني لو قلت لك أنني ذهبت إلى الموصل، والتقيت بقائد داعش أبو عمر العدناني..

- أعرف أنك مجنونة أحياناً.. ولكن ليس إلى هذا الحد.. هل ما تقولينه صحيح؟

سألها مراد بغبطة السينمائي الذي يريد أن يكون حاضراً في المناطق الساخنة (ولم يرشه أن السينمائي لا يستطيع أن يكون صحافياً، ذلك أن الصحفي متصل بالحياة الواقعية بينما السينمائي متصل بعالم الخيال.. يدخل الصحفي إلى كل الزوايا المظلمة وي تعرض للمخاطر ويلطخ أحياناً يديه ببعض السيئات وهو يتعامل مع واقع سائل وساخن ومتلاطم، بينما السينمائي عادة ما يتعامل مع العالم كمادة صلبة يريد تفتيتها من جديد وباردة يريد تسخينها من جديد.. وواقع متفتت يريد تركيبه من جديد).. قال لها بصوت مهزوز:

- ما أشد رغبتي في القيام بهكذا عمل.. إنني أشعر أنني أهملت الصحافة، ولم أكسب السينما..

ثم عاد يسألها:

- وكيف وجدت الأمور هناك.. هل ما نقرأه عن داعش صحيح؟

- كانت تجربة مثيرة وصاخبة.. لامست فيها الخطر بأصابع.. ولكنني لا أعرف حقيقة حدود الواقع والخيال في تلك الرحلة. بكل بساطة أنا غير قادرة على الإجابة.. إن كان ما رأيته واقعاً أم خيالاً.. كل شيء كان مرتبأ بطريقة عجيبة.. لم يكن للصدف أي مجال في رحلتنا.. وصلنا إلى الموصل في يومين. وبقينا هناك نحو أسبوع.. قمنا أنا وحبيب زميلي التركي بلقاء مع الخليفة.. أما سفيان، الكاميرون، فقد قام بتصوير بعض الأسواق والمدارس ومعسكرات التدريب.. وحين عدنا لاسطنبول عرفت أن المقابلة قد يقع بها في وقت لاحق.. وهذا أن أسبوعين أو أكثر وهي لم تبث بعد..

- يبدو لي الأمر، كما لو أنهم أرسلوك ل مهمة أخرى.. ألم يخالجك هذا الشعور..؟

أجبت ستيفاني..

- لذلك قلت لك قبل حين الأمور باتت مشوشة ومحاطة على الجميع.. الحقائق التي تتحرك أمامنا ليست حقائق.. لقد وقع تجميعها من الأكاذيب.. وبعد حين ستولد حقائق أخرى.. إن صناعة الواقع لم يعد متوقفاً على تراكم التجربة والخبرة والعمل أو نتيجة لتغير في علاقات الإنتاج كما يقول معلمك ماركس، وإنما هو بات نتيجة لقوة الدفع لدى الافتراضي.. ثمة عالم افتراضي آخر نعيش فيه هو غير عالمنا الواقعي.. بل عالمنا الواقعي يبدو لي هو الافتراضي..

- هل أفهم منك أن داعش مجرد ضرب افتراضي..

- لربما.. قالت ستيفاني ثم أضافت..

- ذهبت إلى هناك لأرى ما يحدث فعلا.. وحين عدت لم أكن أعرف ما الذي يحدث هناك فعلا.. كلامي هذا غير منطقي ربما ولا ينطوي به صحفي يذهب إلى المناطق المبهمة والمتشابكة ليفك الظلمة والغموض للناس.. ولكن لو أردتني أن أكون صادقة، فإن ما عدت به من الموصل ليس أكثر من حقيقة افتراضية..

ظل مراد يتبع ما تقوله ستيفاني وهو متأنب للعثور على جملة مفيدة أو معلومة أكيدة، لكنه لم يوجد أي شيء واضح في كلامها.. تذكر ما قرأه عن الصحافة البورجوازية التي تبدأ في تدمير وعي القراء بحذلقاتها لتنتهي أخيراً بتدمير وعي الصحفيين أنفسهم.. ثم نطق:

- ستيفاني، أحسست أن عصر الصحافة قد انتهى.. فهل بدأ نحو المغيب؟

- بصراحة لم يعد بإمكانني أن أكون أحياناً «فلاتشي» أخرى ولا «كلير ستيفلر» أخرى.. أجبت ستيفاني بنوع من الحفة ثم استأذنت الانصراف مع ابنها طارق.

قام مراد كذلك وخرج معها من المقهى (مقهى مورنمارتر) واضعاً يده على رأس طارق. ثم ساروا الثلاثة نحو الباركنج.. قال لها وهو يودعها طابعاً قبلة خفيفة على خدتها وقبلتين على وجه طارق:
 - هناك.. خلف تلك الشجرة، كان يقف القتلة.. قتلة شكري بلعيد..

*** *** ***

بين الشاعر والسينمائي، هناك دائماً علاقة حميمية ومتواترة في نفس الوقت منبعها اهتمام كل منهما باللغة. الشاعر يعتقد أن اللغة ليست سرداً ولا هي وسيلة تواصل. فهي ليست إلا لحظة قيامية تخترق التاريخ دون أن تهتم كما يصر عبد القادر الجنابي، بينما السينمائي يعتبر أن اللغة هي جسر بين التاريخ والشعر، والجسر ليس نصاً فقط، بل هو سلسلة من الصور والصدف والترادفات والحوادث والأصوات. وهذا هو رأي مراد عباس حين يدخل في نقاشات مع صديقه الشاعر فريد ريكوبي الذي يعجبه جداً أن يتحول اسمه على السنة أصدقائه «فريدريكو لوركا».. مراد عباس هو الذي أطلق عليه اسم فريدريكو لوركا. فذات يوم قال له:

- أنت فعلاً تشبه فريدريكو لوركا.. لا ينقصك شيئاً حتى تصبح لوركا إلا أن يقتلك ديكتاتور. وبما أنك هاجرت من العراق ولم يتمكن منك الدكتاتور.. فما رأيك أن نصنع فيلماً بطله أنت، لأقتلوك في نهاية الفيلم!..

ضحك فريد ريكوبي ثم أجاب:

- إذا كنت لا ينقصني إلا الموت أو القتل لكي أصبح لوركا.. فأنت ينقصك فيلماً بروعة الكلب الأندلسي لكي تصبح سينمائياً شهيراً مثل بونوبل..

- جميل.. رائع.. إنك متيقظ جداً، بالرغم من أنك لم تأخذ بعد قسطك من الجعة.. قال مراد ثم أضاف:

- والله، فكرت في ذلك مراراً.. إنك تقرأ أفكاري يا مراد.. حتى

صرت أخاف أن تسرق قصائدي..

ثم سأله:

- ما رأيك في عنوان «الكلب العراقي»؟

- سوف لن نختلف.. قد يكون عنوانه «الكلب العربي»

قال فريد ريكوبي ذلك وقد بدأت الفكرة تشع من عينيه، بل
تكلد تندلق من عينيه..

- سوف نجعلهم حزاني ومقهورين بهذا الفيلم إذا ما أنجزناه..
سنجعل من أحشائهم تتمزق وعظامهم تتكسر، أما أفكارهم
فسوف نجعلها خرقاً لسح أحذيتنا..

- من هؤلاء يا فريد؟..

- هم.. يا مراد.. إنك تعرفهم جيداً.. أولئك الذين يتسللون
بطاقات التأمين والدعم من السفارات ووزارة الثقافة ليصنعوا
أفلاماً تتحدث عن نكاح المحارم والحمامات والسحاق لتنشيط
العيون الشرسة.. عيون الغرب الشره والمتجر..

أضاف فريد يقول:

- جاء الرسامون المستشرقون فهتكوا الأجساد وكشفوا عن
أخذ الصبايا وصدور الفلاحات.. وها هم السينمائيون يكملون
المهمة منذ ما يزيد عن قرنين..

دار كل هذا الحديث في الطريق إلى بار (الشيلينغ) وحين انزويا
لوحدهما في آخر القاعة، طلباً من النادل أن يأتيهما بقنينة من
«الماغون القديم» وصحن عجة مشتركة.. ثم عاد مراد يقول..

- لا نريد فيلما يتحدث عن سيرة ذاتية أو ما شابه.. لا نريد أن يكون الفيلم جزء مما يسمى بالثقافة الجماهيرية. نريده فيلما يبحث عن معنى اللغة.. هل تعرف يا فريد أن اللغة هي العزلة نفسها.. يخترع الإنسان العادي اللغة لكي يتواصل مع الآخر.. ولكن الفنان يصنع لغته لكي ينعزل.. لكي يحمي نفسه.. لكي ينفرد.. لكي يطير بأجنحته الخاصة.. تلك هي مهمة السينما كما أفهمها. بعبارة أريد فيلما شرساً يشبهنا تماماً..

قال فريد وهو يصرخ..

- الله عليك يا مراد.. أخيراً أصبحت تتكلّم مثلـ..

(فعلاً كان الأمر مستعصياً على الفهم حتى على سلفادور دالي.. كيف يحدث أن يتشابه شاعر وسينمائي.. أو لأقل، فنانان إلى هذا الحد.. حينما التقى دالي بلوركا أحبه إلى حد اتهم فيه باللواط.. قال له: أنت شاعر وأنا رسام.. أنت جمهوري وأنا ملكي وفرانكوي.. ولكن لماذا تحبني وأحبك إلى هذا الحد.. أجابه لوركا: لأننا نتشابه في احتقارنا لهذا العالم البائس.. وفي براعتنا لمعرفة الجمال.. وكذلك في لغتنا).. وثمة ما هو أبعد لدى فريد ريكوبي الآن وهو يتحدث مع مراد عباس.. فهما قد تورطاً داخل غابة من الأفكار المشتركة وكأنها إرث عائلي لكلٍّ منهما.. بينما كلٌّ واحدٌ منها مولود في مكان ما.. فريد مولود في الشرق الإسلامي. ومراد مولود في الغرب الإسلامي؟!

كان فريد قد ولد في إحدى حارات الرشيد في قلب بغداد القديمة. كان إذا خرج من بيتهما وهو صغير يصطدم مباشرة

بمقهى البرلمان العتيق والعربي.. وقد كان من جلاته أشهر مذيعي هتلر في إذاعة حي العرب، يومنس بحري والبياتي ونصف ذريته من وزراء نوري السعيد بعد أن خرجوا من السجن، وبعض الأعيان إلى جانب المقاولين والتجار. وقد كان أبوه الحاج عبد الفتاح الريسيكي من جلاس هذا المقهي، لذلك لم يكن بعيداً عن أجواء الشعر.. فقد الفت عيونه رؤية شعراً كباراً وكتاباً ومثقفين كباراً.. لكنه كان دائماً حذراً لما يمكن أن يخترق هشاشته كطفل يدخل باحثاً عن أبيه لاجهات منزلية.. «كنت أبحث عن لغتي منذ أن وعيت على نفسي.. وحين أعجز عن الكلام بشكل مختلف كنت أختار الصمت.. إن الصمت هو الذي علمني فراده لغتي.. وأعتقد أيضاً أن الصمت هو الذي جعل مني شاعراً..» أنهيت دراستي الجامعية مبكراً.. ثم بدأت أنشر في المجالات الثقافية بعض قصائدي.. وكان يمكن أن أذهب إلى الجندية لمدة عامين ثم أتولى وظيفة كما فعل أغلب زملائي.. ولكنني اخترت أن لا أقع تحت طائل الخدمة العسكرية.. دفعت أبي إلى دفع بدل الخدمة ثم دفعته بأن يمكنني من جواز سفر ثم غادرت العراق.. وحين وصلت إلى لندن، اندفع الجيش العراقي إلى داخل الكويت.. ثم انتقلت إلى باريس. ومنها إلى تونس.. لم يكن ذلك باختياري، فتونس لم تكون ذات جاذبية بالنسبة إلي.. ولكنني جئت باحثاً عمما تبقى من الفلسطينيين..

«كنت شغوفاً بقضيتهم. ولم أتمكن أن أتحقق بهم في بيروت. فحين خرجت من العراق، كانوا هم قد خرجوا مطرودين من بيروت.. في تونس قررت أن أصنع قدرى بنفسي، ولكن لا قدر

للشعراء في هذا البلد.. حتى الشاعي ليس أكثر من درس في البرامج المدرسية.. ولو أنه عاش في دولة الاستقلال لأرسل إلى السجن بتهمة التمرد». أيقظتني من هذا الغوص الحنيني في قاع الذاكرة قهقهة أحد الزبناء الذي جلس على الطاولة التي تقع ورائي مباشرة.. كان علي أن التفت لأتثبت من مصدر تلك القهقهة الصاذبة، فإذا بي أجد الممثل الكوميدي جميل عطية يلاصقني بظهره.. أدرت رأسي نحو مراد فورا ثم قلت له:

- ما رأيك في جميل عطية كبطل للفيلم .. «الكلب العربي»؟

جاء فريد ريكوبي إلى باريس من العراق شبه هارب من الانقلابات وحكم الضباط والفاشيات البدوية كما كان يقول. وجئت أنا إلى باريس من بلد قد غرق في الإذلال بسببشيخ أطال الجلوس على كرسي الحكم ثم أعقبه جنرال مزيف ومدرج بالعنف والكراهية وبكل ما هو فوق الرداءة بقليل.. لا أذكر أين التقينا لأول مرة في باريس.. ولكن سرعان ما أصبحنا أصدقاء. كان لا يحب أوساط العراقيين الذين هجموا على الحي اللاتيني كالذباب في سنوات التسعين.. وكان يقول أن العراقيين ببعضهم وشيوعيهم وبجميع طوائفهم لا يحسنون إلا المناحات.. وكنت أنا أيضا أبتعد بقدر ما أستطيع على حلقات التونسيين الموبوءة بالاتهامات والخزعبلات.. كلهم يتكلمون عن تونس ويحبون تونس، ولكن لا أحد يتكلم مع الآخر أو يحب الآخر.. الماركسيون بأنواعهم يشتمون القوميين والقوميون بأطيافاهم يشتمون الشيوعيين.. وهؤلاء جميعا ينددون بالإسلاميين ويرونهم كما لو أنهم كائنات مصابة بداء المجب.. أما الإسلاميون المنهمكون في تجارة الروبافيكا وأمعاء

البقر ورؤوس الخرفان والخضار الفاسدة والمولعون بفتح دكاكين الفطايير والزلابية والمخارق والبلابي والكتاجي، لا يعيرون أي اهتمام لما يسمى باليسار.. كانوا يقولون: لقد انتهى عهدهم. لكنهم لا يقشعون.. عميان في كل وادي يهيمنون. في الحقيقة كانوا أكثر تلامحاً من اليسار، وأكثر وعياً بالرحلة والمحنة ! فمنذ أن رأوا انهيارات الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية حتى أدركوا أن عصر الإلحاد الإيديولوجي أو عصر الإيديولوجيات الملحدة قد انتهى.. كانوا لا يتزدرون في القول أن لو لا نضالات الإسلاميين لما سقط الإلحاد الشيعي.. وفي الوقت نفسه كانوا يهياون أنفسهم لمعارك أخرى.. ولما تعفنت الأوضاع في الجزائر بعد اندلاع الحرب الأهلية بينهم وبين «نظام الجنرالات الفرنسيين» رأوا أنهم أصبحوا قريبيين من إنجاز مهمتهم في تونس.. وحين افتتحت حرب البوسنة، أصبحوا متحمسين للدفاع عن ذلك الشعب البوسي.. ذهب منهم الكثير للقتال هناك تحت رعاية الأمن الفرنسي.. وحين عادوا، عادوا بتجربة في القتال وحزمة من العلاقات العامة والدولية.. تعرفوا على الخليجيين المولين لحروب أفغانستان والبوسنة وكذلك على الأتراك الذين بدأوا ينتشرؤن في أوروبا منذ عهد أربكان، وكانوا يعرفون كيف يجمعون الأموال ويكسبون الناس حتى بدأوا يفرضون احترامهم على الجميع.. كانوا يقولون، أنهم أصحاب قضية ولا بد أن ينجحوا ذات يوم.. في ذلك الجو قررت العودة إلى تونس. وكان صديقي فريد ريكوبي قد سبقني إلى تونس. فقد هاتفي عدة مرات وأنا لازلت في باريس يدفعني إلى العودة قائلاً لي:

- الأجواء في تونس أكثر هدوءا واقل ضجيجا. الناس طيبون.. الجمعة متوفرة بكثرة والإخوان كلهم في السجن.. ارحل من باريس.. لقد هجم عليها الذباب من كل صوب: الأفارقة والغجر والأكراد والإسلاميون والأتراك وكذلك الهامبورغر ورداعه الطقس.. باريس لم تعد باريس.. و«الحي اللاتيني» أصبح حيا لأصحاب القضايا الميتة!..

كنت قد أنهيت دراستي في الإخراج السينمائي.. وبدأت أتعرف على أوساط السينمائيين الفرنسيين، لكنني وجدتها أوساط مغلقة وكئيبة وتعيش على المنومات وغارقة في الأعمال الرديئة. كانت السينما آنذاك تمر بأخطر مرحلة. فمن جهة ثمة سينماءات أخرى قد فرضت نفسها كالأمريكية.. ومن جهة أخرى بدأ التلفزيون والفيديو ينتزعان المبادرة من بين يدي السينمائيين.. بالإضافة إلى عدم قدرة الفرنسي أن يتخلص من فولكلوره وتيماته المملة والضيقية.. انتهت مرحلة الـ ٦٠ وحل محلهم التجار الذين عجزوا على منافسة الفيلم الأمريكي.. وذات يوم قررت أن أعود إلى تونس مدفوعا بحماس شديد من أجل أن أصنع تجربتي الخاصة انطلاقا من بلدي..

كان رأسي لا يزال ممتئا بأفكار لا مكان لها في تونس.. فأنت لا تجد من يعرف مارككيوز أو ويلهام رايش أو بولنتزاس ولا حتى الأولوية الحمراء.. أو التوبوماروس أو حتى نورمان ميللر.. أو هنري ميلر. بدت لي تونس منذ الأشهر الأولى كما لو أنها سبورة قد تم مسحها ليبدأ درس جديد ووحيد.. سيطرت النزعة الجدانية على

الجميع.. حتى الذين كانوا يعرفون، أخفوا انتقاماتهم السابقة وبلغوا ألسنتهم لكي يغتسلوا فرضاً حقيقة وصغيرة من بين أنفاس الوحش الجديدة.. كانت الرداءة هي المنتوج الوحيد لتلك السلطة الغربية.. وكان الامتثال والخضوع هو الطريقة الوحيدة للعيش بسلام.

ووجدت فريد قد أصبح يمتلك شبكة من الأصدقاء سرعان ما اندمجت معهم.. شبكة تمتد من الشيوعيين على أصنافهم حتى بائعي الحشيش والقصائد في الأعراس الشعبية.. ثم بدأت أتهجى المشهد الجданوفي: شلة السينمائيين مع شلة أخرى للشعراء إلى جانب شلة أخرى من الصحفيين وأخرى للكتاب.. وكل شلة لها «بيت ومفتاح ومشروع».. المفتاح الحديدي والثقيل لباب «بيت الشعر» كان لا ينام ليلاً في جانب أولاد أحمد أو زميله المنصف المزغني.. كل منهما كان يترصد الآخر خوفاً من انقلاب أحدهما على الآخر.. تواصلت المعركة حتى فاز المزغني في المعركة ونال المفتاح الذي يشبه مفتاح محسن مرزوق في مشروعه الجديد لفتح تونس! لم يصمت أولاد أحمد وراح يندد بالسلطة التي اخاحت إلى منصف المزغني.. وصفه أولاد أحمد بأوصاف قذرة وقال عنه: أنه باائع لفت وقصائد.. لأنه يلقي قصائده في الأعراس لقاء مبالغ مالية قيمتها أقل من ربطة لفت.. ورد المزغني: «إذا كانت جماعات المزود يتلقون الأموال مقابل إفسادهم للذوق العام، فلماذا لا يبيع الشعراء قصائدهم ليتحسن مستوى الشعب!».. كانت «بيوت الثقافة» التي انتشرت بكثافة في تلك السنوات هي عبارة عن «بيوت حراسة» لمراقبة الشعراء والكتاب والصحفيين، بينما جدانوفيو النظام يعتبرونها إنجازات عظيمة تضاف إلى القنطر

المهلهلة والطربات المغشوشة! صاحت كل شلة شعاراتها وأفكارها على مقاس النظام.. وكل من قاوم تلك الانضباطات، أرسلوه إلى العزلة بإشاعة الاتهامات. كان الوضع سورياليا دون أن يكون هناك سرياليون.. وهو ما قد يعني أن عصر الرداءة والانحطاط قد ساد على كل المناخات.. فعلا لقد حضر الإنسان ذي البعد الواحد إلى تونس وأصبح هو صانع للمصير الجماعي.. مصير المجموعة الوطنية.. كانت هناك نزعتان في البلاد كلاهما انحطاط وإسفاف: الأولى تسمى بالمجموعة الوطنية والثانية تسمى بالجماعة.. والجماعة هنا.. إما هي جماعة النظام أو جماعة الشيلينغ أو جماعة المسرح أو الجماعة الإسلامية.. كل الناس يصيرون إلى العيش المستقر والأمن.. أصوات من كل اتجاه تدعوا إلى المحبة والتكاتف.. وصوت القايد يوعز بالانتقال إلى عصر الرفاهية الذي لا نظير له.. عصر في منتهى الروعة والجاذبية!! عصر اتحد معه شعراء كثيرون ومثقفون ونقابيون وماركسيون سابقون ومناضلون لتجفيف المنابع مخافة أن ينضب الماء الكبير.

ذلك زمان قد ول.. أغلقت ذاكرتي التي باتت تتبول على كلما حاولت تنشيطها.. ورأيت أن الإنسان يمحو آلية ذاكرته التي لا يريد لها أن تتذكر حتى لا تتعرض للعقاب في زمن الاستبداد.. أما في زمن الحريات، فإن الذاكرة تعود لتتذكر كل ما كان يعرضها للعقاب.. ذهب الزمان، ولكن رجاله لا زالوا موجودين بأفكارهم وخبيثهم وآليات بطشهم وغبائهم ودناءاتهم..وها أنا الآن مأخوذًا بين زمرين قد تعانقا وتواصلًا عبر جسر مهدد بالانهيار.. ولكن لحظات الكآبة في الزمن الجديد أصبحت أراها أكثر افتراسا

وتوحشا.. فارغة من كل أمل كما كانت في الزمن الأول وخالية من أي وعد.. إنها كآبة الزمن المفتوح على الخواء والهباء!.. ومع ذلك فشمة دائمًا فتحة في مكان ما!..

*** *** ***

كما كنت ولا زلت معلقا فوق جسر من الهشاشة بين زمنين، كنت كذلك معلقا بين امرأتين تتبادلان الحضور والغياب.. الأولى هي زوجتي السابقة ستيفاني نيكولاوس التي لا أزال صديقا لها دون التزامات وواجبات أخرى.. والثانية هي مهى زعفراني التي اعتد بصداقتها ووعودها الجمالية.. كلما اقتربت مني ستيفاني التجأت إلى مهى، وكلما تقدمت علاقتي بمهى، أحس برغبة في العودة إلى ستيفاني.. كلاهما كائنان من البطلور والإشعاع.. بداخلهما قوة مغناطيسية جبارة.. تحبان السفر واجتياز الغباء عن طريق التنقل السريع من مناخ إلى مناخ.. كان ذلك في حد ذاته يشكل لي إغواء لا فكاك منه حتى أن صديقي فريد لطالما اقترح علي كتابة رواية عن هاتين السيدتين لكي تخف لدى درجة الإغواء.. قال لي أيضا فريد، أن صداقتك بمهى وستيفاني تشبه النص الشعري، لا يفرغ صاحبه من كتابته حتى يصبح صارما معه بأشد مما هو صارم عند كتابته.. ثم يصبح مهووسا بأن أحدا قد يسيطر عليه.. أو يصبح عبدا له لأنه لا يريد أن يتجاوزه.. أو يصبح حريضا على إخفائه حتى لا تفتض بكارته أو يسرق شعراء منحطون تقنيات كتاباته.. أوحى لي فريد بتلك الرغبات الغامضة دون أن يشعر، وحالما دعنته في منتصف الليل أمام «بار الشيلينغ» الذي راح يتقيأ آخر زبائنه مع القحط والعسس، ذهبت مباشرة لاستلقي

على فراشي باحثاً عن مهى عبر المسانجر، حيث لم أعد أعرف إلى
أية مدينة قد وصلت..

- مساءات الفرح، مهى..

أقول لك: مهما كانت درجة الشقة بأنفسنا، فإننا لا نعرف متى
وكيف نقع تحت سلطة الإغواء..

بعد لحظات ارتعشت إشارة الإجابة على صفحة الآيياد.. ثم
قرأت..

- هاي مراد.. تصورتك غرقت في قصص أخرى.. لا أظنك
تستسلم بسهولة لأي نوع من السلطة!..

ستجدينني دوماً طرياً ومطواعاً.. وأحياناً نزقاً..

- نسيت معنى كلمة نزق.. أظن قد رأيتك في لقائنا الأخير (قبل
أسبوع تقريباً) نزقاً!.. أنا أيضاً قد أكون أحياناً نزقة.. سمعت منك
كلاماً مهماً ومثيراً.. وكان يجب أن أنتبه أكثر لما قلت.. واذكر كل
الكلام ولكني لم أفهم كل شيء.. ربما كنت تحت سلطة ما!..

- نزق يا مهى، هو ذلك الطفل الذي لا يعرف حدود الجد
واللعبة.. بالنسبة لي كان لقاءنا لحظة اختبار للزمن والمزاج، لكي
نتأكد من مستوى الإثارة.. أنا أيضاً استمتعت واستمتعت بشكل
كلمة نطقها.. كنت تخلطين الكلام بالضحك، وكنت كلما
أردت أن أسمع الكلام، استمتع بالضحك أكثر.. رأيتك منشرحة
ومنطلقة ومرحة وكذلك معلقة بين لحظتين أو لنقل بين خيارين:
الاستسلام العفو أو الاندفاع إلى الأمام للشعور بالانتصار.

أعترف أنك عرفت جيداً كيف تنزعين مني الكلام ثم النصر.. بعد الوداع، كدت أن أصاب بوعكة غيره.. عانقت طيفك ودخلت لأنام، لكن النوم جاء متأخراً وشامتا.. إني أراهن أنك لم تتخلصي بعد من سلطة ذلك الرجل الذي اعترض سبيلك في المطار وفرض نفسه عليك كما لو أنه كان يعرف أنني أنتظرك منذ زمن طويل!..

- أعترف أنني كنت في غاية الانشراح معك. لا أظنني أنني انتصرت على شيء.. كما لا أظنني أنني كنت تحت سلطة ذلك الذي اعترض سبيلي (قالت لي مهـى أن رجلاً من الجزائر قد تعرفت عليه في مطار أورلي في بوكس الرحلة المتجهة إلى تونس، وأنه جاء ليجلس إلى جانبها بعد أن أصبحت الطائرة في الجو.. وقد تعلـل بأنه لا يحب الركوب في المقاعد الأمامية).. كنت تحت سلطة مشاعر وأحاسيس لطالما أربكتني! كنت في صراع بين الرغبة في الاستسلام العفوـي.. أو التريث.. وقد اختـرت التريث.. كنت فعلاً سعيدة والسبب هو شعوري أنك تفهمـي كما يجب.. أرجو ألا تكون مخطئـة!..

قمت بسرعة نحو البراد باحثـاً عن علبة من الجمعة.. ثم عدت إلى الأبياد بعد أن صفت رداً خفيـفاً..

- والله أني أشعرـي أـسعد رـجل في تـونس الكـثـيبة. هل تـعرفـين لماذا؟ لأنـي يا مـهـى بـبسـاطـة عـثرـت على المنتـوج النـسـائـي الـذـي اـبـحـثـ عنه.. لم اـعـرـفـ من قـبـلـ أـنـي سـأـصـلـ. ولـكـنـ هل وـصـلتـ فـعـلاـ؟!

- وما هي مـيـزـاتـ هـذـا المنتـوج النـسـائـيـ كما وـصـفـتهـ؟

(كـنـتـ أـعـرـفـ أـنـها سـتـلـقـيـ عـلـيـ بمـثـلـ هـذـا السـؤـالـ لـذـلـكـ فـقدـ

أجبت بدون بحث طويل عن الكلمات)

- الرقة.. التدفق في الضحك.. القدرة على السيطرة على العواطف الملتهبة (ليس دائماً على ما أظن) الأناقة وكذلك القدرة على السرد.. الحكاية هي الأسر الجميل للकائن البشري.. هي الترويض لشياطين الداخل. أما الأنوثة فهي عنوان أصيل لطغيانك الجميل..

- ومتى تبين لك كل هذا.. خاصة القدرة على السرد؟

- كل ذلك بدأ يلوح لي مع عشاء تاليران.. ومع المحادثة التي أجريناها وأنت تجلسين في مقهى المادلين بباريس.. ثم اتضح لي مع عشاء الماغون الذي تناولناه معا.

- جميل ما تكتبه لي.. إنني أسمعه بأذني حين أقرأه.. مفر جدا.. كنت أرغب أن أحدهك أكثر حين كنت في البرتغال.. ولكنني لم أفعل لأنني كنت متربدة!..

- ألا يكون السيد ماغون لعب برأسك. ماغون المهندس الزراعي الكبير، كان صديقاً لحنبل لأنه كان يمتلك قدرة عجيبة على السرد. عاشا معاً في الريف بعد أن هزمت قرطاج ثم هرباً معاً إلى المغرب الأقصى.. ثم ترافقاً معاً إلى سوريا ثم إلى أرمينيا هرباً من بطش روما.. وكانت حكايات ماغون التي لا تنتهي محضة لذاكرة القايد حنبل.. وهذا هو السيد ماغون لا يزال يحرضنا على السرد حين نختسي منه كأسين أو ثلاثة!..

- إنك تثيرني.. نعم أعرف القليل عن ماغون.. المهندس الزراعي القرطاجي، أما نبيذ الماغون فلم أعرفه إلا معك. ولكن كيف

عرفت أنني خجولة. التردد كان واضحا، أما الخجل فقد أغفلت عليه جيدا حتى لا يتسرب إلى !!

- مهـى.. مهـما أخفينا خجلنا فإنه يتسرـب إلينـا عبر نوافـذ أخـرى.. الضـاحـك المستـرـسل عـلامـة خـجل.. نـعـم أـنـت خـجـولة لـكـنـ خـجلـكـ مـزـوجـ بالـحـيـاءـ وـالـحـذـرـ وـالـيـقـيـنـ، وـهـوـ عـلامـة ذـكـاءـ وـفـطـنةـ تـعـبرـ عنـ نـزـعـةـ ثـورـيـةـ كـمـاـ يـقـولـ مـارـكـسـ. أـمـاـ التـرـدـ فـهـوـ يـشـبـهـ عـمـيـ الأـلـوـانـ.. ماـ يـلـبـثـ أـنـ يـنـهـارـ أـمـامـ الضـوءـ السـاطـعـ..

- نـزـعـةـ ثـورـيـةـ! أـعـتـرـفـ أـنـهـ مـوـجـودـ بـدـاخـلـيـ رـغـمـ كـلـ مـظـاهـرـ الـانـضـباطـ وـالـامـتـشـالـ وـلـكـنـ لـمـ أـتـصـورـ أـنـ يـكـونـ الخـجلـ منـ مـلـاحـهاـ.. كـمـ هـوـ جـمـيلـ مـاـ قـلـتـهـ لـيـ عـنـ عـمـيـ الأـلـوـانـ وـلحـظـةـ الـانـقـشـاعـ تـحـتـ الضـوءـ السـاطـعـ..

أـنـاـ لـاـ أـنـاـوـرـ أـمـامـ اـنـدـفـاعـ الـحـواـسـ. أـنـاـ وـاـضـحـةـ جـداـ..

- قـوليـ ياـ سـيـديـ بـكـلـ وـضـوحـ، مـقـىـ سـتـعـودـينـ مـنـ كـنـداـ.. وـمـقـىـ سـأـرـاكـ ثـانـيـةـ..

- لـاـ أـعـرـفـ.. لـكـنـ بـالـتـأـكـيدـ سـتـرـانـيـ..

- تـشـيرـنـيـ كـلـمـةـ لـاـ أـعـرـفـ لـأـنـهـ نـابـعـةـ مـنـ ضـلـعـ الدـلـالـ وـالـغـنـجـ. وـلـكـنـيـ أـعـرـفـ أـنـكـ تـعـرـفـينـ.. قـوليـ.. لـاـ تـتـرـكـيـ التـرـدـ يـهـاجـنـاـ..

- حـقاـ لـاـ أـعـرـفـ.. وـلـكـنـ بـعـدـ أـسـبـوعـ سـأـقـولـ لـكـ.. يـجـبـ أـنـ أـتـرـيـثـ. فـأـنـاـ كـثـيرـ السـفـرـ وـالـانـدـفـاعـ وـلـمـ يـسـعـدـنـيـ ذـلـكـ أـحـيـانـاـ. قـلتـ لـيـ مـرـةـ إـنـكـ تـحـبـ مـنـ يـحـبـكـ.. أـنـاـ أـيـضاـ كـذـلـكـ.. أـنـتـ تـشـبـهـنـيـ وـعـلـيـ أـنـ أـتـرـيـثـ.. أـخـشـيـ هـذـهـ Faiblesseـ. وـلـاـ أـحـبـ اـسـتـعـمـالـ كـلـمـةـ

ضعف إذ تبدولي أشد حدة مما أشعر به فعلا.. لا بد أن هناك كلمة بالعربية أكثر أناقة وأقل حدة لكنني لم أجدها..

- لعلها هشاشة الكائن البشري، تلك التي يتحدث عنها كونديرا.. إننا لا ننظر إلى المرأة كل صباح وكل مساء إلا لأننا نشعر بالهشاشة.. أو لأننا نبحث عنمن يشبهنا.. وتلك هي رحلة نرسيس الشيقة والمعدبة.

- أخشى نرسيس يا مراد. كثيراً ما جعلني أخطئ.

- يمكنك ترويضه.. نرسيس في معناه الأول ارتدادي..

- وما المعنى الذي تقصده؟

- هو البحث عنمن نحبه.. عنمن يشبهنا.. عن ذاتنا في النهاية. أنت لا تخطئين. أنت تراكمين تجربتك.. سأجعلك معتزة بأخطائك.. وسأكون نرسيس المضاد..

- جميل ومنعش ما تقوله لي.. إنك كما لو كنت تداعبني. إذن أفهم أن البحث عنمن يشبهنا هو انعكاس لأرواحنا في أرواح أخرى. أترى أننا نتشابه فعلا؟!

- نعم.. أنا خجول أيضاً ومتعدد ومندفع في أحياناً كثيرة..

- ولكنني لم أر خجلك ولا ترددك. ولكن رأيت بعض الاندفاع المتزن.

- أصارحك يا مهني.. كنت على وشك أن أحضنك لأمنحك بعض السعادة ولكنني لم أتمكن

- آه يا مراد لو ترى ابتسامي الآن.. أظن أنها ستمنحك ما

يكفي لنوم عميق..

- أتخيل ذلك.. سأذهب إلى النوم الآن.. قبلاتي الحارة يا سيدة الشلالات العالية..

في صباح اليوم التالي، استيقظت على رائحة الورد. وضع قهوة مرة أمامي ثم فتحت الأبياد باحثاً عن خيال مهني.. كان حوارنا ممتعاً البارحة (بتوقيت تونس) وكان أيضاً الربيع (ربيع تونس) قد بدأ ينشرألوانه وروائحه.. وكان لا بد أن أتفطن أيضاً إلى أن توقيت كندا لا يناسب أحاسيسى الجياشة. فمهى لا بد أنها نائمة الآن.. وهي لن ترد علي إذا ما كتبت إليها.. في ذلك الصباح تذكرت أن علي أن أحضر حلقة نقاش عن روزا لوكسembourg.. وقبل أن اخرج من البيت وجدت نفسي أكتب لها:

- هذا النهار ربيعي.. الربيع قصير جداً في بلادنا.. قد يذهب في غفلة منا دون أن نتمتع به، كما تبخر ما يسمى بالربيع العربي. أنا سأخرج الآن لحضور ندوة عن روزا لوكسembourg.. وفي المساء سأعود إليك لأجدك متفتحة كورد الربيع!..

الفصل الرابع عشر ■

بفضل كتابات «روزا لوكمبورغ»، أيقنت أن الأحزاب العمالية تآمرت على ثورة العمال، إن كان ذلك في روسيا أو ألمانيا أو بولنديا.. أشكر العفيف الأخضر الذي دلني عليها. كانت بالنسبة له أيقونة الفكر الثوري. قال لي: «أنها تفوقت على لينين حتى على ماركس في نقدها للدين وللاقتصاد الرأسمالي».. ولدت هذه الفيلسوفة في بولندا بعد إحدى عشر سنة من موت ماركس.. وعملت بالتجارة ثم أصبحت مواطنة ألمانية بزواجها من عامل ألماني.. تعرفت على بليخانوف في زوريغ وكادت أن تتزوجه. وعند اندلاع الثورة الروسية في 1905 عادت إلى بولندا فألقي عليها القبض.. بعد ذلك تزعمت مع كارل ليبكينخت الجناح الراديكالي من الحزب الاشتراكي الألماني. عارضت الحرب العالمية الأولى ثم عارضت نظرية لينين القائلة «بأن الحزب الشيوعي هو أداة البروليتاريا لتحقيق دكتاتورية البروليتاريا». قالت أن ذلك ما أفسد الديمقراطية ثم أفسد الأحزاب.. آنذاك أسست «عصبة سبارتاوكوس» التي كانت نواة الحزب الشيوعي الألماني.. انتهت الحرب العالمية الأولى فأعلن ليبكينخت الجمهورية الألمانية الاشتراكية.. وبعد أسبوع فقط تم

اغتيالها مع رفيقها ليبيكنتخت. قال مؤرخون كثيرون: لو نجحت روزا في مشروعها لتفوقت على لينين. ونظر لها آخرون على أنها العقل الثاني بعد ماركس في الفكر الشيوعي.. آخرون رأوا فيها المثال الذي لا ينجح لأن كان لها مشروع ثوري، ولم يكن لها مشروع سلطة كما لينين.. ورغم كونها لم تكن ألمانية بالولادة وناضلت ضد القومية الألمانية والرأسمال الألماني.. إلا أن ألمانيا الرأسمالية الحالية تضعها في مرتبة القديسين.. وتقوم بدعم «مؤسسة روزا لوكسembourg» في كل مكان من العالم. ثم أنشئ صندوق «روزا لوكسembourg» لدعم التربية السياسية وإنتاج التحاليل النقدية للرأسمالية وتطوير الحوار بين القوى التقدمية في العالم، وتقديم بعض المنش دراسية!..

حين جاء دوري في الكلام، أقول بصراحة، سيطر علي طيف «مهى» ورحت أبحث عن خطوط التشابه بينها وبين روزا لوكسembourg.. لم يكن هناك إلا خيط واحد يربط بين هذين الكائنين الخفيفين.. هو خيط الشغف بالحياة والمغامرة. ركزت بشكل قصدي على الجانب العاطفي لروزا لوكسembourg ورأيت أنها ذات شخصية رومانسية حالمه. كانت ثورية بنسبة 90% كما قال عنها غيفارا الذي قال عنه «ماو» أنه كان ثورياً بنسبة 70%. عاشت أكثر من قصة حب بين بولندا وألمانيا وزوريخ.. أحبت ليتوانيا وحامت حولها شبهة علاقة مع بليخانوف وأحببت فرنسيا وصفته «بالنتن» في أحد رسائلها ثم تزوجت عاملاً ألمانيا.. لا أدرى حتى الآن ما إذا كانت «مهى» قد أحبت رجالاً كثيرين، ولكن مما لا أشك فيه أن رجالاً كثيرين قد أحبوها لأنها امرأة تبدو كأنها

جاهزة للحب أو قابلة لأن تحب.. خلال جولاتها من كندا إلى البرتغال مرورا بباريس وأمستردام لا بد أنها تعرفت على أكثر من رجل.. أكثر من جسد، أكثر من ثقافة في الحب.. كل ما أعرفه أنها كانت متزوجة من تونسي وطلقت دون أن تنجب.. وأن لها حاليا صديقا فرنسيا /كنديا / إفريقيا اسمه برنار، لكنها لا تعيش معه.. لم أتعثر على نقطة التمفصل (بلغة الديالكتيك) بينها وبين روزا لوكسمبورغ، لكنني وجدت شبهها بينهما في تجربة المنفى.. ذلك المنفي الصوفي الكامن داخل كل منهما.. ذلك المنفي الجوال الذي جر ويجبر كل منهما إلى حيث انعكاس الروح في روح أخرى..

وعند الظهرة فتحت الأبياد متلهفا لأجد ثلاثة رسائل قصيرة من مهى.. كتبت في الأولى: لا ترك الربيع يمضي دون ان تقض عليه.. أريد أن أتمتع به قليلا.

في الرسالة الثانية قالت لي: لاحظت البارحة أننا حطمنا الجدار الأول.

في الرسالة الثالثة قرأت التالي وهي تسألني: ألا ترى أننا دافعنا بضراوة عن ضرورات كسر الخجل ثم تراجعنا إلى الخلف حتى لا ننزلق إلى موقع الإثارة؟..

بسرعة رحت أنقر على لوحة الحروف.

- العزيزة مهى، سأجعل الربيع ينتظرك حتى تأتيني..

حقا ما تقولين.. لم يكن من حقنا أن نغلق قوس الحميمية بسبب أو لآخر لأن ما من سبب وجيه لنقف أمام تدفق العواطف..

ولكن إذا كان لا يجب التسويف معها حتى نقتلها تدريجياً، فإنه أيضاً لا يجب الإفراط فيها حتى لا نهدى رحيقها. اليوم بالغت في التوهم وبحثت عنك في سيرة روزا لوسمبورغ ورأيتك مختلفة مثلها لكنني لم أتعثر على خطوط التشابه بينكما إلا في ما يتعلق بالسفر الذي يسكن أرواحهما..

- كثيراً ما يقال لي أنني امرأة مختلفة.. هذا يخيفني ويغريني في الآن نفسه.. أن تكون المرأة مختلفة عليها أن تدفع ثمناً باهضاً.. اختلافي هو هوبي.. وهو قوي وفي الآن نفسه هو ضعفي الغامض.

- البارحة حين دعتك غطست في برنامج تلفزيوني تافه مليء بالهرج والمرج.. رأيت نساء كثيرات قد شوهن وجوههن بالماكياج. وأخريات اندفعن إلى الرقص على المزود.. ومعهن رجال يرقصون بأردافهم مثل النساء.. أنا لا أعرف رجالاً يضعون على أردافهم أحزمة ملونة ثم يبدأون في تحريكها بكثير من الإيمان في التذلل.. كل الرجال حين يرقصون يحافظون على نوع من الفروسيّة والفحولة إلا رجال تونس إذا ضرب المزود تحولوا إلى رجال يتباهون بأردافهم. إنها الرداءة بعينها. قد لا يمكن الحكم عليهم بتساوٍ ولكن أشك ما إذا كان هؤلاء يحملون قدراً من السعادة حين يرقصون.. إني أعتقد أن الرقص هو الشعور الحقيقي بالكمال وجمال الكائن البشري ولكن حين يتحول إلى مباراة بين الأرداد، فإنه لا يعبر إلا عن الخطاط للجسد البشري..

- أنا مثلك لم أر لا اليونانيين ولا الأسبان ولا حتى اللبنانيين أو الفرنسيين يرقصون بأردافهم.. لعله تأثير آلة المزود الإفريقية..

في تونس أشعر أن المزود له قدسية تصاهي قدسية العلم الوطني..
من ناحيتي أشعر بالاكتمال أكثر حين أغني..

- سأجعلك تغنين لي بلغات كثيرة وبآهات عميقة. ورغم أنك
لا تفضلين الرقص، فسوف أجعلك ترقصين لي.. فقط..

- لا أظنني قادرة على ذلك. أحتاج إلى حلبة وحشودي أرقص.
ولكنني أستطيع أن أغني في كل مكان.. أنا كائن غنائي. لا أتحكم
أبداً في رغبتي في الغناء.

- إذن سأكتفي بصوتك العذب.. أكيد ستخترقين كياني.

- قبل ذلك أسألك: ما الذي حصل البارحة؟

- لم أفهم سؤالك؟

- عفوا.. سأوضح لك ذلك وإن كنت لا أنتظر منك جواباً
دقيقاً.. إني أشعر بشغف يتقد من خلال كلماتنا.. كلماتنا أصبحت
جمرات تقطّق.. ولا أدرى ما أفعل وما حصل!..

- ذلك الرجل الجدلي.. والمنطقي، ذلك الرجل المنهجي ليس دوماً
بارداً أو محايضاً. فهو ينتابه الشغف والغضب وتخترقه نوبات العشق
والفوضى. وحين لا يجد الكلمات يستند بآهاته لتخفييف حدة
الجرمات التي تقطّق.

- إني لا أعرف ذلك الرجل المنطقي جيداً ولكنني لا أظنه بارداً
أو محايضاً.. فقط لا أريده غاضباً..

- ذلك الرجل.. يا مهني، هو أنا. وفي انتظار ذلك اليوم الذي سنبدأ
فيه تهجي أحججية العشق، ستظلين أنت وذلك الرجل ترقصان على

صفيح ساخن.

- يخيل إلى أن في أعماقك شاعر جبار..

- لي أصدقاء شعراً.. لا أحب براءة الشعر.. أحب هتك النثر.
سيدي يا ذات الإيقاع المستبد تعجبني عباراتك الملتقة بالغموض الجذاب. (استعار المحافظون الجدد عبارات كثيرة من قاموس أندرية بريتون السوريالي مثل الفوضى الخلاقة أو الجاذبة ومثل «الغموض البناء» ومثل «العصيان الأليف» أو «المعارضة المحايدة».. ومثل «الجمال الفتاك» أو «الجاذبية المنحرفة». فأن يكون الشاعر ثوريًا عليه أن يكتب شعرًا حقيقياً، لا أن يكتب قصائد للوطن والعلم والأحزاب والنقابات.. كل الثورة توجد في الجمال.. وفيما عدا ذلك يصبح تسولاً على اعتاب شاعرية محدودة جداً.. كذلك السياسي حين يصاب بالعمى يلتجأ إلى قواميس الشعراء ليزين فلسنته السياسية العنية والهوجاء!..)

- أنت تدخل في م tahات أخرى وتدخلني معك غصباً عنِي..
بعدها أجد نفسي ألتذ بما تقوله. وكأنك تصب لي شراباً لذيد المذاق.. ولكن لماذا تصفني بذات الإيقاع المستبد؟

- آه مذ رايتك تغير إيقاعي بشكل غريب.. عرفت أنني أصبحت أسير على إيقاعك.. أليس هذا استبداد؟ ولأنني لا أملك الآن غير الكلمات، فها أنا أغدق عليك جنوبي وهذيني وأهاتي.. ذلك الرجل المنهجي والجدي والحاد النظارات لم يعد يمسك بزمام قلبه..

- ولكنك تمسك بزمام الكلمات. إنني أرتتاب فيما تقوله لي أحياناً وأتساءل كيف حصل كل هذا منذ أول لقاء؟..

- حصل كل هذا حين تقاطعت النظارات وكنت تودعيفي عند باب مكتبي. لم نكن لوحدينا لذلك ضاعت مني الكلمات آنذاك التي لم تعرف كيف تستريح في غرف الانتظار.. تلك التي تطير إلى السحاب كلما هبّت رياح همجية أو هجم عليها لصوص الثورات.. الكلمات التي سافرت مع حنبعل إلى جبال الآلب، تلك التي نطقت بها نساء قرطاج وهن يصرخن ضد الغزاة.. وضد نبلاء البرلمان ضد تجار الخشب وال الحديد والرصاص..

- إني أتذكر تلك اللحظة المفعمة.. وتلك النظارات المتكسرة على فستانِي.. أظن أن لا شيء يعوض الكلمات! كانت عيونك خجلى وحادة.. كانت تبحث عن مستقر.. ولم أجده ما أقوله إذ خفت أن يتغطى أحد فيفسد متعتي..

- لم أتخيل ذلك أبدا.. كل ما أعرفه أنك تركت قلبي على الطاولة..

- ولكن أتعرف لماذا كنت شبه محروجة؟ قد لا تصدق.. لقد خجلت من ذلك الرجل الذي كان بصحبتنا (أنا ونادية) لقد قدم لك كارتًا سيء الطباعة وليس به عنوان واضح ولا حتى رقم هاتف.. ولم يبق لي إلا أن أنقذ الموقف فأقدم لك «كارتي الخاص». أنا لا أعرف ذلك الرجل. كان مع نادية في الجمعية..

- ههـهـهـ.. وهـل تـعـتـقـدـينـ أـنـيـ كـنـتـ مـهـتـمـاـ بـكـارـتـهـ أوـ بـهـ شـخـصـيـاـ فيـ حـضـورـكـ الـبـهـيـجـ!ـ

- لا أدرى.. كنت منزعجة لقلة ذوقه.. وعلى أية حال لو لا ذلك ما كنت لتجدني.

- حتى لو لم تقدمي لي كارتكم، فقد كنت سأبحث عنك بكل الطرق..

- لربما العناية الإلهية قد هيأت لنا تلك الصدفة لكي نلتقي بلا موعد.
- مع ذلك.. ثمة دائمًا عمق آخر للصدفة.. هو الرغبة.. الصدفة توقفت عند الباب.. أما الرغبة فها هي تسكن الروح!..
- أليست هناك كلمة أخرى غير الرغبة؟..
- ربما.. أهو الشغف.. لا أعرف إن كانت لديك كلمة أخرى ولا تجد طريقها للخروج من فمك.. أطلقها بقوة.. سوف التقاطها بخفة!..
- أية كلمة!..
- لا أعرف.. أنت تعرفيها جيداً.
- لا أدرى ما إذا كانت لا تريد أن تخرج من فمي أو لم تأخذ مكانها في ذهني بعد! ألم أقل لك أنني شديدة البطء أحياناً.. أفكّر بسرعة ولكنني لا أفعل إلا ببطء.
- ها إنك تعيني إلى كونديرا الرائع مرة أخرى.. إلى عالم البطء.. غالباً ما يتباطأ العشاق في الوصول من أجل ألا ينهاكوا رصيدهم من العشق!..
- أودعك الآن على حلم شهي..

*** *** ***

هاتفي فريد ريكوبي من أجل أن نلتقي.. قال لي انه شرع في كتابة سيناريو قد يصلح للإطاحة بسينما «الحمامات والسطوح» بالضربة القاضية. وأنه يريد أن يطلعني على بعض ما كتب. قال

أيضا انه يحتاج إلى ذخيرة من الجمعة لكي يستمر في الكتابة.. وأنه يود لو يلتقي معي هذا المساء..

أجبته:

- الوقت لم يعد مساء. الليل توغل إلى منتصفه.. وأفضل أن نلتقي بعد الغد.. لأن غدا هو الأحد. وأنا لا أحتمل ثقله وتكلاسله.. ثم أني أريد أن أتفرغ لطارق وأمه.. قد نذهب إلى مطعم معا..

أحالني على قصيدة منشورة بإحدى الجرائد وطلب مني ان أقرأها..

قلت له: هل هي قصيدة لك.

قال: لا. إنها قصيدة لأحدى الشابات.. لم تتجاوز العشرين من عمرها.. قرأتها ووجدتتها «كتابة تردد همجيا» كما يقول أدورنو على الشعر.. تعرفت على هذه الفتاة خلال زيارتي الأخيرة إلى كلية الآداب..

قلت له: آت بها يوم الأحد.

قال: القصيدة أم الفتاة؟

قلت: كما تريده.. القصيدة سنقرأها.. أما الفتاة فقد تصلح دور في السيناريو الذي تكتبه.. قدرت مشاعره ثم أضفت: - فريد.. نلتقي يوم الاثنين..

كنت لا أزال ممتلئا بمحبي.. وتساءلت كيف يصبح الافتراض واقعا.. وما إذا كان الحب يتسلل عبر أسلاك السيليكون بكل

هذا العنفوان.. بدأت أترنح وسط الصالون ثم وضعت فيديو
غنائي للمusician اليوناني باريوس ورحت أتمايل معه.. إنه يشبه
ريتسوس في مظهره، لكن صوته أقوى.. لإنه يندفع كشلال،
وصدره المشعر مفتوح وهو يعانق إحدى الشقراوات.. كنت أنتظر
حتى تفرغ مهني من مشاغلها وتعود إلي.. ولكن النوم أخذني..
قمت في الصباح لأجد نفسي أكتب لها:

- البارحة نمت بعمق.. وعرفت أن النوم أحياناً يضرم أعين
نيران الحب. لقد تمنيت لي حلماً شهياً.وها أنا أرويه لك كما
رأيته.. رأيته مقبلاً دون أن أتأكد من ملامحه.. في ليلة صيفية
مقمرة، على مسرح كبير وعال. متالقاً كان وأنيقاً ومحاطاً بالطيوور
وهو يمشي على المحمل الأحمر القاني متكتبراً ومتجرداً.. سار نحو
ركن قرمزي ليتمدد على مهل.. ثم رأيته يفتح ذراعيه فيبدو جماله
المهيب كما قرر أن يهيمن على العالم كله. فهل هذا اختبار فطري
لطريق سالكة يا مهني؟!

بعد ساعة أو أكثر.. بعد أن حطت علي الكآبة.. بعد أن أصبحت موجنا لحظي.. جاء الرد. كتبت مهـى كما لو أنها تسخر مني:

- أحلامك لك وحدك.. يكفيني أن تكون الليلة مقمرة
والطريق سالكة.. هههه.

- مهى، أراك تلتقطين كلماتي بعناية ثم تعيدين إرسالها كطلاقة..
ما تقوله امرأة مهذارة طوال يوم. تقولينه أنت في نصف استداره..
هذا ما يسبب لي أحيانا سقوطا حرا!!

- مراد.. أرأيت كيف أننا جمِيعاً نصبح على درجة عالية من

الحساسية حين نقترب من بؤرة الضوء.. نصبح كالفراشات عند المنعطفات المنحنية نحو الدفء أو الضوء. وما إن تقترب من بؤرة الضوء حتى نسقط سقوطاً حراً.

ما إن قرأت رسالتها حتى هطلت على رسالة أخرى..

- مراد سأخرج بعد حين للعشاء مع بعض الأصدقاء.. بعد ذلك سأعود إليك.. لا تقلق..

بعد حوالي ثلاثة ساعات، انتبهت إلى رنة الماسنجر. كتبت تقول:

- أريد قبلة يا مراد.. كل أصدقائي، نساء ورجال محاطون الآن بالدفء العاطفي.. إلا أنا.. بعد ساعة سأكون في شقتي. انتظري.. حذار أن ينتصر عليك الضجر كما انتصر علي هنا!!

- لك قبلتان.. واحدة على عجل وأخرى على مهل..

بعد نحو ساعة، جاءني الجواب..

- هل تراني تأخرت في هذا الطلب..

- لا أبدا.. لك مني ألف قبلة وقبلة..

- طلبت منك واحدة.. فإذا بك غمرتني بالقبل إلى حد الخجل..
سأحتفظ باليتي جاءت على مهل.

- وهي الألذ.. يا سيدة الياسمين والفل..

- وأنت الأدرى كيف يبدأ الفصل الأول.

- وأنت لماذا احتفظت باليتي هي على مهل

- لا أعرف، اخترتها دون تفكير أو كسل

- إذن تذوقيها شيئاً فشيئاً. إنها عسل على عسل.

دخلنا في مقطع من السجع حتى بدا لي الأمر وكأننا نرقص (رقصة التانغو الأخير لمارلان براندو مع ماريا شنيدن) ولا بد أن مهني فقدت الإيقاع فسقطت وسقط فوقها براندو ليضع في إستها شيئاً من الجبنة ثم يدفعها فوق الخلبة ليشعل شمعتها التي تريد أن تتحرق!.. سألتني وقد خرجت عن سياق السجع..

- لماذا التي على مهل.. هي الألذ.. من قال لك هذا..

فكرت قليلاً حتى لا أقع في فخ السؤال.. ومن ثم أفقد خيط المتعة.. ثم كتبت:

- لأن عسلها يصعد مباشرة إلى الدماغ.. إلى منطقة اللذة والإدمان.. إنها منطقة الأفيون..

قالت بسرعة:

- جوابك أمنع والذ ما تصورت.. ثم عدنا إلى الرقص على موسيقى السجع. فكتبت:

- أجوبتك كثيراً ما تقودني إلى مناطق الخطر والخبيل..

- ماذا أفعل؟ هل أتوقف عن إجابتك لسلامتك من الهبل..

- لا.. لا خوف علي.. ولا يأتي منك ملل..

- افتحي إذن شراعك الآن.. لقد فاض الوعد ومعه حليب ذلك الرجل..

*** *** ***

ذلك الرجل، ذلك الذي قرأ ميخائيل باكونين وأندريه بريتون وهاجم الإخوان المسلمين في كل مكان والإمبريالية والوهابية الجديدة، ذلك الذي مدح روزا لوكسمبورغ ودافع عن كارلوس وانتشى بموسيقى الإغريق ورقصات زوربا، وقهقات نيتشه حول المسيح.. ها هو يقع صريعا أمام «قبلة افتراضية» جاءت من وراء الأطلسي.. أحالته تلك القبلة مباشرة إلى المخرج الأرجنتيني المبدع «هكتور بابنوكو» الذي نال السعفة الذهبية في كان 85 عن فيلمه -قبلة المرأة العنكبوتية-.. وها هو خيط السيناريو الأول قد بدأ يلوح كشعاع من الشمس عند الفجر.. آنذاك حرصا على أن أمسك بذلك الخيط قبل أن يسحب نفسه إلى إحدى الزوايا المظلمة في ذاكرتي.. كتبت كما يكتب الشعراء، على مجلة قديمة كانت أمامي. وبالتحديد فوق صفحة إعلانات حول مفعول مادة الجافيل ما يلي:

تمتلئ الغرفة بالموسيقى
ومعها قبلة من وراء الأطلسي
من بلاد الماء.. من أرض الغوايات المستعجلة
قبلة مؤجلة..

من أرض معلقة تتأرجح من السماء
لامعة، ناصعة مثل الماء

من مكان غزاه البجع قبل أن يغزوه الجنود
لصيد الظنود

من ثقب في أعلى السماء
يطل منه رجل أعمى، لكنه يرى ما لا يُرى!..

لا أعرف بعد ما الذي كتبه فريد ريكوي كسينوسيس للسيناريو الذي قال أنه قد شرع فيه.. ورأيت أنه من الممكن كتابة سيناريو مشترك وملاءمة أفكاري مع أفكاره في قالب سردي جديد يقفز من الافتراضي، أي التخييل إلى الواقع.. وبالعكس. فأنا اعتقاد أن لا أهمية للواقع في السينما إلا من خلال النظرة الشخصية المؤلف ما. فالواقع قد يتتجاوزنا إذا لم يتتجاوزه المؤلف بنظرته المشخصنة والمتخيالية.. إنه حقل ألغام حقيقي. فحين نصنع مثلاً قصة حب خيالية في باريس أو في هافانا أو تونس تكون أحرازاً ولا نعود نهتم بصحة الأحداث أو تدفق عواطفها أو تسلسل أحداثها أو حتى منطقيتها التاريخية. هنا الواقع دوره الصمت. ولكن إذا ما حاول السينمائي أن يجعل الواقع متكلماً، فإنه سيعرض نفسه إلى «محاكمة دولية» يشترك فيها الصحفيون والمؤرخون والسياسيون والمحامون وحتى الشهود أو الورثة.. ففي فيلم - رجال الرئيس - نسي العالم الكتاب ثم انهالوا على صاحب الشريط للكما وسباباً. وفي فيلم J.f.K حول اغتيال كنيدي خرج الجميع من القاعات مذهولين من فرط التفاصيل والتعقيدات دون أن يجدوا قاتل كنيدي.. في الظلمة، داخل القاعات الصامتة صمت المقابر، عادة ما تنجح السينما في عقد الثقة بينها وبين المتفرج. يصبح الأمر وكأنه قد انس في إحدى الكنائس، لا يناقش المصلي أبداً السيد الكاردينال.. الكاردينال يقول للمصلين: صدقوني.. ثقوا في وفي الله». والمصلون دون أن يردوا بأصواتهم، يتمتمون: إننا نثق فيك وفي الله:.. بعد الخروج من القاعة المظلمة، تنفجر الأحاسيس.. عادة ما يعبر الناس العاديين عن إعجابهم

ومتعتهم، ولكن بعد فترة يفسدون عليهم النقاد والسياسيون متعتهم.. حتى سنوات الستين، كان مسماحا للسينما أن تقول شيئا عن السينما وشيئا عن الواقع وتخرج بوجبة دسمة، كما كان يقول فرنسوا تريفو. ولو لم تتحن السينما الطلائعة، لما أصبحت الطريق سالكة أمام تزوير الواقع.. أفضل هنا كلمة «تهريب الواقع» أو «ترحيل الواقع». لقد أقنعنا فيلم «جوراسيك بارك» أنه انطلاقا من حشرة تحجرت في إحدى العناير المظلمة، قد تم الحصول على الحامض النووي لأحد الديناصورات.. وبات الشغف به لا نظير له عند جميع الناس، ولكن بعد مضي عدة سنوات، لم يعد يثير إلا شغف الأطفال!.. بعد ذلك أقنعنا المخرج بيوكولا في «رجال الرئيس» التي تتحدث عن فضيحة و«ترغيف» بتلك السلال المملوءة بالنفايات والأرشيف والخارجة من «الواشنطن بوست» إلى هوليوود، ولكن ذلك حتى لو كان مشهدا صبيانيا، فإنه لم يساعد أبدا في قول الحقيقة. لقد ظلت حقيقة الصحافيين بوب ودوارد وبرنشتاين أكثر سطوعا وشجاعة.. وحاول «الفير ستون» أن يقول لنا أن الرئيس كينيدي كان ينوي الانسحاب من الفيتتنام قبل موته، لكنه لم يتوقف لأن لا دليل لديه إلا سر غموض الاغتيال.. حين تكذب السينما على الواقع، أو تعتمد عليه، تفقد سطوطها وسحرها.. لا يزال الجمهور يصدق الأوهام الكاذبة للسينما بحكم اختفائها وراء الحكايات وتجسيدها بممثليين بارعين وإغرائها في فيض من العواطف.. ولكن إلى متى! شخصيا لا أعرف.. ما أعرفه أن الأكاذيب باتت واضحة.. لقد رأينا أحد الممثلين في فيلم «كليوباترا» وهو يرتدي ساعة رولكس في معصمه وذلك

قبل أن تخترع الساعات.. كما رأينا في فيلم «المسيح» أحد الممثلين وهو يحمل في عنقه «الصليب» قبل أن يتخذ «الصليب» كعلامة لأنصار المسيح.

وإذا كان ذلك يحدث داخل إمبراطورية هوليوود الضخمة، فكيف لا يحدث أسوأ منه في الهند أو في مصر أو في تونس.. فعلاوة على الإهمال والغباء، هناك السلطة السياسية العتيدة. فكيف يمكن لخرج أن يصور فيما على البayas وهو غير قادر على إنزال صورة الرئيس بن علي من فوق الجدار.. وكيف يمكن لخرج مصرى أن يقنع جمهوره وهو يصور فيما عن نفرتيتي قرب وزارة الداخلية في القاهرة!.. أو كيف لخرج عراقي أن يقول للممثل الذي جسد صدام حسين: «سيدي.. علينا أن نعيد المشهد»؟!

*** *** ***

- هيا.. يا خالد، اركب حصانك.. لم يعد لدينا أي وقت.. وأنت يا «ألفة»، قفي عند تلك الشجرة.. وحين يقترب الحصان، اصعدى على الصخرة ثم اقفزي على ظهر الحصان وشدي بذراعيك خالد من حزامه.. هكذا أمر المخرج مراد عباس ثم التفت إلى المصورين يحثهم على أخذ كادر فسيح جداً للمشهد لنرى المسافات التي سيقطعها الحصان، قبل أن يعثر ويسقط في بركة مليئة بالمياه.. انطلق التصوير.. وصمت الجميع في انتظار تجسيد المشهد.. ولكن لا مراد عباس ولا المصورون كانوا يعرفون طبيعة الأرض التي سيركض عليها الحصان.. كما هم لم يروا تلك البركة الراكدة

والمخفية وراء أحد الكثبان الترابية.. ركض الحصان لمئة متر ثم راح يتباطأ.. ثم تعثر، فسقط.. لم يكن ذلك ما يريده مراد. ولكن بما أن الأرض ظهرت سبخة والحصان قد سقط، فقد راح يبحث عن فكرة ملائمة تصلح كجسر للربط بين تلك اللقطات ولقطات أخرى حتى يبدو سقوط الحصان مبرراً..

سؤال مراد فريق التصوير:

- هل لديكم فكرة عن لقطة تصلح كجسر!.. ليس لدينا ما نفعل لأننا لا نستطيع أن نذهب إلى مكان آخر. فهذا يتطلب عذابات أخرى تبدأ من ترخيص الوزارات إلى تأجيل التصوير لأيام أخرى.

- أقترح أن تكتفي بالمقطع الأول قبل أن يسقط الحصان.. قال مدير التصوير:

- ولكن المتدرج لن يقتنع بتلك المسافة القصيرة التي ركضها الحصان.. قال مراد.

- أقترح أن نعيد المشهد ويركض الحصان في الاتجاه الآخر.. قال مساعد المخرج.. بعده مباشرة رن هاتف خالد ليقول للمخرج أن الحصان قد أصبح يعرج.. وأظن أن رجله الأمامية اليسرى قد انكسرت..

- ماذا نفعل؟ تسأعل خالد بغضب، فتكلم مساعد المخرج:

- ستربط رجل الحصان بخرقة.. ثم نصوره وهو يعرج وإلى جانبه يظهر خالد وألفة حزينين وخائفين ثم نأتي ب الكلب نراه لا يزال

ينبع وهو ينسحب إلى الخلف.. فيفهم الجمهور أن الحصان قد سقط بسبب عضة كلب هجم عليه..

- وكيف يمكن ل الكلب أن يلحق بحصان وهو يركض.. تساءل مراد.

قال مساعد المخرج:

- الحصان لم يكن يركض بقوه حين سقط.. ثم أن الكلب ما كان يركض وراءه.. يمكن أن يكون اعترض سبيله..

- طيب.. طيب.. هل ثمة فكرة أخرى..

بعد ذلك حل مراد رأسه بقوه وقال:

- كلب يهاجم على حصان فيسقطه. هذا لا يكون إلا كلبا من فصيلة ألمانية أو بلجيكية.. أما أن يكون من فصيلة عربية.. من تلك الكلاب السائبة في السباح والمراحل، فلا يستطيع أن يواجه أو يهاجم على حصان.. (كان في ذهني شيء آخر هو ما طرحته مخرجون ملتزمون وطلائعيون منذ فترة طويلة فيما يتعلق بين الصورة وبين الكلمة. فتصوير لقطات ل الكلب ينبع وهو ينسحب، لا تشير إلى نجاح الكلب في هزيمة الحصان، بقدر ما تشير إلى أن الكلب راح يبحث عن النجدة للحصان.. إن أهمية وجود الكلب الذي سيعطينا مبررا لسقوط الحصان، قد تكون سقطة فنية تغطي عن سقطة معرفية بظبوغرافيا الأرض التي اختيرت للتصوير.. صحيح أن السينما تفعل ما تريد.. ولكنني أنا مراد عباس لا أستطيع أن أفعل ما أريد.. علي أن أصلاح الخطأ من أساسه ونعيد تصوير المشهد في غابة أخرى.. وهذا يتطلب وقت طويل.. وأما أن

أجد معالجة فنية لتجاوز ذلك السقوط).. في تلك اللحظة، وصل فريد ريكوبي كاتب السيناريو، لاحظ ارتباً كنا ثم سأله:

- ما بكم ساختون؟ هل وقعتم في ورطة..

- وقعنا في ورطة الحصان الذي أصرت عليه. فالحالف وألفة كان يمكن لهم أن يهربا على دراجة نارية تشبه دراجة «فيتوريو دي سيكا»، أو دراجة الرئيس فرانسوا هولاند وعشيقته جولي غابييه. وكان يمكن أن يهربا على متن سيارة تشبه سيارة فرانسو بريفو، البيجو القديمة.. ولكنك أصرت أن يهربا على ظهر حصان لتجعل الناس أكثر حنينا إلى روميو وجولييت أو قيس وليلي..

- الحصان.. ليس المقصود هنا بالحصان كحصان.. إنما أردت أن أقرب من واقعية اندرية بازان الذي تتكلم عنها باستمرار يا صديقي مراد..

- وماذا نفعل الآن، إذا كان حصانك قد سقط في بركة وخرج منها أعرج..

- نواصل المسير.. والتصوير.. ليكن أعرج.. فليمشي ويمشي خالد وألفة أمامه وهما يقودانه نحو الكوخ الذي سيظهر من بعيد.. أليس هذا استدعاء كبير لعواطف الجمهور.. الجمهور هنا سيتعاطف مع الحصان وكذلك مع ألفة وخالد. وسيشتد حماسه إلى أن يعرف ما إذا كان عاشقين أو سارقين.. يمكنك أيضا أن تجعل الحصان يتعب فيسقط ثانية.. وفي اللحظة التي يقرر فيها خالد وألفة مغادرته وتركه، ينهض دفعة واحدة.. سيسأله الجمهور ما إذا كان الحصان أكثر وفاء من الإنسان؟.. أليس هذا هو السؤال

الفلوفي الذي حير فلاسفتك يا صديقي مراد؟!
اتجه مراد فورا إلى الكاميرا مان ثم امره..
- هيا، اضبط كادرك..

ثم نادى على مساعد المخرج والسكربيت.. وقال لهم:

- سنواصل التصوير.. ابحثوا عن منديل أو قطعة قماش أبيض لنربط بها ساق الحصان.. دسوا في حقيبة ألفة قطعة القماش لكي تتولى سحبها أمام الكاميرا..

تدخل فريد وقال:

- لا.. لا.. يا مراد.. من الأفضل أن يكون الشال الأبيض على عنقها ثم تنزعه لكي تبدو أكثر حننية..

- جميل.. لنفعل ذلك.. هيا.. أسرعوا.. لا نريد للشمس أن تغيب دفعة واحدة لأننا سنتوجه باتجاه المغيب وهو يهيمن على آخر الكادر ويبعث بأشعته الحمراء نحو الكوخ.. هيا أمامنا ساعة لكي لا تختفي بؤرة الغريب..

- ألا ترى أن ما نفعله شيئاً بسيطاً يا فريد في عالم السينما اليوم؟

- ولكن اتفقنا أن نعتمد على البساطة.. سنباهي بالبساطة إلى حد بعيد، لا لأننا مجبرون على ذلك، ولكن لأننا باحثون عنها.. وهذا على السينمائي أن يثبت مقدرته ويلعب لعبة البساطة التي لا يقدر عليها سبيلبرغ أو سكورزى.. ولكن دون أن يفضح فقر أدواته أو تعبيراته..

أجاب فريد دون أن يسمع أحد كلامه غير مراد.. ثم تابع يقول:

- قل لي يا مراد.. ألم تشاهد فيلم «الكلب الأندلسي».. هل تعتقد أنك ستصنع فيلماً كبيراً دون مساعدات وزارة الثقافة والسفارة البلجيكية والسفارة الفرنسية. ومكتب التوثيق السينمائي.. أنت لست نوري بوزيد أو فريد بوغدير.. أنت ضد التخنيث الثقافي وضد التهجين وضد الفوركلور وضد النساء الديمقراطيات وضد مكاتب المدراء والنقابيين.. كنت تطلب الحرية لكي تصنع سينما.. ها هي الحرية.. وعليك أن تصنع سينما.. تلك هي مسألك..

(في العام 1928 تحدي كل من لويس بونوبل والرسام سلفادور دالي الأفلام البورجوازية وأرادوا أن يسخروا من هذا الفن الجديد الذي بدا يسيطر على الجميع. وبمساعدة مالية بسيطة من أمه، تمكّن بونوبل من إنجاز فيلم «الكلب الأندلسي» ساخراً من الخداع السينمائية والشكلانية التي طفت على السينما.. في الحقيقة لا وجود لكلب أندلسي في الشريط ولا لأي كلب آخر.. كل ما هناك تركيب للحظتين من الحلم. بونوبل حلم ذات مرة أن غيمة تقطع القمر إلى نصفين، مثل موسى حلقة كانت تفتقأ عيناً.. ودالي حلم بأن يده أصبحت مملوءة بالنمل.. كان ذلك تعبيراً عن موسم فاشي بامتياز.. تتابعت المشاهد الكابوسية، فاستهوى ذلك جميع السينمائيين الأوروبيين وبدأ فيلم «الكلب الأندلسي» بمثابة بيان عن السينما السورية.. كانت فكرة فريد ريكوبي ومراد عباس، هي أن يقولا للسينمائيين التونسيين من خلال فيلم - حصان عربي - أن العصر قد تغير، وأن البطاقات البريدية

التي كانت تظهر عبر هذه الأفلام قد استنفذت ولم تعد تعبر إلا عن الانحطاط.. وانه يمكن أن نكسر أسطورة السينما القوية والمتفوقة بأبسط المشاهد وأن كل القوة هي في سرد تلك المشاهد بطريقة مختلفة وممتعة ومثيرة للتساؤل.. حين اخترنا حصاناً كبطول للفيلم، كنا نقصد أن يتسائل الجمهور، لماذا حصان وليس كلب. وإذا سقط وأصبح أعرج فلا بد أنهم سيتساءلون لماذا هذا الحصان أعرج؟ وما الذي يقصد المخرج؟ البركة لم تكون موجودة في السيناريو. ولكن وبما أنها وجدت، فإن فكرة خروج حصان من بركة، ستعطي للمتفرج إيحاءاً غريباً حول هذا الحصان المبلل والأعرج والذي يشبه بطة بيضاء، بينما هو ليس ببطة!.. وحين ترکز الكاميرا على عيون الحصان البيضاء، فإن ما سيصل إلى الجمهور أن هذا الحصان يشبه البقرة.. وعندما نرى خالد وألفة يقودان الحصان، فإن المتفرج قد يستنتج أن الحصان ذا هب إلى المسلح.. وليس ذلك الكوخ الذي يظهر من بعيد، إلا مسلحًا.. أما حين يخرج من الكوخ كلب وراعي غنم، فإن الحكاية ستبدأ في التعقيد.. ولا بد أن يسألوك الصحفيون والنقاد:

- لماذا حصان؟ وليس جمل عربي؟

(كان فعلاً يفكر في ذلك السؤال. ولكن مراد كان يخبيء إجابته إلى حين يتم الفيلم ويعلن عنه في ندوة صحفية بعد عرض خاص وافتتاحي.. ولكن أكثر ما كان يزعجه هو أن يفهم البعض من زملائه المخرجين أن كلمة «حصان» لم يكن يعني بها حصان، وإنما يعني بها التعبير عن «حصان آخر».. تماماً مثلما غضب لوركا من

زميله بونوويل وسلفادور دالي وقال إنهم يسخران منه ويقصدان شتيمته من خلال «الكلب الأندلسي» لأن أصوله أندلسية. وبما أن الهوية الجديدة اليوم لا تعرف بالأصول أو الجغرافيا أو اللغة فقط، فإن الممثلين وخاصة السينمائيين سيحتاجون على الفيلم ويعتبرونه متخلفاً وعنصرياً.. فجأة نهض مراد من غفوته، فوجد فريد قد استهلk أكثر من خمسة قناني من الجمعة، فقال له:

- هيا.. يا فريد.. متى تكمل السيناريو، لكي نبدأ في التصوير..

*** *** ***

جاءني فريد مهرولا بفكرة أخرى جديدة. وبعد أن شتم بوليس المرور الذي أرغمه على دفع «قهوة الصباح» في مفترق حي المزه، انتقل إلى شتم الحكومة. قال:

- حكومة بلا شعب.. أو شعب بلا حكومة، لم اعد أفهم بلادكم.

البوليس يحكم ويشدد القبضة من جديد، والحكومة لا وجود لها. أصبحتم مثل العراق.. مثل لبنان ومثل ليبيا: ثلاثة حكومات ولكن بلا دولة.. هذه أرفع درجات السوريالية السياسية.. لبنان بلا رئيس منذ عامين.. لا أدرى مع من تعمل الحكومة إذا كانت بلا رئيس والشعب لا يعترف بها.. في العراق يكاد الرئيس لا يرى بينما الحكومة لا تزيد مساحة سلطتها عن مساحة مربع لكرة القدم.. أما في سوريا فيوجد رئيس ولكن بلا دولة.. وفي اليمن لم يعد يوجد لا رئيس ولا حكومة ولا دولة. أليس يحتاج

هذا إلى مراجعة شاملة لمدونة العلوم السياسية.. انطلاقاً من دراسة الحالة العربية، حالة بحالة..

كنت أنتظر أن يفرغ من كلامه السياسي ويعود إلى السينما، لكنه تابع يقول:

- هل تعتقد أن شعوبنا تتوجه إلى السماء وتدعوا بطول العمر والنصر إلى البغدادي والظواهري والقرضاوي وبلمختار الأعور يمكن أن تتقدم، أو يمكن أن تهتم بالسينما.. هل أضيف لك بأن الدولة الوحيدة في العالم العربي هي دولة داعش.. هل تعرف لماذا؟

قلت من باب السخرية:

- لماذا؟

لأنها الوحيدة التي تحمل مشروعها، حتى لو كان كله شر.. هل تعرف، الآخرون كلهم قسموا بلدانهم وفصلوا حكوماتهم عن شعوبهم واستكأنوا إلى نظرية الدفاع الارتدادي.. أما داعش فهي تسعى لإقامة خلافة إسلامية. وقد وحدت بين بلدين جارين أمعنا طويلاً في الخصم والعداء رغم أنهما كانا تحت حكم حزب واحد.. ثم أن داعش لم تشكل حكومة هنا وأخرى هناك.. بل راحت تهاجم وتتمدد بلا توقف.. ومن يدريك غداً قد تصل إلى هنا..

- أين هنا؟ قال مراد..

- هنا.. أي هنا..

- ولكنها موجودة هنا منذ زمن.. قال مراد.. ثم أضاف:

- انظر إلى ذلك الرجل.. ذلك الذي يجلس لوحده في الركن على يمين الباب.. ذلك الرجل لا يمكن أن يكون إلا من داعش..
- ولكنه يحتسي الجمعة مثلنا وأكثر منها يا مراد..
- هذه افلام قديمة.. لكي تعمل بصمت عليك أن تتخفي جيدا.
- لعله بوليس من بقايا البوليس السري
- هل تعرفه؟
- سألت عنه النادل، فقال لي أنه من بقايا جماعة عمار 404.
- وما الفرق بين بوليس وداعشي؟
- هل تعرف اسمه؟
- أظن أنه يدعى «العربي سمار». ينادونه جميعاً بـ«العربي»..
- هل تظن انه يراقبنا أو يتتجسس علينا؟
- ولحساب من.. ألم يحلوا جهاز البوليس السياسي؟..
- وهل أنت غبي لكي تصدق ذلك؟.. قد يحلوا الحكومة ويظل الوزراء كمتصرفي أعمال ليواصلوا سرقاتهم، لكنهم أبداً لن يحلوا جهاز البوليس السياسي.. البوليس السياسي هو الذي يحكم حين لا تحكم الحكومة وحين تحكم الحكومة..
- أراد مراد أن يغلق ذلك القوس الذي فتحه فريد، وهو غير مهيء لمناقشته في أي موضوع، غير موضوع السيناريو.. قال أن الحياة تسير بلا حكومات، لأن الناس منظمون بعفويتهم وتجربتهم وشغفهم بالحرية..وها أنت ترى كما لو أنه من المبهر، لو ننسى هذه

الحكومات ل حين، بأن الناس قد بدأوا يتخلصون من عبوديتهم للحكومات.. بعد ذلك نهره مرة أخرى، وهذه المرة لم تكن خلال الحلم وإنما خلال يقظة تامة وقبل حتى أن يتناول قدحه الأول:

- فريد.. مرة أخرى، أين وصلت في السيناريyo؟!

*** *** ***

أخرج فريد أوراقه المبعثرة من حقيبة الجلد الصغيرة التي لا تفارقها أبدا ثم راح ينظر إلى ما كتبه.. أما أنا فقد فتحت الأبياد المحمول الصغير وذهبت مباشرة إلى الماسنجر.. كتبت بسرعة:

- عزيزتي مهي.. صباحات البساتين.. لا أعرف إلى أين وصلت، أيها الكوكب المسافر! لدى ما أريد قوله.. أنا أكاد اندلق على الأسفلت..

بعد نحو ربع ساعة، وأنا أفكر فيما إذا كنت قادرا على استبدال الحصان بقرد ليصبح عنوان الفيلم - القرد العربي - أو - خليج القردة - خاصة وأن لدينا في ضاحية قمرت الشمالية بتونس العاصمة خليج يسمى «بخليج القردة»، تناهت إلى سمعي رنة رسالة رغم الضجيج العاتي. قرأت بتركيز شديد:

- أربعة أيام مضت دون أن نتحدث يا مجرم.. يا لك من رجل قاس!

تابعت رسائل قصيرة أخرى..

- أنا الآن في طريقي إلى أمستردام.. في المساء سأصل أمستردام.

وبعد يومين قد أكون في تونس، لا بد أن أمر بباريس..

فهمت أنها في المطار، وأنها ستدخل بعد حين إلى الطائرة.. لذلك
أسرعت في الرد..

- مهى، صدقيني كنت مشغولا في الإعداد لتصوير فيلمي
الأول. منذ سنوات طويلة وأنا أحلم بإخراج فيلم.. لذلك لم اتصل
بك.. ثم تركتك تنهين أشغالك دون أن أشوش ذهنك.. كنت أنتظر
أن تقولي لي: ها أنا قادمة..وها أنت قادمة.. لقد خبأت لك قبضة
من الربع!

ثم عدت لأكتب لها:

- لقد أتعتنى فكرة السيناريو.. لا أحب أن أعود إلى ما
يسمى بفيلم المؤلف.. أريد أن يكون فيلمي الواقعي من النوع
الافتراضي.. قدم لي صديقي الشاعر فريد فكرة شبه سوريانية،
ولكنه لم يتمكن من تطويرها إلى الآن.. أفكر بجدية أن تكون
الفكرة نابعة من مراسلتنا: سيدة مثقفة وموسيقية بارعة تنتقل
من بلد إلى آخر وهي تتبادل الكلمات والضحكات والإهانات مع
رجل التقى بها صدفة لمرة واحدة، ثم سكن في داخلها مستسلما
لللغة الحنين والسفر.. بعد فترة يلتقيان ثانية على شرفة منزل
و BOTH جانبيهما كلب! كلب أبيض! ما رأيك؟ أقول لك أن فن المراسلات
لا يزال مبهجا وفاتنا حتى في عصر الأنترنت.. لقد ودع جوستاين
غاردر بروايته الرائعة «عالم صوفي» عصر المراسلات الرومانسية
قبل أن يطغو عصر الافتراض.. كانت «بست سيلر» لأنها عادت
إلى فن المراسلة في القرن 18.. كانت شبيهة بما كان يكتبه فولتير

في روایاته.. كان يختار اسم فتاة ثم يجعلها متلهفة ومتمرة. كان يستعمل ذلك الفن للإيقاظ الحس التحرري لدى المرأة.. ثم ختمت قائلاً:

- ما نرجحه في حواراتنا مع الأذكياء، نخسره في مكان آخر لإدارة الغباء. لا أريد أن نبقى في المكان نفسه!!
في صباح اليوم التالي، كتبت لي مهني:

- صباح الليلك من أمستردام.. قرات رسائلك وأشبعتنى ضحكا.. لا تقل لي أنك ستجعلنى شهزاد جديدة.. شهزاد التي تركب الطائرات والقطارات وتخترق الفضاءات والمدن.. شهزاد الأخرى كانت تفعل ذلك كله دون أن تتحرك من فراش شهريار.. أما أنا فأفعل ذلك كله خارج فراش مراد.. قل أيهما أكثر حداثة وافتراضا؟

- صباح الليلك في الدروب..

لا تسألوني ما اسمه حبيبي

أخاف عليكم من ضوءة الطيوب..

مهى بصراحة لم أعد أعرف.. لقد اختفت الدروب أمام عيني.. ما أقوله مجرد مدح لأمكنة نقطعها على الأرجل. أمكنة تظل تسكن فيها لزمن طويل.. وبما ان شهزاد لم تعرف لا مونتريال ولا باريس ولا أمستردام.. ولم تمش أبدا على دروب وأرصفة تلك المدن، فإني أغامر بالقول أن الرجل الذي أرادت ترويضه، قد استيقظ بداخلي بعد عدة قرون.. ثمة فرق بينكمَا. شهزاد

قتلت الوحش داخل الرجل، أما أنت فقد أخرجت الرجل من بطن الوحش! هههه.. على كل هنئا لك بالوصول إلى أمستردام.. قضيت في هولندا عام 2000 نحو ثلاثة أشهر بين لاهاي وأمستردام.. لا تنسى زيارة المتحف الجنسي.. سترين (لكن لا تلمسني) أعظم عضو تناسلي لأدبي.. ثم عرجي على مقاهي ذلك الحي الكوسموبوليتي لتتدوقي سيغارة أفغانية أو كولمبية أو مغربية تأتيك على الصينية مع القهوة.. ثم تحولي قرب «ساحة الفاسينوس» حيث تمثال الرجل الذي لا ينام أبدا مع قضيبه، كما يفعل السياح.. أنا متأكد سيبقى ما يطن في الأذن.. أما بسبب الطوفان والعلو أو بسبب الغطس والعمق.. لعلها الحقيقة التي لا تجعل من كل شيء متوازن عند البعض، يتوجه نحو التمايل عند الآخرين!.. أنا متأكد أنك ريشة، لكنها ريشة ثابتة في يد رسام.. دندني معي، أخاف عليك من ضوعة الطيوب.. وأخاف على نفسي من وثبة الجنون..

- لا خوف عليك من الجنون! أراك ثابتًا وراسخًا لا تتزعزع..

*** *** ***

يخرج رئيس الحكومة، صباحاً معكر المزاج تدفعه ابنته الكبرى بحنان إلى السيارة، حيث الحراس ينتظرونها لينطلقوا به إلى قصر الحكومة.. ما كاد الباب يغلق بعدما استراح في مقعده الخلفي، حتى تلقى اتصالاً هاتفياً أمره بالتوجه إلى قصر الرئاسة.. أمام القصر، توقف موكيه بسبب مظاهرة لرجال الشرطة وهم يتقدمون نحو مدخل القصر.. لم يسمح له الحراس بالنزول، لكنه فتح النافذة لكي

يتكلم مع أحدهم.. هجم على السيارة عدة أشخاص وهم يرتدون زي الشرطة فأغلق النافذة وقال بصوت خافت: ما هؤلاء القردة.. الأمن الذي عليه أن يحرس الدولة أصبح هو الذي يهدد الدولة! التقط أحد المتظاهرين القريبين جداً من نافذة السيارة، كلمة قردة!.. ثم صرخ بأعلى صوته:

- هل تعرفون.. لقد أصبحنا قردة.. لقد قال عنكم قردة.. حين انتبه المتظاهرون إلى ما يقوله زميلهم، كانت السيارة قد نجحت في اختراق الحشود وأصبحت داخل القصر.. قال الرئيس لضيفه بعد أن استقبله على عجل..

- هل تعرف، لم أكن أتصور أن يجرأ هؤلاء القردة على القصر.. كيف تمكنت من الدخول؟

- حاولت أن أخاطبهم، لكن الحراس لم يسمحوا لي بالنزول من السيارة..

- وماذا يريدون؟

- زيادة في الرواتب والخصصات وقانون حماية خاص من الإرهاب..

- كنا نتوقع أن يحموا الدولة من الإرهاب، فإذا بهم يطالبون بحماية أنفسهم من الإرهاب! هذا ابتزاز..

- نعم.. إنه ابتزاز واضح.. لا بل إرهابيون يرتدون الزي الرسمي للدولة.. ليس ثمة انحطاط بعد هذا الانحطاط..

روت ذلك المقطع من الحوار الذي دار بين الرئيس ورئيس

حكومته، ستيفاني. وكانت تتحدث لزوجها السابق مراد عباس في مقهى «مون مارتر» حول فنجاني قهوة:

- لا أحد يعرف إلى أين تسير هذه البلاد..

أجابها مراد ساخرا:

- هذا المدخل يصلح كمشهد افتتاحي لفيلي미 الذي قد أسميه «خليج القردة»

ثم أضاف حانقا:

- ليس ثمة من حل.. لو كنت مكان الرئيس لقدمت استقالتي للبرلمان.. هيبة الدولة كانت شعارا له، فباتت غبارا متنااثرا في كل مكان.. سلطة لزجة ومقززة بلا مذاق وبلا فحولة.. سلطة تشبه سلطة من عدة أحزاب لا يمكن تناولها لأنها عديمة المذاق.. التونسيون لا يعرفون الأحزاب ولا يعرفون كيف يحكموا أنفسهم.. وإذا رأوا رئيسهم قد شاخ فإنهم لا يستمعون إليه أبدا.. أظن أنهم انتخبوا رجلا عجوزا لكي لا يستمعون إليه أبدا.. رئيسنا يعرف ذلك. وقد قبل أن يكون العوبة بين الأحزاب والmafias.. وقد عاش مثل هذه التجربة حين كان وزير لدى الزعيم.. ولكنه لم يفهم أبدا أن السلطة مقى بذات خانعة، فإنها لن تصنع إلا الإذلال والرذائل..

استمعت ستيفاني جيدا إلى ما كان يقوله مراد. إنه لا يزال يحرك بداخلها نوازع التمرد، ولكن هذه المرة جاءت لتقول له شيئا آخر ربما لم يخطر على باله أبدا..

- مراد.. البارحة، أي مساء أمس، اتصلت بي سيدة من السفارة الفرنسية، قالت أن اسمها ناستازيا، وهي سكرتيرة خاصة للسفير «دي شامبier».. وأن السفير يود مقابلتي في أقرب فرصة..

- وماذا يريد منك السيد السفير؟

- لم نتحدث في الموضوع، لكنني وعدتها بزيارة غدا صباحا..

- على أية حال.. أنت فرنسي قبل أن تكوني تونسية.. فهل هذا يزعجك؟

- أشعر بأن الدعوة غير بريئة..

- هل رأيت السفير «دي شامبier» من قبل؟

- أبدا.. تعرفت عليه أخيرا في حفل السفارة الأمريكية بأعياد الاستقلال.. و كنت مع مجموعة من الزملاء..

- لا بد أنهم لاحظوا سفراتك الكثيرة في المدة الأخيرة..

- لعل بعض أصدقائك من يعرفونني هم الذين أخبروا السفارة بوضعي العائلي والمهني الجديد..

- هل تشکین في أحد.. من هم أصدقائي، فريد لا يعرف حتى كيف يكتب اسمه بالفرنسية، سمير، لا أعتقد انه يحب الفرنسيين.

تساءلت ستيفاني:

- ألا تكون رحمة صديقي؟ أرملة الزعيم إبراهيم الناش الذي تم اغتياله..

لم أتحمل الصفة، ولكنني تمالكت نفسي ولم أشاً أن أظهر أمامها مضطرباً أو مفككاً كمحرك سيارة قديم. قلت لها بهدوء:

- لا أفهم ما تقصددين. هذا موضوع أصبح قدیماً يا ستيفاني.

*** *** ***

حملت نفسي على عربة من القلق، وذهبت إلى موعدي مع السفير. استقبلتني مضيفة شابة عند باب السفير وكبار الموظفين بعد أن مررت بأكثر من دورية أمنية وأكثر من متراً سريلاً وأكثر من حزمة أسلاك شائكة حتى لتبدو السفارة وكأنها مقر لأحد قادة الميليشيات في الموصل. قادتني المضيفة في الحين إلى مكتب سكرتيرة السفير ناستازيا.. اسمها فقط قد يوحي بالأنوثة والجمال لدى من يسمعه. أما الشكل، فهي رجل متنكر في هيئة امرأة.. حتى صوتها كان خسناً ومتشققاً للحال، يخرج من حنجرة ضخمة بدأت تتدلى ما تحت الذقن، نحو فم ضيق جداً بحجم إحدى عينيها.. حين ابتسمت وهي تصافحني، لم أر اسناناً أو حتى فما.. رأيت فقط أنف وثلاثة عيون.. (أردت أن أصف وجه هذه السيدة لا شيء إلا لأن البيروقراطية العتيدة قادرة أن تقيم تحالفاً مع الطبيعة في أنتاجها للقبع!)

بعد نحو خمس دقائق قضيناها في الصمت، أدخلتني ناستازيا إلى رواق مكتب السفير. وجدته واقفاً خلف الباب الثاني والمغلف بالجلد، مباشرة. تصافحنا ثم قادني إلى ركن الجلوس. لم يكن ثمة من داعي لكي يكثُر من الترحيب. وكما لو كان محقق شرطة على

موعد آخر بعد ربع ساعة مع متهم آخر، سألني ما إذا كانت رحلتي إلى أرض داعش موفقة. وبعد أن منحني بعض المديح على جرأتي وشجاعتي، وجه لي بعض اللوم، لأنني لم أخبر أحداً في السفارة بإسطنبول برحلتي من باب الاحتياط.. ثم قال وهو يصوغ عباراته بحذر:

- في الحقيقة، ليس هذا هو الموضوع الذي أردت أن أراك بشأنه. الموضوع يتعلق بجانب من حياتك الشخصية لو لم يكن هناك مانع.. منذ مدة ونحن نتلقي معلومات تخصك وتخص زوجك السابق السيد مراد عباس. ولم يكن همنا أن نتغافل على حياتك، ولكن من واجبنا أن نحميك من كل سوء، كمواطنة فرنسية لا زالت تسافر بجواز سفر فرنسي..

تابع يقول: إن الواجبات هي التي تلقى علينا بثقلها.. وكثيراً ما يجد من يكون في مثل وضعي محبراً على الخوض في مواضيع قد تبدو جارحة أو لنقل خصوصية. لذلك سأأسلك من باب التعاون لا أكثر ولا أقل عن بعض الأشياء ويبقى لديك مطلق الحرية في أن تقبلني أو ترفضني..

- تفضل سعادة السفير.. جئت إلى هنا لكي أعرف لماذا جئت، لا لكي أشرب شايا ثم أخرج..

رأيت وجه السفير قد اشرق، وأصبح طريق الكلام أكثر سلامة، فقال:

- لا يمكننا أن ننكر جمال الثورات.. ولكن لا أحد بإمكانه أن يتوقع أحدها ونتائجها المروعة أحياناً.. ولا شك كفرنسية

تدركين ذلك أكثر من غيرك. لم تكن هناك من ثورة أكثر دموية ورعباً من الثورة الفرنسية. ومع ذلك ظللنا نحبها ونحلم بها باستمرار حتى أصبح ذلك الرعب الذي عاشه الأجداد، حلماً رومانسياً لدى أحفادهم.

وافقته على قوله بابتسامة وكذلك بحركة من رأسه فدلق سؤاله:

- قبل طلاقك من مراد عباس، هل كنت تعرفين بأنه كان يقيم علاقة مع سيدة أخرى؟

- كانت له مغامرات مثل رجال كثيرين.. ثم بلغتني معلومات أنه أقام علاقة عاطفية مع إحدى السيدات. ولكني لم أكن متأكدة من ذلك. لم يكن لدي وقت لكي أركض وراء الإشاعات.. كنا متهددين برباط الحب والاحترام.. ولكن شيئاً فشيئاً لاحظت أنه يتغيب ويتكاسل عن جميع واجباته. ولم يكن لدي ما أفسر ذلك إلا بحالات الإحباط التي كان يعيشها.. فقد قضى عشر سنوات وهو يحلم بإخراج فيلم دون أن يفعل ذلك حتى الآن.. والآن أعتقد أن إحباطه من الثورة قد فاق إحباطه الذي عاشه في العهد السابق..

لم أقل كلمتي الأخيرة. تعلمت ألا أقول كلمتي الأخيرة لأنها مثل الرصاصة الأخيرة لا نطلقها إلا إذا كنا متأكدين من الهدف.. ثم ألقى السفير بسؤال ثان يتطلب إجابة محددة..

- هل تعرفين السيدة رحمة صديقي..

- أعرفها.. يعرفها الصحفيون والسياسيون

- ما علاقتها بمراد؟

- ولكن يا سيدى السفير.. أنت تعرفونها جيدا وتنزوركم هنا..
وهي لا تنقطع عن الذهاب إلى باريس..
- مدام ستيفاني.. ما أقصده بسؤالى.

- هل كانت على علاقة مع زوجك مراد، قبل أن يقتل زوجها..
- لست متأكدة، لأكون صريحة.. كانت تصليني بعض الأخبار،
ولكن مراد لم يعترف لي بذلك. لكن يقول لي أنها مجرد صديقة
يعرفها منذ أن كانا يدرسان في باريس.. وأن عائلتهما على علاقة
قرابة..

ارتفع منسوب التوجس لدى وبذا على بعض التوتر، فرفع
السفير من وتيرة كلامه مستغلا ذهولي. ثم سأله:

- هل كانت تقوم بزيارتكم في البيت مع زوجها القتيل؟
- لا أبدا. ربما مراد لم يكن يتتحمل ثرثرة أو جدانوفية زوجها.
على الأقل. هذا ما كان ي قوله لي عنه.

- ألم يتصل بك زوجها ولا مرة ليشكونك من مراد؟
- ولا مرة.. ولم أكن أعرفه شخصيا.. رأيته مرة صدفة مع أحد
أصدقاء مراد. وحين أصبح نجما بعد الثورة لم أسع أبدا للقاءه..
لأنني لا أجد في كلامه إلا خطابا راديكاليا. الحقيقة بعد أن قتل
ندمت لأنني لم أتعرف عليه.. كان ذلك من أخطائي الصحفية!

- ألم يكن ذلك بسبب الخصومة التي بينه وبين مراد؟
- سيدى السفير.. دعني أنقذك من أسألك العاجزة والمحشمة..

أننا لا نستطيع أن نفسر مشاعر اليوم بما كان يحدث قبل عدة سنوات.. لم أكن أعرف بهذه الخصومة التي تتحدث عنها الآن.. قيل لي أنهم كانوا يهددان بعضهما بعضاً. ولكن ما أعرفه جيداً أن مراد ليس عنينا حتى مع من يسيئون إليه..

- لدينا شريط مصور يا سيدتي، وصلنا من إحدى البارات يوثق لشباك لفظي وجسدي بين زوجك السابق وزوج السيدة رحمة الصديقي.

الفصل الخامس عشر

حين قال الملك الحسن الثاني: «أنا الملك الوحيد في العالم.. والآخرون كلهم ملوك من ورق»، لم يغضب أي ملك في العالم إلا ملكة بريطانيا التي تركها تنتظر في القطار المتوجه إلى مراكش لأكثر من نصف ساعة. قالت العجوز البريطانية آنذاك (أغلب الناس يعتقدون أنها ولدت عجوزا): «يا للمسيح.. كيف يقول ذلك.. ألا يعلم السلطان المغربي.. أنني ملكة ولست ملكا؟؟». كان ذلك في ثمانينات القرن الماضي.. بعدها بعام، صعد الكاتب محمد شكري فوق كنوار بار في طنجة ثم صرخ أمام الكاتب الأميركي بول باولز: «أنا الكاتب الوحيد في العالم.. بعد صديقي بول باولز». في تلك السنوات بدا للبعض أن المغرب يتتقاسم رجلان.. الكاتب محمد شكري في طنجة والعاهل الحسن الثاني في الرباط.. وثمة من يعتقد حتى الآن أن منجزات المغرب حتى ذلك الوقت يمكن تلخيصها في المسيرة الخضراء لتحرير الصحراء ورواية الخبر الحافي، على أن أحد أصدقاء خوسيه بلانتيرو وهو أستاذ جامعي في طنجة قد دمج الإنجازين في كلمة واحدة حين قال له:

- كان عليك أن تأتي إلى المغرب حين كان في زمن المسيرة الخضراء للخبر الحافي! المغرب الآن يشبه إسبانيا.. لقد تغير شكله

وكذلك تغيرت روحه.. لقد طارت رoha الثنائي محمد شكري والحسن الثاني..

تورط بلانتيرو في سؤال فقال:

- هل كان الحسن الثاني قارئا للروايات.. هل كان يشبه الملك فريدينالد الخامس الذي يعتبر أول منقرأ دون كيغوت قبل السماح بنسخها وتداوها؟

رد صديقه:

- ولكن إذا كان فريدينالد كان يضرب طابعه على كل نسخة تخرج من النساخين، فإن الحسن الثاني، كان يقرأ كل كتاب يخرج من المطبع المغربي.. أضاف يقول:

- إنه نهم القراءة إلى درجة أنه أصبح قادرا على تقليد أساليب الكتاب.. هل تعرف أن الحسن الثاني يمكن أن يقلد أسلوب فلوبير وكذلك أسلوب الكسندر دوما؟

(كان الحسن الثاني يقول عن نفسه لو لم أكن ملكا، لكونه طباخا أو سائس خيول أو كاتبا روائيا).. لذلك كان يحب المحمدين: محمد شكري و محمد خير الدين، كأديب متخفى. ويحترم العبادلة الثلاثة، عبد الله العروي و عبد الله إبراهيم و عبد الله كانون، كمفكرة ورجل سياسة و متفقه في اللغة وال نحو.. حين زاره ميتران الرئيس الفرنسي في العام 84، وهو أديب وكاتب إلى جانب كونه سياسي عتيق، تبارى معه في ملفات كثيرة.. عرض عليه من ذاكرته عدة فقرات من كتاب «الفرسان الثلاثة» و عدة قصائد لفيكتور هيغوا.. ولم يتمكن ميتران أن يتبيّن ما إذا كان العاهل

المغربي يستعرض ذلك من ذاكرته أو هو يرتجح أدباً شبيهاً بأدب العمالقة الفرنسيين. فرش له الزرابي المغربية من الدار البيضاء إلى مراكش، عشرات الكيلومترات من الزرابي قد امتدت فوق الإسفلت لتسير عليها سيارة الركب الملكي ومعها دراجات الحراسة النارية وسيارات الإسعاف وباصات الصحفيين.. بين كل مسافة وأخرى يرى ميتران الخيام الملكية قد أقيمت والذبائح قد أعدت في طواحين شهية والخيالة قد أدت رقصتها.. ثم يواصل الركب سيره.. وعلى باب مراكش، فاز الحسن الثاني في المبارزة السياسية. قال الحسن الثاني لضيفه ميتران وقد بدا الركب يستعد للدخول مراكش:

-سيدي الرئيس.. انظر على يمينك.. هل رأيت تلك السيارة المتفحمة؟ إنها سيارة الجنزال الدليمي.. ها هو الدليل على أن سيارته قد تعرضت إلى حادث أدى إلى احتراقها.. تلك هي حكمة الله يا سيدي الرئيس!

فهم ميتران الرسالة ولكنها رواها بعد ذلك بشكل مختلف نافياً أن تكون للمخابرات الفرنسية أي دور في محاولة انقلاب الدليمي ضد الحسن الثاني.. عرف الحسن الثاني عدة انقلابات فاشلة قام بها ثلاثة جنرالات فاشلين.. قال ذات مرة لعرفات: «إذا كان قائد الجيش في بلادنا يفشل في انقلاب، فكيف سينجح في حرب. يكفيك من أضغاث الأحلام وحرر بلدك بما تراه مفيداً، ولا تنتظر شيئاً من جنرالات العرب».

آنذاك كان محمد خير الدين صديق سارت لا يتزدّد في التبول أمام البرلمان عندما أغلقه الملك. أما محمد شكري فقد بدا كتابة

روايته الجديدة على النحو التالي: «أفضل فطور يمكن أن تتناوله المرأة التي تنام في فراشك حتى الصباح هو: بيضتان + نصف باغيت من القمح الصلب + رشفات من الحليب الطازج».. ورغم الحب الذي بينه وبين الحسن الثاني، فإن ذلك لم يشفع له بأن تشطب تلك الجملة الافتتاحية. قال الملك:

- قولوا له ان يستبدل البيضتين بتفاحتين، حتى لا يقطع نسله!..
ضحك بلانتيرو بتوعس حتى بلغت ضحكته القهقهة ثم ثال:
آه.. أنه ثنائي رائع..

ولكن ساندرا التي لم تعرف عهد الحسن الثاني لم يكن ذلك الحديث ليستهويها لولا قدرة بلانتيرو على إعادة سرد الحكاية ثم علاقة الملك الذي لازال ذكره يرعب أهلها، بالأدب والأدباء..

قالت ساندرا:

- هل تعرف يا خوسيه.. كل ما أعرفه أن الملك السابق كان قاسيا مع أهل الشمال. حكم ثلاثين عاما ولم يزر طنجة أبدا.. لقد وصفهم ذات مرة بالأوباش.. ثمة كراهية دفينة بين الحسن الثاني وأهل الشمال منذ أن انتفضوا عليه..

لم يكن بلانتيرو، استاذ التاريخ والحضارات والجوال الدائم يجهل ذلك التاريخ. كما لم يكن يقصد أن ينوه أو يمدح الطغيان، لذلك فقد عاد يقول لها كحكيم خبر الحياة قائلا..

- اسمعي يا ساندرا.. غدا ستتقدين في السن وتصبحين أكثر تساحما.. إننا نقتل جمال مراهقتنا وشبابنا بالتفكير في الماضي

وبمحاسبة الذين أخطأوا.. كلما تقدمنا في العمر، ربما ارتكبنا أخطاء أكثر حتى ولو كنّا أناس بسطاء وعاديين.. لذلك من الأفضل أن نفتّش عن مناطق التسامح..

- ولكن شبابنا هو ما يصنع شيخوختنا يا خوسيه.. حياتنا ليست مونتاج لعدة مشاهد منفصلة.. إنها ليست سينما..

- بعد فترة ستكتشفين تلك هي حياتنا.. دائمًا ما نجاذف بخلق أنفسنا من الخارج.. لذلك يبقى البناء إلى حد ما مشوه.. نحن الرسامون ندرك ذلك جيداً..

- كيف، سألت ساندرا التي لاتزال تذكر كيف وقفت أمامه وقالت له أريدك أن ترسمني.. وبعد أن رسمها أحبتها وأحبته.. أفرزّعها ما قاله خوسيه، ولكن خوسيه لم يتركها فريسة لتأويلات فاسدة، فقال مسرعاً:

- نبدأ في تكوين فكرة عن أنفسنا من خلال الأفكار التي يحملها الآخرون عنا.. أي أن تكون أنت هو وأن تكون أيضًا ما يفكر فيه الآخر نحوك..

هرع خوسيه الذي كان يقف على بعد خطوتين منها على شاطئ البحر، ثم ضمها بين ذراعيه فعصرها كأنها حبة توت. بعد ذلك أمسكها من يدها وقادها نحو صخرة كبيرة جعلاها كرسيا للنقاش:

لم يكن يمثلان في مشهد رومانسي على حافة البحر كما يفعل العشاق في سينما السبعينيات، كما لم يتقطعا إلى أن أي واحد سيراهما على ذلك النحو، سيقول عنهما: «شابة وعجز يمثلان في مسرحية قديمة». تحدثا وتناقشا كأزواج لا كعشاق. هكذا أحسست ساندرا

في تلك الجلسة، ولكن ما كان يدخل عليها الحبور والمرح هو أنه كلما تطايرت تنورتها بسبب الرياح التي تبعثها أمواج البحر، تتأكد بأن خوسيه قد أصبح يشعر بالإثارة.. ولو أن أحدا قد مر بالقرب منهمما لدخلت على صفحات الفايسبوك كأكبر خليعة لمدة يومين. وبعد أن غرس خوسيه عينيه باتجاه ساقيهما العاريين أكثر من مرة قال وكأن خبلا قد حل به..

- قومي.. انهضي.. لماذا لا نذهب إلى البيت.. سنجلس على البلكون ونشرب كاسين ونتمتع بأكثر من أمواج البحر..

لم أعارضه.. وللحقيقة فقد كنت أنتظر أن يقترح علي ذلك.. بل أكثر من ذلك كنت أود أن أمزق له قميصه لكي ادفعه إلى ذلك الهياج المجنوس الذي يجعله رجلا إسبانيا بحق!.

حين عدت إلى البيت في منتصف الليل، كنت منتشرة إلى حد فقدت فيه كل إحساس بالألم.. ولكن في الصباح وجدت نفسي وكأنني بقايا من جسد وقع تحت ثور خلال مصارعة للثيران. أدركت آنذاك لماذا يمنعون النساء من مصارعة الثيران (الكوريدا النسائية).. وبعد تجارب عديدة وجدوا أن الثيران تشم رائحة النساء فتصبح أكثر هيجاً.. يلتقط الثور ضحيته بقرنيه ثم يبطحها أرضا ويهمم عليها بعد أن يخرج قضيبه، ولا يقوم من فوقها إلا إذا أفرغ ماءه.. لم اسمح لأمي أن تعرف شيئاً عما حدث معي البارحة. ولكن حين لاحظت أثر الكدمات وأنا أتطلع على ظهري في المرأة، انتبهت أيضاً إلى أن فخذني قد ظهرت عليهما بقع بنفسجية، ناديت في الحال صديقتي سمية التي كشفت لها

عن تلك الآثار وأنا أتألم ولكن كما لو كنت أتفاخر بالثور الذي
دھسني دھسا، سألتني سمية:

- هل ضربك؟

- لم يضربني يوما.. ولكن انفعالاته لا حدود لها كما لو في
داخله جن..

قالت سمية حين رأته متشبّثة بكلمة انفعالات..

- هنئنا لك.. هذه علامات صدق وحب. تبا لشباب اليوم.
إنهم كالديكة. ما إن يصعدوا على كومة حتى يؤذنوا ثم ينزلون
متبخرين، واضعين أيديهم في جيوب بناطيلهم الوطئة..

ضحكـت سمية لما قالتـه حتى رأـيتها تـشتـهي رـجـلا من فـصـيـلة
الـشـيرـان.. ثـم قـالـتـ

- حـذـار أـن تـكـوـني حـبـلي، إـلـا إـنـكـ سـتـضـعـين عـجـلا إـسـبـانـيا
صـغـيرـا..

لم يكنـ فيـ نـيـتي أـن أـضـحـكـ، وـلـكـنـ سـمـيـة أـجـبـرـتـي عـلـى ذـلـكـ،
فـأـحـسـتـ بـأـضـلـعـي تـعـودـ إـلـى مـكـانـهـ الطـبـيـعـيـ ثـمـ سـمعـتـها تـقـولـ:

- هـيـا اـنـهـضـيـ، عـلـيـكـ أـنـ تـذـهـبـيـ مـعـيـ إـلـى الطـبـيـبـ..

- لمـ أـمـانـعـ اـقـتـراـحـهـاـ. فـأـنـاـ كـنـتـ أـحـتـاجـ إـلـى بـعـضـ المـراهـمـ
وـالـمـهـدـئـاتـ..

ولـمـ يـسـتـغـرقـ الـوقـتـ أـكـثـرـ مـنـ سـاعـةـ وـنـصـ بـيـنـ الطـرـيقـ وـإـنـهـاءـ
الـفـحـوصـاتـ، حـتـىـ سـمـعـتـ الطـبـيـبـ تـقـولـ لـيـ:

- أـنـتـ حـبـليـ يا مـدـمـواـزـيلـ..

*** *** ***

اختار «صابر» كنية له ليعرف بها في المسجد الذي يؤدي به صلاته كل يوم جمعة.. أصبح يعرف «بأبي هند الطنجاوي».. كان اسم «هند» هو اسم أمه وكان كذلك يريد أن يطلق على ابنته فيما لورزق بطفلة اسم «هند».. وحين قرر الذهاب إلى سوريا للانضمام إلى المجاهدين العرب، لم يخبر لا زوجته الشابة التي تركها حبل ولا أمه في طنجة ولا حتى أخته ساندرا التي يتراصل معها يوميا.. أمضى هناك في سوريا نحو عام ونصف وانضم إلى تنظيم داعش في بلاد الشام، وحين استعاد الجيش السوري مدينة تدمر وجد أبو هند الطنجاوي نفسه مرغماً على العودة إلى باريس، وبالتحديد إلى زوجته التي تركها في شقة صغيرة قرب ساحة ستالينغراد.. حين وصل إلى تركيا أعاد الاتصال مع زوجته فأخبرته بأن البوليس الفرنسي يبحث عنه.. أخبرها ببرودة دم بأنه فقد ساقه في الحرب.. وبعد ذلك قرر العودة إلى بلده المغرب..

جاءه رجل إلى الفندق الصغير الذي سكن فيه في ضواحي أنقرة، بعد ظهيرة اليوم الثالث لوصوله من الحدود السورية. ودون أن يخبره حتى عن اسمه سلمه ظرفاً صغيراً به مبلغ من المال: ثلاثة آلاف دولار. شكره على شجاعته وحماسه وإخلاصه للإسلام. وكرر له بأن الله لا ينسى أبناءه ثم اخفي!

عاد «صابر» ليستلقي على فراشه وقد تنفس الصعداء لأنه أصبح قادراً على خلاص الفندق والعودة إلى المغرب، ثم عادت إليه روحه المرحة التي باتت كثيبة منذ عدة أيام. تمفي لو مات وقال

لنفسه: كان الأفضل لو ذهبت شهيداً إلى الفردوس، على أن أعود
أخرج بساق واحدة.. تجاوز تلك المحنـة مؤقتاً يقناع نفسه بأنـه
عضو من الجسد قد لا يعطل الجسد وإنـما يغيـر دورـه الذي يؤـديـه
على مسرح الحياة!..

بعد يومين من وجودـه في ذلك الفندق تعرف على رجلـ آخر
في نفس سنـه ومن نفس بلـده في صالـون الفندق.. ولـما أرادـ أنـ
يتـصافـحاـ اتـكـأـ أبوـ هـنـدـ عـلـىـ عـصـاهـ وـمـدـ يـدـهـ الـيمـنـيـ فـظـلـتـ مـعـلـقـةـ
فـيـ الـفـضـاءـ.ـ أـدـرـكـ أـنـ يـدـ صـاحـبـهـ كـانـتـ مـقـطـوـعـةـ،ـ وـأـنـ مـاـ يـرـاهـ بـلـوـنـ
الـلـحـمـ الـبـشـريـ،ـ عـبـارـةـ عـنـ يـدـ بـلاـسـتـيـكـيةـ.

قالـ صـابـرـ:

- أنا أبوـ هـنـدـ الطـنـجـاوـيـ.ـ وـأـنـتـ؟ـ
 - وـأـنـاـ اـبـوـ قـتـيـبـةـ..ـ مـنـ مـكـنـاسـ.
 - مـنـ أـيـنـ وـصـلـتـ؟ـ سـأـلـ أـبـوـ قـتـيـبـةـ.
ـ مـنـ تـدـمـرـ..ـ وـأـنـتـ؟ـ
 - مـنـ الرـقـةـ..ـ قـبـلـ نـحـوـ أـرـبـعـةـ اـيـامـ.
 - هلـ أـنـتـ عـائـدـ إـلـىـ الـمـغـرـبـ،ـ سـأـلـ أـبـوـ هـنـدـ.
 - أناـ ذـاهـبـ إـلـىـ النـزـويـجـ.ـ عـائـلـتـيـ فـيـ النـزـويـجـ..ـ وـأـنـتـ؟ـ
 - أناـ عـائـدـ إـلـىـ الـمـغـرـبـ..ـ جـئـتـ مـنـ بـارـيسـ وـلـكـنـ لـنـ أـتـمـكـنـ مـنـ
ـ العـودـةـ إـلـىـ هـنـاكـ.
- ـ ثـمـ سـأـلـهـ أـبـوـ قـتـيـبـةـ:
- هلـ مـعـكـ مـغـارـبـةـ آخـرـونـ؟ـ

- معي شاب آخر تركته نائماً في الغرفة.. فقد عينه اليمني ولا يزال جرحه لم يتماثل للشفاء..

(يا الله، كما لو أننا أولئك الشبان الثلاثة الذين فتحت لهم الجنة أبوابها ثم قفلوا راجعين وخائبين! قال أبو هند لنفسه.. وقد تذكر حكاية الشيخ أبو عمر الذي جنده مع اثنين من رفاقه في مسجد ستالينغراد في باريس. وهو يحذرهم من عدم غبطة تذوق رحيق الحياة على عتبات الجنة كما فعل شبان ثلاثة لم يفسخوا العقد الذي بينهم وبين الشيطان، وهم ذاهبون إلى الجهد..

قال الشاب الأول: وهل لي أن أعرف ماذا يخبيء لي القدر؟

وتساءل الثاني: وماذا لو لم أجتاز عتبات الجنة؟

أما الثالث فكان لا يزال متشككاً في كلام الشيخ وتمتم مع نفسه: وماذا لو كان الأمر خدعة؟

ذهب الشبان الثلاثة إلى الجهد، فعاد كل منهم خائباً وناقصاً.. (خائباً لأن روحه لم تعرف طعم الجنة وناقصاً لأن جسده أصبح معطلاً)..

ودع أبو هند أبي قتيبة على أن يعودا فيلتقيا في المساء ثم صعد إلى غرفته ليفكر في العودة إلى المغرب بشكل جدي.. فهو لا يزال غير مقنع بذلك الخيار الذي فرض عليه فرضاً.. وهو خيار قد يجعله فأر سجن طوال ما تبقى من حياته.. خطفه نوم عميق لم يتخلص منه إلا حين رن هاتف غرفته بقوة.. ثم سمع أحد موظفي الاستقبال يقول له:

- غداً يمكنك أن تسفر إلى الدار البيضاء. لقد تم الحجز لكم..

بعد ذلك عاد إلى النوم محتضنا رواية فلاديمير بارتول «أموت»:
جئ إلهي ثلاثة فتيات.. واحدة تحمل إبريقا من الشاي. والأخرى
قصعة من الحليب الطازج والثالثة منشفة بيضاء وليفة أو حكاكة
وصابونة.. سأله التي تحمل إبريق الشاي ما إذا كان يريد أن يشرب
الشاي أو الحليب قبل الحمام، فأجاب:

- أنا عطشان.. هات الحليب..

كروع قصعة الحليب وكأنه جدي صغير، ثم خلع ملابسه ودخل
إلى الحمام. مدد كلتا ساقيه في المغطس ونبي تماماً أن ساقه اليسرى
قد قطعت.. ثم أدار بظهره للفتيات كي يدلّكنه بالحكاكة.. أوّمأت
إحداهن بخلع ثيابهن جميعاً ثم غطسن معه في الماء.. تراشقن معه
الماء والضحك.. وحين أراد أن يصرخ

- يا بهجة هذا الحمام، رن هاتف الغرفة وفي نفس الوقت طرق
بابه بقوة..

التقط السماuga لأن الذهاب إلى الباب مهمة صعبة بالنسبة
لرجل أعرج، فسمع الموظف يقول:

- سيد صابر.. لقد حان موعد ذهابك إلى المطار..

*** *** ***

حين صار أبو هند الطنجاوي في المغرب، وقد اجتاز إجراءات
الجمارك بسهولة بالغة كما لو أن أحد حراس الجنة كان يسير
معه، تذكر تلك الرؤيا العابرة والكيفية التي عبرت به بعد الفجر
بقليل.. اطمأن جيداً لأنه بدا بشرب الحليب وفسر ذلك بغضيل

روحه وقلبه من الحقد. ثم فسر دخوله إلى الحمام بأنه تخلص من أدران جسده القديم. أما إبريق الشاي الذي لم يتمكن من شربه بسبب رنين الهاتف وطرقات الباب القوية، فقد فسره بأن شرب الشاي يعني الراحة والاستجمام. ولأنه لم يتذوقه، فقد يكون أمامه طريق طويلة من المحن حتى يتمكن من شرب كاس الراحة!..وها هي رؤيا أبو هند الطنجاوي التي تسللت إليه من «رواية الموت» تتحقق تقريرياً، بل أصبح يراها واقعاً ماثلاً أمامه..

بعد أسبوع من السكن في أحد أحياط الدار البيضاء مع أحد أبناء خالاته الذي يعمل في البريد، جاءه رجلان بنظاراتين سوداويتين وطلبا منه أن «يتفضل معهما» إلى مركز البحث والتوثيق.. ثم أخضع لاستجواب مقاتل وعنيد.. وقبل أن ينطق بكلمة، قرر أن لا يقول إلا الحقيقة، لأن مثل هؤلاء الرجال لا يكفون عن الضرب والتعذيب ما لم يجدوا ما يقنعهم على ألسنة ضحاياهم.. إنهم يفعلون أي شيء ولا يسلم منهم إلا اللسان، لا شيء إلا لكي يتكلم، أمضى في ضيافة قسم التحقيق نحو ثلاثة ساعات وهو يتكلم بلا انقطاع.. وجعل المحققين الثلاثة الذين كانوا يلقون الأسئلة بلا توقف شبه راضين عنه، فطلبوا له أكثر من كأس شاي.. وكلما توقف عن الكلام، يقول له أحدهم:

- اشرب.. اشرب الشاي المنعنع الذي لم تشربه في سوريا يا أبا هند.. وتتكلم دون أن ندخل في تشاكل جسيدي..

(في الحقيقة لم أشرب شايا في حياتي أكثر مما شربت في سوريا، خاصة أيام الحصار في تدمر.. نفتر شايا ونتغدى شايا ونتعشى

شايا. انتهت المؤونة كلها، ولو لا الشاي لتنا جوعا.. ولكن الشاي الذي يشربه الآن في قسم التحقيق أكثر متعة. خفيف ومنعن كذلك الشاي الذي لم أشربه في المنام)..

تسليحت بكل ما أملك من شجاعة وإيمان وصبر (لأن الرجل الذي يدفن ساقه في التراب وهو يدعو لها بال توفيق نحو طريق الجنة، عليه أن ينزع كل الخوف من قلبه لأنه لا يريد أن يفرط في مجده أو يشوّه تاريخه) ثم قلت بعد أن انتهوا من إلقاء الأسئلة:

- إخوتي الكرام.. هذا الشاب الذي أمامكم والذي ترك جزءاً رئيسياً من جسده مدفوناً في الصحراء، وعاد إليكم طواعية، ما كان ليذهب إلى الحرب بشكل عفوٍ، لو لا مشيئة الله وبعض عباده. لا أنا ولا أغلب الذين رأيتم هناك في ساحة الحرب كان يملك الوعي الكافي لما يحدث.. كنا لا نملك إلا الإيمان، كذلك كنا فخورين بأن ندفع حياتنا من أجل أن تكون راية الإسلام خفاقة وعالية.. وربما سوف لا تصدقوني لو قلت لكم أن المرء لا يتعلم إلا إذا تعرض إلى المحن.. المحنّة هي الاختبار الحقيقي للإنسان المؤمن.. والآن فإن سجني لن ينفعكم، كما أن موتي لن ينتفع منه أحد.. كنت فرداً من آلاف المتطوعين من أجل هذه التضحية..وها أنا فرد أمامكم. لذلك من الحكمة أن نتعاون وأن نتقاول.. لقد عدت من الحرب بإيمان شديد مفاده: كل قتال لا بد أن ينتهي إلى صلح.. إلى سلام.. وليس أمامي الآن إلا أن أتدبر أمري لكي أعيش بسلام.

رأيتم الثلاثة صامتين وهم يحدقون في وجهي. فتابعت أقول:

- سادتي، ليس ثمة أصعب من أن يكون الإنسان متساويا مع نفسه. كنت أعرف شيئاً وحيداً من البداية هو أن لا أحد عُدوا ولا أترك أحداً يخدعني.. ذهبت متطرعاً لا مرتفقاً. وحين رأيت نفسي قد أصبحت عاجزاً انسحبت بشرف كامل وجسد ناقص..

- أراك تتكلّم العربية جيداً.. من أين تعلمت ذلك وأنت كنت تعيش في باريس، سألني أحد المحققين..

قلت ما زحراً وجاداً في نفس الوقت:

- حين تهاجر تصبّع أقرب إلى الوطن.. وحين نذهب على فرنسا نصبح أكثر تمسّكاً بلغتنا وإسلامنا.. القلة فقط تخرج عن تلك القاعدة.. ما نتعلّمه بعد العشرين لا يتعدّى بعض التقنيات.. المعرفة بلا إيمان وبلا هوية تصبّع شيئاً مرعوباً يا سيدِي..

بعد برهة من الصمت الذي أطبق علينا جميعاً، سمعتَ كبير المحققين كما فهمت ذلك من خلال سنه المتقدمة وهدوئه ورصانة أسئلته القليلة.. يقول:

- ماذا ستفعل ابتداءً من الآن يا «صابر»، إذا كان عليك أن تبدأ حياة جديدة؟

- سأحاول أن أدرّب نفسي من جديد على الحياة في المغرب.. يبدو لي أن العودة إلى فرنسا أمراً لا يطاق.. قد تلتّحق بي زوجتي مع ابني «هند» إلى هنا. وسأذهب إلى طنجة لأتصالح مع عائلتي.. لا أحد منهم يعلم حتى الآن لا بذهابي إلى سوريا ولا بعودتي إلى المغرب..

- في باريس كنت تعمل كنادل وأحياناً كسائق تاكسي.. والآن

ماذا ستعمل بساق واحدة.

- يمكنني أن أعمل كسائق تاكسي أوتوماتيك.. ألا ترى أن ساق اليسرى هي المقطوعة.. ثم أن زوجتي إذا ما اختارت الالتحاق بي، فهي تعمل كمهندسة ديكور.. ويمكن لها أن تشتعل هنا..

- أليدك سكن في طنجة؟

- أنا من عائلة متوسطة الحال وقليلة العدد. لدى أخ يدرس في الولايات المتحدة، وأخت قد تكون أكملت دراستها الآن في الفنون الجميلة. ويمكنني أن أسكن في الطابق العلوي من بيت الوالد.. أنا صابر سلطاني يا سيدى.. ذهبت إلى باريس لتابعة دراستي، لكنني لم أجد في الدراسة أية معرفة تقودني إلى الله! وحينما لا نجد الله في المدرسة أو في الكلية نصعد إليه نحو الجبال ونبحث عنه في الصحاري!..

عند ذلك الحد أغلق أبو هند فمه ثم عاد يتكلم باسمه الأصلي صابر، قال:

- أنا الآن صابر سلطاني.. أريد أن أبدأ حياتي من جديد.. أمر كبير المحققين بختام التحقيق.. لم يمكنه من قراءته لكي يضع توقيعه، قائلًا له:

- انتيهنا من حصة اليوم.. في المرة المقبلة قد تحتاج إلى بعض التوضيحات ثم نطلعك على التحقيق للتتوقيع..
تابع يقول:

- يمكنك العودة الآن من حيث أتينا بك.. وإذا أردت أن تذهب

إلى طنجة.. أخبرنا..

كرر أحد مساعديه:

- أخبرنا يا صابر.. لا تنسى..

لم يسأل «صابر» عن موعد المرة القادمة لأنه أدرك بحسه ان ملفه لن يغلق إلا بعد استكمال الابحاث. وهذا يستوجب ربما اتصالات مع الأمن الفرنسي، ولكن شعر بالراحة لأنه شرب الشاي الذي لم يشربه في المنام..

*** *** ***

حين توقف التاكسي أمام بيت مبارك سلطاني.. قال صابر لصاحب التاكسي..

- اضرب الزمور يا سيد.. نحن لسنا في الليل..

زعق الزمور بقوة، فقفزت الحاردة من الباب..

سألها صابر من الشباك:

- هل يمكنك مساعدتي..

- ومن أنت؟

- أنا صابر.. أنا ابن مبارك سلطاني وهند سلطاني.. أنا شقيق ساندرا..

أصابها ذهول كبير.. إنها تسمع بصابر، لكنها لم تره آبدا.. أمها تعرفه لأنها أشرفت على كامل مراهقته وجزء من شبابه.وها هي تأخذ مكان أمها بعد أن توفيت.. ففتحت باب التاكسي ثم نزل السائق فتعاون معها على إنزال صابر إلى الأرض وإنزال حقيبته..

وحين تأخرت الخادمة في العودة إلى البيت خرجت ساندرا لترى ما يحدث.. ثم رأت صابر بقامته الطويلة يتکئ على عكاز وهو يحاول أن يتقدم إلى المدخل. صرخت بانفعال شديد..

- صابر.. صابر أخي.. عانقته بقوه ثم راحت تبكي بحرقة...

لم تكن ساندرا أبدا تتخيّل أنها ستعيش ذلك المشهد الذي رأته في فيلم - الانكليزي المريض -. ودعوه وهو يقفز كلاعب تنّس شهير وكانت لم تتخطى العشرين بعد وها هي تستقبله عائدا من الحرب على عكاز. لم يكذب عليها حدسها. فحالما تم إجلاس صابر في الصالون بعد حصة طويلة من العناق والبكاء، اشتربكت فيها الأم هند والأخت ساندرا والخادمة -مو- ثم انظم إليها الأب مبارك. تكلم صابر..

- تلك أقدار الله.. أنكم تسألون ما حدث لي.. لم يحدث شيء.. أراد الله أن أكون أعرج فتم ذلك. ولو أراد أن أموت لمت.. وصلت إلى عتبات الجنة ثم قفلت خائبا..

لم يفهم أحد ما حدث بالضبط.. ولكن صابر أراحهم جميعا من عناء السؤال قال:

- كنت في سوريا.. كنت أعزز جلالته في الواقع الأمامية.. ذهبت إلى هناك لاعتقادي أن الإسلام سيبدأ رحلته البدعة مرة أخرى من أرض الشام.. كنت متلهفا لكي أجعل المسلمين غير متلهفين.. ثم التفت إلى أمه وقال:

- لا أطلب منك إلا أن تسأمحني، لأنني ربما جعلتك تتعدّبين لأجي..

بعد ذلك التفت لأبيه وقال:

- أنا لست إلا رجلا عابرا.. جميعنا عابرون بأرجل وبدون أرجل.
كاد أبوه أن يضحك، إذ ظن به خبل.. ولكن لم يضحك.. ازداد
كآبة..

نادي صابر على أخته ساندرا لكي تجلس إلى جانبه ثم حدق فيها
 قائلاً:

- ها.. لم تتزوجي بعد يا ساندرا.. هل ثمة من يستغنى عن هذا
الجمال؟

حط الخجل على كامل جسد ساندرا كما لو أنها مراهقة لم
تبلغ بعد الرابعة عشر.. (ربما تقديرًا لوضع صابر الصحي).. وربما
لأن صابر يتحدث كما لو أنه رجل صوفي أو كدرويش خرج
للتو من أحد الروايات الدينية).. ثم غطست في استيهامات جارفة
ورأت نفسها مع بلانتيرو وهي غير قادرة على منعه من ممارسة
الفاحشة معها.. ارتعشت كما لو كانت بردانة ثم رأت صابر يحدق
في اثر الكدمات التي تظهر على ذراعها.. لم تسع ساندرا كما يجب
لإزالتها أو لإخفائها لأن كدمات العشق تبقى كجرس لإعلان
الرغبة لدى المرأة منذ أن تعبير إلى ضفة الحب..وها هو جاء وقت
الحساب الذي لم تحسب حسابه.. فماذا ستقول لو سألهما عن سبب
تلك الكدمات).. وفعلا لم يتأخر صابر كما توقعت:

- ساندرا.. هل لديك قطة في البيت.. أم أن أحدا ضربك؟

*** *** ***

ثمة أحداث تعبّر حياتنا لم تحدث.. نتذكّرها ولكنها لم تحدث،

كأن تكون خائفاً من عضة كلب فتذهب إلى الطبيب وتطلب منه حقنة مضادة لداء الكلب.. تأخذ الحقنة، فتصبح تحت الاعتقاد الواهم بأنك تعرضت لعضة كلب وتجاوزتها بسلام. كذلك ثمة أحداث لا تتذكر أنها وقعت إلا بعد فترة من حدوثها لأنها كانت تحتاج إلى جرعة من الألم والاهتمام.. كان تسقط امرأة أمامك بسبب توعك مفاجئ.. ثم تمضي دون أن تنتبه.. وحين ينتهي موعدك الذي كنت منشغلاً به، تتذكر أنك لم تقم بالواجب تجاه تلك المرأة المسكينة. يتوعك ضميرك قليلاً ثم ينهض بلا أسف متوكلاً. ما حدث لساندرا يمكن تصنيفه في خانتين: حدث أصبح مستوطناً لا عابراً. وحدث لم يحدث. عابر لكنه كذلك مستوطن.. كلاهما يوجدان خارج سياق الإرادة، ولكنهما قد يوجدان داخل سياق الحبكة أو الحكاية.. عودة صابر بساق واحدة من جهة القتال في سوريا. يمكن اعتباره فوبياً الذي لم يحدث، لأن أخيها صابر لا يزال في فرنسا مع زوجته وأبنته هند. ثم قوبياً الذي قد حدث في غفلة منها لأنها كانت منشغلة بالمتعة وبالحب، لأن طفلاً قد أصبح ينمو في بطنها وهو مستوطن بالرغم منها. وهكذا فإن الحدث العابر ليس عليه أن يبقى عابراً إلى الأبد!.. لأن أي حدث لا بد له أن يرتبط بسلسلة من الأحداث الأخرى ليقيم سياقات تصبح هي الحياة ذاتها لا القصة التي نود أن نعيشها بعيداً عن الحياة!..

كانت ساندرا تريده أن تعيش قصة مع بلانتير. وكذلك بلانتير على الأرجح أيضاً. بدأت برسم ثم تطورت إلى صورة ثم دخلت في سياقات متشعبه حتى أصبحت حياة. ولا شك أن وضعها في

هذه الحالة يشبه وضع الكاتب الذي يكتب ما يتوقعه القارئ والكاتب الذي لا يعلم أو لا يكتب ما يتوقعه القارئ.. وهنا يجب أن نؤكد أن ذلك لا علاقة له بحرفية الكاتب أو بموهبه. وكمثال، فإن أمبرتو إيكو ونيكوس كازانتكيس كاتبان كبيران لا يشق غبار لوهبتهما.. كازانتكيس بإمكانه أن يقودك إلى أين يريد ولا تستطيع أن تفلت منه، أما إيكو فليس بالإمكان أن تعرف إلى أين يقودك ولا تستطيع أن تفلت منه أيضا.. وقد كان على ساندرا أن تلعب مع بلانتيرو على الساحتين (أن تعرف وان لا تعرف إلى أين يقودها) وتتجدد المتعة في الاتجاهين، لكنها لا تعرف إن كانت متعة الخاسرين أو متعة الرابحين..

ما يهم ساندرا في الحقيقة ليس الربح أو الخسارة لأن أية علاقة عاطفية إذا أخضناها لذلك المقياس، أصبحت عملية تجارية تافهة ومحدودة. لأوضح، فإن ساندرا قد تجد نفسها خاسرة، ولكنها ممتعة بتلك الخسارة وذلك هو الربح الكبير.. كان بلانتيرو يغذيها باستمرار بتلك الأفكار المجنحة والتي تطير بثلاثة أجنبة. كان يقول لها أن الجناح الثالث لأية فكرة وفي أية علاقة هو جناح اللاتوقع لأنه يمنحك القدرة على الطيران العالي جدا، كان يضرب لها أمثلة عديدة عن متعة الخاسرين التي تحتوي على بعد آخر، هو متعة الآخر، أي المتلقى أو المشاهد.. ففي أفلام كثيرة ينتشى أغلب الناس لانتصار البطل، ولكن اغلب الناس هم الجمهور العادي والبسيط.. أما الأكثر ذكاء والأكثر حساسية فإنهم يتمتعون بحكاية الضحية أو الخاسر. قال لها ذات مرة:

- لتأخذ مثلاً مدام بوفاري... هل تعتقدين أن الناس يحبونها

لأنها انتحرت فقط.. إذا كان ذلك هو الرأي فهو بسيط.. الناس يحبونها لأنها تجرأت وراهنـت على الحب وخسرـت..

- هل هذا يعني أن الراجحين في الروايات والأفلام هم يربحون بالمصادفة أم هم يربحون لأن الحبكة فرضت نفسها

أضاف بلانتيرو:

- الأدب كالحياة.. والرسم هو الأدب والحياة معاً يا ساندرا..
وإلا قولي لي ما الفرق بين محمد شكري والحسن الثاني.. أو حتى
بين أندرية مالرو والجنرال ديغول.. أما سلفادور دالي فقد جعل
فرانكو قطعة من إسبانيا أو قصة إسبانيا مع الألم والحياة..

فجأة اختفى بلانتيرو من أفق ساندرا، أي من مساحتها الضوئية.. فانتهى الحوار عند ذلك الحد. وظل اللقاء مجرد وعد لأن السكايب انقطع. فقالت لنفسها: حقا كل لقاء هو حدث عابر وغير مكتمل..

■ الفصل السادس عشر

عادة ما يقتفي الدكتاتوريون أثر بعضهم بعضاً. إما أن يذهبوا إلى المقصلة أو يذهبوا إلى المنفى.. ورغم أن بن علي كان يشبه «تشاوشيسكو» رومانيا في نظامه الأمني، نظام «السكيرياتا». أو في علاقته بزوجته إذ كانت ليل نسخة أخرى عن (الينا تشاوشيسكو) وكذلك في درجة حبه لبلاده إلى درجة التملك ! إلا أنه اقتفي أثر «عيدي أمين دادا» فلم يذهب إلى الموت كما ذهب «تشاوشيسكو».. فالطائرة التي انطلقت من مطار قرطاج تحت أعين الجيش والبوليس استطاعت أن تصل إلى جدة. أما الهيليكوبتر التي نقلت تشاوشيسكو من فوق سطح مقر الحزب، فقد حطت مرغمة في إحدى القواعد العسكرية؟!

بين «عيدي أمين دادا» و«زين العابدين بن علي» عدة نقاط تشابه: كلاهما جنرال. كلاهما قاما بانقلاب ضد زعيميهما. الأول ضد ميلتون أبوتو، أول رئيس لأوغندا. والثاني ضد بورقيبة أول رؤساء تونس. كلاهما كان صديقاً للقذافي. الاثنان هربا إلى جدة طلباً للجوء السياسي. والاثنان كانوا يحبان النساء والمال والسلطة.. بالإضافة إلى كراهيتهما المشتركة للصحفيين وحبهما المشترك لمطبخ بلدיהם!.

حين سقط «تشاوشيسكوا»، كان حبيب رودباري، نجم جريدة «جمهوريات» في عالم السبق الصحفي لم يصبح بعد صحفياً.. كان لا يزال طالباً في العلوم السياسية. أما ستيفاني نيكولاوس التي شجعته على اقتداء أثر بن علي بعد أن مدتْه بعده عنوانين وهو هاتف، فربما كانت لا تزال مراهقة في بلدتها «درست» بشمال فرنسا.. تعلل حبيب رودباري بأنه ينوي القيام بعمره، لكنه ظل في جدة ولم يذهب لا إلى مكة ولا إلى المدينة. كان عاقد العزم على الوصول إلى رجل تونس القوي الذي أصبح لاجئاً في جدة منذ أربع سنوات.. كان قد طلب من الشيخ العطار أن يساعدَه لأداء العمرة خلال شهر رمضان، فصرف له مبلغاً من المال وتدكرة سفر درجة أولى وإقامة كاملة لمدة 15 يوماً في «فنادق انتركونتيننتال» ثم مده بعنوان رجل تركي قال له، أنه سيجده في مطار جدة ليتولى تنظيم رحلته.. تم كل شيء على أحسن ما يرام لدى أبو منذر المدير المالي والإداري للشيخ العطار. وقال أبو منذر وهو يودعه في مكتبه.

- حين تعود من العمرة، سنتمكّن من رؤية الشيخ العطار لكي نشكّره.. ثم خرج. عرج على مكتب زميلته ستيفاني. وبعد أن دفعها قال لها:

- سأهاتفك من جدة لأمدك بأخباري !

لم تكن ستيفاني تعرف أن حبيب رودباري كان جاداً في الذهاب إلى جدة قبل يومين. أما الآن وقد باتت متأكدة، فقد ودعته قائلة وهي شبه ناقمة على نفسها لأنها امرأة مطلقة ولا تستطيع أن تزور السعودية بلا رجل محرم:

- لا تنسى أن الفكرة فكرتي يا حبيب .. بال توفيق ..

كان جلال طاهر في استقباله في مطار جدة. وهو الرجل الذي حدثه عنه أبو منذر. وبعد أن أخذ مكانه في المقعد الخلفي لسيارة التايوتا الرباعية، عرف حبيب أن جلال طاهر رجل مصرى يعمل بإحدى شركات الشيخ العطار في جدة.. قال له حبيب:

- أود أن أمكث في جدة لمدة ثلاثة أو أربعة أيام للإطلاع على هذه المدينة الضخمة ثم أذهب إلى مكة للبدء في شعائر العمرة ..

أوصله جلال إلى فندق انتركونتينتال.. وفي المساء أرسل له سائقا مع سيارته التويوتا.. وحين عرف حبيب أن السائق تركي ويتكلم التركية شعر بالراحة والغبطة.. ورأى أن الطريق قد تكون انفتحت أمامه للوصول إلى الرئيس السابق التونسي بن علي!

بسرعة وجد في السائق «رجب روشكان» دليلا لما كان ينوي القيام به. تعاهد معه على إخفاء مهمته التي جاء من أجلها بعد أن وعده بمبلغ من المال، ثم اتفق معه على أن يأخذه إلى كل الأماكن التي يرتادها السياسيون الأجانب.. كان رجب قد قضى أكثر من عشرين عاما في جدة. وقد عاصر ثلاثة ملوك. وقد عمل في البداية كناidel في أكثر من فندق ثم كحارس لإحدى الشركات ثم كسائق في مؤسسة العطار الخيرية، لذلك فقد أصبح يمتلك معرفة ميدانية ونظرية لكي يساعد ابن بلده حبيب رودباري في مهمته..

قال له حبيب في صباح اليوم التالي:

- قيل لي أن بن علي يرتاد الحمامات البخارية.. وأنه أحيانا يتناول غداءه في «المريديان». وفي المساء يحب أن يجلس في

«السوفيتيل» لتناول القهوة. فما رأيك؟

أجاب رجب:

- سأذهب معك إلى حيث تشاء. ولكن إذا ما عثنا عليه في إحدى الأماكن، فيجب أن تتصرف بمفردك كما لو أن الأمر صدفة.. أضاف..

- رأيته مرة جالسا في مقهى «الواحة» القريب من نزل شعبي يجلس به الأجانب. بدا لي ضخما ويعتمر قلنوسه بيضاء ويرتدى جلبابا أبيض. لم أقترب منه، لكن الرجل الذي كان معي دلني عليه وقال لي، أن ذلك الرجل الجالس في الركن مع اثنين من الرجال، هو الرئيس السابق لتونس.. ولكنني لست متأكدا ما إذا كان يرتاد ذاك المكان باستمرار أو هو جاء يومها لموعد خاص.

بعد ثلاثة أيام من البحث والتحصي، لم يعثر حبيب رودباري على أي أثر لبن علي كشخص .. عرف أنه يسكن في فيلا ضخمة على الشاطئ محسنة وقريبة من القصر الملكي وقصور الضيافة الملكية.. عرف كذلك أنه أحيانا يذهب إلى المطار ليتلقى بعض «المواد البلدية» كالهريرة والفلفل الأحمر المجفف وطحين الزميط والزيتون الملح التي تأتيه من باريس. عرف كذلك أنه يستقبل من حين لاخر بعض أقربائه الذين يأتون من قطر وتونس وباريس.. وأنه يقضي وقتا طويلا أمام شاشة التلفزيون لمشاهدة الأخبار والبرامج الرياضية.. وأنه في كل عام يقوم بأداء العمرة مع زوجته وابنه، وأنه يرفض مقابلة أي صحفي مهما كان مستوى الوساطة. وبما أن موعد أداء العمرة قد حان، فقد أرجأ حبيب كل شيء

إلى زيارة ثانية، وعزم على اجتياز العتبات المقدسة في الحرمين.. ففشل أهم صحفي «جمهوريات» حبيب روباردي فيما نجح صحفي من «البانوراما» الإيطالية، ريكاردو أوريزيو. والسبب كما فسرته ستيفاني، ليس سوء حظ أو عدم حرفيّة حبيب روباردي، وإنما يعود إلى عدم شجاعة بن علي.. هنا يختلف الجنرال بن علي على الجنرال عيدي أمين. فهذا الأخير ظل يقاتل إلى أن انهزم. لم يركب طائرته ويهرّب إلى جدة. وإنما قطع مسافات طويلة حتى وصل إلى ليبيا، عبر السودان ثم طلب اللجوء السياسي لعدم إخراج صديقه القذافي، فذهب إلى جدة.. لم يكن عيدي أمين دادا أكثر شجاعة. بل كان أكثر جرأة ومرحاً ودعابة.. كان يتحدث بأسلوب، شرشل ويتصرف كملوك البااغندا، ويسدد ضرباته إلى السياسيين مثل محمد علي كلاي.. فاز ببطولة المصارعة في بلاده تسع مرات، فانتقل من عرش الرياضة إلى عرش السياسة. كتب ذات مرة إلى ملكة بريطانيا قائلاً: «إنّي أحبك أيتها الملكة لأنك كنت قائدي العام. ولكنّ ها أنّ جزءاً من شعبك اليوم يحمل عرشي فوق رؤوسه.. لا تترددّي إذا كنت تحتاجين إلى شحنة من الموز». كما كتب إلى عدوه اللدود جوليوس نيريري: «إنّي أحبك.. ولو لم تكون مريضاً بداء السفلس لتزوجتك». لم يكن عيدي أمين يجمع المال كما كان يفعل بن علي. كما لم يكن يصمت أمام فساد عائلته أو زوجاته أو وزرائه.. بل كان يمعن في الانتقام من كل شخص، إن كانت زوجة أو وزيراً إذ شعر بأنهما خانا الأمانة أو تقاعساً عن الواجب.. طلق زوجته «ثيريا» أمام التلفزيون ثم أرسلها إلى رعي الشيران. وعزل وزيرة خارجيته عارضة الأزياء

الفاتنة، الأميرة «الليزابيت باغايا» ابنة ملك قبيلة التورو بتهمة ممارسة الجنس مع رجل أبيض في حمامات مطار أورلي بباريس، ثم راح ينشر صورها في الصحف وهي عارية.. استمر ذلك المسلسل لمدة عام فأضاف إلى شعبيته رصيدا آخر من المحبة، ولكن بعد عام من تلك الحادثة بدا أن نظامه ينهار بسبب الحرب التي أعلنتها على جارته تونزانيا.. استبدل القذافي صديقه عيدي أمين بصديق آخر من جيل آخر اسمه «موسفيني». وهو ماركسي قديم تعلم في الدار السلام ثم تدرب على السلاح في ليبيا. وقال البعض آنذاك، أن القذافي لم يدافع عن صديقه أمين دادا لأنه كان ينافسه في الشعبية والجرأة ومعاداة الانكليز. وحين طلب منه أن يغادر طرابلس، لم يكن عيدي أمين يعلم أن موسفيني الذي قاد ضده الحرب، كان ينام معه في نفس الفندق (غراند أوتيل). أشهر فنادق العالم لدى كل مخابرات العالم دون أن ترتكب فيه جريمة واحدة لمدة ثلاثين عاما.. كان ينام إلى جانب قادة الجيش الإيرلندي وعمر البشير ينام إلى جانب قادة دارفور، ورباني ينام إلى جانب حكميatar، ومع ذلك فلم تخيل حتى أغاثا كريستي كيف نجا فندق «الغراند أوتيل» من أية جريمة سياسية!..

- هل كان بن علي يشبه تشاوشيسكو أكثر، أو عيدي أمين دادا أكثر؟

ذلك السؤال هو الذي طرحته ستيفاني على زميلها حبيب روذباري بعد عودته من العمرة..

أجاب حبيب:

- من حيث النهاية، فإن بن علي انتهى إلى ما انتهى إليه عيدي

أمين. ها هو جالس في جدة ينتظر حساب ربه.. أما من حيث أسلوب الحكم، فهو يشبه تشاوشيسكو، قاد كل منهما بلده بقبضة فولاذية من السكيريات. وحاولا أن يبتعدا عن الشرق والغرب، وخضع كل منهما لنزوات زوجته.. ولما خرجت أول مظاهرة ضدهما، ركب كل واحد طائرته نحو منتهاه..

- ثمة أكثر من ذلك يا حبيب، قالت ستيفاني.

- ما حدث لتشاوشيسكو فجر صعود بن علي إلى الحكم لم يفهمه جيدا.. فالبرغم من أنه رجل أمن لمدة ثلاثة عقود وسفير لعدة مرات في بلدان كانت تتظاهر يوميا مثل بولونيا إلا أنه لم يفهم كيف سقط تشاوشيسكو ثم كيف انتشر ذلك النمط من الثورات في أوروبا الوسطى ثم في آسيا الوسطى، وكاد أن ينجح في إيران.. ثم انتقل إلى تونس!.. كان الأمر بالنسبة لي واضحًا لو أن بن علي فتح عيونه أكثر..

تابعت ستيفاني حديثها:

- دعك من رغبة أمريكا.. ثم إنني للحظة ما يسمى بالإسلاميين. ولا تقل لي أن النظام لم يكن متamasaka إلى حد ما.. هناك بطل واحد لعب الدور الأبرز في كل تلك الثورات. هو التلفزيون في العصر الفضائي.. فحين كان التلفزيون محليا فقط، كان أداة للحكم. أما حين أصبح فضائيًا، فقد أصبح أداة للانقلابات والثورات.. وفي اللحظة التي تحول فيها التلفزيون إلى الفضائي، انتقلت سلطته من الضعفاء إلى الأقوياء..

كانت «السي.آن.آن» قد افتتحت بثها الفضائي قبيل سقوط

تشاوشيسكو ببضعة أشهر. وفيما كانت تعرض الجثث التي أخرجت من برادات المستشفيات في تيمشاور، وهي جثث لموتي حوادث الطرق، كان الدكتاتور الروماني ينزل بطائرته في قاعدة عسكرية.. استمرت المظاهرات أمام قصر المؤتمرات على الشاشة، بينما الناس قد عادوا إلى بيوتهم.. وكان في نظر العالم كله أن تلك المظاهرات لن تكفل إلا بإعدام الدكتاتور وزوجته.. تم إطلاق النار بسرعة في حديقة تلك القاعدة ثم أعلن عن نجاح الثورة.. كانت ثورة فضائية شاهدها العالم كله كما يشاهد حفلة أعياد الميلاد أو مباراة كأس العالم، ولا أحد تفطن إلى الحبكة والأكاذيب.. هكذا دشن العالم عصراً جديداً من الأكاذيب.. إن الأكاذيب المتقدمة هي الحقائق الجديدة.. بل هي التاريخ الحقيقي ! ..

- ولكن ما لم أفهمه لماذا بدأ الانهيار للأنظمة العربية من تونس؟

سأل حبيب. وأراد أن يجتهد فطرح عدّة تساؤلات أخرى :

- هل تكون تونس أكثر عطشاً للحرية. هل يكون التونسيون أكثر استعداداً للتمرد ؟

أم لأن تونس هي النقطة الأكثر هشاشة ؟

أكملت ستيفاني كما لو أنها أستاذة جامعية.

- اسمع يا صديقي الثورات والانتفاضات لا زالت تتحدى كل دارسيها بمفاجأتها. لماذا تندلع فجأة كرعد السماء كما يصفها فيكتور هيغرو، أو كيف تندلع في المكان الذي لا تتوقعه كالزلزال؟ أو لماذا تنتقل كالنار في الهشيم من مكان إلى آخر؟ إن هذا أمر لا

يبحث فيه خبراء الثورة الجدد. إنهم يعدون أنفسهم جيداً للقدرة على توجيهها حين اندلاعها.. ثم يعدلون ساعاتهم على ساعاتها، بعد ذلك تصبح كالموضة تنتقل من بلد إلى آخر.. فلو أنها بدأت بمصر ووصلت إلى تونس. ولكن عليها أن تنجح في بلد حتى تنجح في البلد الآخر.. إن قانون المحاكاة هنا هو المعادل الحقيقى لقانون الفوضى.. أن الثورات لا يمكن التنبؤ بها حتى ساعة حدوثها كما تقول روزا لوکسمبورغ.. إنها جنون كما يقول ماركس، ولكنها جنون خلاق.. ها أن كونداليزا رايس صاحبة تعبير «الفوضى الخلاقة» قد التحقت بماركس في بداية القرن الواحد والعشرين!..

تسألني لماذا بدأت في تونس؟ وليس في بلد آخر.. ولكن لاحظ ما حدث في تونس أعيد إنتاجه في بلدان أخرى حرفيًا: الفضائيات تثير العواطف وتقوم بإعداد الناس، وحين يخرج الناس إلى الشوارع، يأتي دور القناصة لإحداث بقعة الدم التي تحتاجها الثورات كقربان.. بعد ذلك يتدخل الجيش لإرغام الدكتاتور على التنجي أو الرحيل.. وإذا الرئيس لم يرحل، لأن الجيش لازال يقف إلى جانبه.. وأنذاك تتحول تلك الثورات إلى مذابح..

كان حبيب قد بدأ في كتابة سلسلة من المقالات عن الثورات المذبوحة في العالم العربي في صحيفة «جمهوريات». لذلك كان يحتاج إلى أن يسمع من ستيفاني بأكثر مما يتكلم.. رأى أن أفكاره قد بدأت تنضج. وبعد أن تواعدنا على لقاء آخر قال لها مودعاً:

- وما رأيك في عنوان: الثورات الفضائية؟

قالت:

- يعجبني تعبير الثورات السماوية الثانية ربما أكثر.

سألهما: لماذا؟

قالت: لأن العرب يؤمنون بالسماء أكثر من إيمانهم بالأرض. ثلاثة أربع حياتهم يقضونها في محاورات مع السماء. أما أرضهم فمهملة.. دخلوا إلى التاريخ عن طريق النبوات القادمة من السماء في البداية.. وها هم يحاولون الدخول مرة أخرى عن طريق السماء.. بالتأكيد كانت ستيفاني تمزح.. أو أنها بدأت آنذاك تدرك أن اللعبة أكبر منها ومن حبيب بكثير.

*** *** ***

زار الرئيس المصري حسني مبارك قبل سقوطه بنحو عامين مقر قناة الجزيرة فأبدى اندهاشه، وقال أنه مقر صغير يشبه علبة الكريت.. ولم يدرك أن علبة الكريت تلك هي التي أشعلت الحريق الكبير في بيته. وكانت هذه القناة قد سببت صدارات كثيرة لجميع حكام العرب، حتى أصبحت الدوحة عاصمة لصناعة القرار العربي وأصبح أميرها أميرا على المؤمنين وغير المؤمنين من العرب.. كان مصعب الصراف أحد أولئك الذين اخترعوا تلك الفكرة.. كان لا يزال شابا عائدا من أمريكا وقد أكمل دراسته في الإدارة والأعمال، حين ذهب إلى مقابلة أمير بلاده مع صديق له.. قال للأمير بكل جرأة:

- إن قطر دولة غنية ولكنها صغيرة.. تقع بين إيران الكبيرة وال سعودية الضخمة.. وهي لن تكبر إلا إذا دخلت إلى عصر المتميذيا الفضائية.. ثمة عطل كبير داخل إيران وداخل السعودية هو عطل الخطاب وعطل الحرية. خطابهما راديوكاليان

ونظمها منغلقان.. وإذا استطاعت قطر أن تخترع خطاباً جديداً يستجيب للشارع العربي والإسلامي المتعطش للحرية، فإن قطر ستصبح قوة ضاربة.. إن الإعلام يا طويل العمر هو القوة الضاربة لأية دولة في العالم حتى لو كانت صغيرة الحجم..

من هناك. من ذلك اللقاء، ولدت الجزيرة حسب رواية مصعب الصراف لستيفاني نيكولاوس.. سأله ذات مرة:

- قليلة هي الحكومات، ديمقراطية كانت أم لا التي قد تقبل بتمويل قناة تضر بمصالحها. فلماذا أقدمت قطر على ذلك. بالأحرى كيف استطعت أن تقنع أميرك بذلك؟

قال مصعب وهو يمسك بسيكاره الكوبي «كوهيبا» ليشعله للمرة الرابعة.

- مدام ستيفاني. لو لم يكن الأمير شجاعاً لما أقدم على ذلك. أنفق عشرات بل مئات الملايين من الدولارات ليقول للعالم أن بلده مختلف ويريد التحديث. ولما أطاح بوالده الشيخ، كان يريد أن يقول لأمراء الخليج الآخرين، أنه حان الوقت لتحديث بلدانهم. فرض عليهم نسقاً جديداً، بدا واضحاً في البحرين.. ثم في الإمارات ثم أصبح يتحرك الآن في السعودية. قناة الجزيرة زعزعت المشهد السمعي/ البصري في المنطقة وفرضت خطابات جديدة على المنطقة ثم تمكنت من أن تكون قاطرة للتحديث في الداخل والتغيير في المنطقة من المغرب إلى اليمن. ولم تمض أربع سنوات على تأسيس الجزيرة حتى ألغيت وزارة الإعلام وحصلت النساء على حق التصويت والترشح للانتخابات البلدية. وبذا المجتمع

يتحرك ثم بدأنا نرى نساء قطريات يجلسن في المقاهي إلى جانب الرجال ويقدن سياراتهن وقد اكتظ بهن الشارع. وهذا ما حرض النساء السعوديات على التحرك والتنظيم.. أسألك يا عزيزي.. هل رأيت أميراً أو ملكاً خليجياً يقف إلى جانب زوجته أو يسافر معها أو يسهر معها في مطاعم باريس وروما باستثناء أمير قطر؟

كان يمكن لستيفاني أن تطعن في تلك الرواية البطولية، وتسفه مستوى الديمقراطية في قطر.. وتأتي بحفنة من الأمثلة عن القمع والتمييز العنصري ومنع إنشاء الأحزاب وعدم احترام القانون وغياب القضاء المستقل.. ولكن ذلك كله يظل مسألة نسبية. فمصعب الصراف يدرك جيداً أن ما حدث ليس الكمال، وإنما هو مقدمات نحو الحرية.. لذلك سأله ما إذا كان يعتقد فعلاً أن

قناة الجزيرة حرة فعلاً؟

وهنا أجاب مصعب كالتالي:

- هناك دائماً في أي عمل، خطوط حمراء وأخرى خضراء. وثالثة برترالية.. وبصراحة فإن «الجزيرة» قد نصفها بالقناة البرترالية. فكلمة حرة لا تعبر عن أي معنى محدد. من أنشأ القناة لا يستطيع أن يكون مدركاً تماماً لتلك المسألة، كذلك الصحفيون العاملون بها.. إنهم يجرؤون لقاءات مع كل أطياف المعارضين العرب، ولكنهم لا يجرؤون على مقابلة المعارضة القطرية.. مثلاً كان والد الأمير منفياً في روما ولا أحد التفت إليه.. كان يمكن أن يكون صيداً ثميناً لصحفيين آخرين لا يعملون في الجزيرة، ولكن لا أحد ذهب إليه أيضاً.. لماذا؟ لأن الجزيرة قادرة على الردع.. وتلك هي قوة الإعلام الكامنة والاحتياطية.. إن الجزيرة تلعب في النقطة

البرتقالية التي تمتد من الأحمر إلى الأخضر.. تكبح جماح الأعداء
كما هي تطلق عنان الأصدقاء..

كانت ستيفاني تصط霓 أحيانا الإقتناع حين كانت تستمع إلى مصعب الصراف.. وفي أحيان أخرى كانت تتذكر ما كان ي قوله لها زوجها السابق مراد عباس حول هذه القناة.. كان مراد لا يمكن إقناعه أبداً بأن «الحرفيات» يمكن أن تأتي من الخليج أو من بلد صغير مثل قطر.. فإذا كانت مصر مكممة ومعطلة، فكيف يمكن لنا أن ننتظر النجدة من قطر.. كان يرى في ذلك كله فصلاً من النفاق، مسرحية عن انفصام الشخصية العربية مشخصنة في قطر وأميرها.. فقناة الجزيرة هي في جانبها الآخر قاعدة «العيديد» الأمريكية.. هذه تغرق العرب في خطاب أجوف عن الحرية.. وتلك تتصف العرب بالقنابل الحارقة والحقيقة.. وبين مشهدتين مصورين، أحدهما لجندي إسرائيلي يدهس طفلًا فلسطينيًا، وآخر لناطق رسمي باسم حكومة إسرائيل، تطير القضية مع إعلان لطائرة الخطوط القطرية !.

وما بين كلام مصعب الصراف وكلام مراد عباس، كانت ستيفاني معلقة تماماً. فلا هي استطاعت أن تجعل مصعب الصراف يهيم بها كما هام في البداية.. ولا هي تمكنت من العودة إلى مراد. ولكن المرأة المعلقة بين رجلين غائبين حاضرين في نفس الوقت ولا أحد يمد إليها يده لا بيد لها أن تسقط كحبة تفاح ناضجة في سلة رجل ثالث !.

*** *** ***

إن ستيفاني تمثل الشكل المثالي المرغوب في المرأة التي يعشقها مراد شمان. هي أطول بقليل من «مراة حسن»، التي لم تعد بعد من الموصل منذ أن اصطحبت الفريق الصحفي. ولكن كل منها تتمتع بجاذبية قلما يصدأ أمامها أي رجل.. كل منها توحى بأنها ذات قدرة إنجابية مرتفعة. وهذا ما يزيد في مادة الأستروجين لديهما.. فاستدارة الورك التي تزيد عن استدارة الخصر بحوالي الثلث والشفاه المكتنزة والذقن الدقيق والوجه المتناسق والبشرة السليمة والناعمة، والصدر النابض، كلها ملامح المرأة الباحثة عن الخصوبة.. وبمعنى آخر الباحثة عن الرجل القوي دون الاهتمام بمظهره الخارجي. فإذا كان الرجل يختار بعيونه، فإن المرأة تختر بعقلها..

لكن مراد شمان رجل وسيم وقوى في نفس الوقت إلى درجة يرغبن فيها النساء إلى استدراجه لاغتصابهن! يتحدثن نساء الجمعيات لمقاومة للعنف، على أن اغتصاب الرجال للنساء هو جريمة لا تغتفر، ولكن ما من جمعية أشارت إلى أن هناك رجالا يتعرضون لاغتصاب النساء.. وحين طرح كتاب «التاريخ الطبيعي للاغتصاب» في أسواق أمريكا منذ عدة سنوات اندلعت عاصفة هوجاء داخل جمهور النساء. وتجرأن بعض النساء على شراء نسخ كثيرة وحرقها في الشوارع، لكن البعض الآخر رأى أن إستراتيجية العلاقات الجنسية القسرية هي نتيجة طبيعية لمبدأ النشوء والارتقاء.. قال الكاتب، «أن الاغتصاب يقوم به الطرفان: المرأة والرجل. أو الذكر والأنثى». فهو يعطي للرجال المرفوضين من النساء الفرصة لإيداع جيناتهم في الأوعية التناسلية للمرأة، وبذلك ينظمون إلى حركة الارتقاء بإنجابهم للأطفال.. أما المرأة

فهي تفعل ذلك انطلاقاً من رغبتها في إنجاب أطفال أقوىاء يشبهون أباءهم». تحدث كذلك الكاتب عن الاغتصاب الجنسي في عالم الحيوان. ضرب مثال العقرب الذي يقضي على مقاومة الأنثى بواسطة كلابتين حادتين.. وشدد الكاتب على أن دافع الاغتصاب تنتعش في زمن الحرب. أولاً طلباً للإنجاب لأن الحرب تقتل النسل. ثم لأن العقوبات تتراوح وتض migliori. وحين ظهر مؤلف الكتاب وهو البروفسور «راندي ثورنهيل» في ندوة لمقاومة الاغتصاب وتساءل عن الشبه بين سلوك الحشرات وسلوك الناس في زمن الحرب، تعرض إلى اعتداءات شنيعة.. إحدى السيدات رمته بحذائتها وقالت له: إنك تدعونا إلى الاغتصاب يا سافل.. سيدة أخرى صفعته في وجهه وشتمته بقوة.. ومنذ تلك الندوة، ألغى ذلك البروفسور كل ظهور علني له.

الأكاديميون استهزؤوا بالكاتب الذي استهزأ بعلم الاجتماع، لكن البروفسور الذي دافع عن بحثه وبحث زميله «كريغ بالمر» في مقال آخر ظهر في مجلة «علوم» بأن الاغتصاب ليس هو الإرث الوحيد الذي يعود إلى العصور الحجرية. بل هناك سلوكيات أخرى ورثها الإنسان من تلك الحقبة مثل الغيرة التي كان إنسان تلك العصور يستخدمها بصورة لا واعية لتطوير جيناته الخاصة. فالذي لا يثق في شريكه ويتجسس عليه ويخفيه أو يضربه من فرط حبه له يخلق فائدة لنفسه لأنه يمنع شريكه من البحث عن المغامرة في مكان آخر. وهذا نوع آخر من الاغتصاب.. وبما أن الغيرة موجودة بالتساوي لدى المرأة والرجل، فإن رغبة الاغتصاب سلبية أو إيجابية كانت متساوية لديهما.

ولكن شيئاً فشيئاً بدا الداروينيون الجدد يفرضون أنفسهم على المجتمع الأمريكي إلى حد تطور فيه نشاطهم وأصبح خطراً على الجمعيات المقاومة للعنف والاغتصاب.. ومثل جرثومة تكاثرت، عاد علم الأحياء الدارويني بقوة.. وأصبح كثير من الناس يتكلمون عن الاغتصاب المزدوج أو الاغتصاب السلبي والإيجابي.. كذلك عن الزنا المشترك، كما لو أنها من سلوكيات الدماغ البشري منذ القدم.. وخرجت إحصائيات إحيائية أخرى استعانت بخارطة الجنين. فقد رأت بأن طفلاً من كل عشرة أو ثمانية أطفال يولدون لا ينحدرون من صلب آبائهم. وسواء حملت المرأة سراً من عشيق لها يمتلك عدة جينية جيدة أو أن يدلس الرجال من دون علمهم طفلاً لأحد خصومهم، فإن ذلك كان ولا يزال وسيلة فعالة لنقل جيناتهم للجيل اللاحق..

وحين وصلت ستيفاني إلى الفقرة التي تقول: «أن الرجال يحلمون بأن يكون لهم أكثر من شريك»، وهم يركضون باستمرار وراء المغامرات العابرة. وأن النساء يولين أهمية كبيرة للرجل الذي يمارسن معه الجنس، لكن لا واحدة تعير اهتماماً خاصاً بعدد شركائهما»، توقفت عن القراءة ثم علقت كما لو أنها تتكلم إلى مراد شمان الذي حام طيفه فوق رأسها كنوبة حمى..

- حقاً أن الناس يفهمون الجنس كشيء تملكه النساء ويحاول الرجال امتلاكه وافتراكه.. ولكن ذلك لا يعود أن يكون خطأ شائعاً..

كانت متكتة على الكنابيـه بروب خفيف وشفاف عشية ذلك الأحد الشقيل الذي تقـاوم ثقلـه وكسلـه بالاستماع إلى الموسيقى

وبقراءة بعض الكتب بعيدة عن السياسة، حين ضرب جرس الباب.. لم تتوقع قدوم أي شخص إلى شقتها بدون أن تتلقى هاتفاً أو رسالة بالماسنجر، ولكن بعد أن سمعت صوت مراد على الانترفون. انطلق كل شيء لديها. ابتهجت حواسها. لم يكن غياب الأنوثة مقصوداً.. ولكن الأنوثة حلّت محل الأنوثة..

حين خرج مراد من المصعد، وجد الباب منفرجاً وكانت ستيفاني تقف وراء الباب مباشرة. خطفته من الباب وراحت تقبيله بلهفة كما لو أنها كانت تنتظره منذ مدة. بعد ذلك سحبته من كرافته كلب صغير ثم قادته إلى غرفة النوم.. دفعته إلى الفراش فاستلقى على ظهره ثم التحقت به لتنزع الكرافته وتفتح قميصه على غابة صدره الكثيفة. بعد ذلك نزعت حذاءه بسرعة ورمي كل فردة في اتجاه.. ثم انهالت كعادتها عليه لثما وتقبيلاً ولحساً ولعقا حتى استوى، وبدون أن تنزع قميصها أو حتى كيلوتها، جلست فوق محوره الكوني.. وراحت تهذى. وبين هزة وأخرى تلطم بصفحاتها على وجهه ثم تبصق في فمه بقوة لتعود تلحس ما بصقت.. وهذا هو مراد شمان المهووس بفحولته وقوته الجسدية يستسلم لطريقة جماع تختارها ستيفاني في كل مرة حتى ليبدو أن حضوره ليس إلا «تعلة» لكي ترتوي ستيفاني.. فالذي قام به أثناء ذلك الجماع يكتسي طابعاً رمزاً لأن لولا وجوده لما ابتهجت حواس ستيفاني وجعلته مبتهجاً.. خلال الفسحة التي تفصل بين جماعين، اشتكي مراد من الأحداث المشؤومة التي توالت عليه خلال الأسبوع الماضي.. وعبر لها عن شوق دافق إذ قال وهو يتهمي خارطة جسده المدود إلى جانبه بأصابعه كرجل أعمى استبدل بصره بآنامله:

- افتقدتك كثيرا، خلال الأسبوع التي قضيته في تونس يا ستيفاني..

تجاهلت ستيفاني ما قاله ، لأن نبرته كانت توحى بعدم الصدق.
ثم قالت:

- مراد، أنا هنا منذ أربعة أيام.. وسبق أن تواعدنا قبل البارحة على عشاء، ولكنك اعتذرت.

ضحك مراد وقال:

- الرجال سيظلون على جهلهم وهم يكررون ماضيهم..

- إنهم يكررون ما تعلموه، قالت ستيفاني.. وبدون حب..
أضافت..

يدرك مراد جيدا أنه غالبا ما يفشل في تخمين المشاعر الحقيقية الكامنة لدى المرأة التي يشتهرى مضاجعتها. فهو لا يراها إلا ككائن جسدي شاهق لا عيوب فيه ولا يهمه أن يفهم نفسيتها أو يغوص فيما يوجد داخل الجسد.. ولكن هذه المرة بدأ يشعر بأن الإثارة الحقيقية لا تكمن في أن تصاجر امرأة فاتنة بقدر ما تكمن في جعل تلك المرأة تقوم هي بمضاجعتك.. استعد للمنازلة الثانية، فإنها ما يسمى باستراحة المحارب، ثم سحبها دفعة واحدة ووضعها بين ساقيه وضغط عليها فخرج لسانها يلعق بشبقية مفرطة.. ليس ذلك تمرينا على القوة. وإنما هو تمرين على الإثارة.. امسك بشعيرها، فلفه لفة واحدة في يده ثم جعلها تلعق عضوه.. وبين لعقة وأخرى يرشقها بكف على خدتها أو بيصقة على وجهها أو بشتمة فظيعة لم تخرج أبدا من فم مصعب الصراف.. كان

مصرا على أن يفقدها توازنها ويبعثها إلى الهدىان ليشرب من مائتها العذب الذي لا يتدفق إلا إذا أبىضت عيناهـاـ.. كذلك كان مصرـاـ على تسفيه نظريتها حول من يمتلك الجنس حقـاـ.. انتهـت المعرـكة بسرعة لأن كلـ منـهـماـ كانـ يـرـيدـ الآـخـرـ بـأـكـثـرـ ماـ يـعـتـقـدـ كلـ منـهـماـ.. وـحـينـ تـبـاعـدـ اللـهـاثـ وـعـادـ كـلـ منـهـماـ إـلـىـ نـفـسـهـ الطـبـيـعـيـ،ـ أـلـقـتـ سـتـيفـانـيـ وجـهـهاـ عـلـىـ صـدـرـهـ ثـمـ قـالـتـ:

- هل تعتقد أن الذاكرة حين تتنعش، تبعث على الهمـاجـ؟ـ
وبـماـ أـنـهـ كـأـغـلـبـ الرـجـالـ يـعـشـقـ الغـزـوـاتـ الجـديـدـةـ وـالـنـسـاءـ
الـجـديـدـاتـ،ـ فـقـدـ أـجـابـهاـ عـلـىـ قـدـرـ ماـ اـسـتـوـعـبـ منـ سـؤـالـهاـ وـبـدـونـ
موارـبةـ:

- الـذـاـكـرـةـ مـصـدـرـ إـنـعاـشـ لـلـحـوـاسـ كـلـهـاـ.ـ حـينـ تـشـمـ رـائـحةـ طـعـامـ
نـعـرـفـهـ مـنـ قـبـلـ،ـ نـشـعـرـ فـورـاـ بـالـجـوعـ..ـ كـذـلـكـ الـأـجـسـادـ تـتـحـسـسـ
بعـضـهـاـ عـنـ طـرـيقـ الشـمـ وـالـلـمـسـ.ـ فـحـقـيـ لوـ كـنـاـ عـمـيـانـ،ـ فـإـنـ العـاشـقـ
لـاـ يـخـطـأـ أـبـدـاـ جـسـدـ عـشـيقـتـهـ..ـ هـلـ هـذـاـ مـاـ تـقـصـدـيـنـ؟ـ..ـ

- أـقـصـدـ هـذـاـ..ـ وـشـيـئـاـ آـخـرـ يـاـ مـرـادـ..ـ

أـضـافـتـ:

- ذـاـكـرـةـ الـجـسـدـ لـيـسـ وـاحـدـةـ لـدـىـ الـمـرـأـةـ وـالـرـجـلـ.ـ التـجـرـبةـ
الـجـنـسـيـةـ تـسـتوـطـنـ دـاخـلـ الـمـرـأـةـ حـتـىـ لوـ كـانـتـ مـعـ رـجـلـ عـابـرـ.ـ أـمـاـ لـدـىـ
الـرـجـلـ فـهـيـ تـعـبـرـ بـسـرـعـةـ حـتـىـ لوـ كـانـتـ تـجـرـبةـ اـسـتـثـانـيـةـ..ـ أـغـلـبـ
الـرـجـالـ عـابـرـونـ لـأـنـ ذـاـكـرـتـهـمـ ضـعـيفـةـ.ـ يـبـحـثـونـ عـنـ الـجـديـدـاتـ،ـ
يـرـكـضـونـ كـلـ يـوـمـ وـرـاءـ جـسـدـ جـدـيدـ..ـ وـيـكـفـرـونـ عـنـ نـفـاذـ صـبـرـهـمـ
بـهـجـرـهـمـ لـلـنـسـاءـ الـقـدـيمـاتـ حـتـىـ لوـ كـنـ مـثـيرـاتـ..ـ وـهـمـ يـفـعـلـونـ

ذلك بلاوعي دون أن يدركون أن الإثارات الفظيعة تحصل مع النساء اللاتي خبرهن في الماضي.. لا وجود للماضي لدى الرجل، بينما المرأة يسكنها الماضي بكل خبله وتخيلاته وحتى فضاعته وتعاسته..

(ولأن مراد كان لا يكفي عن اقتداء أثر ضحيته إلا إذا أطاح بها.. فإنه قلماً ما يعود إليها ثانية.. كان أحياناً يتلهى بتسجيل أسماء النساء اللاتي يرغبن لكنهن يرفضن الرجل العابر. والآن عليه أن يفتح جدولًا جديداً بأسماء النساء اللاتي يعود إليهن بين الحين والآخر.. وأول هذه الأسماء هي ستيفاني).

فجأة انتفض مراد وقام مسرعاً ليرتدي ملابسه. التقاط كل قطعة من مكان.. وكاد أن يجن لأنه لم يعثر على فردة حذائه اليسرى.. وبعد أن نهضت ستيفاني من السرير قامت بنفخ الألحفة فسقطت فردة حذاءه من بين الشنایا.. لم يكن يريد أن يهرب كما يفعل في العادة. وأدرك أنه متى أمضى الرجل وقتاً على الفراش بعد المضاجعة، لا بد أن يكون ذلك نتيجة شعوره بالملائكة.. ولو لم يشعر بملائكة البقاء إلى جانب ستيفاني لقفز من الفراش حالماً انتهت الارتعاشة.. وكما كان خائفاً من أن ينسى، مسح عرق إبطي ستيفاني بمنديل ورقى صغير ثم مرره على ما بين فخذيها ليبله بما فيها، ثم لفه ووضعه في جيب سترته الأعلى كما يضع البوشيت.. قال لها وهو يضحك:

- هذا المنديل القريب جداً من أنفي.. هو الذي سيعلمني كيف لا أنسى.. ثم أضاف..

- سيجعلني كالكلب المسعور.. كلما شممته جئت ركضاً إليك..

ولكن حذاري..

- قالت ستيفاني.. مما سأحذرك..؟

أجاب برمية واحدة وكأنه يلعب الترد:

- من مصعب الصراف !

*** *** ***

في اليوم التالي، أي يوم الاثنين صباحاً، ناداها الصراف إلى مكتبه. ذهبت إليه متربدة إذ توقعت أن يسألها عن علاقتها بمراد الشمان.. (توقعـت أن يكون حارس الـبنـيـة عـيـنـا من عـيـونـ الـصـرـافـ، أوـ أنـ كـامـيـراـ الـبـنـيـةـ مـرـتـبـطـةـ بـقـسـمـ المـراـقـبـةـ فـيـ قـسـرـ آـلـ أـوـشـاكـيـ)ـ وـحـينـ جـلـسـتـ أـمـامـهـ قـالـ لهاـ فـورـاـ:

- استعدـيـ لـلـسـفـرـ.. سـتـسـافـرـيـ مـعـيـ إـلـىـ بـارـيسـ يـوـمـ الـأـرـبـاعـاءـ!..

- هلـ لـدـيـكـ عـلـمـ مـحـدـدـ هـنـاكـ سـيـدـ مـصـعـبـ؟.. تـسـأـلـتـ ستـيـفـانـيـ لـتـعـدـ نـفـسـهـاـ وـمـلـفـاتـهـاـ جـيدـاـ.

- لـدـيـنـاـ أـكـثـرـ مـنـ عـلـمـ.. سـنـلـتـقـيـ بـالـيـاهـوـ دـانـيـالـ وـشـاهـيـ شـهـبـارـ. كـمـاـ سـنـلـتـقـيـ بـأـحـدـ رـجـالـ الإـعـلـامـ وـالـمـالـ جـورـجـ سورـوسـ ثـمـ سـنـلـتـقـيـ بـأـحـدـ الـمـسـئـولـيـنـ فـيـ وزـارـةـ الـخـارـجـيـةـ..

(نسـيـتـ الـبـارـحةـ أـنـ تـسـأـلـ مـرـادـ شـمـانـ مـاـ يـقـصـدـهـ بـقـوـلـهـ: حـذـارـ مـنـ مـصـعـبـ الـصـرـافـ، إـذـ فـكـرـتـ أـنـ يـكـوـنـ مـرـادـ قدـ بـداـ بـالـغـيـرـةـ مـنـهـ، فـتـرـكـتـهـ مـعـلـقاـ بـلاـ جـوابـ، حـتـىـ يـشـوـىـ بـنـارـ الغـيـرـةـ، وـلـكـنـهاـ الـيـوـمـ وـهـيـ جـالـسـةـ أـمـامـ مـصـعـبـ الـصـرـافـ، فـلـاـ بـدـ لـهـ أـنـ تـتـثـبـتـ مـنـ مـغـزـىـ تـحـذـيرـ مـرـادـ).. أـطـرـدـتـ ذـلـكـ الـهـاجـسـ مـنـ ذـهـنـهاـ بـسـرـعةـ ثـمـ

عادت لتسأله:

- ومتى تكون العودة!

- في اليوم التالي.. رحلتنا لمدة 24 ساعة فقط، إن لم يحدث أي طارئ!

أضاف مصعب:

- سنسافر على طائرة خاصة يا ستيفاني..

- هل سيكون معنا الشيخ العطار، أم سيخصص لنا طائرته الخاصة فقط!

- سنستأجر طائرة.. لقد تحدثت مع أبو منذر في ذلك.. وهو منشغل الآن في البحث عن طائرة..

راقت فكرة الطائرة الخاصة لستيفاني وغمرتها ببهجة كبيرة.. ولكنها لم تظهر من تلك البهجة شيئاً حتى لا يذهب في اعتقاد مصعب، كأنها أميرة ستسافر مع أمير لقضاء شهر العسل.. تضع السذاجة نفسها أحياناً بمحاذاة البهجة. فحين يتبع المساء يغيب عنه الذكاء للحظات، لذلك كتمت بهجتها وقالت بحزن وسذاجة..

- إذن.. أستطيع الآن أن أنصرف لإعداد ملفاتي كما يجب..

قال مصعب بهدوء:

- إذنك معك..

وقبل أن أتجاوز الباب، أرجعني صوته حين سمعته يقول:

- اقتربي.. ستيفاني، سأقول لك شيئاً خاصاً..

كان قد اقترب هو أيضا من البهجة.. لكنه كان أكثر جرأة مني..
قال لي بصوت خافت:

- سأعلمك شيئاً مثيراً هذه المرة، حين نصعد إلى السماء..

ضحك ثم أضاف:

- شيئاً لا تعرفينه من قبل.. أو هو شيء لا يمكن نسيانه أبداً..

نظر في عيني كما أنه يتسلل الرغبة ثم قال:

- أعرف أن تخمينك لا يخطئ .. وإلا ما اخترتني مستشاراً !

■ الفصل السابع عشر

كان يوم جمعة.. وقد افتتح الاجتماع بريجنيف بهيبيته ونياشينه، وإلى جانبه على اليمين كان يجلس كوسينغين. وعلى يساره كان يجلس بودغرني. وهؤلاء هم أعمدة فلاسفة وقادة الاتحاد السوفيaticي العتيدي.. في الجانب المقابل على الطاولة الضخمة المنصوبة في القاعة الزرقاء منذ ما يزيد عن ستة عقود، أي منذ أيام ستالين الأولى، كان يجلس العقيد معمر القذافي وعلى يمينه رجل نظامه الثاني عبد السلام جلود وعلى يساره قائد جيشه أبو بكر يونس جابر.. تحدثا الزعيمان السوفيaticي والليبي عن مفاوضات كامب ديفيد وعن السلام الأمريكية وعن سياسة السادات الأمريكية.. كذلك عن الحرب الأهلية في لبنان. وحين اقترب الكلام من ملف النفط والأوبك، استأند القذافي وقام فجأة لينزع حذاءه طالبا من الوفد الذي معه أن يقفوا وراءه ليؤم بهم صلاة الجمعة.. ظل الزعماء الروس يتفرجون وهو صامتون على حركة الركوع والقيام والسجود إلى أن ألقى القذافي السلام على الملائكة ثم عاد الجميع إلى مقاعدهم. قال القذافي وهو يتصنّع السداقة كما يفعل الليبيون عادة:

- إن الله لن يغفر لنا إذا لم نؤد صلاة الجمعة في حينها ونخمن
نختمع مع الملحدين!.

رد برينجيف بلبقاته وصوته الأخش:

- فليغفر لنا ولهمنا الذي في السماوات.. لأنهم لا يعلمون،
ثم استمر الإجتماع.

حكى القذافي تلك الحادثة إلى عرفات.. وبعد نحو شهرين،
استبدعي عرفات لزيارة إلى موسكو.. وفي منتصف الإجتماع
قام عرفات ثم انحنى لوحده وراح يصلّي (أغلب الوفد الذي كان
مع عرفات كانوا من المسيحيين). بعدها عاد إلى مكانه. قال له
بريجنيف:

- ولكن اليوم هو الاثنين وليس يوم الجمعة..
وسائل كوسينغتون رفيقه نايف حواتمه الذي كان عضوا في الوفد..
- أيها الرفيق.. ما بال زعماء العرب يريدون أن يجعلوا من
الكرملين مسجدا؟!

أضاف:

- قبل شهرين.. زارنا القذافي. وقد صلى في المكان الذي صلى فيه
عرفات..

ضحك الجميع.. إلا عرفات. وبعد أقل من ثانية قال للمترجم:
- أخبرهم أنني سأزور السعودية قريبا.. ولا بد أن يفهم خادم
الحرمين أنني مؤمن حتى في قلب الكرملين!.

الآن وقد مضى نحو أربعين عاماً على ما حدث في قاعة الكرملين الزرقاء، بوسع المؤرخين الأكاديميين الباردي الأعصاب والمتوسطي الذكاء أن يدحضوا أو يؤكدوا ما حدث فعلاً. فقد مضى بريجنيف ومعه عرفات ثم لحق بهما القذافي.. وما يبقى مفيداً من تلك الرواية هو أن يعرف الناس كيف كان زعماء العرب يعاملون السوفيات.. وهو ليس بأفضل حال من زعماء اليوم، وهم يتعاملون مع الروس. فقد روى مصعب الصراف لسما عبد الصمد كيف عرض أمير قطر على بوتين عدة مليارات كاستثمارات من أجل أن يفك تحالفه مع سوريا وإيران.. وكيف وضع أمير سعودي شيئاً بقيمة 50 ملياراً من الدولارات مقابل أن يوقف صفقة الصواريخ مع إيران.. وكيف أراد أن يحصل رئيس المخابرات السعودية على قبلة نووية جاهزة مقابل 50 ملياراً أخرى.

كان يحيى علوان هو الذي روى رواية الصلة في الكرملين.. أما توفيق السراج فقد أكتفى بالضحك والتأييد إذ قال:

- عرفات يفعلها.. يفعل أكثر من ذلك. كان حين يجلس إلى السفير الكوبي في مقره بالفاكهاني، يستأذن لبضعة دقائق ليرد على هاتف مستعجل.. يصرخ بقوة ويقول:

- اضرب يا أبا الليل.. اضرب بقوة.. لا تجعلهم يتقدمون..

ثم يعود إلى ضيفه وهو لا يزال غاضباً..

- الله.. الشباب بصدد الاشتباك مع العدو الصهيوني يا سعادة السفير.

في الحقيقة، لا هاتف مستعجل ولا أبا الليل، ولا هجوم ولا

اشتكاك.. وإنما تلك هي حيل عرفات لكي يحصل على الدعم من كوبا.. وهو يكرر ذلك أمام جميع السفراء، بما في ذلك السفير الأمريكي الذي يشعره بأن لولا شبابه، ل تعرضت سفارته إلى التفجير..

قال يحيى علوان معلقاً على ذلك..

- إنها سياسة الكيتش يا توفيق..

لم يفهم توفيق السراج ولا عباس فرشخاي كلمة كيتش، ولكنهما أحسا بأن يحيى مراد كان يسخر.. تابع يحيى يقول:

- الكيتش، هو الشيء الهاباط. هو كيس الزباله.. أو هو الخيشة التي تمسح به الأرضية..

آنذاك أدرك عباس فرشخاي ما يعنيه يحيى علوان. ولما كان عباس قد درس في ألمانيا بعد الثورة الإيرانية مباشرة، فقد أدرك كذلك أن كلمة كيتش تورد باستمرار في أحاديث الألمان ليعبروا بها عن شيء غير ثمين أو شيء لا قيمة له أو شيء مزيف أو هابط أو متدني. أو مستبدل. قال عباس ليؤكد ذلك الابتذال الذي طبع السياسة العربية:

- حين زار عرفات الإمام الخميني بعد نجاح الثورة، عرض عليه أن يقوم بوساطة بينه وبين كarter لإطلاق سراح رهائن السفارة الأمريكية.. استمع إليه الخميني جيدا.. ولما أكمل عرفات حديثه، قام الخميني من مجلسه. خرج إلى سطح بيته، حي مؤيدية رافعا يده إلى الإمام ثم دخل إلى استراحته.. وجاء رافسنجماني لينهي الاجتماع..

علق توفيق السراج عن ذلك:

- عرفات كان يحتاج آنذاك للاعتراف به.. لم يكن يردعه عن الذهاب إلى هدفه أي رادع.

- ولكنه لم يفهم آنذاك مزاج الإمام.. فلو أعطى تلك الورقة إلى كارتر، هزم نفسه بنفسه.. كان يريد معاقبته لأنّه تجرأ على أفغانستان وتجرأ على غزو إيران ثم استقبل الشاه.. ورغم أنه اطرد الشاه فيما بعد إلا أنه فعل ذلك من أجل أن يركع الإمام!

- ألم يكن الإمام غاضباً من عرفات لأسباب أخرى، أكثر من غضبه على كارتر؟

تساءل يحيى علوان، ولكن عباس فرشخاي الذي تدرّب حين كان لا يزال شاباً في معسكرات الثورة الفلسطينية بجنوب لبنان والذي انتمى فيما بعد إلى الحرس الشوري ثم فتح شركة ضخمة لتسويق السجاد الإيراني تمتّد من بيروت إلى دبي إلى باريس، أراد أن يغلق الموضوع بطريقة أخرى لا تخليو من إثارة.. رد على تساؤل يحيى علوان قائلاً:

- ربما.. عرفت فيما بعد أن الإمام كان غاضباً من عرفات، لأن الفلسطينيين أشاعوا بأن الإمام موسى الصدر الذي اختفى في ليبيا، كان بتوافق مع الإمام الخميني.. وهذا موضوع آخر..

لكن يحيى علوان الذي عايش تلك المرحلة علق بتخابث:

- ربما السر كلّه، ذهب مع بهشتی..

*** *** ***

كان يحيى علوان قد وصل قبل يومين فقط إلى بيروت من طهران. كانت زيارته إلى طهران وأصفهان وقم ممتعة جداً. أطلع على عظمة الفرس من خلال حدائهم وصوامعهم ومتاحفهم.. وهذا هو الشعور الذي ملأ كل من توفيق السراج وسمى عبد الصمد اللذين رافقاه في الرحلة.. التقوا في طهران بسياسيين وبرلمانيين وتحدثوا مع رجال دين في قم ثم تحولوا في حدائق وأسواق طهران، فكانوا في غاية الانشراح. أحسوا بدباء الناس وانضباطهم وكذلك بالحياة المتداقة في شوارع المدن التي زاروها.. وتأكدوا أن ما يسمى بالحصار، ربما لم يكن إلا سياسة إيرانية لدفع الإيرانيين إلى الاعتماد على الذات.. كل شيء كان متوفراً وبكثرة من الحلويات إلى الخضروات.. وكل شيء كان مرتبًا ونظيفاً من الأشجار إلى الشوارع إلى سيارات التاكسي إلى المترو.. أما النساء فهن يقفزن في الشوارع والأسواق مثل القطط الفارسية ويجلسن في المقاهي والفنادق مثل نساء بيروت أو تونس وربما أكثر.. ولدة أسبوع لم يشعر لا يحي ولا توفيق ولا سمي بما تحدثه آلة الإعلام المضادة من ضوضاء.. كانت الثلوج قد بدأت تذوب من أعلى الجبال المحيطة بطهران، فتنساب في سوقي منظمة وهي تشق شوارع طهران ثم تعبر إلى الحقول البعيدة.. كذلك كانت الدعايات المضادة، ما إن تصل سحبها فوق سماء طهران حتى تتبعرون وتنزل أمطاراً فوق قمم الجبال.. لا شيء من تلك القبضة الحديدية لرجال الدين، ولا شرطة سرية تتعقب أنفاسك ولا حق رقابة مشددة على الصحف.. ثمة مناقشات عميقة وجدل عالي النبرة في كل مكان.. في المقاهي كما في الجامعات كما في البرلمان.. قالت سمي عبد الصمد ليحيى علوان

وتوفيق السراج وهم عائدون من زيارة بيت الإمام الخميني..

- يبدو لا شيء مقدس في هذه البلاد، إلا الإمام الخميني..

صحح لها توفيق السراج العبارة بقوله:

- الأصح، أن لا شيء معصوم في هذه البلاد إلا الإمام.

ثم تابع يقول:

- عصمة الإمام مسألة توجد في قاع اللاوعي لدى الشيعة.. لقد قام بواجبه وذهب لدى ربه. وإذا كان الناس يزورونه فلأنهم يرون فيه القدرة للتفوق على الذات طلباً للعصمة..

سألهم عباس فرشخاي عن زيارتهم لطهران إن كانت موفقية، فأبدى كل واحد منهم رضاه وإعجابه على طريقته. ثم انتقل بهم إلى «الموضوع» الذي تلقى بشأنه تأشيرة الموافقة المبدئية من طهران قبل يومين من عودتهم.. قال عباس وهو جالس إلى طاولة مربعة الشكل وجمعتهم الأربعة على نحو متساوٍ:

- السيدة سمي، أهنتك، لأن موضوع الأنترنت الموازي قد حظي بالموافقة المبدئية.. والآن أريد أن نبحث في الإجراءات..

أضاف عباس يقول على نحو جازم:

- إذا تقدمنا في الإجراءات، فإننا نحتاج إلى تأسيس شركتين واحدة في بيروت والأخرى في تونس.. إننا نحتاج إلى التواصل مع إخواننا هنا وهناك، ثم التفت إلى يحيى علوان ليستمع إلى رأيه.

قال يحيى وهو ينظر إلى وجه سمي التي تجلس أمامه مباشرة..

- في تونس يسيطر القطريون والفرنسيون والإماراتيون على خطوط الأنترنت.. وهي مرتفعة الأثمان وسائبة الخدمات، ثم هي مراقبة على نحو منهجي.. الحكومة التونسية نفسها لا تسيطر على شبكة الانترنت إلا في جزء بسيط. وهي لا تستطيع مراقبتها أو التحكم فيها أو حتى غلق بعض نوافذها الإباحية أو الدينية والمذهبية ذات المنحى الوهابي.. والآن لدينا إمكانية لكي ندخل إلى سوق الانترنت بطريق موازية. وهذا سيحقق لنا عدة أهداف أهمها: الحد من الدعاية الوهابية ثم حماية المقاومة ومدتها بوسائل جديدة وغير مراقبة. للانتشار..

بعد أن صمت يحيى جاء دور توفيق السراج فكرر شكره لعباس الذي مكنهم من هذه الزيارة الممتعة ثم قال:

- سيد عباس. إن الشيء الذي أريد التأكيد عليه، قد حدّدته مع الإخوة في طهران. قلت لهم، أن حماس تحتاج إلى خط موازي لخدمات الانترنت خارج عن الضغط الإسرائيلي.. الإسرائيليون هم الذين يسيطرون على الانترنت.. وليس بوسعنا ولا بوعن حماس أن تقيم وصلات للبث في غزة دون أن تكشفها الرادارات الإسرائيلية.. إسرائيل ليست تونس، وغزة ليست إلا مدينة محاصرة.. فإذا كان لا بد أن نخرجها من حصار الانترنت، فلا بد أن يتم ذلك مع حزب الله انطلاقاً من الجنوب ثم نبحث كيف تتمكن حماس من التسلل إلى سيناء لنصب أعمدة البث!..

كانت سمي عبد الصمد تستمع بانتباه وهي تبدو كأنها تنتظر دورها في الكلام.. وقد أصبحت قصتها تشبه قصة التاجر الذي

يريد أن يبيع نفس البضاعة لعدوين لدوذين.. عرض بضاعته على الأول بسعر أقل من السعر الذي عرضه على الثاني.. وحين رغب الثاني في البضاعة، عاد إلى الأول ليعرض عليه سعراً أرفع من السعر الأول.. وظل هكذا إلى أن كسدت بضاعته.. ولكن سمي عبد الصمد لا تشبه ذلك التاجر، الذي لا يمكن أن يكون إلا عربياً، وإنما هي تشبه التاجر اليهودي «شايلاوك» الذي سيبيع بضاعته في الصباح ثم يعود فيشتريها في المساء بسعر أقل، وهكذا دوالياً إلى أن جمع ثروة كبيرة دون جهد كبير.. فسمى عبد الصمد هي وحدها التي تدرك أن معظم شركات الانترنت الموازية في قبرص يسيطر عليها إسرائيليون. وهم مستعدون أن يبيعوا لإيران كما للسعودية وللبنان كما لداعش بما أنهم يجمعون المال والمعلومات في آخر المطاف..

لم يكن من مصلحتها أن تشرح ذلك. وهي لم تفعل ذلك لا مع فيلا «آل أوشاكي» في إسطنبول حين وقع معها الشيخ رشدي العطار عقداً لمدة عامين، ولا هي مستعدة أن تكشف عن ذلك لعباس فرشخاوي، الذي قال لها:

- سيدة سمي. متى يمكن أن نبدأ في الإجراءات؟

- حملنا تبدأون في رصد الاعتمادات.. لدينا عقود جاهزة سنوقعها. ثم نبدأ في التدريبات.. وخلال شهر يكون كل شيء جاهزاً إذا سارت الأمور كما يجب..

التقت عيون سمي بعيون يحيى علوان حين أنهت كلامها فأوعزت إليه برمض خفيف أن يتكلم. وهكذا قال يحيى:

- سيد عباس، هل تعرف أن سمي هي التي سربت معلومة الأنترنت الموازية إلى حزب الله؟ الشبكة التي اكتشفها حزب الله ما كان ليكتشفها دون سمي عبد الصمد.. أما كيف تم ذلك فإن توفيق يعرف بقية القصة..

علق توفيق باقتضاب..

- هذا صحيح.. ثم أضاف:

- وكان يمكن أن يترك الأمر سرا حتى يستفيد حزب الله من تلك الشبكة الموازية أكثر..

بعد ذلك قال عباس:

- السياسيون يبحثون عن الانتصارات كيما جاءت.. وقلما أفصحوا عن مصادرهم حتى لأكبر حلفائهم.. هل نسيت ما كنت تقوله قبل حين عن عرفات حين صلّى في قاعة الاجتماعات بالكرملين.. أو حين عرض وساطته على الخميني مع الرئيس الأميركي كارترا..

*** *** ***

في أعماق كل منا توجد شيفرة، قد نسميها بشيفرة الأساسات الأولى. لا أعني الشيفرة الوراثية الجينية. وإنما أعني ذلك التكوين الأولى.. تلك القاعدة إن كانت صلبة أو سائلة. إن كانت منفتحة أو منغلقة. إن كانت خيرة أو شريرة.. وإن كانت أصلية أو مزيفة.. وهكذا.. وفي رأي يحيى علوان ، فإن أساسات سمي عبد الصمد الأولى قد تكون استعارية أو مجازية. فحين تتحدث تلقى بضلال

كثيرة وتوزع صوراً كثيرة لها. ويصبح المتحدث إليها كما لو انه يتلهى بالتقاط الصور في محاولة لرسم صورة متماسكة لها.. ولكن من الصعب جداً أن ينجح أي شخص في تلك اللعبة التي تجد نفسك مرغماً عليها.. لا داعي لكي تخيلها في أوضاع كثيرة. فهي قادرة على إعطائك مثل هذه الأوضاع على نحو واقعي لا تخيل. استمع لها جيداً فقط وسوف يتواطم دور الممثل لديها حتى يلتحم شخصيتها تماماً ثم يقيم معك نوعاً من الاتصال السحري حتى تسحبك إلى واقعها الاستعاري. كنت أعتقد أن هناك أناساً قادرون على أداء أدوار تمثيلية بشكل جيد، ولكن ليس ذلك في نفس الوقت كما يحدث لدى سمي عبد الصمد. وهذه السيدة لا تمثل أدواراً بل هي تعيش تلك الأدوار، لا عبر التمثيل، ولكن عبر الاستعارة بحيث يصبح الدور مفصولاً عن الممثل ليصبح الممثل هو الحقيقة المستعارة.. أدباء وفنانون كثيرون تحدثوا عن تلك الحقيقة المجازية الاستحواذية. وهذا شيء يصعب استيعابه أو إدراكه إلا متى كان الشخص المراقب أو المصاحب لسمى عبد الصمد، هو نفسه الشخص الشريك أو الشخص المتواطئ..

في كل سيناريو تمثيلي يوجد تواطؤ بين الممثلين على أن الدور يحتاج إلى تقمص شخص آخر لمدة ساعة أو ساعتين. وبشيء من التركيز والتدريب تسير الأحداث داخل المسرحية بشكل جيد، ولكن سمي عبد الصمد تفرض على أي شخص ذلك التواطؤ دون أن تتفق معها مسبقاً ودون أن يكون له أي دور محدد حتى يبدو كشخص مفزع.. وهذا ما قاومته بشدة وضراوة حين خرجنا نسهر في بار «أوتيل الكومودور».

كان الأجدري أن أتقمص شخصية أحد المجوايس الكبار مثل غراهام غرين أو سومسرت أو بريماكوف، لكي أتسلل إلى أعماق سمى عبد الصمد، لكنني لم أفعل ذلك، لأنها تمكنت من إخضاعي وتدجيني منذ أن عرجت علي وفتحت لي باب سيارتها لأركب إلى جانبها.. وقبل أن تتحرك السيارة، ناولتني هدية، قالت:

- هذه علبة سيكار من النوع الفاخر.. أعرف أنك تحب السيكار المونتوكريستو..

بعد ذلك أمرتني بفتح العلبة أمامها.. ففعلت. وجدت مقاصا مذهبها خاصا بالسيكار ثم حاوية سيكار من الجلد تتسع لثلاثة أصابع.. وقبل أن اعبر لها عن امتناني، ناولتني علبة ثانية مذهبة، ثم أمرتني بفتحها.. اندھشت في الحين حين رأيت ساعة «رولكس» ذهبية زرقاء اللون، وأردت أن اشكرها بطريقة خاصة، لكنها بادرتني في الحين بقلة على خدي وهي تقول:

- يحي.. هذا ليس رشوة.. إنه هدية.. الرشوة تدفع في السر وتتضمن جوهرا فاسدا ودنيئا. أما الهدية فتعطى في العلن وتتضمن معنى مترفعا.

لم ترك لي أية فرصة لا للاعتذار ولا حق للشكرا.. تحركنا بالسيارة نحو فندق الكومودور ثم انتقلت لتحكي لي عن قطتها الفارسية التي اشتراها من طهران.. قالت، إنها لاتزال ساخطة وغاضبة ولا ترك أحدا يقترب منها.. وأنها تختفي لساعات طويلة ولا تظهر إلا حين تشعر بالجوع.. وهي تكاد تجن حين تراها تقفز أمامها معترضة طريقها وهي تموء طلبا للحليب..

حين جلسنا في ركن يكاد يكون مظلما، قلت لها:

- أنا أعرف هذا الفندق منذ سنوات طويلة.. كان هو الفندق الوحيد الذي يفتح أبوابه زمن الاجتياح الإسرائيلي.. كان يسكن فيه جميع الصحفيين الذين غطوا ذلك الاجتياح.. وكان المكان الأكثر أمانا لأن الإسرائيليين ما كانوا ليتجروا على قصف الصحفيين..

ردت سمي بسرعة:

- حين اسمعك.. أتخيل أن عمرك فاق السبعون، ولكنها أنت لاتزال شابة..

أدركت في الحين، أنها تدفع بي إلى مواضيع أخرى، ولكني لم أتراجع، فأضفت أقول لها بطريقة أخرى..

- أنا شاب، لأن سنوات الحرب لا تحسب من أعمارنا.. الحرب تقتل الذي كان يحب أن يموت، لكنها تعطي حياة جديدة وإضافية للذى يريد أن يعيش..

استأذنت منها أن أشعل سيكارا وإذا كان ذلك لا يزعجها، فأبديت عدم الممانعة وقالت:

- بالعكس.. أحب رائحته.. ولا أجده حرجا في تدخين بعض أنواعه في بعض الأحيان.

ثم أضافت:

- لدى اعتقاد لا أعرف من أين تسلل إلى، هو أن الرجال المدخنين للسيكار هم رجال جذابون..

بعد ذلك صحت أو عدلت ما كانت تقوله:

- ليس كل من يدخن السيكار رجل جذاب.. كذلك ليس كل رجل جذاب يدخن السيكار..

(آنذاك قال يحيى لنفسه: إذا كنت صادقا مع نفسي، فإن من واجبي أن أقول لها أن كلامك حزلقة سخيفة.. أما إذا أنا لم أقل ذلك، فلأنها أهدتني قبل حين علبة سيكار وساعة. ومعنى ذلك أنني أصبحت ذليلا لأنني قبلت المدية بعنوان رشوة.. وهي أيضا غلفت رشوطها في صندوق هدية لكي تمحن قدراتي الداخلية أو أساسياتي الأولى.. فعلا وضعت نفسي في منطقة حرجة.. ومضت عدة دقائق دون أن أتكلم، فأدركت أن أساسياتي الأولى ليست صلبة بما فيه الكفاية، قابلة للفساد.. وقابلة كذلك للتمثيل والاستعارة).. وفجأة انتقلت بها إلى موضوع آخر فسألتها:

- ما رأيك في ستيفاني نيكولاوس..

- امرأة شغوفة بالصحافة.. عرفتها أول مرة في القاهرة ثم التقينا مؤخرا في إسطنبول.. هل تعرفها؟

قلت لها بشكل حازم حتى لا يذهب تفكيرها في اتجاه آخر:

- كانت زوجة لصديقى مراد عباس.. أعرفها منذ عدة سنوات..

- أراهنك، أنها ستعود إليه.. لازالت تحبه.. أرجو فقط أن لا يكون ذلك بعد فوات الأوان.. أجابتني سمى دون أن تشرح ما تعنيه بقولها (بعد فوات الأوان). وفي الحقيقة لم أفكر آنذاك في أي شيء محدد إن كان جيدا أو سيئا، ولكني فهمت فقط أن ستيفاني

ربما تكون على أهبة الزواج من رجل آخر.. فسألتها:
- هل لديك أخبار جديدة عنها.

أجابتي بصدق ودون أن تحدث بداخلي أي نوع من القلق،
قالت:

- تحدثت معها البارحة. وأخبرتني أنها ستسفر إلى باريس في
طائرة خاصة مع مصعب الصراف.

(تذكر يحيى صديقه مراد عباس وقد أصبح يعيش خارج حب
 حقيقي.. حب متماسك، حب يجعله بعيداً عن نوبات الاكتئاب
 وحالات السكر الفظيعة التي تفصله عن الواقع.. بدا له متارجحاً
 بين خيارات استيهامية. زوجته ستيفاني لم تعد معه، صديقته
 رحمة الصديقي أصبحت مراقبة من البوليس بعد مقتل زوجها..
 وهي زعفرانى امرأة افتراضية من كابلات السيليكون كالفراشة
 لا تكف عن الطيران.. إنه يعرفه جيداً.. ويعرف كذلك أنه لازال
 يحب ستيفاني، لكنه يجد نفسه بلا دافع حقيقي لكي يعود فيتزوجها..
 اختفى ذلك الحب كالسراب وشعر بأن الحب وهم يبتعد عنه الإنسان
 لمقاومة أوهام أخرى. تماماً مثل الله الذي تم اختياره لمقاومة آلهة
 أخرى). انتهى بي المطاف وأنا أتأمل في حالة صديقي مراد عباس
 إلى أن أجد حالتي مشابهة تماماً لحالته، لكن المنطقة التي يوجد
 فيها عباس ليست هي المنطقة التي أتوارد بها أنا.. فأنا لا أعيش
 خارج الحب، وإنما في «داخل الحب».. لا أطارد النساء ولكنني
 أجعل النساء تطاردني.. وهذا شيء أساسي في حياتي).. آنذاك
 سمعت سمي تقول لي:

- وأنت لماذا أنت غير متزوج؟

*** *** ***

تكمّن قوّة سمى عبد الصمد، في أنّها تجعل من كلّ مغامرة حباً جديداً، حتّى لو كانت عابرة.. تماماً مثلما تجعل من كلّ كذبة حقيقة ساطعة.. يمكن أن التقى معها في جزء من هذه القوّة وهي أنني أعيش كلّ مغامرة وكأنّها حبٌ ثمّ امضي إلى حدٍ لم أعد أعرف أين تقف حدود الحب وأين تبدأ المغامرة.. اعتّقدت دائمًا أنّ معيار الحب لدّي هو القدرة على التّواصل حتّى لو كان مؤقتاً.. ومهما كانت المدة، لأنّه لا يقاس بالزمن بل بومضة تشتعل في الأعماق فجأة وتستمر إلى نهاية الوقت المستقطع من الزمن الخارجي.

حين أخبرت سمى أنني لم أتوقف أبداً في الزواج.. وإن كلّ مرّة أعزّم فيها على الزواج، أجده نفسي خارج العادلة.. وأنه يمكن القول في حالتي أنني «الأعزب اللاإرادي»، لأن إرادتي كثيراً ما تحرّضني على الزواج، لكنّها تبدو غير مكتملة وتتبخر حالما يطرح أمامي موضوع الزواج.. وجدتها توافقني على ذلك وتقول لي: رجال كثيرون مثلّك..

إن عزوبتي هي الشيء الوحيد الذي يجعلني أكثر استقلالية.. قد يتهمني البعض أن استقلاليّة هي نوع من اللامبالاة والأنانية.. ولكن الزواج يمثل لي كبحاً لإرادتي.. وبمعنى ما، فإن عزوبتي اللاإرادية هي إرادة الاستقلال لدّي.. وإن إرادتي غير المكتملة أمام الزواج، هي إرادة مطلقة تجاه الاستقلال..

وسواء كنت أقول الحقيقة أو كنت أكذب على نفسي، فإن الأمر لا يختلف كثيرا لأن أية حقيقة تعيش بداخلها كذبة. كما كل كذبة لا تعيش إلا من خلال حقيقة ما.. وبهذا المعنى فإن الحقائق والأكاذيب متعايشة ومتصالحة وتعبر في الأصل عن علاقات متشابكة ومتدخلة إلى حد أن كل أطروحة تستدعي نقايضها.. ومن هذا الجانب، فإن سمي عبد الصمد هي نفسها خاضعة لعدة قواعد متراقبة. أي أن حقيقتها مرتبطة ومتطابقة بمجموعة الأكاذيب التي تحكمها وتحكم علاقاتها بالآخرين.. إن على صعيد العمل.. أو على صعيد العاطفة.. وإذا عترتها الشك في عدم التطابق بين الحقائق والأكاذيب، تعيد ذلك إلى خطأ في التقدير أو خطأ في عدم القدرة على إثبات الشيء الذي يجب إثباته. فالحقيقة هي الاسم الآخر للكذبة.. والكذبة هي الرسالة المرسلة إلى الشخص الآخر.. ومن زاوية ما دام الكذب لا يجلب الضرر، فإنه يصبح وعدا بالأمل..

بعد أن تضاجعنا مرتين. الأولى في الصالون على الكانبية ثم وجدنا أنفسنا فوق السجاد. والثانية على فراشها وقد تحولت إلى جارية مسحورة، وضعت على عنقها حزاما جلديا ثم أخذت هيئة دابة وناولتني طرف الحزام ثم قالت: خذني.. قدني إلى الفراش.. ثم سارت على أربع وأنا أسير أمامها.. (إلى ذلك الحين لم أتخيل أبدا أن امرأة بشخصية سمي عبد الصمد وقوتها وجبروتها يمكن أن تتحول إلى جارية.. أو إلى أدنى من ذلك إلى دابة.. وأنذاك بدأت أدرك ما معنى عدم التطابق بين الشخص في مظهره، وبين جوهره.. أدركت كذلك أن أكاذيب المظهر تخفي حقائق أخرى، وأن حقائق الجوهر تحمي

نفسها بأكاذيب المظهر.. سألتها بعدما هدأت الحمى التي أخرجت كل إفرازاتنا.. من عرق ومني وماء وروائح حارة وآهات وكلمات بذيئة وحتى شتائم وبصاق وبعض التبول وضراط ودموع ومخاط..

- هل أنت حقاً سمي التي كانت تدير غوغل الإقليمي؟.

ضحكـت وهي تنزع من رقبتها ذلك الحزام الجلدي..

- نعم أنا سمي.. لست كلبتك كما كنت تعتقد..

- أنا لا أعتقد شيئاً..

- بلى. كنت تعتقد في أشياء. والآن تعتقد في أشياء أخرى.. ولكن لا تتعب نفسك. أعرف أنك تعرفت على نساء كثيرات يتحولن إلى دواب على الفراش. ولكن ما يشغلك هو كيف لامرأة قوية ومتجبرة كما تقول عني، في الحياة وهي تتحول إلى جارية على الفراش.. هذا ما يشغلك.. لو لم أكن سمي، صاحبة شبكات الانترنت الموازية والتي تدخل في مفاوضات مع الدول ومع أعلى رجال المخابرات، لما كان ذلك سيثير شكوكك. ذلك جانب من الحياة.. وهذا أيضا جانب آخر من الحياة.. فقط ثمة وضعيات تكيفنا وتفرض علينا سحرها أو جبروتها..

- وأنت لماذا لم تتزوجي يا سمي؟

سألها يحيى ثم ظل ممسكا بسؤاله. فلو أنها تغافت أو تحايلت أو
تصنعت عدم الاهتمام، لأعاد إليها السؤال ثانية ولكن سمي
تنهدت وهي تستعد للإجابة في شكل قصة قصيرة:

- أنا لم أولد في لبنان. ولدت في مكسييكو - سicity من أب لبناني

هاجر مع أبيه وهو شاب. وأم مكسيكية من أصول كاتالانية.. حين بلغت سن المراهقة، وجدت أبي غائباً عن البيت باستمرار. لم يكن لا سكيراً ولا مصارع ثيران ولا باع مخدرات، وإنما كان سائس خيول ثم أصبح تاجر خيول، وهي مهنة ورثها عن أبيه.. وكان عليه أن يتنقل من مدينة إلى أخرى طوال العام ويحضر سباقات الخيول والمزادات العلنية وكان وضعه المادي جيداً لأنني درست في أحسن المدارس، مدارس النخبة الأوروبية وزرت عدة مدن مع أمي في أوروبا وأمريكا.. كنا نأتي أحياناً إلى لبنان. ولربما كانت أمي تحب لبنان أكثر من أبي رغم أنها ليست لبنانية.. فجأة وجدت رجلاً آخر إلى جانب أمي.. وهذا الرجل عجوز بالنسبة لأمي وكذلك بالنسبة لوالدي. فهو أكبر من أمي ميشيلينا بنحو ثلاثين عاماً أو أكثر. وأكبر من والدي بنحو عشرين عاماً. احتفظ بذلك الرجل العجوز الذي يدعى أندريان لعدة سنوات، بأمي ذات الجمال الكاتالاني الفتان حتى أصبح بلا قوة.. أما أبي فقد انتقل ليعيش مع امرأة أخرى ظهرت فيما بعد، أبي بعد أن توفي أندريان. إنها ابنة أندريان وكان لا بد أن ندخل إلى متاهات الإرث والميراث.. عالجت أمي الأمر بطرحها لمفاهيم مفادها أن ترث هي كل ما ترك أندريان وأن ترث ابنة أندريان المسمة كريستينا أي زوجة أبي كل ما يملك أبي.. في الإناء تحطمت تلك التسوية لأن أبي لم يمت بعد وربما يظهر فيما بعد أن له ابناء في مناطق أخرى.. بالإضافة إلى ذلك، فإن أمي راحت تبحث عن وسيلة للتخلص من كريستينا. فهي لا تتحمل أن تكون أخذت زوجها الذي هو أبي ثم تأخذ فيما بعد ما يرثه زوجها الثاني وهو والد كريستينا..

اقترح عليها أحد المحامين أن تطلب الحامض النموي لكريستينا ووعدها بأنه سيربح القضية، لأن ثلث أبناء المكسيكيين يلدون من عشيقات وعشاق لا من زوجات وأزواج.. ولكن كريستينا لم تستسلم وطالبت هي أيضاً عن طريق محاميها الحامض النموي لي، أي لابنة ميشال عبد الصمد وميشلينا بورخيس. توقفت هنا سمي ثم سألتني لكي تقوم بقطع الخيط الدرامي:

- هل تعرف، ما كانت النتيجة؟

لم أ שא أن أجيبها رغم أنني توقعتها..

تابعت سمي تقول..

- النتيجة أن سمي انجليكا التي هي أنا، ليست إلا ابنة اندريان.. أما زوجة أبي كريستينا فقد أثبت الحامض النموي أنها ابنة رجل آخر مجهول.. بعد ذلك، أي بعد تلك الفضيحة العلمية، تعاون كل من أبي الافتراضي وأمي وكريستينا على دفن الفضيحة وتقاسم الإرث مهما كان مصدره وبالتالي والتساوي.. كنت قد تجاوزت سن المراهقة وانتقلت إلى الدراسة في باريس. وفي باريس تعرفت على زوجي الأول وهو شاب لبناني. تزوجنا لمدة عامين ثم انفصلنا. وباختصار فإن أبي لا يزال يعيش مع كريستينا بلا أطفال. أما أمي فقد تزوجت مرة ثانية من رجل يصغرها بنحو عشر سنوات.. وختمت قائلة ومتسائلة:

- أليست قصتي تشبه فيلما سينمائيا.. هل تستطيع أن تدلني على الحقيقة داخل هذه القصة؟

- ولكنها ليست قصة.. هذا تاريخ يا سمي!

- التاريخ سلسلة من القصص.. والقصص تحتمل كل شيء
والحقيقة جزء بسيط منها..

- وهل ما نعيشه الآن أنا وأنت قصة أم تاريخاً

قالت سمي وهو الاسم الذي احتفظت به وتحب أن يدعوها به
كل الناس، بعدها تخلصت من الجليكا:

- هو قصة.. سوف ترويها أنت بشكل ذات يوم. وأرويها أنا بشكل آخر في وقت آخر.. ثم يرويها آناس آخرون بأشكال متعددة.. وحين تختفي يقال لها تاريخ..

*** *** ***

في اليوم التالي عرضت علي سمي أن أسافر إلى قبرص لمدة يومين.
كنت راغباً في ذلك ولكنني كنت مترددًا. تحججت بأن لدي أعمالاً
لا بد أن أنهيها في بيروت ثم أعود إلى تونس..

قالت لي ونحن لا زلنا في المطبخ نتناول فطور الصباح:

- أنت لا تعرف أنني سأسافر معك إلى تونس. ثم أضافت:

- ستيفاني ستكون في تونس أيضاً.. وسوف نلتقي معاً هناك.

لم افهم مغزى ذهابها إلى تونس باستثناء أنها ستلتقي بستيفاني،
ولكنها أوضحت قائلة:

- لا بد لي أن أكون معك وأنت تقوم بإجراءات تكوين الشركة
التي ستتولى توزيع خدمات الانترنت الموازية.. ولكن الشركة
سيجري تأسيسها هنا في لبنان. شركة أوف شور. فهي تونس لن

يمكون هذا ممكنا إلا تحت غطاء خارجي..

(وبما أنني أنتمي ولو بقدر بسيط إلى ذلك الصنف من الرجال الذين لا يعارضون امرأة خوفاً من مكيدة، أو هروباً من صداعات متتالية، فقد وافقتها على الذهاب معاً إلى تونس محتفظاً بقراري الأخير الذي سأدرسه مع صديقي توفيق السراج)..

قلت لها:

- طيب أنتظرك حتى تعودين من قبرص ثم نذهب معاً إلى تونس.. ما رأيك؟

- أو، نلتقي هناك في يوم محدد.. فربما ذهبت مباشرة إلى تونس.. ما رأيك؟

سألتني سمي فقلت:

- المهم أن نلتقي هناك.. سواء بسواء..

أضافت محدراً:

- لا تنسى أنني ابنة غير شرعية لرجل كان يبث الخوف في كل اتجاه.. كان إذا حدق في عيون حصان متنطع يخر الحصان صريراً خوفاً منه.. كانت له رائحة لا أعرف كيف أصفها لك..

- من.. أبوك أم الحصان؟

- أبي.. إذا حضر أبي الإسطبل، راحت الخيول ترحب به وهي تصدر أصواتاً موسيقية متناسقة. أما إذا أطلقها من خلف سياجاتها، فهي تذهب باتجاهه لتغلق حلقة من حوله وتبدأ في

الرقص إلى أن يصفق لها عن نهاية الرقصة.. كنت أراه يفعل ذلك وأنا لازلت صبية..

- ومع ذلك لم يستطع أن يجعل أمك ترقص له كما تفعل الخيول..
ضحكـت سـمى بـعـمق ثـم قـالت:

- أنا أيضاً لم أستطع أن أكون زوجة جيدة أو طيبة.. أعرف كيف أحب رجلاً، لكنني لا أعرف كيف أتزوجه. وإذا تزوجته لا أعرف كيف أحافظ عليه.

أوصلـتـني سـمى إـلـى فـنـدقـي قـبـل العـاـشـرـة صـبـاحـا بـقـلـيل وـهـي تـسـأـلـني ما إذا كـنـا سـنـلـتـقـي في المـسـاء.. تـجـاهـلتـ سـؤـاـهـا أـكـثـرـ من مـرـة. وـحـينـ أـلـحتـ عـلـيـ، قـلـتـ لـهـا عـلـى نـحـوـ مـبـهمـ..

- سـأـلـتـقـي مع توـفـيقـ.. ثـمـ نـذـهـبـ مـعـاـ إـلـى صـدـيقـ آخرـ، لـا أـعـرـفـ كـيـفـ وإـلـى أـيـنـ سـيـنـتـهـيـ النـهـارـ.. نـتـهـاـفـ وـنـتـفـقـ..

إنـ الشـيـءـ الـوـحـيدـ الـذـيـ لـمـ أـخـبـرـهـاـ عـنـهـ هوـ لـقـائـيـ الـمحـتمـلـ معـ عـبـاسـ فـرـشـخـايـ!.. تـبـعـتـ نـصـيـحةـ روـاقـيـةـ قـدـيمـةـ تـقـوـلـ: «ـحـينـ تـكـونـ قـاـصـداـ مـكـانـاـ مـحـدـداـ، لـاـ تـدـعـ أـحـدـاـ يـؤـثـرـ عـلـيـكـ سـوـىـ روـحـكـ». سـأـلـتـيـ توـفـيقـ حـالـماـ التـقـيـنـاـ فيـ المـسـاءـ لـكـيـ نـذـهـبـ مـعـاـ إـلـىـ عـبـاسـ فـرـشـخـايـ..

- أـتـظـنـ أـنـ سـمىـ عـبـدـ الصـمدـ صـادـقـةـ فـيـمـاـ تـقـوـلـ؟

- صـادـقـةـ! لـاـ أـعـرـفـ مـاـ الـذـيـ تـقـصـدـهـ.. أـغـمـضـ عـيـنـيـكـ فيـ بـلـادـ الـعـربـ إـذـاـ كـنـتـ تـبـحـثـ عـنـ الصـادـقـينـ..

صاغ سؤاله بطريقة أخرى ثم أعاد طرحة.

- هل تكون قادرة فعلا على تنفيذ ما تعدد به.. أي هل تستطيع أن تمد خدمات الانترنت الموازية بدون معرفة الأميركيان أو الإسرائيليين..

- هل تقصد أنها من المحتمل أن تكون جاسوسة لدى الأميركيان والإسرائيليين؟

- نعم. هذا ما أقصده.. السيرة الذاتية لهذه المرأة غامضة جدا.. مولودة في قارة وتعيش في قارة أخرى وتعاون أو تشتغل في قارة ثالثة. أمها من بلد وأبوها من بلد آخر وزوجها السابق من بلد ثالث.. ثم أنها تزور تل أبيب كل ثلاثة أشهر، وتعيش في قبرص ولبنان.. أليست هذه إشارات غير جيدة..

- ومن أين لك بهذه المعلومات؟

سألت توفيق ونحن واقفان أمام منزل عباس فرشخاوي.. فأجابني بسرعة..

- سترعر كل شيء من فم عباس.. الإيرانيون لا يلعبون في الشرق الأوسط.. كل ما روتة لك البارحة عبارة عن قناع.. ثمة أقنعة أخرى لم تكشف بعد..

- ولكن حزب الله يتعاون معها وربما هي التي كشفت له وجود شبكة للانترنت بدائلة وموازية تعمل في لبنان انطلاقا من قبرص..

أجابني توفيق:

- حزب الله قد يكون رمى تلك المعلومة لأغراض أخرى يعرفها جيدا عباس فرشخاي..
- هكذا إذن. قلت لنفسي، يا يحي. إنك هنا لتحقق فوزا على أمر انتهى منذ فترة، فكان كل ما حدث منذ بداية الشريط مع سمي عبد الصمد، لم يحدث أبدا..
ثم جاء الحارس ليدخلنا إلى الصالون.. صالون عباس فرشخاي..

هناك من يكره جورج سوروس ويسميه «بالكلب المجري المبرقع»
إلا أنه ما انفك يقفز من بلد إلى بلد ويتمنع بسحر لا يقاوم!

حين وصل سوروس إلى تونس، طلب أن يلتقي بأم محمد البوعزيزي الذي فجر «الربيع العربي»! ولكن طلبه قوبل بالتسويف في البداية. فكر أحد المسؤولين أن يأتوا له بسيدة تشبه أم البوعزيزي ثم تخلى عن الفكرة.. وفي النهاية اعتذروا له وصارحوه بالحقيقة الموجعة.. قالوا له: «أنها هاجرت لتعيش في كندا مع ابنتها». سأ لهم: لماذا؟ أجابوه باختصار: «هذا خيارها.. لم تعد تتحمل العيش هنا».. آنذاك أدرك جورج سوروس أنه قام بخطأ وقال لنفسه: «إذا كانت هذه الثورة لم تحضن أم مجرها.. فماذا يفعل الشعب بهذه ثورة؟» ولكن في قراره نفسه العميقة كان يؤمن بأن ما حدث هو جزء من العولمة وليس له أية علاقة بالثورة ولا بمحمد البوعزيزي.. كان يقول دائماً: لا تنسوا أن روما حين تحولت إلى إمبراطورية كفت عن تكون ديمقراطية.. وهكذا أيضاً أمريكا.. استخدم سوروس ما يسمى «بعينه الثالثة» جيداً.. وبعبارة أخرى لقد تم هو نفسه استخدامه «كعين ثالثة» جيداً.. استعمل قوة التلفزيون، فأطاح بالكتلة الاشتراكية وحط جدار برلين.. وفي شرق آسيا استخدم سلاح البورصة فأطاح بالاقتصادات والدكتاتوريات.. وفي العالم العربي استخدم الأنترنت لإنجاح المرحلة الثالثة من «ثوراته الملونة». كانت أسلحته تتكون من الشباب ومجموعات الأنونيموس المهمش والجمعيات وصناديق الجمعة وجني حبوب الهلوسة وبعض القناصة المتجولين وأبناء الله (إسلاميين ومسيحيين). وهم في الأخير ما يمكن أن يطلق عليهم

بأيتام وأبطال العولمة الجدد. فإذا كانت العولمة قد زادت عن عدد المهمشين والفقرااء، فإنها صنعت كذلك أبطالا آخرين بإمكانهم أن يصنعوا ثورات دون أن يصعدوا إلى الجبال أو يتبنوا نظرية الكفاح المسلح.. أبطالا من نوع جديد ما إن تنتهي مهماتهم حتى يتخرروا داخل الزحام.. أبطالا مهمتهم الوحيدة أن يفتحوا الطريق أمام الشركات والبنوك والرأسمال والديمقراطيات الفاسدة..

خلال رحلته في عالم المال، استخرج «نظرية الانعكسة» ومفادها، أن العولمة بآلياتها الجهنمية ومؤسساتها النقدية قد خلقت جمهورا من الغاضبين حتى داخل شركائهما كمؤسسات أو دول أو أنظمة. عليه فإنه من الواجب أن يتحرك الرأس المال للإطاحة بهؤلاء الشركاء واستبدالهم بشركاء آخرين أكثر خضوعا.. أما كيف ستتم الإطاحة بهؤلاء.. فإن ذلك سيتم بأدوات العولمة ذاتها وكذلك بجمهورها العريض بما في ذلك من مهمشين ومنبوذين!.. إنها نظرية الانعكسة التي سميت «بانعكسة العين الثالثة»، فيما بعد. فحين لا يجد نظام ما يقدمه لشعبه، ينعكس ذلك قمعا وتهريجا في بيروقراطيات الدولة.. وإذا تنتقل عيون الدولة إلى مراقبة كل شيء، فإن العين الثالثة تظل تراقبها باحثة عن هفوة أو خطأ أو حفرة تقع فيها تلك الدولة. وحيث لا يتوقع أكبر المنجمين، تتحول تلك الهدفـة إلى شرارة.. وتلك الشرارة هي انعكسة العين الثالثة.. وها هنا توجد العلاقة بين سوروس وأم محمد البوعزيزـي!.. وفي الواقع، لا أم البوعزيزـي ولا ابنها الذي احترق كانا يعرفان جورج سوروس، ولا جورج سوروس كان يعرف عائلة البوعزيزـي، أو حتى مدينة سيدي بوزيد..

لازال مراد عباس يحوم حول حافة أفكاره التي يراها تنهار كما تنهار حافة وادي قد غمرته فيضانات، بالقرب من صديقه توفيق بن بريك (لا نعرف كم المسافة التي تفصل بينهما). فالاثنان يعتقدان أن الثورة التونسية كانت ضرورية ولكنها لم تكن أبداً ناضجة.. وبما أن درجة النضج أو الإنضاج نسبية، فإنهم ترکا الثورة بشكل أو آخر ليعبث بها الآخرون.. الآخرون هم الليبراليون الرأسماليون والأصوليون الذين يقتسمون الفضاء العام الذي يمتلأ بأولئك الذين يؤمنون بالله قليلاً وأولئك الذين يؤمنون بالله كثيراً. كان مراد عباس أكثر راديكالية ربما من صديقه توفيق بن بريك ولكن توفيق كان أكثر شراسة وفتاكا. فحين يكشف عن أنيابه لا بد أن ينال من خصمه ولا يتركه إلا إذا سقط على الأرض. ومنذ أن هرب الدكتاتور، لم يعد هناك ما يعادله في الوزن والحجم حتى أن توفيق قد شعر في وقت من الأوقات أنه فقد توازنه، لأنه فقد عدوه. أما مراد عباس فيرى أن سبب انهيار أفكاره يوجد في التحالف الفظيع بين الذين يؤمنون بالله قليلاً أو كثيراً. فالالأصولية هي المعتقد القبيح للذين يشعرون بالإذلال! تجاه الغرب.. والليبرالية هي المعتقد الجميل الذي سيبدد ذلك الشعور بالإذلال. وما إن عقد ذلك الحلف الخفي في البداية ثم أصبح علينا، حتى اندمج مهمشو العولمة مع أبطال العولمة. كان مراد عباس يرى أن ما يسمى باليسار قد أصبح «موجة» ارتقائية، تشبه انعكاسة العين الثالثة. لديها قوة احتجاج لكنها لا تملك لا برنامجاً ولا آليات لتحولات جذرية وراديكالية، وهو ما يجعل الأصولية أمراً مقبولاً في عالم كل شيء فيه، يقع تحت

رحمة الرأسمال. وبإبعادهم لليسار أصبح الليبراليون يشجعون الأصوليين. ولا شك أن من كان يقول أن صعود الفاشية الدينية قد تآزر دوما مع غياب اليسار، كان على حق. فمن أتى بهؤلاء الأصوليين وزرعهم في كل مكان من العراق إلى المغرب.. ومن كان يتوقع أن أفغانستان الدولة العلمانية الأولى في العالم الإسلامي، قد سقطت تحت أقدام الطالبيان. (ألغت أفغانستان تعدد الزوجات في بداية القرن العشرين. وبعد نحو 80 عاما عدن النساء إلى بيوت الطاعة والإذلال.. بعد ذلك بنحو أربعين عاما فعل بورقيبة ما فعله الملك أمان الله في أفغانستان وأتاتورك في تركيا..) ثم دارت عجلة الزمن ليجد مراد عباس نساء بلاده لا رجالها، يطالبن بعودة تعدد الزوجات.. حسب مراد عباس الذيقرأ جيدا الأدب الماركسي، فإن كل ظهور للفاشية يحمل شاهدا على ثورة قد أجهضت أو تم إجهاضها، كما كتب والتر بنيامين.. وبما أن الثورة التونسية قد وقع طمسها وتبخيسها ثم إجهاضها عبر محاكمات ومساومات داخلية وخارجية، فإنه لا يزال يعيش على وقع الفاشية وهي تزحف على أقدامها كما على بطونها.. فالللاح الذي زرعه الغرب عبر جورج سوروس وأمثاله قد أنتجه في النهاية عالما هجينا مملوءا بالعنف والعلل.. ولكن مراد عباس لا يستطيع أن يصمت أو يتواطئ أو يحيد عن الحقيقة كما يراها. إنه صوت للذين لا صوت لهم، غير أن صوته لا يصل إلى الأعماق، تماما مثل صوت صديقه توفيق بن برييك.. مخبل، مجنون، ثرثار، قل ما تشاء فيه، لكنه لا يخرس. ومستحيل أن يعود فيبتلع كلامه إذا وصل إلى حلقة.. كلامه يخرج من بطنه.. من الأعماق ويصعد إلى رأسه لكي يأخذ

معنى وهندسة منطقية ثم يطلقه بقوة كما الرشاش الآوتوماتيكي..
 رجل ينهض من فراشه لهمة وحيدة هي التحليلات السياسية
 والتاريخية.. ولأنه فصيح وسلطان اللسان غاضب باستمرار
 وباحث عن الاختلاف، فإنه أحياناً يبدو مضطرباً، غير أن ذلك
 ما يزيده تألقاً وسحراً لدى معجبيه ومعجباته حتى ليبدو وكأنه
 نسر ينتقل بين خمسة أو ستة قمم جبلية!..

*** *** ***

ولكن «العين الثالثة» بالنسبة لمراد عباس هي السينما كذلك . فهو يشعر أنه ممزق الأحشاء بين عالم السينما وبين العالم الواقعى.. فحين يفكر في السينما يصبح رجلاً لا يطاق من فرط حساسيته، متوجهما وقاسي الملامح كأنه قاتل مأجور. يفقد حسه المميز بالدعاية، ويتحول إلى شخص عدواني تجاه كل الذين حوله بحيث لا يترك شتيمة لا يسددها لمسؤولي الثقافة في البلاد، خاصة لأولئك الذين صعدوا بعد الثورة وراحوا يجمعون الجوائز على حساب البوعزيري دون أن يخرجوا ولو فيلماً وثائقياً واحداً عن البوعزيري. ولطالما حاول مع صديقه فريد ريكوبي أن يتجاوز محتته، ولكنه كان دائماً يصطدم بما يسميه بالمناورات السخيفة والمؤامرات المحبطية للعزائم والأوغاد الذين يمزجون بين النذالة والضجر. كان مراد حين يستبد به الغضب لأنه عجز عن إنجاز حتى فيلم واحد.. قصير وفقير، لا يجد من يتكلم معه إلا مهنى زعفرانى.. ولكن فريد ريكوبي أكثر الناس قرباً له يؤكّد أنه لو لم تكن مهنى مجرد امرأة افتراضية لنالت من شتايمه الكثير حين

تستبد به نوبات الغضب العارم. الغضب على الزمن الذي يمضي بلا توقف.. الغضب عن العمر الذي يتسرّب مع الشهقات ويتبخّر من النيكوتين.. الغضب من الثورة التي أطربت أم الشهيد / الرمز، ثم راحت تعدد خصال الشهيد وقبائح أمّه على حد سواء.

إن مراد عباس الذي هو خليط بين الوهم والواقع، بين المادي والافتراضي، بين السينما والحياة هو في الحقيقة علة نفسه.. فهو العلة والمعلول حسب فريد. وهو عدو نفسه حسب ستيفاني. وهو أحياناً مهرج حسب زملائه السينمائيين. إنه يبدو كما أن الكلمة «ملون» أو «متعدد» قد ابتكرت من أجله.. أما مهى زعفراني التي لم تلتقي معه إلا مرة واحدة (بما أن المرة الأولى كانت عابرة وبالصدفة، والمرة الثانية كانت مبرجة على أن لا تتجاوز حدود التعارف وإذ قيمنا المرتين، نجد هما مرة واحدة من حيث الجدوى) فهي تجد فيه الخيالي العظيم والطريف والعابر والمتوهج والساخط وكذلك المدهش في أفكاره والمتدفع في عواطفه.. كل ذلك من خلال الشاشة فقط.. وهو نفسه يمكن أن يطلق عليها كل تلك الأوصاف ويضيف إليها، أنها العابرة للفضاءات والمثيرة للتحدي والصمود ضد النذالات.

كان غارقاً في تأملاته الملتبسة حول جيمس بوند و كانط وكذلك حول جويس وابن المقفع، وهو يعد نفسه بالتفرج لقراءة «ثلاثية الإسكندرية»، للورنس داريل حين تلقى رسالة على هاتفه من مهى تطلب منه أن يذهب إلى الإيبار.

- عزيزي مراد. دخلت الآن جناح الإيرفرانس. بعد سويعات

سأكون في تونس. ثمة أنواع كثيرة من الشمبانيا. هل تريد كأسا. نحن ربما في حاجة إلى روحها لا إلى طعمها.. أو تريد كأسا من «السانت ايميليون».. هل أسمعك رنين الكأس.. لدى رغبة أن أشرب كاسي وكاسك معا.. اسمع جيدا لا معنى للمسافات أمام الروح.. قل لي ماذا أنت تشرب. هل هو ماغون قرطاجي..

- أشرب ذلك الذي تصبّينه الآن من فاهك في فاهي. يا الله ما أعدبه ولكن الأمر اختلط على، إذا لم أعد أعرف أيهما الأعذب..

- إليك رشفة من هنا وأخرى من هناك.. وتذوق جيدا وقل لي أيهما الأعذب.. قبل حين دخلت مغازة اللانجري. واشترت بعض الأشياء وكنت أفكّر فيك..

- أحسست بذلك. بل كنت أتلصّص عليك. كنت ساكنا داخل المرأة. ولقد أتعجبني ما اشتريت. قلت في نفسي لم تشتري ما أحب ثم رأيت تقلّبين الكيلولات فتركتك لوحدك مراها نفسي ما إذا كان الذي أعجبك هو ما أحب أن أراه وأمسه.. هنئا لكولي لأنني نجحت في رهاني.. ملمسه ناعم.. وسوف يستمد وهجه من جسد مستبد!

- أكاد أتذوقك مع نبيذ «السانت ايميليون» يا مراد..

- هل إلى هذا الحد نتشابه.. هل نتشابه لأننا نحمل في داخلنا أكسير الطفولة المدهش.. أي أننا لإنزال ننتهي إلى المرحلة الفموية..

- أرجو ألا يكون نموا قد توقف عند تلك المرحلة (ههه).

دون منح، لا أظننا نتجاوز أية مرحلة.. وإنما المراحل تلتزم بعضها ومتزج بلا فكاك.

- أحب ذلك. كل اللذة تسكن في الفم. تنبع من الفم وتستقر في الفم. نتذوقها بالفم ونمتتصها بالفم.. الفم ليس بالوعة.. إنه محار للجسد..

- لاحظت تركيزك على الفم.. أنا أكثر ديمقراطية مع حواسِي..

- نعم، لغة وضحكات وتدوقاً أو لعقاً.. كل شيء يوجد تحت سلطة اللسان.

- ها أنت تذكرني بسلطة اللسان.. تلك السلطة التي غالباً ما أخضع لها.. شيء مخيف ومحطم لكل مقاومة.

- طبعاً لا أهمل بقية الحواس.. الأنف هو العضو الأكثر إثارة.. بدونه لا تتتحقق الحواس الأخرى، بعده يأتي اللسان الذي هو سيد اللعبة، بطل المسرحية. يبدأ في التسلل إلى العقل ثم ينتهي متسللاً إلى المناطق الدافئة والحرجة والرطبة.

- خطير.. هذا اللسان يا مراد. أنت تحكم استعماله إلى درجة يجعلنا ضحايا.

- (ضحك لك كلمة خطير).. هل تكتشفين ذلك الآن؟

- أعرف أنكم خطيران.. أنت ولسانك..

- أنا الآن في غاية الانتشاء يا مهني.. والآن لا أحب أن أنزلق أو اندلق..

- مراد، أنا التي انزلقت.. خذ انزلاقة أخرى مني إليك قبل أن

أصعد إلى الطائرة..

- أحب انزلاتك.. هات بأخرى لكي أبلغ بؤرة الضوء.
 - انزلق أنت مرة أخرى. سنصل إلى بؤرة الضوء معاً..
 - لا عليك.. أنا أفعل ذلك. إنه يكاد ينطحك من خلف الشاشة.. أنت التي ستزلقيه بيديك هذه المرة..
 - هو الانلاق الكبير إذن.. من خلف الشاشة وتحت ملمس أصابعك.. يا إلهي!.. ما هذا؟..
 - نعم.. حتى أجعلك ممتلةة ومنتشرة وهاذية.. ولكن قبل أن تزلقيه.. العقيه قليلا
 - أنا أهذى الآن.. آه لو ترى ما أفعل به. لا أريد أن أرى شيئاً ما. ينطبق على هنا المثل: الزلقة بفلقة!..
 - الفلقة! هل تعرفين ما هي؟ إنها قصبة السيد.. سأضربك بها الآن..
 - أرجوك، ولكن برفق وعلى مهل.. لا أريد أن يزعجني شيئاً حين أنحنى أمام القصبة!..
- *** *** ***

مع أنني أصبحت على قناعة أن مقى أهدى رجلاً ورداً إلى سيدة، لا يلبث أن يفقدها، فإني أصررت على ذلك كاختبار للمرة الأخيرة.. حدث ذلك أكثر من مرة حتى أصبحت أقوم بذلك في حركة لاوعية كما لو أنني أريد فعلاً فقدانها.. أو أريد أن أبتعد عنها

في وقت مناسب.. أعطتني مهى عنوانها ثم دلتني بالهاتف كيف أدخل إلى الحي (أحد المنارات) وقالت لي: حين تصل إلى الشارع ستتجديني واقفة في انتظارك.. اشتريت باقة ورد كبيرة إلى حد ما. وبعد أن دفعت ثمنها، قدم لي بائع الورد زئبقتين صغيرتين فائلا:

- سيد مراد لا تنسى الزئبق Muguet إنه موسم الزئبق..

غمرتني مهى بترحاب حار وابتسمات عريضة ثم قادتني إلى الصالون لأجد أمها وأبوها وكذلك شقيقها وهم يرحبون بي.. قالت لي: هذه مفاجأة.. لم أخبرك عنها .. ولكن كما ترى أنهم يريدون التعرف عليك.. اندمجنا بسرعة في أحاديث طويلة عن الثورة والسياسة، وحتى عن الزبالة التي ملأت شوارع تونس. ثم انتقلنا إلى الحديث عن الموسيقى والفن.. قالت مهى:

- هذه هي أمي التي علمتني الغناء والموسيقى.. أمي تغنى وتعزف بمهارة..

وتدخل الأب ب بشاشة فقال:

- ليس ثمة أسعد من بيت سيدته تغنى..

وقال شقيقها الذي عرفت أنه عاد منذ مدة قصيرة فقط من باريس ثم التحق بشركة والده المصدرة للكابلات..

- كما ترى، سيد مراد، حظي كبير، أن لي أما وأختا يحبان الغناء والموسيقى..

أما مهى فظلت ساكتة وهي تبتسم بلا انقطاع: كانت تجلس قبالي ولم يكن لباسها محتشما. كشفت قليلا عن صدرها البادخ

سألتها فيما بعد لماذا كانت لا تتكلم، أجبتني، بأنها أعطتني فرصة للاندماج أكثر. في ذلك المساء الذي كان لا يزال مثقلًا بحرارة النهار. وهو نهار بدا لي وكأنه مستعار من الجحيم رغم أن الرياح لم ينتصف بعد.. انتقلنا لنجلس في الحديقة.. تأخر أبوها للالتحاق بنا، فأشرت لها أن تأتي لتجلس إلى جنبي.. لم تمتنع، ولكنها جلست قليلا ثم قامت لترك مكانها لأبيها.. قالت لأخيها:

- غدا إذا استمر هذا الحر، فلا بد أن تأخذني إلى البحر..

ولكن أمها ردت:

- ليس غدا.. بعد غد، لأنني أحتاج للسيارة لكي أذهب وأبوك لزيارة أخيه.. أخيه مريض ولا بد أن نزوره.

لم تعلق مهـى.. وأعترف أنـي وجدت نفـسي في حرج.. بين أن أعرض عـلـيـها الـذـهـاب إـلـى الـبـحـر فأـبـدو كـرـجـل مـتـسـرـع أو يـصـطـادـ الفـرـصـعـنـدـ الـمـنـعـطـفـاتـ، أو لا أـعـرـضـ وأـلـوـذـ بـالـصـمـتـ فـأـتـهـمـ بـأـنـيـ لـسـتـ جـنـتـلـمـاـنـاـ وـرـبـماـ مـنـغـلـقـاـ وـمـتـشـدـداـ.. تـجاـوـزـ ذـلـكـ الإـحـراجـ حين قـامـ أـبـوـهـاـ يـتـمـشـىـ وـسـطـ الـحـدـيقـةـ، فـقـلـتـ هـاـ بـأـنـهـ يـمـكـنـ أـنـ نـتـرـاقـ إـلـىـ الـبـحـرـ، لـكـنـهـ اـعـتـرـضـتـ عـلـىـ عـرـضـيـ الـمـحـتـشـمـ بـاـبـتـسـامـةـ عـرـيـضـةـ (ـكـنـتـ لـأـزـالـ أـخـمـنـ أـنـ تـلـكـ الـابـتسـامـاتـ النـاعـمـةـ وـالـدـافـقـةـ لـيـسـ إـلـاـ اـنـتـصـارـاتـ ضـدـ الـخـيـاتـ، ضـدـ الشـعـورـ بـالـفـشـلـ، وـكـذـلـكـ ضـدـ كـلـ شـيـءـ يـبـدـوـ هـاـ لـمـ يـنـضـجـ بـعـدـ.. بلـ رـبـماـ هـيـ سـلـاحـهـاـ الـوـحـيدـ ضـدـ كـلـ فـضـاضـةـ الرـجـالـ وـسـفـاهـاتـهـمـ حـتـىـ وـإـنـ كـانـواـ لـاـ يـسـتـبـطـنـونـ أـيـةـ مـيـوـلـ نـحـوـ الشـرـ.. وـلـكـنـ بـالـنـسـبـةـ لـيـ، وـلـوـ أـرـادـتـ لـغـتـيـ أـنـ تـكـوـنـ وـاقـعـيـةـ بـمـاـ كـانـ يـمـلـيـهـ الـوـضـعـ، لـمـ تـكـنـ إـلـاـ وـعـدـاـ بـالـسـعـادـةـ يـنـسـابـ

من عيون ناعسة وشفاه مكتنزة وطيرية ومبللة، ليفتح شبابيك ومشاريع حكايا كما تفتح أزرار قمصاننا في البداية بسرعة ولهفة).

أومأت مهى بحركة لأمها، فقامت، ثم قالت لي:

- هل تريد أن ترى أمي كيف تعزف على البيانو..

قلت:

- سيكون أمراً مدهشاً.. ثم أضفت: بشرط أن أسمعك تغنى معها..

دخلنا إلى الصالون ثانية.. وجلست الأم إلى البيانو ثم طلبت مني إن كنت أرغب في سماع مقطع من أغنية ما.. لم يكن بذهني أي شيء محدد، ولكن بما أن مهى تعشق نجاة الصغيرة، فقد وجدت طلبي بسرعة. قلت:

- لا تنتقد خجي «نجاة الصغيرة»، ما رأيك يا مهى؟!

(ولا شك أن امرأة تعد نفسها بتجربة غرامية عظيمة، لا بد أن تسعى بكل جهدها لكي تنجح.. كما لا شك أن أمياً ترى ابنتها على وشك الوقوع في غرام عظيم لا بد أن تسعى لإسعاد ابنتها وكذلك إسعاد الرجل الذي سيسعد ابنتها.. وفي مثل هذه الحالات، يبتعد الرجال عن الحرج.. وهكذا فيما تأخر الأب في الحديقة، انشغل شقيق مهى بمكالمات هاتفية جعلته يخرج هو أيضاً إلى الحديقة)..

وحين تعزف الأم وتغنى البنت، فلا شك أن ذلك الرجل المحظوظ جداً.. قد أصبح يقف على برج العذراء في قمته الأعلى.. والحقيقة أحسست بالسعادة تغمرني من كل جانب حتى لم أعد قادرًا على

الاستماع السلبي.. وهكذا عبرت عن متعتي بآهات عميقة.. ولما أشكت مهى على نهاية الأغنية، اقتربت منها أكثر، لكنها ابتعدت عني وعن أي إخراج.. قلت لها حين أكملت:

- لم أكن أعرف كيف تصيرين نغما حين تغنين..
ثم التفت إلى أمها..

- أما أنت يا مدام، فإن البيانو يصبح تحت أصابعك وحشاً كاسراً.. (ربما لم أتوقف جيداً في ذلك القول، إذ كنت أود أن أقول، أن البيانو، ذلك الوحش الموسيقي الذي اخترعه الإيطاليون، وكان جزءاً عريقاً وأصيلاً من النهضة، قد بات تحت أصابعها حيواناً جميلاً وأليفاً).. كانت أم مهى تغني في شبابها في فرقة الرشيدية. هناك تعلمت العزف والغناء كهاوية وليس كمحترفة. بدأ صوتها في السنوات الأخيرة يضعف بسبب تقرحات خبيثة في الحنجرة.. وكان طموحها الموسيقي قد تقلص منذ أن تزوجت، لكنها استمرت في حبها للغناء والموسيقى وهو ما نقل العدوى إلى مهى.. وكان يمكن لها أن تصبح مغنية شهيرة لكن دراستها في كندا ثم زواجها الأول قد قلصا من طموحاتها.. مع ذلك فهي لا تتوقف على الغناء أبداً.. وهي الآن تغني بأكثر من لغة وتعرف أكثر من فنان شهير مثل يانيس باريوس وهاريس الكسيو وانجيلا ديمترو وحتى ايرين باباس اليونانيين ومثل سلين ديون الكندية. لا تزال تعشق الغناء بطريقة صوفية ولم تفارقها أبداً النسوة التي كانت تشعر بها في طفولتها حين كانت ترى أمها تغنى!

لما حان موعد ذهابي وقمت لأسلم، تسللت أم مهى إلى المطبخ

ثم أتت بعلبتين وفتحتهما أمامي فوق الطاولة التي تعلوها مرآة ضخمة، ذات نقوش أرابيسك. وقالت:

- سيد مراد.. أحب أن أقدم لك هذه الهدية البسيطة.. هذا مسطبان من العسل الحر.. من نحل ضيعتنا.. وهذا مسطبان من معجون البرتقال.. وهو من إعدادي الخاص..

بعد ذلك حملت مهني العلبتين ووضعتها في كيس بلاستيك جميل من مطار أورلي، ثم سارت معي إلى السيارة..

في الطريق اكتشفت وأنا أستعيد تفاصيل تلك الزيارة، أن العاشق إذا كان امرأة أو رجلا يتصرف كطفل بريء ونزيق في نفس القوت. ربما لأنه لم يدخل في عالم الالتزامات بعد، فهو لا يجد نفسه مجبرا على قواعد شكلانية. العاشق سرعان ما يتتحول إلى طفل ويرفض أن يتتحول إلى رجل ناضج.. ولربما تلك إحدى تقنيات الإغراء! وبما أن العلاقة الآن قد امتدت من الافتراضي، إلى العائلي، فإنه من الصعب أن نجد لها موضعاً أو وصفاً محدداً. هل هي علاقة ستتحول إلى صدقة عائلية.. أم هي علاقة ستتحول إلى التزام وشروط و حتى زواج.. أم هي علاقة سوف لن تكون بأكثر من انتفاضة عاطفية مؤقتة لا تلبث أن تخمد.. مثلها مثل الشورة التونسية!

حوالي منتصف الليل، أي بعد عودتي إلى البيت، وأنا لا أزال ممتلئاً بتلك الأمسية الدافئة والناعمة.. كتبت إلى مهني:

- فهمت الآن ما العلاقة بين الحب والثورة.. يصبح الحب في زمن الثورة أكثر عنفواناً. وبدونه لا تنجح أية ثورة. فهو رحيقها

وطاقتها.. فإذا رأينا أن الثورة فشلت، فلأنها فرغت من الحب.. وإذا رأينا حبا قد فشل، فلأن ذلك الحب قد تخلى من أي عنفوان ثوري..

- تظن إذن أن للثورة تأثير على حياتنا العاطفية؟

- نعم وبالتالي أكد. لقد لاحت لي الثورة منذ البداية كملاذ.. كحقل جديد للاندماج، كتصعيد نبيل للعاطفة البشرية. ويمكن أن يكون الحب حالة فردية، لكنه لا يتناقض مع الثورة حالة جماعية. تسألين لماذا؟ لأن الثورة ليست إلا تحقيقاً لوعد مؤجل أو حلم مخدول.. هذا ما يجب أن نصنعه لأنفسنا لا أن ننتظر حتى يصنعه لنا الله!..

- يا الله. إنك تسحرني بغموضك. كما أسررتني في المساء بانفتاحك..

- مهـي.. حين نمرض أو نتعرض لأزمة ما، نتذكر الله فنقول: أين هو الله؟ لماذا لم يأتي إلي الله؟ ولكن تعرفين جيداً أن الله لا يأتي. بالأحرى إنه يأتي بطريقة أخرى وفي مكان آخر. فحين نحب مثلاً يصبح القلب ممتلئاً بالله.. وكلما شعر المحب بالسعادة، داعب بطنه أو صدره وهو يردد: يا الله.. يا الله!

- وهـل أنت الآن تداعب بطـنك..

- صدقـينـي.. أنا في غـاـية السـعـادـة.. ولـكـنـ المرـءـ لاـ يـمـلـكـ الأـحـدـاثـ لأنـهاـ تـمـرـ بـسـرـعـةـ وإنـماـ يـمـلـكـ روـاـيـةـ لتـلـكـ الأـحـدـاثـ..

- أـوـافـقـكـ.. الأـحـدـاثـ قدـ تـتـشـابـهـ وقدـ لاـ تـتـشـابـهـ، وقدـ تـسـتـمـرـ فيـ المـحـدـوـثـ وقدـ تـنـقـطـ وـلـكـنـ الرـوـاـيـةـ.. طـرـيقـةـ سـرـدـ تـلـكـ الأـحـدـاثـ

هي التي تختلف ومع ذلك هي التي تبقى.

- في كل رواية ثمة خيارات. إما أن تروي ما حدث فعلا.. أو أن تروي ما تراه أنت أنه قد حدث.. في الأولى ثمة العقل والمنطق والتسلسل. وفي الثانية يسيطر العجائبي والسحري.. وإذا كانت الرواية، أي النص يحمل 50 % من الواقعي، فإن الـ 50 % الثانية توجد في السرد والمجاز.. في أحيان كثيرة يتساءل القارئ عن صدقية الأحداث، فلا يجد من يدلله، وأنذاك يقع التواطؤ مع صاحب النص، فتحدث المتعة.. إن المتعة يا مهني.. لا توجد إلا في التواطؤ. تماماً كما لا تبدأ إلا مع المراودة..

- أنت أعلم بفنون المراودة..

- المراودة مثل المطاردة (ما يسميه الحقوقيون بالتحرش) لأنها فن قائم بذاته. ولكن حقوق الإنسان منعانا من تطوير ذلك الفن.. أنا سأظل أعتقد دائما أن المطاردة هي أيضا حق من حقوق الإنسان. (هههه)

- أحب ما تقول يا مراد. إنك تجعلني مسترخية بشطحاتك العذبة.. بل تجعلني أتلمس مناطق الرغبة.. أنا في غاية الاسترخاء..

- إنك تقوذيني إلى حيث يدفعني هذا العنيد..

-رأيتك تقتربين منه جذلی ووهانة.. وها أنت تخطفينه بنظره حارقة.

- مکمل ..

- مَاذَا تَرِيدُنِي أَنْ أَفْعَلَ..؟ أَوْ يَحْبُّكُ أَنْ أَقُولَ لَكَ مَا أَرِيدُ!.

- نعم قولي.

- سأجلس فوق قصبتك.. ها أن الفارس راكب فوق حصانه، ولكن الحصان هو الذي يضرب الفارس لكي يركض بسرعة، هذه المرة.

- أي حصان هذا الذي يضرب فارسه يا مهى؟

- أنا في أشد الوحشة والشوق.. ماذا تريدين أن أفعل؟

- أريدك أن تأتي عندي غدا.. في المساء..

*** *** ***

وجود كل من ستيفاني ومهى في تونس في نفس الوقت أربكني. ورغم لفتي للاختلاء بهى وإلحادي عليها، إلا أنني رحت أبحث عن أعداء مناسبة لكي أتخلص من اللقاء معها.. ولكن مهى فاجأتني بأنها لن تستطيع أن تراني إلا بعد فترة طويلة لا تقدر على تحديدها، إذا ما تعذر اللقاء هذه الليلة. وسمعتها وهي تسقط الإحراج جانبا على الهاتف:

- إذا لم نلتقي هذه الليلة، فإنه من المحتمل إلا نلتقي إلا بعد فترة طويلة.

- ولماذا؟ هل لديك أشغال مستعجلة؟

- نعم، علي أن أعود إلى باريس في مساء الغد. سأحجز لأمي سريرا في مستشفى «سان بلبرتي».. أبي مريضة يا مراد.. ولكنها تقاوم بكل قوتها.. وسأضطر إلى أن أتفرغ لها.

تركت لي قليلا من الوقت لكي أفك ثم أقر.

- أنا في انتظار مكالمتك..

للحقيقة لست بارعا في نسج الحبكات والتخلص من مواعيد أنت ترغب فيها ولكنها حين تقترب تصبح عبئا ثقيلا عليك.. ومع ذلك فقد اتصلت بستيفاني وطلبت منها أن تؤجل موعدنا، لأنني مضطرب للذهاب إلى مدينة «الحمامات» للقاء بأحد السينمائيين العرب.. ذكرت لها اسم «يسري نصر الله» المصري ودعت الحبكة بعدة أسماء حقيقة أخرى حتى أبدو أكثر تماسكا. بعد ذلك اتصلت بهى وقلت لها وكأنني انتصرت على جبني:

- أحتجاج إلى جنونك هذه الليلة.. اتركي عقلك في البيت..

قالت:

- ما أجمل أن يكون المرء بلا عقل أحيانا..

كانت كل من ساعتي وساعة مهى في تلك اللحظة تشيران إلى الحقيقة ذاتها. ولذلك كان علي من جهتي أن احتفي بها بلا مساومة.. فبالنسبة إلي لاتزال المرأة توجد في المنطقة اللزجة من حياتي. اعتقدت دوماً أنني قابل للانزلاق في كل لحظة، ومع ذلك فإنني لا أزال قادرًا على التماسك ومقاومة السقوط في الحب.. وهما هي مهى تبدو كما لو أنها ألتقت علي القبض في تلك المنطقة اللزجة.. فكما يمكن أن نفقد الموهبة خلال البحث عن أعمال توفر لنا العيش، كذلك يمكن أن تفقد التوازن حين تهجم عليك أكثر من امرأة في نفس الوقت.. ولكن ستيفاني هي زوجتي السابقة أو مطلقتي.. وقد أقيم دردينيل عميق بين جسدينا منذ فترة، إلا أنه بمجرد أن أحاول الاقتراب من مهى، أشعر أن ذلك الدردينيل بدأ يتحرك بيدي وبين ستيفاني.. أما مهى فهي المرأة

الافتراضية التي قضيت مدة في مطاردتها، حتى استكانت وباتت سخية وناضجة كحبة تفاح.. وهي مستعدة أن ترحل كطيف كما ظهرت كطيف إن أحببتها أو لم أحبها. وإن جامعتها أو لم أجامعها.. وإن أشبعتها أو لم أشبعها.. هكذا بدا لي الأمر. ورأيت أن المسألة كلها قد تختصر في مجامعة أو مضاجعة قد تكون ناضجة أو فاشلة ثم تنتهي الحكاية.. وبعد تجربة طويلة مع النساء، وجدت أن ما لا يطاق في حياة رجل مثلـي، هو أن يقوم بإنضاج امرأة للدخول إلى المغامرة، وحين تأتي الفرصة يتركها ويتجه نحو مطاردة غيرها.. وحين تستبد تلك الحالة بأي رجل أو تتكرر معه أكثر من ثلاثة مرات، فلا بد أن ذلك الرجل قد أصابه «هوس الاستيهام» أكثر ما أغوطه التجربة. لأن التجربة هي ما نعيشـه مع المرأة التي نطاردها أو نصطادها. أما ما سبق ذلك فهو عالم الاستيهام والتخيلـات المربيـكة والارتعاشـات الموحدـة.. هل يخاف ذلك الرجل أن يفقد أنه حين يندمج مع امرأة؟ هل يخاف أن يفقد فن المطاردة حين يدخل تحت سقف الحب مع امرأة واحدة؟ هو ذلك.. وأكثر بكثير.. فحين تصبح تعيش تحت شـرط المرأة التي أحببـتها، تـصبح قيمة الحياة لديك تستمدـها من قيمة ذلك الشرـط.. ولأن ذلك الشرـط هو أن تتخـلى عن حياتـك السابقة، فإنه قد يعني ذلك أيضاً أن تتخـلى عن بقـية حياتـك لذلك الشخص.. أعرف أن هذه «أمراض» تستوطن معظم الفنانـين باعتبارـهم يـمثلـون فـئة ذات حـساسـية عـالية كذلك معظم الأعازـب الـلـاـرـدـايـن.. ثم إـني أـعـرف أن لـحظـة السـعادـة ليسـت تلكـ التي ستـغمـرـني عندـ المـضـاجـعةـ، بل هيـ التي ستـغمـرـني بعدـ المـضـاجـعةـ.. أيـ بعدـ أنـ أـجـدـ نـفـسيـ وـحـيدـاـ

متحررا من كل ثقل.. ولكن هذا ما لم يحدث معي هذه المرة حين غادرتني مهـي.. حين دعتها بعد مضاجعتين عظيمتين تركتني إلى الفراغ. وهو فراغ لم أشعر به من قبل.. ففي العادة حالما أودع المرأة، لا يعود يهمني أن تعود إلى بيتها أو تذهب إلى عشيق آخر... تنتابني تلك الحالة في كل مرة تقريباً. أشعر كما لو أنني نزعت حذائي واستلقيت على فراش وثير ومرير.. في مرات قليلة حصل معي العكس. ما إن أودع تلك المرأة حتى أطاردها عشرات المكالمات الهاتفية. أسأـلها إلى أين ذاهبة؟ وهـل وصلـت أم بـعد؟ وكـيف تـفكـر في الـذـي حدـثـ بـيـنـنـا؟ وهـل أـعـجـبـتـها طـرـيـقـةـ المـضـاجـعـةـ؟ وـمـقـى سـتـعـودـ أـلـيـ؟ إـذـا كـانـتـ متـزـوـجـةـ أـضـيـفـ لـلـأـسـئـلـةـ بـعـضـ الـبـهـارـاتـ الـحـارـةـ.. أـحـذـرـهـاـ مـنـ المـضـاجـعـةـ معـ زـوـجـهـاـ.. أـقـولـ لهاـ لاـ تـتـرـكـيهـ يـغـوصـ بـلـسـانـهـ إـلـىـ حـيـثـ غـصـتـ، إـلـاـ فـإـنـهـ سـيـشـتـ رـائـحـتـيـ.. باختصارـ، أـحـرـضـهـاـ عـلـىـ كـرـاهـيـةـ زـوـجـهـاـ، لـكـنـ إـحـدـاهـنـ قـالـتـ لـيـ ذـاتـ مـرـةـ: «إـنـكـ تـخـرـضـنـيـ عـلـىـ مـضـاجـعـةـ زـوـجـيـ بـأـسـلـوبـكـ هـذـاـ.. إـذـاـ عـادـ لـمـضـاجـعـتـيـ بـقـوـةـ كـمـاـ كـانـ، فـإـنـكـ لـنـ تـرـانـيـ!». عـلـمـتـنـيـ تلكـ المـرـأـةـ درـسـ آخرـ مـنـ درـوـسـ الـجـنـسـ، هوـ أـغـلـبـ النـسـاءـ حـيـنـ يـقـمـنـ بـخـيـانـةـ الزـوـجـ، فـإـنـهـنـ لـاـ يـبـحـثـنـ عـنـ «حـبـ بـدـيـلـ»ـ لـحـبـ بـدـأـ يـذـبـلـ. وـإـنـماـ هـنـ يـبـحـثـنـ عـنـ مـحـرـضـ لـحـبـ قـدـيمـ أوـ لـلـإـثـارـةـ وـالـشـهـوـةـ.. فـأـغـلـبـ النـسـاءـ بـعـدـ أـنـ يـعـدـنـ مـنـ بـيـوـتـ عـشـاقـهـنـ يـصـبـحـنـ وـلـهـاتـ وـمـغـرـمـاتـ بـأـزـوـاجـهـنـ.. فـيـ حـالـةـ مـهـيـ غـيـرـ المـتـزـوـجـةـ كـنـتـ وـاثـقـاـ أـنـهـ اـمـرـأـ لـاـ تـسـقـطـ بـسـرـعـةـ وـلـاـ بـسـهـوـلـةـ، وـلـكـنـيـ بـعـدـ مـضـاجـعـتـهـاـ غـيـرـتـ رـأـيـ فـيـهـاـ وـأـصـبـحـتـ غـيـرـ وـاثـقـ فـيـ مـاـ يـسـمـىـ بـالـتـزـامـاتـهـاـ الـعـشـقـيـةـ!.. حـيـنـ دـخـلـنـاـ إـلـىـ فـسـحةـ القـامـوسـ الـبـذـيءـ، شـعـرـتـ أـنـ قـامـوسـهـاـ أـكـثـرـ

ثراء من قاموسي، فحق لـأن العبارات هي نفسها التي يرددتها معظم الناس على السرير، إلا أن مهـى كانت تقولها بطريقة أخرى، جارفة معها كل ما لا ينسى من حكايات لا بد أنها عاشتها ولا يمكن بأية حال أنها كانت تخيلها في اللحظة وأنا موجود بداخلها عن جداره وبجدارة القصيـب الضخم الذي ورثته عن أبي.. هل كان يمكن لي أن لا أصدق، أن ذلك قد حدث معها فعلا.. (كنت غارقة في قراءة مقال يستعيد قصة مارلين مونرو. وكانت الطائرة قد دخلت في أجواء الأطلسي المظلمة وهي متوجهة إلى أمستردام.. وبعد أن وزعت المضيـفات علينا الأغطية، وأطفأوا كل أنوار الطائرة، جاء رجل زنجي ليجلس إلى جانبي.. ثم رأيته قد أدخل يده إلى ما تحت الغطاء ثم بدأ الغطاء يتـكور ويأخذ شـكل خـيمة. خـيمة صـغـيرة كانت مرفوعـة على وـتد واحد.. تخـيلـت أنه وـتد عـظـيم.. ثم وضع يـده اليسـرى قـرب يـدي.. لم أحـرك يـدي.. كـنت كـمن أـدعـوه إلى ملامـستـي ثـم تـبـاطـأ، فـحرـكـت يـدي بـشـطـارة لـأـلامـس طـرف إـصـبعـه الكـبـير.. إـصـبعـه كان دـلـيلاً عـلـى أن قـضـيبـه عـظـيم.. تـصـلـب إـصـبعـه حتى أـصـبـحـ في كـفـي وـأـنـا مـسـكـةـ به بـقـوة.. ثـم رـفعـ يـده فـارـتفـعـ كـفـي مـعـها وـوضـعـ إـصـبعـه قـربـ فـمي.. كان يـريـدـ أن أـدـخـلهـ فيـ فـميـ أوـ أـعـقـهـ بـلـسـانـي.. لم أـتـبـاطـأ، كـنتـ قدـ بدـأـتـ أـغـمـضـ عـيـنيـ ثـمـ رـحـتـ أـمـصـ أـصـابـعـه.. فـرـادـيـ ثـمـ بـالـاثـنـين.. بـعـدـ ذـلـكـ سـحـبـيـ فـدـفـنـ رـأـسـيـ بـيـنـ رـكـبـتـيـهـ تـحـتـ الغـطـاء.. كـادـ أـنـ يـصـرـخـ حـينـ أـطـلـقـ حـلـيـه.. كانـ خـاثـراـ وـمـخـلـوطـاـ بـرـوـائـحـ عـودـ القرـنـفلـ..)

حين أحسـتـ أنـ الحـكـاـيـةـ قدـ أـوـشـكـتـ عـلـىـ النـهـاـيـةـ، سـأـلـتـهـاـ:
ـ ثـمـ مـاـذـا.. الـمـ يـجـلسـكـ عـلـىـ ذـلـكـ الـوـتـدـ؟

- لا.. ليس في الطائرة.. ولكن حالما وصلنا إلى قاعة الترانزيت في أمسترادام حتى قادني إلى الحمام ثم دفعه بداخلي من الخلف.. من الخلف يا مراد.. ليس ثمة أمتع من تلك الحقيقة التي رأيت فيها نفسي على المرأة، وأنا مثل عاهرة.. لا تهتم به يا مراد.. اهتم فقط بعاهرتك الآن.. ادفعه أنت أيضا حيث دفعه..

- وما اسم ذلك المليون.

- اسمه برنار.. برنار الذي ينتظرني منذ مدة، برنار الذي سألتقيه بعد غد في باريس.. هل تحب أن ين��حي أمامك؟

لما بلغت الذروة.. كانت مهى قد أغمى عليها تقريراً. لمدة خمس ثوانٍ، امتلأت عيناهَا بالبياض وهي غائبة تقريراً ثم بدأت تتحرك. اقامت لي أنها لأول مرة تجرب من الخلف مع رجل. قلت لها: أن ذلك ما يجب أن يفعله أي رجل مع طيز مثل طيزك؟ لقد خسرت سنوات طويلة دون أن تنتبهي إلى مصدر اللذة العظيم!

وبما أن ما يقال عادة أثناء المضاجعة، يذهب هباء بعد المضاجعة ولا يعود يهتم به أي أحد إذ يعتبره مجرد طقطقات لجمري شتعل. هبط منسوب البداءة وبدأنا نعود إلى أرض الحقيقة الأخرى.. الحقيقة التي تواجهنا بأسئلتها وقلقها. سألتني إن كان بالإمكان أن أتحقق بها في باريس في الأسبوع المقبل، فعبرت عن سعادتي ورغبي، ثم قلت لها:

- أنا أيضا لا بد أن أذهب إلى الجزائر بعد أربعة أيام..

لم أكن أكذب عليها.. كنت فعلا عازما على الذهاب إلى الجزائر.. وكانت فكرة الفيلم لا زالت تعذبني (وكانَت الأميرة سارة إسماعيل

دای تنتظرنی لکی اتھدث معها فی إنتاج فيلم دعائی عن محلات
مجوهرات تملکها.. فھین لا نحقق مواهينا، يمكن لنا أن نقوم
بأعمال تجارية من أجل العيش). وهذا الجزء أخفیته جدا عن
مهی كما أخفیته على فرید ریکوی وستیفانی.

■ الفصل التاسع عشر

بين المتحدثة باسم الخارجية الروسية ماريا زاخاروفا والمتحدث الرسمي باسم قصر قرطاج عادل زريقات، عهود طويلة موغلة في التخلف والتملق ومسافات أطول موغلة في الطين والوحل. فرقصة كالينكا التي أدتها السيدة الشابة ماريا أمام رؤساء قمة آسيان في مدينة سوتشي، قد جعلت البابا يدعوا لها بالتألق والنجاح.. لأنها أنسست العالم آلامه وفضاعاته. أما عادل زريقات الذي يرتدي قناع طبيب مزيف فقد علق: «إن هيبة الدولة لا تسمح له بالرقص. لكن متى علا صخب المزود، فإن أردافه لا تتوقف على الاهتزاز».

عاش عادل وماريا في عواصم غربية. هو باعتباره «مناضلاً» في جحافل المجاهدين الإسلاميين. وهي باعتبارها ابنة لدبليوماسي روسي عريق.. ولكن قانون الصدفة الذي جمع بينهما في منصب المتحدث الرسمي قد توقف عند ذلك الحد ليبدأ قانون التجربة والحياة الذي كشف عن معدن كل منهما وثقافته وعلاقته بالعصر والحداثة! لم تكن رقصة ماريا زاخاروفا تضاهيها من حيث الأداء والانسجام والخفة والمهابة إلا رقصة ذلك الجندي اليوناني الذي قفز ببرشه العسكري على الركح فبدا كما لو أنه زوربا قد خرج

من الشكنة ليرقص أمام الفنانة هاريس الكسيو.. جثى على ركبتيه عدة مرات. وضع طاقيته قرب ساق هاريس، ثم قفز بحركة سريعة فنفض الغبار عن بنطلونه وفتح ذراعيه كنسرين يريد أن يحلق، فيما فتحت هاريس كل نوافذ فستانها (الساري) لتطير معه.. ولو رأى عادل زريقات ذلك الجندي اليوناني وهو يرقص بشهامته وفحولة لأبدى تفzerه لأن الجيوش لا ترقص وإنما تحارب حسب زعمه أو على أقل تقدير، لتساءل: كيف يمكن لرجل يعتقد أنه يرقص وهو لا يحرك أرداfe ! كان عادل زريقات قد نال لقب «المتملق الكبير» في تونس ما بعد الثورة.. انتمى إلى ستة أحزاب في ظرف عام واحد ثم بات ناطقا رسميا باسم الرئاسة.. لم يخف هوسه في البداية بالإسلاميين، بأولئك الذين يؤمنون كثيرا ويخافون قليلا من الله.. أو علاقته الحميمية ببعض رموزها.. وحين بدأ المركب يتوجه نحو المضايق، قفز قفزة واحدة ليجد نفسه في قلب الذين يؤمنون بالله قليلا وببعض الشيوخ كثيرا.. كانت العناية الإلهية في عونه.. وبات ذلك التعبير من مؤلفاته البدعة وحقوقه الخاصة.. فاجأ الجميع بالصعود الصاروخي.. وعرف بعد ذلك بصاحب «حدسية الشيخ» التي سيطرت على التونسيين بعد الثورة بسبب الخوف والقلق.. وقال عنه كتاب آخرون مثل توفيق بن بريك: من أين أتي، هذا العبرى صاحب النظارات الطبية؟ وأضاف: «أنه فاق كل توقع لدى العرب كما لدى المغول».. ولكن مراد عباس لم يكن أبدا مستغربا من عادل زريقات، لأن التملق مستوطن بداخله كإرث ثقافي عريق!.. أما فريد ريكوبى فقد صاغ قوله في هذا الرجل كما يكتب الشعراء: «عندما خلع الطيب قفازاته،

سقط رماد من بين كفيه.. وعندما خلع نظارتيه رأى نفسه قد تحول إلى برج.. وعندما أراد أن يتكلم سقطت أسنانه.. ورأى ظله يتمدد وهو واقف تحت بؤرة الشمس، لم يعد قادرا على الحركة، فجاء رجل ليحطمها بفأس كما تحطم الجدران القديمة!..».

قال مراد عباس لستيفاني، أنه سيسافر إلى الجزائر عما قريب لأنه لم يعد قادرا على هضم كل هذه القاذورات.. فالبلاد حسب رأيه امتلأت بالنفايات من كل نوع. نفايات رجال ونفايات نساء ونفايات أفكار ونفايات سياسيين ونفايات فنانين ونفايات أخرى.. أليس من المقرز أن نرى كل مساء عادل زريقات وهو يرغي كالرحي فوق رؤوس التونسيين ويخبرهم بأن جيشهم الوطني قد أطاح بخلية إرهابية هنا وأخرى هناك دون أن يكون متأكدا مما يقول؟ أليس من دواعي الانتحار في هذه البلاد أن يطلق عادل زريقات عنانه لأرقام خيالية ستتفقها الحكومة في الأسابيع القريبة وقد نسي ما قاله البارحة فقط عن تدهور الأوضاع الاقتصادية وتدهور الاحتياطيات النقدية؟..

استمعت ستيفاني جيدا إلى «تشنيعات مراد» فهي تعرفها جيدا وتجد أحيانا لذة في الاستماع إليها لأنها تجعلها متيقظة لأحساس الضفة الأخرى. وقد وجدت فيها مبالغات شديدة ناتجة عن حالة الإحباط التي يعيشها مراد، لكنها لم تأت لإقناعه برأي مخالف أو للدفاع عن عادل زريقات. فهي نفسها لا تجد في ملامحه أية علامات ذكاء أو صدق أو قدرة على الإبداع.. لغته مكعبه وملئه بالعبارات القديمة وذات المرجعية الأصولية وتصريحاته طويلة ومهللة وليس لها مذاق. فهي تخلي من الدمامه والدعابة

والاحتمالية والمعلومة. إنشاء في إنشاء يتكلمها كما لو أنه يقرأها من لوح أو سبورة. وهي أحياناً تتراكم من فمه قبل أن تصل إلى الصحفيين من شدة امتلاء فمه بما يسمى بالخشوع البلاغي.. (ستيفاني نفسها كصحفية التي حضرت ندوات صحفية كثيرة عبر العالم وخبرت سياسيين ودبلوماسيين لا تجد أية مرجعية فكرية أو سياسية في خطابات عادل زريقات. إنه نموذج المثقف البهلوان كما يعرفه غنتر غراس. فهو شخص يدعى أنه مثقف. خريج جامعة لكنه بلا عقيدة.. بلا رؤية.. يرافق الهيئات الثقافية.. يتبع المؤتمرات والجوائز ويحصل على تكرييم بعض المؤسسات الثقافية، ينشر بعض المقالات الإنسانية مستعملاً بعض دهائه في توزيعها وتضخيمها، بعد ذلك يختار اليمين أو اليسار ليصفف وراءه. حسب ساعة البندول المعلقة في الساحة العامة ثم يبدأ صعود السلم، معتمداً على ضحكة من هنا، وعلاقة من هناك. وقبلة من هناك.. وحين يصل لا يجد أفقاً أمامه لأنه بلا أفق.. ولا مشروع لأنه بلا رؤية.. البهلوان.. هو ذلك الطفل الذي لا يكبر والذي يظل ضارباً بالطبلة وسط الطاولات والحفلات كما يفعل أوسكار بطل فيلم الطبلة..)

قال مراد عباس لزوجته السابقة ستيفاني حين سأله عن سبب ذهابه إلى الجزائر:

- أريد أن أختفي. في مثل هذا الوضع الكئيب رغم كثرة الألوان، على الذين مثلني أن يحتاجوا. فمادام ليس لنا صوت. فلافائدة من حضورنا كصورة. نحن رهائن بين يدي بهلوانات كثيرة.. صامدون ولكن إلى متى؟.. من ناحيتي قررت أن أهرب من هذه النفايات.

تسليحت ستيفاني بشيء من الشجاعة ثم دفعت بسؤالها:
- هل ثمة ما يدعوك إلى السفر؟ هل جاءتك تهديدات. إنني
أشعر كما لو أنك تريد أن تهرب.

قال مراد:

- لا ..

ثم كررها ثلاثة مرات:

- لا.. لا.. لا أبدا..

(كان في الحقيقة يخفي عنها تطورات قضية رحمة الصديقي، حتى لا يزرع بداخلها التوتر والفوبي.. وقد أصر أن يخفي ذلك جيدا.. ولكن قاعدة شخصيته الأساسية أرددته عن الكذب وجعلته يصارحها.. فهي لا تزال أقرب الناس إليه وأكثرهم صدقًا..) ثم قرر أن يتكلم:

- ستيفاني.. أثناء غيابك أخضعني ثلاثة مرات لاستجوابات مملة حول علاقتي برحمة الصديقي وبزوجها الشهيد.. كانوا يذكرون لي أشياء نسيتها ولم أعد أتذكرها. بل اختلط على الأمر حتى أصبحت أتخيل أن ما يعرضونه أمامي من معلومات قد حدثت معى. وأنا لست متأكدا أنها حدثت أو لم تحدث.. أحد المحققين وكان متاعطاً معي قال لي بصراحة: إنهم يريدون أن يلبسوك تهمة القتل ثم يغلقون الملف.. لكنهم يجدون صعوبة في نسج الحبكة إذ هم لا يريدون أن يشوهدوا سمعة رحمة الصديقي التي تتمتع بتغطية سياسية في الداخل والخارج..

خيّم صمت كثيف على ستيفاني، ثم رأت مراد يندفع إلى المطبخ ليأتي بزجاجة بيرة.. عرض عليها:

- هل تريدين أن نتقاسماها؟

أومأت له بإصبعها أنها لا ترغب. ثم سألته:

- هل واجهوك بعض المعطيات..

- أطلعوني على تقرير الاتصالات الهاتفية.. ووجدوا أن عدد المكالمات كان يزيد عن ألف مكالمة خلال نصف العام الأخير.. قالوا لي أن منسوب المكالمات قد ارتفع ثلاث مرات بعد اغتياله مباشرة..

- ثم ماذا؟ سألت ستيفاني..

- وجدوا لي صورة واحدة تجمعني مع رحمة الصديقي.. و كنت أتحدث معها أمام «بار الشيلنج»..

ثم أضاف:

- هذه الصورة لا يمكن أن يلتقطها إلا رجل يعرفني.. لقد التقطت لي من فوق بما يعني أن الشخص الذي التقطها كان يجلس معي في الطابق الثاني من المقهى نفسه. وكان يراقبني باستمرار. وهو لا يكون غير «العربي سمار».

- من يكون هذا العربي السمار؟

- رجل من جهاز البوليس السياسي.. يعرفني جيداً ويعرف شلتي. وكان أيضاً يعرف الشهيد.. طرد من عمله بعد الثورة وذهب إلى بيته مذعوراً ثم أعيد إلى عمله في عهد الترويكا. وهذا هو أسلوب «أبناء العصبان». يفرغون أمعاء الحروف من كل الأوساخ ثم يعيدون حشوها بخلطة حارة، يطبخونها ثم يقدمونها كأكلة من التراث العريق..

رأى ستيفاني في تلك اللحظة أن مراد قد أصبح رجلا بلا فرح.. تدرج نحو التعasse التي يوجد فيها الآن بساقيه وكذلك برغبته.. أراد الطلاق بلا سبب.. ورفض العمل تحت البيروقراطية العتيدة. وابتعد عن الأحزاب الكريهة والمغلقة والملائمة بالبلاد والصراخ، وأراد أن يكون «هو» لا غيره ولا حتى شبيهه، ولكنها هو يجد نفسه وحيدا عند منحنى الحياة.. فمراد لم يعد شابا. إنه كهل متقدم.. وحين نمعن في رفض السلطة لنصبح أكثر تحررا، تمعن السلطة في إذلالنا لأننا أصبحنا أكثر وحدة. بلا سند.. بلا جاه.. ولا تبقى بداخلنا إلا المقاومة التي تميل إلى الخمول والذبول مع كل مطلع شمس.

كان موعد ستيفاني مع خوسيه بلانتيرو الذي وصل إلى تونس من المغرب في الصباح، قد اقترب.. وكانت تريد أن تخبر مراد بعدة أشياء مثل لقائهما مع موظف كبير في الخارجية الفرنسية بباريس. كما كانت تريد أن تعرف أكثر عن هذا الذي اسمه «العربي سمار». ولكنها اكتفت بسؤال وحيد. قالت:

- هل تستطيع أن تسافر؟ ألا تعتقد أن اسمك أصبح في قائمة المنوعين من السفر؟

قهقه ساخرا كرجل مجنون ثم قال:

- لا تقلقي. قريتي لا زالت توجد داخل حدود الجزائر!

*** *** ***

جاء خوسيه بلانتيرو إلى تونس مع ساندرا سلطاني التي ستصبح بعد فترة ساندرا بلانتيرو، كما قال ستيفاني وهو يبتسم مادا يده

لمداعبة يد ساندرا.. لكنه لم يحدد تلك (الفترة).. كان ينتظرها في الصالون الكبير لفندق الشيراتون.. كان الليل قد حط على تونس، فبدت من فوق هضبة الشيراتون متلائمة بأضوائها غارقة في الصمت. عرض عليها أن تتناول مشروبا، لكنها رفضت. قالت له: إنها جاءت فقط للسلام، وسوف تعود في وقت آخر من نهار الغد لكي تصحبه ساندرا في جولة للمدينة القديمة.. شعر بلانتيرو وأن ستيفاني متواترة وليست على مزاجها الراائق كما هي عادة، فطلب منها أن يتمشى معها قليلا في حديقة الفندق. ظهرت له تونس وكأنها أو هي فعلا قد شيدت على عدة تلال.. وباعتباره متخصصا في العمارة، رأى أن أعلى تلة هي تلة الشيراتون. وحين سارا نحو محطة السيارات، قال لستيفاني: أن تونس تشبه غرناطة في هيئتتها المعمارية الخارجية.. إنني لم ألاحظ ذلك في المرة السابقة.. ربما لأنني سكنت في منبسط البحيرة ولم أتمكن من التجوال لدواعي أمنية، إذ أن الثورة لا زالت في بداياتها!.. كانت ستيفاني لا تزال متواترة وهي تنتظره حتى يكمل ملاحظاته الانطباعية ثم قاطعته قائلة:

- سيد بلانتيرو. أنا لا بد أن أذهب بعد خمس دقائق.. ولكن قبل أن اذهب وقبل أن تسألني لماذا، سأقول لك أن لدى مشكلة ليس بإمكاني الآن أن أشرحها أو أفككها.

سألها بلانتيرو وقد رآها حزينة تكاد أن تبكي:

- وما هي هذه المشكلة؟

- زوجي السابق، أب طفلي طارق لا بد أن يسافر.. إنه مهدد بالقبض عليه.. هل ثمة طريقة لكي تساعدني؟

لم يسألها بلانتيرو ما السبب، ولكنه سأله:

- إلى أين يريد أن يسافر؟

- هو يريد أن يذهب إلى الجزائر..

بعد صمت قصير جدا.. قال بلانتيرو بحزم:

- أفهم من كلامك، أنه لا يستطيع.. ولنفترض أن الوضع كذلك..
فليست لدى الآن إلا فكرة واحدة..

ثم أضاف:

- الياهو دانيال سينطلق بيخته من ماربيا بعد يومين مع شاهي
شهبار ومارغريتا مارتيناز وقد اتفقنا أن يمضوا ليلة في تونس ثم
ننطلق جميعنا إلى إسطنبول.. في هذه الحالة يمكن أن نتدار أمره..

- سيرفض مراد. أنا أعرفه جيدا، لن يصعد في يخت صاحبه
إسرائيلي..

- ولكن ليس بإمكانه أن يعرف ذلك.. والبخت يرفع علم
اسبانيا..

- وإذا عرف في ما بعد، قد يرمي نفسه في البحر، وقد يلقي بي
أنا أولا..

- ضعيه أمام الحقيقة، قد لا يرفض..

فكر بلانتيرو قليلا وهو يوبخ حظه حين يجد نفسه عاجزا.. ثم قال:

- هل تريدين أن أوصله بنفسي إلى الجزائر؟

- كيف؟ سألت ستيفاني..

- بإمكاني استئجار سيارة سياحية.. سيصحبني كدليل سياحي.

و عند نقطة الحدود سيجد من ينتظره لكي يتولى أمره.. لن يستغرق هذا الأمر إلا عدة ساعات.. ضعيه أمام الخيارين ثم أخبريني..

أبدت ستييفاني استحسانها للخيار الثاني وإن كانت تثق أكثر في سلامة الخيار الأول.. وبما أنها هي ذاتها لا ترغب أن يكون معها على يخت الياهو دانيال، فإنها حصلت على نقطة إضافية لترجح الخيار الثاني.. ابتعدت عن الموضوع كله ثم سألته:

- هل ستذهب معنا خطيبتك ساندرا إلى إسطنبول يا خوسية؟..

أجاب خوسية بسرعة:

- ستعود إلى طنجة بعد تمضية عدة أيام حق يصل اليخت..

عادا خوسية وستيفاني إلى الصالون من الباب الجانبي للفندق.. ولكنهما لم يجدا ساندار في مكانها. دب بعض القلق في خوسية واعتقد أنها غضبت وصعدت إلى غرفتها، ولكن ستييفاني رأتها قادمة من مرا الحمامات.

قالت له:

- ها هي ساندرا يا خوسية

ثم قالت لساندرا:

- إنه يرتعش منك. لو وضعت يدك على قلبه لوجده يخفق بسرعة.

بعد ذلك طبعت على خديها قبلتين ثم صافحت خوسية وودعهما على أمل لقاء آخر..

*** *** ***

اتجه خوسيه وساندار نحو المطعم. اقترح عليها في البداية أن يتعشيا في المطعم أو يطلب العشاء إلى الغرفة فوافقت على المطعم.. كان رأسه لا يزال مثقلًا بالمشكلة التي حدثته عنها ستيفاني.. وبما أنه التزم بمساعدتها.. فهو وضع نفسه تحت الاختبار.. وراح يفكر في خيار ثالث أكثر أريحية وتكييماً مع وضعه كسائق وكذلك مع وضع خطيبته ساندرا. ففي كل الأحوال، فإذا قد التزم بالمساعدة، فلا يعني ذلك إلى حدود المخاطرة أو حدوث الضرر بالنسبة لساندرا. فهو ملتزم تجاه ساندرا بعقله وقلبه وشهادته قبل كل شيء. ثم أن لو وقع مكروه ما فساندرا ستكون مجرد ضحية في حكاية ردئية لا تعرفها.. ولأنها مغربية وليس إسبانية مثله، فإن أمورهاستتعقد أكثر. لذلك كان قد بدا يتريث، لكنه لم يفقد حماسه لكي يساعد ستيفاني.. وحتى يرضي ضميره من الجانبيين.. فقد فكر أن يتصل بصديقه وزميله البروفسور إسماعيل داي ويضع أمامه «المشكلة» دون أن يجعل منها مشكلة.. سيقول له أن لديه صديقاً يريد الذهاب إلى الجزائر.. وهو مخرج سينمائي (لا يعلم خوسيه أن مراد فعلاً هو مخرج سينمائي) سيقوم بتصوير بعض المشاهد في الجزائر. وهو يحتاج إلى المساعدة هناك.. وقبل أن يبلغ نقطة الذروة في تلك الحبكة التي كان يرسمها في خياله، سأله ساندرا:

- هل تريد سمكاً أم لحماً؟

استمر خوسيه في تهجي قائمة الطعام (لم يكن يقرأ.. كان يفكر في قضية ستيفاني) ثم أجاب وصوته منخفض:

- سأتناول سمكة قاروص مشوية.. وما رأيك في كأس من

السانجريا ساندرا.. أنا سأطلب قنينة من النبيذ الإسباني «ريوخا»..
أضاف مبتهجا:

- إذا كان لديهم «الريوخا» كما هو مكتوب على لائحة المشروبات.
فهذا يعني أن تونس لا زالت بخير.. هذا مؤشر جيد..
سألته ساندرا:

- كيف ذلك؟ ماذا تعني بذلك. النبيذ الإسباني يوجد بكثرة في
المغرب. لماذا لا يوجد في تونس؟

قال خوسيه دون صعوبة في تفسير ذلك:

- ما حدث في تونس لم يحدث في المغرب. السياسة قتلت
الاقتصاد وقضت على السياحة.. ألا تلاحظين أن المطعم يكاد
يكون خاليا من السائح.. لا يوجد فيه إلا التونسيون وهم
يكربعون جعتهم ويستعينون عليها بالضجيج والزيتون الملح
والحمص المحمص !!

(بعد أن سجل النادل الطلبية، عاد خوسيه يبحث عن الحلقة
الضائعة لتهريب مراد إلى الجزائر.. أصبح الآن مقتنعاً أن ما
سيقوم به هو عملية تهريب شخص من بلد إلى بلد، وهو من بلد
ثالث.. وهذا أمر لا يتطابق مع مبادئه.. ومع ذلك فإنه لم يعثر في
مخيلته على أي شيء.. سوى عن التداعيات السلبية التي بدأت
تتكاثر من حوله).. طرد الفكرة كلها من ذهنه.. أفرغ رأسه جيداً
ثم راح يملأ جوفه بنبيذ الريوخا العاقد والخاثر.. قال لساندرا،
وهو يضرب كعب كأسه بكأسها الممتليء بالسانجريا:

- في إسبانيا، حين يسكنرون ينادون على «الكوديو». يصبح

الجزال فرانكو هو دليل النشوة لديهم. رأيت ما يشبه ذلك في بغداد والسودان.. على نهر دجلة حين يستبد «العرق» بالعراقيين يصبح السيد الرئيس وكأنه النادل الكبير.. أو النادل هو السيد الرئيس.. ثمة مخاتلة لم أفهمها جيداً آنذاك.. ولكن في الخرطوم، وحين سمعتهم ينادون على النادل بالشيخ.. عرفت أن ما دام هناك خمر، فلا مانع من الدكتاتورية بكل ألوانها.. ربما ذلك هو ما يقصده الإسبان.. ما دام هناك نبيذ فلا مانع لديهم من حكم فرانكو.. أو من حكم الشيخ الترابي.

بعد ما علقت ساندرا على ذلك بقولها:

- كل شعب يحب طغاته وهو يودعه الواحد تلو الآخر، فاجأته بسؤال كانت تريد أن تخباء إلى اليوم التالي، لكنه انفلت منها بعد أن انتصف كأسها:

- ماذا كانت تريد منك مدام ستيفاني؟ لم تقل لي.. كانت متوترة.. ألسنت على صواب؟..

حدقت ساندرا في عيني جيداً.. لاحت الحب والإصرار في عينيها.. كنت أعرف أنه حين نحب شخصاً، نحب وجهه حتى لو كان الأمر يتعلق بحالتنا. كانت ساندرا شابة لم تتجاوز عتبة العشرين إلا بنحو ثلاثة سنوات، وأنا أتجاوزها بنحو أربعين عاماً. ومع ذلك فإذا كنت أنا أعيش قسمات وجهها البلوري، فهي كذلك تعشق تجاعيد وجهي وقسماته التي لم تعد متناسبة بفعل الزمن.. كان وجهها انعكاساً ربانياً لوجهي.. ولذلك لم يكن بإمكانني أن أكذب عليها، وإن ذلك الانعكاس الرباني قد تلطخه الشياطين بأوساخها فيفسد كل شيء بيننا إلى صباح اليوم التالي.. قلت لها:

- ستيفاني واقعة في مشكلة.. وقد أوقعتني معها في ورطة.. هل يمكنك مساعدتنا؟!

اتسعت عينا ساندار، ورمي بخصلة شعرها التي تخفي جانبا من عينها اليسرى، نحو الخلف، ثم استعدت جيدا لكي تسمعني. قلت بمرح لكي أخفف من هرمون القلق لديها:

- الأمر بسيط. مشكلتها تتلخص في أن زوجها السابق واسمه مراد يريد أن يسافر إلى الجزائر أو حتى إلى ليبيا، لأنه أصبح مطاردا ومهددا بالسجن. وقد طلبت مساعدتي.. أما ورطتي فقد وعدتها بالمساعدة وأنا لا أملك خطة متكاملة..

- وهل تعرف ما هي مشكلة زوجها حتى يجد نفسه مهددا بالسجن يا خوسيه؟

لم يكن خوسيه مستعدا لمثل ذلك السؤال. ولم يكن متسلحا بكل المعلومات. وبما أنه كان يثق في استقامة ستيفاني، فلم يشأ أن يطرح عليها أية أسئلة. فقد أرجأ كل شيء إلى وقت آخر.. ولكن ساندار أيقضته على تداعيات أخرى قد تكون خطيرة.. فلو أن مراد مورط مثلا في جريمة قتل، فإن كل الذين سيساعدونه على الهروب يصبحون مورطين في الجريمة نفسها.. حتى ذلك الحين لم يكن منتبها إلى لب المشكلة. سماها «بمشكلة ستيفاني» ونسى لها.. وربما لهذا السبب، فإنه لم يعثر على حبكة حل هذه المشكلة، لأنه لا يعرف لا اسمها ولا وزنها ولا حجمها ولا حتى ثقلها الأخلاقي..

أجاب خوسيه بعد أن تبخرت صدمة المbagحة، مbagحة السؤال الذي ألقى به ساندرا.

- لم أتحدث معها في ذلك. ذهبت مباشرةً في التفكير لمساعدتها.. كنت أعرف أنها ستصارعني في الوقت المناسب. ولا أعتقد أنها ستضعني في مشكلة إذا أخرجتها أنا من مشكلة.. فبیننا علاقة قديمة وعمل كبير وأصدقاء كثيرين..

كانت أذنا ساندرا قد بدأت في نوبة من الطنين.. لا تعرف مصدر ذلك على وجه التحديد.. أهو بسبب الضجيج الذي يملأ المطعم؟ أهو بسبب كوب السانجريا الذي فرغ تماماً. أهو بسبب تلك المشكلة التي انتقلت إليها كالعدوى.. أم هو بسبب كل ذلك زائد الموسيقى العالية التي لم تعد تطيق سماعها من فرط ابتناؤها. بدا الأمر لها وكأنها في سوق شعبي للකاستات المبتذلة التي تجمع بين خطب الشيخ شعراوي وكاظم الساهر وعبد الوهاب الدوكالي وقراءات الشيخ السديري.. وفي لحظة ما، لم يعد يصل إليها من الكلام خوسيه إلا القليل.. فأذناها اليمني قد ملأها الطنين تماماً. أما اليسرى فجرفتها تلك الموسيقى الصاخبة.. لم تنتظر حتى يأتي النادل بالحساب.. وطلبت من خوسيه أن يغادر المطعم إلى ناحية المسبح لتشتم بعض الهواء النظيف.. ثم قامت ووقفت أمامه تحثه على القيام..

- خوسيه.. سيسجلون كل شيء على الغرفة.. هيا.. قم.. لم أعد قادرة على البقاء هنا حتى لدقيقة واحدة.

*** *** ***

قضينا ليلة ممتعة بعدهما خرجنا من المطعم.. بدأ مفعول السانجريا يلتهب ويتصاعد في رأس ساندرا حتى هجمت على ونحن لا زلنا

جالسين إلى جانب المسيح. كان الظلام يخربنا جيداً عن متلصصي المسابع.. ثم كان بالإمكان أن نسمع دبيب خطوات أي متلصص إلا إذا كان يمشي حافيا.. ومع ذلك تحاملنا على الصعود إلى الغرفة.. كان ولعنا ببعضنا لا يوصف.. فأنا كنت قادراً على إخضاعها لأي نوع من الأعيب الشيران الإسبانية. وهي كانت تملك القدرة على جعل قوياً ومسرقاً ومندفعاً بلا أي جهد كبير أو منشطات جنسية. فحين يكون الولع عالياً لا تكون ثمة أية حاجة لتلك المنشطات التي يستعين بها من كانوا في مثل عمري.. كنت كمن يستقطع نحو ثلاثة عاماً من عمره ويرميها خلفه لأتساوى مع ساندرا وأصبح في مثل انفجارها وصهيولها.. وحين تسرب شعاع الصبح إلى غرفتنا نهضت كشاب في الثلاثين.. هافت صديقي في الجزائر «إسماعيل داي» وقلت له، أني في تونس لبضعة أيام.. ثم استأذنته في إعطاء هاتفه لأحد الأصدقاء التونسيين القادمين إلى الجزائر.. قلت له أن اسمه مراد.. وهو زوج صديقة فرنسية اسمها ستيفاني نيكولاوس.. ثمأغلقت فمي عن أي شيء آخر.. أبدى إسماعيل داي ترحابه السخي.. أما ساندرا فقد نهضت من فراشها وكأنها مذعورة وهي تقول لي:

- قضيت الليلة تفكّر في زوج ستيفاني.. لهذا الحد تحبها؟

- لا، لا يا ساندرا.. لا تقولي هذا.. ستأتي إلينا بعد حين إلى الفندق ولا بد أن أرفع من معنوياتها حتى برشة من المجاملات.. ما الذي فعلته؟ سأقول لها: أن صديقاً لي سيستقبله في الجزائر.. ونغلق الموضوع..

- وهذا الصديق ليس إلا إسماعيل داي.. والد مروان الذي

سحتني منه.. وقد يذهب هذا الذي اسمه مراد ويلتحق بمروان ويصبح صديقا له ثم شيئا فشيئا يعلم أنني أعيش معك.. مع خوسيه، أستاذ مروان وصديق والده.. وشيئا فشيئا، يتعرف على العائلة ويتعرف على اخت مروان، وقد يتزوجها.. ثم تتطور الحكاية إلى أن تصبح وجع رأس دائم لنا جميعا.. أليس هذا ما سوف يحدث يا خوسيه..

- ولكن يا ساندرا.. من قال لك أنه سيصل هذا الذي اسمه مراد إلى الجزائر، أصلا؟ ثم افترضي أن هذا الذي تفكرين فيه قد حدث.. ما الذي يلزمنا تجاه مروان أو غيره.. كذلك افترضي أنه ذهب لوحده وتعرف بالصدفة على اخت مروان، هل سنبقى دائما خائفين من ظهور مروان.. بعد قليل ، قال لها:

- ها. لماذا صمت.. الأذلت تحبين مروان؟!

رد خوسيه لها الصاع صاعين كما يقول العرب، أما الإسبان فيقولون: «حين ينقر الديك ديكا آخر.. انتظره سيرد عليه بدجاجتين».. (يختار الديك المنقور أهم دجاجتين من سرب الديك الناقر، ثم يمطقي فوق كل واحدة على مرأى منه، حتى لكانه ينقر زميله من أجل أن يقوم بواجب لم يعد قادرًا على القيام به). ضحكت ساندرا وهي تستمع إلى تفسير خوسيه في مادة نكاح الدجاج. ولما رآها قد عادت إلى بهجتها، استعجلها للنزول لتناول فطور الصباح.. قال لها:

- هيا.. لننزل. ثورك جائع.. أحتاج إلى علف طازج يا ساندرا..
هيا. قبل أن تأتي ستيفاني..

بعدما أحضرنا العصائر والفطائر والкроاسون والقهوة واللليب أمامنا، ذهبت لأوصي له بأومليت.. ثم عدت له بتفاحة وطلبت منه أن يبدأ بقضمها أماي.. قلت:

- هذه التفاحة أهم منشط لقلبيانا يا خوسيه..

سألني: كيف! اشطريها بالسكين وخذلي نصفها..

- لا.. حين تقضمها أنت بأسنانك، سينتعش قلبك بعصير التفاح. وينتعش قلبي لقضمها بأسنانك.. افعل ذلك أنت كما لو تقضم صدر ساندرا يا خوسيه..

كانت تلك مداعبات صباحية نتبادلها عادة عند فطور الصباح.. ولم أكن أدرك عميقها حتى قال لي خوسيه في ذلك الصباح:

- هل تعرفين يا ساندرا.. إنك تثيرين في داخلي هلع هرقل. كان رمزا للفحولة وكذلك للأكل.. يأكل ثورا بكماله وبإمكانه أن ينکح بأقوى من ستة ثيران.. جال بلدانا كثيرة حتى بلغ كورنثيا بلد المذات. وهناك نکح امرأة كان اسمها «أوكيمون بازيليك». كان اسمها اسمًا لنسبة مثيرة ومنشطة للطاقة الجنسية.. وحين فعل بدا أنه أكل النسبة، فازداد هياجه وهله بالجنس.. إن أكل الطعام هو الترجمة الش卑قة لأكل الأنثى..

- إذن كل التفاحة لتلهم خيالي.. أنت هرقل العجيب.. وأنا «أوكيمون بازيليك».. أنت من بلاد هرقل العظيم.. وأنا من طنجة، حفيدة كورنثيا العظيمة.

شوش هذا الغزل العالي النبرة والمجاهر ذهن خوسيه. وشعر كما لو أنه تبلل، على الأقل حين سال لعابه مع عصير التفاحة وهو

يقضمها كما لو أنه ينتقم منها.. تماماً مثلما يفعل معي.. وما كدت أقول له: أن ينتبه لقميصه من سائل التفاح، حتى وقفت ستيفاني أمامنا لتخبرنا أنها وصلت..

*** *** ***

اقترحت علينا ستيفاني جولة في المدينة القديمة. قالت إنها جميلة وعابقة بالروائح والنشاط. ثم سالتني ما إذا كنت راغباً في رؤية جامع الزيتونة. وذكرتني بالجولة التي قمنا بها في جامع الحمراء بغرناطة حيث لعبت دور المرشد السياحي. ثم التفتت إلى ساندرا وقالت لها:

- جامع الزيتونة، صرح عظيم في تونس. رغم أنه أصغر حجماً من الأزهر في القاهرة أو «القرطاجين» في فاس، إلا أنه الأقدم..

حين أصبحنا في باحة الجامع، لاحظ خوسيه ما يمكن أن يلاحظه أي سائح. وأظنه قال مكرهاً: أن الإهمال ساطع للعيان.. أبوابه مشقة ولم تدهن منذ سنوات عديدة كما هو واضح.. ثم تساءل: كيف يمعنون في إهمال مثل هذا الصرح فيما هم يرفعون الإسلام عالياً؟ بعد ذلك قال:

- حين يخلو البناء من أية روح يصبح ركاماً. يصبح مجرد نهاية. العمارة كانت هي الجمال الأول للفن وللمقدس معاً لأنها الجسد الذي يغلف الروح.. تماماً هي جسد إنساني. ترتفع على المادة الثقيلة الخاضعة لقوانين الشقاوة ثم يكعون قواها جمعاً بين أشكال الطبيعة وتحقيق الانعكاس المتناظم للروح.. العمارة الكبيرة، سكناً أو معبداً أو مسجداً أو كنيسة أو حتى ملعب كرة قدم أو

مبني إداريا، كانت دائما للجماعة لكي تشعر بالترابط والاتحاد. بعد ذلك يأتي النحت ليعبر عن مضمون فرداً أو إبداع شخصي.. وهو تجسيد عن طريق المادة لإنسان بلغ استقلاليته على يدي فنان يعمل في حدود المنازعات والألام. فالنحات يأتي بعد المعماري.. ثم يأتي من بعدهما الرسام الذي يبعث الحياة في كل هيئة عن طريق الألوان.. إنه يتحد مع الطبيعة دون أن يندمج أو يت弟兄 لأنه هو ذاته وعي الطبيعة. كان غوته يعتبر الرسام بمثابة إله صغير، لأنه يمنح السعادة والعذابات لرسوماته. فعن طريق الألوان وتدرجاتها، تتقلص الأبعاد ويساهم الضوء. ذلك الضوء يجعل العمارة والنحت منتجات متطرفة، فيما اللوحة تنير نفسها بنفسها وتحمل في ذاتها عتمتها الخاصة. بعد الرسم، يأتي الموسيقى. وبعد الموسيقى يأتي الشعر، وهو الأرق والأكثر روحية في أشكاله المتعددة الملحمي والغنائي والتمثيلي. فهو الفن الذي يعيد فيه الإنسان خلق عمل فني كان قد خلقه إنسان آخر، حسب هيغل.. وحسب هيغل دائما فإن ما يأتي بعد العمارة والنحت والرسم والموسيقى والشعر، هو فن ناقص كالرقص أو هندسة الحدائق أو حتى المسرح!!

لم أشأ أن أقاطع بلانتيرو في إشرافاته. كنت أستمع إليه بانتباه شديد كأستاذ في الحضارات وفن العمارة ثم كرسام.. أما ساندرا فلم تهتم كثيرا بما كان يقوله. بل لم تضع حتى شالا فوق رأسها كما فعلت أنا. كانت تتبعنا بتثاقل ونحن نتجول في أرجاء الصحن، ولكنها كانت أحيانا تلمس بعض الأعمدة الرخامية النحيفة ثم تتحقق في السقف كما لو أنها تتساءل كيف يمكن لهذه الأعمدة النحيفة أن تقاوم هذا الشغل الضخم لعدة قرون؟؟ ولاحظ خوسية

ذلك فأراد أن يقترب منها لكي يدفع عنها حيرة التساؤل ويرفع لديها من شهوة المعرفة. قال خوسيه وهو يخاطب ساندرا:

- هذه الأعمدة التي تتنظم وتتناظر ضمن هندسة بد菊花، توجد رمزيتها في طاقة التناصل الإنجابية. ابتدعها الهندو كاحتفالات في البداية طليا للقوة والسمو والاستمرارية ثم بناها الإغريق ثم الرومان ثم المسلمين. لم تكن مجهلة في مصر القديمة ولا في بابل. لقد تحدث هيروديت عن احتفالات شبيهة في قرطاج.. بدلا من القصيبي ابتكرروا أشياء أخرى. بحجم ذراع. فإذا ما شددن النساء الخيط انتصبت هذه الآلات الصغيرة تحت سراويلهن تعبيرا عن آلة الرجل.. بعد ذلك تحولت تلك الأعمدة رافعات لأى بناء مقدس أو جماعي.. بدأت غليظة في البداية.. ثم أعرض عند القاعدة وتتناحف حتى القمة.. ثم أصبحت نحيفة كما في هذا الجامع وكما في جامع الحمراء. بعد ذلك ختم قائلا:

- ليس للعامود من هدف غير أن يحمل.. إنه يرفع دون أن يسد الرؤية كالجدار. وهو ينتصب بملء الحرية. وبحكم هذه الغاية، فلا يجب أن يكون لا قويا أكثر مما ينبغي ولا ضعيفا أكثر مما ينبغي، وإلا فإنه سيبدو مسحوقا تحت وطأة الحمل أو مندفعا إلى الأعلى بخفة كبيرة وكأنه يلاعب الحمل ملاعبة..

تمادي خوسيه بلانتيرو في وصفه للأعمدة إلى حد شعرت فيه أنا وساندرا بالإحراج.. ولو لم تقاطعه ساندرا، لقال كلاما أكثر طراوة وإيحاء من ذلك.. قالت ساندرا وهي تجره من يده..

- يكفي.. نكمل الحديث في مقهي.. لقد تعجبت من الوقوف..

آنذاك خرجنا من جامع الزيتونة ثم سرنا باتجاه ساحة القصبة،
ليتعرف خوسيه على الساحة التي دارت فيها المناورات العتيدة
والرخيصة حول إجهاض الثورة التونسية!..

■ الفصل العشرون

حين التقى خوسيه بلانتيرو ومراد عباس، بدا لي الأمر وكأن سلفادور دالي قد التقى بياكونين. اندمجاً بسرعة ونسيا الزمن وتحدثا باستغراق في الفن والسياسة والتاريخ. وتعاونا على شتم الريع العربي والعلمة والرأسمالية ورهانات النخب الفاشلة وخياناتها لذاتها وللثورة.. كان يلانتيرو قد استعاد نباهته وأصوله السورية. وتخلى قليلاً عن حيائه وكذلك عن وقاره الأكاديمي. أما مراد عباس فقد مدح كثيراً بياكونين الذي كان أكثر ثورية من ماركس الذي بني معبداً يشبه معبد السعادة عند رجال الدين.. بدا الرجلان على قدر كبير من التوافق النظري.. ورغم أن مسيرتهم الحياتية مختلفة، بل ومتعارضة إلا أنهما كفنانين أو كفيلسوفين، إن جاز التعبير، كانوا متشابهين في العبارة واللحظة والذكاء والنفذ إلى جوهر الأشياء. تحدث بلانتيرو عن زيارته التي قام بها البارحة لجامع الزيتونة وقال: «أن ما رأيته كان بقایا من عهد قديم».. ثم أضاف: «أعتقد أن حالي الحالیة، هي ميزان الحرارة في مؤخرة هذا المجتمع. لا أحد يريد الاقتراب منه أو قياس حرارته لأنهم يقعون تحت الموانع والعواقب والعجز». (كان خوسيه قد قال في ليلة البارحة لساندرا بعد أن أكملاً حصتهما الجنسية..)

رأيتك وأنت في صحن المسجد تتفحصين وتلمسين أعمدته كما تداعبين قضيبا.. لست الوحيدة في ذلك الإحساس.. لو ابتعدت قليلاً أو كثيراً عن ذلك المكان المقدس وتأملت جيداً بعيون رسام سوف ترين قضيباً ضخماً وشاهقاً، الذي هو الصومعة أو المئذنة، وإلى جانبها بطن امرأة حبلى في شكل قبة.. ذلك هو المسجد في العمارة الإسلامية. المسجد هو الجسد البشري المجسد.. في نسخته الذكرية والأنثوية الموحدة..)

- نعم يا سيد بلانتيرو. إنك تثير هنا ما يسمى بالقدس المغير.. ثمة ما يجعلنا نشك ما إذا كان هذا المجتمع لا يزال يتمسك ب المقدساته، أو راح يبحث عن مقدسات أخرى. إن ضريح كمال أتاتورك أو ضريح لينين أو الバانتيون في باريس كلها مقدسات شخصانية أخرى.. إن معاول الرأسمالية قد انهالت على جميع المقدسات الأخرى لتهديمها بدءاً بالسيادات والأوطان والديانات وحتى الكتابة والطبيعة.. أليست «داعش» معلولاً من هذه المعاول؟ أليست الانترنت عدواً سافراً ضد الكتابة وكذلك ضد الذاكرة البشرية؟ بعد برهة أضاف مراد يقول:

- أعتقد أن هذا الأمر بدأ منذ زمن طويل.. فحين احتل المسيحيون الإسبان تونس، جعلوا من جامع الزيتونة إسطيلاً لأحصنتهم. وحين جاء المسيحيون الفرنسيون حاصروا طرقات جامع الزيتونة بثلاثة أو أربعة مواخير. واحد للشعب واسمه «عبد الله قش»، والثاني للخواجة واسمه «البيت الكبير»، والثالث للنخبة الفرنسية واسمه «بيت النخيل». وثمة رابع للجالية اليهودية عرف «بدار براينخا».. هكذا حين يريد المسلم أن يقطع

المسافة بينه وبين المسجد ليلقى ربه، يجد نفسه مضطراً إلى عبور أحد المواتير.. لا يمكن أن نفهم ذلك كأنه أمر اعتباطي.. لقد كان مخططاً له في عملية تدنيس كبرى شملت كل شيء.. لم يتم الاستحواذ على الأرض، بل على السماء كذلك. ولم تكن العملية خطأً أو ضرورة معمارية وإنما هي هندسة للخراب وخواص الروح.

كانت ستيفاني قد انهمكت في حديث جانبي مع ساندرا حول الموضة وحقوق المرأة والرسم ومهنة الصحافة.. لم تلاحظ ساندرا أبداً ذلك الحزن الذي كان يسكنها في المرتين الأخيرتين. وجدتها قد تخلصت من عباء مراد الذي كان يثقل كاهلها كما عرفت من خوسيه. ولكنها أرادت أن تعرف المزيد دون أن تنتبه ستيفاني، لذلك قلبت عدة أسئلة في ذهنها فلم تجد ما يخفى نواياها جيداً. ثم قررت أن تسألها ما إذا تحدد موعد العودة إلى إسطنبول، فأجابت ستيفاني:

- خوسيه على اتصال بالسيد الياهو دانيال. إنه يعرف ربما أكثر مني.. ربما بعد ثلاثة أيام..

قالت ساندار:

- ثلاثة أيام فقط وأعود إلى طنجة.. كان بودي أن أذهب معكم إلى إسطنبول.. ثم وجدت الفرصة لتزلق سواها:

- ومراد، سيكون معكم أيضاً؟

قالت ستيفاني بعفويتها:

- قد يذهب إلى الجزائر. سيذهب هناك لرؤية صديق لم يره منذ عدة سنوات.

ثم سمعت مراد يقول وقد ارتفع صوته: (كتب ماركس سيناريо دراميا للتاريخ الإنساني. لقد عبر عن لعنة البشر المتضافة دائمًا مع إمكانية الخلاص والنقاء.. وفي النهاية بني عمارة يسكنها العمال والرأسماليون وكذلك العلماء والفنانون، باعتبارهم شخصيات التاريخ الدرامية التي صارت من أجل تعزيز العقل والعلم في سياق تمكين الإنسانية من الانعتاق والحرية، لكنهم وهم يصارعون أطلقوا قوى الشر التي اغتصبت كل الحريات ودمرتها.. ذلك هو الجدل يا سيد بلانتيرو وحيث يكون كل شيء حامل لنقيضه.. بل لنفيه!) ..

وافق بلانتيرو على قراءة مراد للماركسيّة التي تبقى محاولة للحرية انتهت بارتباك أكبر وأكثر ثقلًا.. ورأى فيها ذكاء خارقاً قد كان عثراً عليه في كتابات باكونيين وكتابات السورياليين. وأدرك أن مراد ربما كان ماركسيّاً لكنه أصبح ماركسيّاً ضالاً كما حصل معه تماماً.. ولما بات متأكداً أن مراد سينمائي، قال لنفسه: هكذا حين يفقد الماركسيون ثقتهم في الماركسيّة يتحولون إلى ليبراليين صغّار أو دكتاتوريين صغّار. بعضهم ينقدّهم الفن من إحباط الماركسيّة. ولا شكّ مثلما أنقذني الرسم من خواء الحزب الشيوعي الإسباني المنحرف، فإن السينما هي التي أنقذت مراد من جنون الارتمام بالواقع الشقيل..

قال بلانتيرو وهو يبحث في ذاكرته السينمائية عن دعم لقراءة مراد..

- في فيلم «ناهشوا الأجساد»، لا تهجم علينا القوة الفضائية مباشرة كما في فيلم «حرب العوالم» بل يتم الاستيلاء على البشر

من الداخل حتى لا يبقى أي شيء من روحهم وعواطفهم. أجسادهم كانت تحتوي على إرادة حرة ثم أصبحت مجرد هيكل جوفاء تتحرك في مسرح خال وخاوم الإبداع..

- مؤسف هذا يا سيد بلانتيرو.. إذا واصل الليبراليون في رفع الحواجز أمام الأخلاق، فإن الأقبح هو المستقبل لنا جميعا.. لا شيء يجعلني حزينا وأكثر حزنا من قرد فقد كل أفراد عائلته، حين أجد أناساً يصفقون لداعش أو يمدحون القرضاوي أو يدعون للظواهري بطول العمر، أو سياسيين يتحدثون عن الوطنية على مائدة السفير الأمريكي..

- ليس علينا أن نقتل أنفسنا إذا كنا أذكياء لأجل أناس أغيباء.. يا مراد.. في النهاية نحن كائنات عابرة.. حيوانات تمشي عمودياً وتدفن أفقياً!

آنذاك تدخلت ستيفاني لتقول مازحة:

- ألا يكفي من حديث الفلسفة يا مراد..

رد مراد ضاحكاً:

- إنها «فلسفة لا تسافر» على رأي روسو في هيغل! أليس كذلك يا سيد بلانتيرو! ثم أضاف:

- ولكن الفلسفة يجرون.. بل هم أكثر نهما للأكل.. ألم تشعروا بالجوع الآن؟ سأدعوكم جميعاً إلى مطعم في حلق الوادي لتناول العشاء.. هناك قرب قلعة السجن التي أقامها الإسبان عند غزوهم لتونس.. ما رأيكم؟!

قال بلانتيرو:

- منذ أن وصلت إلى تونس، أصبحت أكثر نهما للأكل. ثم قفز بسرعة وهو يتفقد خزان بطنه!

*** *** ***

قضت ساندار أسبوعا في تونس مع خوسيه بلانتيرو ثم عادت إلى طنجة. ودعها في المطار بأكثر من قبلة ووردة.. وودعته بعدة دمعات طازجة. قالت له: إني أكاد أن أصرخ بأنني أحبك لأجعل كل العالم يسمعني. ووضع يده على فمها وهو يحضنها ويرجوها بأن لا تفعل ذلك.. واعدا إياها باتمام كل شيء عند عودته من إسطنبول. دس في حقيبتها اليدوية حزمة صغيرة من الدولارات ثم قال: هذه النقود لشراء بعض الهدايا.. ثم قادها إلى باب قاعة المغادرة، فاختفت وهو يراقبها بشغف.. في ذلك اليوم سيصل الياهو دانيال ومعه شاهي شهبار ومارغريتا مارتيناز على يخته من ماريبيا إلى مدينة الحمامات، لذلك عاد مباشرة إلى الفندق ليترتب أمور المغادرة ويتوجه نحو الحمامات مع ستيفاني نيكولاوس..

كانت ستيفاني في انتظاره ومعها مراد عباس، الذي قرر أن يوصلها إلى الحمامات بسيارته «الغolf». وبعد أن وضع خوسيه حقيبته في صندوق السيارة انطلق مراد عباس فخرج على صديقه فريد ريكوي حيث كان ينتظره في «مقهى الشيلنگ» ليؤانسه عند العودة من الحمامات..

لا أحد من الأربعة قد أجهد نفسه كي يفتح موضوعا للنقاش. ظل فريد صامتا.. ومن حين لآخر كان يدردش مع خوسيه الذي

يجلس معه في الخلف.. مراد لم يكن قادرًا على الكلام حتى لو وقع استفزازه. فأثناء القيادة يصبح منضبطاً ومنتهاً للطريق وشرطة المرور فقط. أما أنا، فقد استغرقت في تفكير جانبي ونسائي بحث. كنت مشغولة فقط مقى سأصل إلى أول صيدلية لكي أشتري «جفافات» بعدما انتبهت إلى أن العادة الشهرية قد داهمني.. وفي أول مدخل الحمامات أوقفت مراد أمام صيدلية. وبعد أن اشتريت، علبة جفافات، انحرفتنا باتجاه الجنوب للذهاب إلى الفندق الذي حجزت فيه ثلاثة غرف وجناحاً. واحدة لي وواحدة لخوسيه وثالثة لمارغريتا وجناحاً لالياهو وشاهي..

سألني خوسيه بتخايل قبل أن نذهب إلى الميناء لاستقبال اليخت، وكان المساء قد اقترب:

- هل تزوج الياهو وشاهي؟

قلت له:

- ربما.. نحن نعيش في زمن السرعة.. سرعة الاتصالات والتنقلات وكذلك العواطف..

ثم استدركت متسائلة:

- ولكن هل الياهو لم يكن متزوجاً؟!

لا أحد هنا كان يمتلك الإجابة. فالياهو دانيال رجل كتم وغامض بطبيعته. وشاهي شهبار امرأة قادرة على الإطاحة بأعنى الرجال.. ولكن خوسيه قال لي شيئاً آخر:

- يجب ألا نصدق حماقات الأقوباء والأذكياء. إنها خرافة سرعان

ما تنهار لكي يحصل الانصياع. الانصياع شيء موجود بالفطرة والوراثة لدى الرجال الذين يعتقدون أنفسهم أنهم أقوياء، لأنهم مولعون باللعبة.. بالخداع وكذلك بالطمع.. ثم أضاف مجرحا في كل من الياهو وشاهي: الطمع هو الشيء المشترك لدى الياهو وشاهي. يبدا في البداية كنوع من الوجдан الصوري ثم يتطور إلى عملية استحواذ عاطفي بعد ذلك ينتهي إلى صراع وجودي.. وبما أن لا أحد يتخلص من آفة الطمع، فإن كل منهما ينصاع للأخر.. يصبح الأمر مأموراً وللمأمور أمراً ثم يتم الانسجام المخاتل!..

كان خوسيه قد استولت عليه النمية في تلك اللحظة. لم أجاريه إلا بقدر بسيط جداً لأنني شعرت بأنه كان في حالة عاطفية سيئة لوداعه ساندرا. لم ألاحظ عليه الحزن، ولكنه كان باديا في كلماته وحركاته.. كنا جالسين في كافيتيريا صغيرة في قاعة الانتظار للميناء، وفجأة رن هاتف خوسيه، فعرفت من خلال حديثه أن اليخت قد وصل. وأن الجميع يتقدم نحو صالة الوصول.. وكان علينا أن نسرع لملاقاتهم..

*** *** ***

وصلنا بعد ظهيرة يوم الخميس إلى إسطنبول. استغرقت رحلتنا على متن اليخت تقريراً ليلاً كاملة ونهارين إلا نيف.. تركنا ساحل الحمامات صباح الأربعاء. وبلغنا سواحل كريت اليونانية عند فجر الجمعة. ولاحظ لنا سواحل البوسفور عند الظهيرة.. كنا ثلاثة سيدات ورجلان، مع طاقم اليخت الذي يبلغ ثلاثة رجال.. حبشي من أحباش إسرائيل ومالطيان. وخلال تلك الرحلة كنت واعية

بسعادتي إذ كنت واثقة أن مراد سيتغلب على محته ويبلغ مقصده مثل تماماً. وحين تلقيت رسالة من مراد ونحن لانزال في المرفأ، تأكّدت أن أحاسيسني لم تخذعني.. لم افقد السيطرة على عواطفي وإنما كنت منساقة للتعبير عنها.. ولم أجد أفضل من أن أخبر خوسيه بلانتير بذلك. قلت له، أن مراد وصل إلى الجزائر.. عبر الحدود ووجد صديقه يحي علوان في انتظاره. كيف؟ لا أعرف؟

عبر لي خوسيه عن فرحة.. ثم قال:

- ساندرا أيضاً قد وصلت إلى طنجة.. طلبت مني أن أبلغك السلام وأقبلك بالنيابة عنها.. ولكن الآن سأقبلك قبلتين، واحدة من ساندرا والثانية مني لتهنئتك بخروج مراد سالماً..

ورغم أنني كنت كأبهى امرأة في تلك اللحظة وأنا أتلقي رسائل مراد القصيرة الواحدة تلو الأخرى، إلا أنني كنت أحسب أن المرأة الأكثر بهاء مني هي السيدة شاهي شهبار. بدت لي في البداية وكأنها مغامرة متنقلة عبر العصور، منذ عصر لويس الخامس عشر الذي ترك كل النساء حين تعرف على مدام دوباري.. ثم رايتها كما لو أنها «سارة هارت» التي أصبحت الزوجة الرابعة لنتنياهو.. إن الثنائي بيبي وسارة هما من طينة واحدة، بل هما من نفس المعجون الذي استخرج منه الثنائي الياهو وشاهي.. فحين وقعت عيناً بيبي في عيني سارة، اشتعل ذلك البريق الذي ينبع ببطول المطر وكان اللقاء على متن رحلة في خطوط العال. كذلك حين لامست يدا الياهو يد شاهي في أول لقاء لهما في ماربيا وهو يتوجه إلى فندق «كوستا أورينتال» حتى تجاوز كل منهما جدار الزجاج العازل

بينهما.. قاوم ذلك الجدار لحين ثم تهشم لأن كل من الياهو وشاهي قد تعانا على ذلك.. وكما لم يترك نتنياهو فراسته تطير بعيدا عنه، إذ فاتحها في ثاني لقاء بالزواج مبديا استعداده للطلاق من زوجته الثالثة «فلور» الأمريكية، فإن سارة التي رأت الملك يضعف إلى ذلك الحد، أحسنت بنصر لا مثيل له إذ تأكّدت بأن بإمكان «الخادمة»، (مضيفة الطيران) أن تصبح زوجة للملك. ولا شك أن الياهو استعمل أسلوب قائد نتنياهو «إذا عجزت عن النيل من امرأة، فتزوجها.. أو أعرض عليها الزواج». قال لي بلانتير وخلال الرحلة، يبدو أن شاهي تمكّنت من الياهو. لقد وضعته في القفص ككلب ذهبي.. حسب ما أعتقد فإنها ليست امرأة تقبل بنصف رجل. فحتى لو كان متزوجا، فإنها سترغمه على الطلاق..

ذهب بلانتير وباتجاه ما كنت أفكّر فيه فقلت له:

- إذن كما هو تبع خطى سيده، فإن شاهي تتبع خطى سارة؟

سألني بتعجب:

- من تكون سارة؟

أجبته ضاحكة:

- سارة نتنياهو، التي بدأت «تائهة في الجو» ثم أصبحت قائدة للقائد. ألا ترى أن شاهي تفعل نفس الشيء!

قال بلانتير محذرا:

- حذاري عند الاقتراب منها.. إنها قوية ولشيمة. وتوجه الشتائم لن تشاء حين تغضب.. ثم أضاف:

- السيدة مارتيناز اشتكت مارا من تصرفاتها. قال لي في آخر لقاء معها، أنها ستطرح الموضوع أمام مصعب الصراف.. بل ستقترح تغييرها لأنها امرأة لا تعرف حدودها لا في العمل ولا خارج العمل.. ثمة من راقبها جيدا داخل الفندق. وأعتقد أن السيدة مارتيناز تملك شريطا مصورا على قدر كبير من البداءة!.. فقد تحول «كوستا أورينتال» إلى ما يشبه الماخور لمدة أسبوع خلال حفل لعرض الأزياء.. ظهر ذلك العرض وكأنه غطاء لحفل من الجنس الباذخ بين فتيات إسبانيات ومغربيات وأمراء خليجيين.. الياهو نفسه كان على علم بذلك.. وقد يكون هو نفسه قد أوصى بتصوير ذلك الشريط.. وربما النسخة التي سترسلها السيدة مارتيناز للشيخ مصعب الصراف، هي النسخة ذاتها التي سيسلمها الياهو دانيا ولو إلى مأموريه في إسرائيل..

أيقظني بلانتiero من سبات ذهني عميق. لم أتوقع ذلك أبدا وإن كنت منذ البداية على حذر شديد من ذلك الثنائي شاهي والياهو. وكما لو أنني تناولت منشطا ضد النعاس والغباء، توقعت أن اللعبة قد أوشكت على النهاية على الأقل فيما يتعلق بي.. قلت لبلانتiero..

- نتوقع إذن إجتماعا عاصفا في دار «آل أوشاكي» في إسطنبول.

أجابني بلانتiero الذي أثق في رجاحة عقله وتحاليله:

- ليس بالضرورة.. ثمة فرص أخرى من اللعبة الكبرى لم تكتمل بعد..

تقلبت على أكثر من مخدة في تلك الليلة، كنت أبحث عن فكرة إما للاعتذار من اجتماع الغد تحت طائل المرض، أو الحضور

والتمرس وراء الصمت حتى لا أقع في حفرة من الحفر.. استعصت علي الأفكار كما استعصى علي النوم.. وفي الصباح، ورغم أنني لم أنم أكثر من ساعتين بدت لي الأمور أكثر وضوحاً وبدأت أكثر شجاعة مما توقعت.. كان الشيخ رشدي العطار قد أعلن عن افتتاح الاجتماع، حين وصلت.. رحب بنا جميعاً، بعدما أخذت مكاني إلى جانب السيدة مارتيناز وبلانتيرو.. وخلال ترحيبه المنمق والمليء بعبارات المديح الرنانة ذات المذاق الشرقي، لاحظت أن مصعب الصراف، كان غائباً وأن سمي عبد الصمد هي أيضاً كانت غائبة وأن رجلاً آخر لم أعرفه من قبل كان يجلس في المكان الذي اعتاد مصعب الصراف الجلوس عليه.

قال الشيخ رشدي العطار منهايا حدديثه:

- أردت فقط في هذا الصباح أن أرحب بكم. وأعلمكم بأن تستعدوا غداً لاجتماع متقل بالمهام. وأننا على يقين أنكم قادرون على صنع المعجزة.. ثم التفت إلى ذلك الرجل الذي لم أره من قبل وقال:

- أقدم لكن بهذه المناسبة الشيخ همام الخزرجي. فهو الذي سيتولى مهام مصعب الصراف من الآن..

بعد ذلك قال:

سأخبركم بخبريتين صغيرتين: الأولى أن صديقتنا سمي عبد الصمد قد أُلقي القبض عليها في لبنان. والثانية أن صديقنا أمير داعش أبو عمر العدناني قد تمت تنحيته وخلفه نائبه أبو بشر القرشي الذي عين نائباً له أبو أنس القحطاني.. وهذا أمر لم يعلن

عنه بعد رسميا.. ومن واجبنا جميعاً أن نوجه الآن التحية للبجعة البيضاء السيدة مرام حسن الخلبية!

التفتت رؤوسنا جميعاً ياتجاه مرام كما لو أن شخصاً قد كبس علينا كبسة واحدة.. ابتسمنا لها صاغرين كما لو أنها ننفذ أمراً أو ننتظر وعداً ما .. وأنذاك أضاف الشيخ العطار يقول:

- لولا البجعة، ما كان للوحش أن يسقط.

هكذا في لحظات الارتياح الشديدة ينخلع قلبي ويتشتت فكري وأصبح عاجزة تماماً عن بلوغ أية درجة من الوضوح (كنت قد تركت مرام في الموصل وكانت شبه متأكدة أنها كانت مكلفة بمهمة) لم أكن أحتاج إلى التأكيد الآن، ولكن أحتاج إلى الشفقة.. أو حتى إلى صفة كي أصحو كما يجب.. باختصار كنت كمن يحتاج إلى نداء الضمير، ذلك الضمير الغارق في المباهاة وهو لا يدرك أنه معذب ومحقر.. ذلك الضمير الذي لازال ينبض ببعض الحياة وهو ما انفك يحذرنا من الاقتراب من المحرقة الكبيرة.. ذلك الضمير الذي يستيقظ فجأة حين يجد نفسه كهاو داخل لعبة جهنمية!.. قلت لبلانتير، بعدما ابتعدت قليلاً عن مراد شمان الذي لا يزال يرحب بي:

- قل لي.. هل فهمت شيئاً.. أخبرني.. إني لا أرى إلا طلامس..

قال بلانتير، وقد كان متأكداً بما قاله إلى حد المباهاة:

- كل شيء واضح يا ستيفاني.. مصعب أطيط به.. والعدناني قتل أو استبدل بيدق آخر في لعبة الشطرنج.. وسمى وقعت في الفخ الذي

أرادت أن يقع فيه الجميع.. ولكن انتظري غداً..

بعد أن ترشف قليلاً من قهوته، استعاد صوته وقال:

- في لعبة الموت، كما في لعبة الشطرنج.. بعد نهاية اللعبة، يوضع الملك والخسان في نفس العلبة..

تمشينا معاً نحو الحديقة. أحسست بالخيبة كسحابة ثقيلة وداكنة تحط على أكتافي، ولكنني كنت متأكدة أنها متى انقضعت، انتعشت روحياً وأدركت مدى ما ارتكبته من أخطاء.. وأنذاك أيقنت ما توقعته قد حدث تقريراً.. ثم سمعت بلانتيرو يسألني:

- كيف سيكون رأيك، لو تحرك بنا اليخت بعد يومين إلى حيفا؟

انتهت

تونس في 02 جويلية / يوليو 2016

الكتش

2011

رواية / roman



الكاتب: الصافي سعيد

الطبعة الأولى: سبتمبر 2016
جميع الحقوق محفوظة للناشر
حقوق المؤلف محفوظة

الناشر والموزع: سوتيميديا للنشر والتوزيع
العنوان: 85 شارع بالفي - تونس
صندوق بريد: 570 تونس - حشاد
تونس 1049

الهاتف: (+216) 31400756 - الجوال: (+216) 97126757
الفاكس: (+216) 32400756
البريد الإلكتروني:
contact@sotumedias.tn

المعرف الدولي للكتاب
978-9938-918-06-9

سوتيميديا

ناشر و ناشر عرب

الطباعة: المغاربية للطباعة و الأشعار الكتاب - تونس

تنبيه: يمنع نقل أو إعادة نشر محتوى هذا الكتاب بأية كيفية كانت، إلا بإذن من صاحبه وناشره.

المؤلف: الصافي سعيد

كاتب وصحفي وروائي تونسي

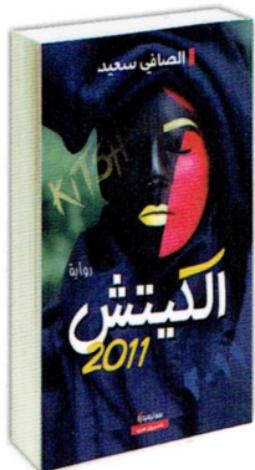
له أكثر من عشرين مؤلفاً تبحث في التاريخ والعلاقات الدولية والمذكرات والمستقبلات والرواية منها:

- مثلث الشياطين الاستوائي.
- بن بلة يتكلم (مذكرات).
- العتبات المدنية في الشرق الأوسط.
- سنوات المتأهة في القرن الحادي والعشرين.
- عودة الزمن الإمبراطوري.
- الحمى 42: لا أنبياء ولا شياطين.
- بورقيبة سيرة شبه محمرة.
- المضاد الحيوي: مخاضات بين زمنين.
- خريف العرب: البئر والصومعة والجنرال.
- المعادلة التونسية: كيف نصنع المستقبل؟.
- جدل ما بعد الثورة..
- جيوبوليتيك الدم:
التاريخ الأسير والجغرافيا التصدعية.
- كازينو+ (رواية).
- حدائق الله (رواية).
- سنوات البروتستانا (رواية).
- الإغواء الملكي (رواية).

الصافي سعيد

الكيتش 2011

رواية



السعر: 27.500 د.ت



سوتيميديا

ناشرون عرب

حالما انتهيت من كتابة النص، أحسست أنني خرجت من حياة ثم عدت إلى حياة أخرى. شعرت بفراغ يغمرني ويأخذني بقوة إلى ارتكاب النهايات.. كنت مستمتعاً بعالم آخر قد صنعته بنفسي وبأشخاص آخرين قد أصبحوا أصدقائي.. عايشتهم برفق ولم أكن لأقسوا عليهم حتى عندما يداهمني الغضب أو النضوب.. أحبيتهم جميعاً ولم أكره أحداً منهم. حتى دناءاتهم لم تكن ثقيلة. سكنت في داخلهم وسكنوا بداخلي.. كانوا يذهبون معي إلى كل مكان.. إلى غرفة النوم، إلى المقهى، إلى الحمام.. لا بل أصبحت أشرب معهم القهوة وأتجادل معهم وأفكّر في مصيرهم إلى درجة بات من الصعب على طردhem أو تصفيتهم.. قلت ذات مرة لـإحدى صديقاتي الواقعيات: «أنا عائد الآن إلى البيت، لأنّي مع شاهي شهبار». سألتني من تكون؟ أجابتها: إحدى بطلات روايتي الجديدة.. لقد أحببتهما.. أنا الذي رسمتها على الورق. والآن أريد أن أتهمها كمن صنع تمثلاً من الحلوى ثم أكله.

هكذا يعيش الروائي. فهو يكتب حياة أخرى، متذبذبة، ذات إيقاعات متضادة ومتوترة، مصنوعة من بؤس العزلة، فتصبح أكثر متعة من الحياة الواقعية، الرتيبة والكتيبة التي نعيشها، والتي لا تدخل كثيراً في مجريها إلا وهما! وبذلك فهو يصنع من عزلته أقصى درجات متعته.. وهذا إنما أدعو القراء إلى مشاركتي في هذه المتعة، فأقول: أن من حرم نفسه من متعة القراءة، عاش حياة واحدة بائسة.. ومن عاش عزلة الكتابة، عاش حياة مليئة بالملع..!